



من وثائق
الإخوان المسلمين
المجهولة

الجزء الثامن

جمال البنا

الْبَابُ الْأَوَّلُ

من نحن ؟

الْبَابُ الثَّانِي

مقالات متنوعة نشرت بجريدة الإخوان المسلمين

بقلم الإمام الشهيد

- (١) وصية
- (٢) عامان في الميزان .. عام مضى .. وعام في ضمير الغيب
- (٣) الدكتور هيكل وكتاب حياة محمد
- (٤) حول قرص القطن
- (٥) تعاون الدولة والأمة على الخير يحقق الأمل المنشود
- (٦) حول قضايا العالم الإسلامي .. خواطر مهداة إلى الأمة البريطانية عامة .. وإلى مستر تشرشل ووزراء الدومنيون خاصة
- (٧) حول قرص القطن
- (٨) من الوصي ؟
- (٩) سيناء والسودان
- (١٠) دول العروبة والإسلام بين الأطماع الاستعمارية وآمال الشيوخ
- (١١) هذا الجنية
- (١٢) نستطيع أن نفعل كثيرًا لو أردنا
- (١٣) حول خطاب النقراشي باشا
- (١٤) مسألة وقفت
- (١٥) بيان وقرار
- (١٦) بالحساب : ٥٠٠.٠٠٠.٠٠٠ ÷ ١٧.٠٠٠.٠٠٠ = ٢٩٤١٢ ر جنيه
- (١٧) كلام صريح حول الموقف الحاضر
- (١٨) خطاب الإخوان إلى دولة رئيس الوزراء
- (١٩) ٢١ فبراير
- (٢٠) رد غبطة البطريك على رسالة فضيلة المرشد العام
- (٢١) أجاناب ومصريون
- (٢٢) الخطاب الذي أرسله فضيلة المرشد العام إلى البلاغ ردًا على ما نشرته بالأمس
- (٢٣) ماذا أعددنا لما بعد الاحتكام ؟
- (٢٤) إذا كان هذا صحيحًا يا دكتور فقد اتفقنا
- (٢٥) نصف شعبان

الْبَابُ الثَّالِثُ

مقالات للإمام الشهيد

نشرت في جرائد ومجلات أخرى

- (١) الدعوة إلى الله
- (٢) الدعوة إلى الله .. على من تجب الدعوة ؟
- (٣) في سبيل الدعوة

- (٤) مطلع الفجر
(٥) الرواية والاسناد : ما الإسناد ؟
(٦) الرواية والاسناد : الحديث والخبر والأثر
(٧) الرواية والاسناد : المتواتر والآحاد
(٨) الرواية والاسناد : أنواع الحديث ودرجاتها
(٩) الرواية والاسناد : درجات الحديث الحديث القدسي
(١٠) من أيامنا البيض على أسوار إيلياء
(١١) عجل السيد
(١٢) حديث الجمعة (قنوت)

الباب الرابع

مقالات متنوعة لكتاب آخرين

- (١) في محيط الدعوات .. تحليل ومقارنة : العقل الباطن - حقيقة التدين الزائف - الصابئة قديماً وحديثاً
لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الغزالي
- (٢) في محيط الدعوات .. الكمال المزعوم - المذاهب العلمية السائدة - تقليد أعمى
لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الغزالي
- (٣) مصادر التشريع الإسلامي
- (٤) مصادر التشريع الإسلامي للأستاذ محمد الشافعي اللبان بك
- (٥) مثل عليا من آداب القرآن للأستاذ الشيخ محمد بهجت البيطار
- (٦) العصبية المذهبية في الفقه للأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا
- (٧) رابطة الإسلام للأستاذ الشيخ علي الخفيف
- (٨) مشروع تقييم الطلاق وتعهد الزوجات (بحث قيم) لفضيلة الشيخ محمد أبي زهرة
- (٩) من حسن البناء إلى مصطفى مشهور (ثمانى مقالات) في جريدة الشرق الأوسط بقلم الأستاذ غسان الإمام
- مصالح الإخوان الرأسمالية أضعفت موقفهم السياسي
 - نفعية التحالفات تبتذل الحياة الديمقراطية
 - أدب الممارسة السياسية عند الإخوان المسلمين
 - احتمالات المواجهه بين الإخوان والدولة
 - متى تقوم الدولة الإخوانية .. ؟
 - موقع الإخوان في المشرووع الديني
 - اجتهادات في نقد المشرووع الإخواني
 - نحو مصالحه الإخوان مع الشورى والديمقراطية
- (١٠) رسالة بالإنجليزية كتبها الدكتور سعيد رمضان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

يضم هذا الجزء الثامن «من وثائق الإخوان المسلمين المجهولة» مجموعة كتابات للمرشد العام المؤسس الإمام الشهيد حسن البنا ، وفي مقدمة هذه مجموعة مقالات رسالة «من نحن ..؟» التي نشرت في جريدة الإخوان المسلمين اليومية ابتداء من العدد ٥٠ في ١ يوليو سنة ١٩٤٦م (٢ شعبان ١٣٥٦هـ) حتى العدد ٧٥ الصادر ٣٠ يوليو ١٩٤٦م (٢ رمضان ١٣٥٦هـ) .

كما يضم الجزء في بابه الثاني مجموعة أخرى من المقالات نشر بعضها بمجلة الإخوان المسلمين بالأسبوعية ، والبعض الآخر بجريدة الإخوان المسلمين اليومية .
بينما خصص الباب الثالث لكتابات الإمام الشهيد نشرت في مجلة «الشهاب» خاصة الفصل الخاص عن مادة السُّنة النبوية .

وألحق بالجزء رسالة موجزة باللغة الإنجليزية كتبها الدكتور سعيد رمضان ونشرها المركز الإسلامي في جنيف لأنها تكاد تكون تعبيراً بالإنجليزية عن فكرة الإمام الشهيد عن الإسلام كمنهج حياة .

وعلينا أن نعلم أن تسجيل المقالات التي نشرت في جريدة الإخوان المسلمين اليومية لم يكن عملاً سهلاً ، لأن نسخ هذه الجريدة لا توجد في المكتبات العامة وإذا وجدت فإنها لا تعار لأن ورقها لم يعد يتحمل مر السنين ، ولهذا فإن نشرنا لها في «من الوثائق المجهولة للإخوان المسلمين» بعثها إلى الحياة وأعادها إلى الوجود .

وقد وافانا بمعظم هذه الوثائق الأخ الأستاذ منصور الشافعي ، فله منا الشكر والتقدير .

ونأمل أن يخصص الجزء التاسع لجمعية الحضارة الإسلامية والأستاذ عبد الرحمن البنا ونشاطه كأمين منظمات البر والخدمة الاجتماعية للإخوان المسلمين وكمؤسس للمسرح الإسلامي .

وأعتقد أننا سنجد بعد هذا .. ما يجعلنا نختم هذه السلسلة بجزء عاشر .

وعلى الله قصد السبيل ،،،

جمال البنا

شعبان ١٤٣٢هـ

يوليه ٢٠١١م

القاهرة في

البَّائِبُ الْأَوَّلُ

من نحن .. ؟

نقدم هذه الكلمات الموجزة حول دعوة الإخوان
إلى الذين عرفوها تشبيهاً وتذكرة
والى الذين لم يعرفوها بياناً وتبصرةً

من نحن ؟

نقدم هذه الكلمات الموجزة حول دعوة الإخوان إلى الذين عرفوها
تثبيتاً وتذكرة وإلى الذين لم يعرفوها بياناً وتبصرة
«شخصيتنا المعنوية» (*)

نحن :

- لسنا حزباً سياسياً ..
- ولا طريقة من الطرق الصوفية ..
- ولا جمعية خيرية ..
- ولا نادياً رياضياً ..
- ولا مؤسسة مالية اقتصادية ..

ولكننا هيئة إسلامية تجمع هذا كله في أوضح أشكاله وأنفع آثاره ، وأصفي موارده ، وتضم إليه كل ناحية من نواحي النشاط الاجتماعي المختلفة .

والسبب في ذلك واضح بسيط لا يحتاج إلى طول نظر ، ولا إعمال فكر ، وهو شمول الدعوة التي جاء بها الإسلام الحنيف وسعة المنهاج الإصلاحية الذي وضعه المجتمع الإنساني .

فالإسلام يدعو أول ما يدعو إلى تصفية النفوس وتطهير الأرواح ومكارم الأخلاق وأمهات الفضائل .

وقد أخذ أهل التصرف الصحيح والطريق المستتير ورجال التربية الإسلامية والوعظ والإرشاد على عاتقهم القيام على هذه الناحية .

ويدعو إلى البر بالمجموع والإحسان إلى الناس كافة والمبادرة إلى الخير وإسداء المعروف والجميل وتشجيع العلم والتنقيف ومحاربة الجهل والمرض والفاقة والرذيلة والآفات التي تهدد طمأنينة الناس والجمعيات الخيرية وأندية الخدمة العامة والأقسام الرياضية تعمل على تحقيق هذه المعاني .

والإسلام يحث على الكسب والعمل وتنمية الثروة الصالحة ، والتعاون على البر والتقوى ، وهي مهمة المؤسسات المالية والجمعيات التعاونية والاقتصادية .

كما يدعو الإسلام إلى المعاني السابقة ، فهو يفرض الجهاد في سبيل عزة الأوطان ، وحماية البلاد من اعتداء الغاصبين ، واستيلاء الطامعين ، ويجعله فرض عين إذا حاول معتد أن ينال من حرية الوطن أو ينتقص من استقلاله أو يطأ أرضه أو يتدخل في شأنه ، كما ينظم الصلة بين الحاكم والمحكوم ويحدد حقوق كل وواجباته وشروط الحكومة الصالحة ومصدر سلطانها وطريق مراقبتها وتقويمها أو مؤاخذتها ، وهي المهمة التي تقوم من أجلها الأحزاب السياسية .

ولقد استولت على الأذهان فكرة خاطئة منذ أزمان بعيد هي قصر معنى الإسلام على بعض نواحي الإصلاح الاجتماعي الأدبية كتصفية النفس وإسداء الخير مع عزله وتنحيته عما سوى ذلك من شئون الحياة .

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، العدد (٥٠) ، السنة الأولى ، بتاريخ ٢ شعبان ١٣٦٥هـ - ١ يوليو ١٩٤٦م - ٢٤
بؤونة ٦٦٢ .

فقام دعاة الإخوان من أول يوم يصححون هذا الخطأ ، وينادون بأن هدف الدعوة التي يجاهدون في سبيلها «تكوين جيل جديد يفهم الإسلام فهماً صحيحاً ويعمل بتعاليمه ويوجه النهضة إليه في تكوين مظاهر حياة الأمة كلها مستمدة من روحه مرتكزة على قواعده وأصوله» «صِيغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِيغَةً» ، راجع المادة الأولى من القانون الأساسي الأول للإخوان المسلمين المعدل سنة ١٣٥٠هـ ، وانتشرت فكرتهم على هذا الأساس، وتكون على هذه القاعدة فعلاً هذا الجيل الجديد من شباب الإسلام ورجاله وشعاره الفهم الصحيح والعمل المنتج في كل ميادين الفكرة الإسلامية .

وظل الكثير من الناس يرون الإخوان جمعية خيرية تبعاً لضيق حدود المعنى الإسلامي في أذهانهم حتى صدر قانون تنظيم البر رقم ٤٩ سنة ١٩٤٥م ، فتقدم الإخوان ببرنامجهم إلى وزارة الشؤون الاجتماعية التي رأت أن تستفي قلم قضايا الحكومة في صفة الإخوان المسلمين القانونية ، وتكليف شخصيتهم المعنوية فأصدر فتواه بأن هيئة الإخوان المسلمين هيئة (دينية اجتماعية سياسية) وأن قانون الجمعيات الخيرية المشار إليه لا يتناول إلا ناحية من نواحي نشاط هذه الهيئة وهي البر والخدمة الاجتماعية .

وجاءت هذه الفتيا تحقيقاً للشمول والعموم في منهاج الإخوان المسلمين ونشاطهم تبعاً لهذا الشمول والعموم في الإسلام نفسه ، وذكرتنا بما ورد على لسان الأستاذ / رينان مدرس اللغات الشرقية والتاريخ الإسلامي بالسربون وقد عرضت عليه عقيدة الإخوان المسلمين فكتب تحتها «إن هذه الكلمات عميقة المبحث والمقصد وهي مستمدة تماماً من المنهاج الذي جاء به محمد ﷺ ، فأنشأ به ديناً وأحيا به أمة وأقام به دولة» .

وبناء على ذلك نظم الإخوان نشاطهم في البر والخدمة الاجتماعية طبقاً لأحكام القانون وسجلوا المركز الرئيسي والفروع الخاصة بهذا اللون من النشاط في وزارة الشؤون ، كما أنهم سجلوا فرقهم الكشفية والجوالة بجمعية الكشافة الأهلية طبقاً لأحكام قانونها ، وسجلوا شركة المعاملات الإسلامية في المحكمة المختصة في حدود قانون الشركات .

وكذا يتنوع نشاط الإخوان ويتفرع وتكتسب كل ناحية منه شخصيتها المعنوية من أحكام القانون الذي يختص بها .

أما نشاط الإخوان المسلمين السياسي فليس جديداً عليهم لأنهم يضربون فيه بسهم وافر من أول يوم ، وليس غريباً عنهم لأن دعوتهم دعوة الإسلام وهو من صميمه ، ومن قرأ رسالة المؤتمر الخامس سنة ١٣٥٧ الهجرية ، ورسالة المؤتمر السادس بعده بعامين ، ورسالة مؤتمر الطلاب ، ورسالة مؤتمر الوحدة العربية وغير ذلك من رسالات الإخوان عرف مدى هذا النشاط أتم المعرفة .

وكانهم بهذا الوصف وفي هذا الموضع وحده حزب من الأحزاب السياسية ، ولكنهم لا يعتبرون أنفسهم كذلك ، ولا يضعون أنفسهم هذا الموضع لأن ميادين جهادهم وأفاق دعوتهم أوسع بكثير من الحدود التي يقف عندها معنى الحزبية ويبدل عليها .

ولأنهم يوجهون هذه الدعوة خالصة .. بريئة لكل الأحزاب والطوائف والهيئات .

ولعل من الجميل أن أنقل في ختام هذه الكلمة ما ذكره المرشد العام للإخوان المسلمين في خطابه في الجمعية العمومية للإخوان المنعقدة في شوال سنة ١٣٦٤هـ في هذا المعنى ، إذ يقول :

«وسيقول الناس : ما معنى هذا ؟ وما أنتم أيها الإخوان ؟ إننا لم نفهمكم بعد فأفهمونا أنفسكم وضعوا عنواناً نعرفكم به كما نعرف الهيئات بالعناوين ؟ هل أنتم طريقة صوفية أم جمعية خيرية أم مؤسسة اجتماعية أم حزب سياسي ؟

فقولوا لهؤلاء المتسائلين : «نحن دعوة القرآن الحقة الشاملة الجامعة» .

صوفية نقية لإصلاح النفوس وتطهير الأرواح وجمع القلوب ، وجمعية خيرية نافعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتواسي المكروب وتبر السائل والمحروم وتصلح بين المتخاصمين ، ومؤسسة اجتماعية تحارب الجهل والفقر والمرض والرذيلة في أية صورة من الصور ، وحزب سياسي نظيف يجمع الكلمة ويبرأ من الغرض ويحدد الغاية ويحسن القيادة والتوجيه ، وقد يقولون مع هذا كله لازلت غامضين ، فأجيبوهم إنه ليس في يدكم مفتاح النور الذي تبصروننا على ضوئه نحن الإسلام ، أيها الناس فمن فهمه على وجهه الصحيح فقد عرفنا كما يعرف نفسه ، فافهموا الإسلام أيها الناس .. أو قولوا عنا بعد ذلك ما تريدون .

وبالرغم من كل هذا التحديد وهذه المحاولة فلست أجد وصفاً يحدد شخصية الإخوان المعنوية إلا أنهم دعوة وأمة .

- ٢ -

«نحن والحكومات» (*)

نحن نطالب الحكومة الإسلامية .. الحكومة التي تعتبر نفسها مقيدة بأحكام الإسلام ، قائمة عليها ، حارسة لها ، مبلغة إياها .

وكما تعتبر الحكومة الروسية نفسها قائمة على فكرة هي «الشيوعية» ، وتعتبر الحكومة الإنجليزية والأمريكية نفسها قائمة على فكرة هي «الديمقراطية» ، فنحن نريد في مصر وفي كل وطن إسلامي الحكومة التي تعتبر نفسها قائمة على فكرة هي «الإسلامية» .

وما يثار حول هذا المطلب من شبهات غير حقيقة ، وما يوضع في طريقه من عقبات وهمية لا قيمة له ، ولكننا نحن الذين نضع أمامها فتكتسب مظهر القوة والتأثير .

فليس صحيحاً أن في قيام هذه الحكومة ما يفرق بين العناصر الدينية المختلفة في الوطن الواحد ، وقد أمر الإسلام بالعدل والإحسان ، وأوصى بالبر والرحمة ، ونحن بحمد الله في وطن عاشت فيه هذه العناصر جميعاً قروناً عدة على غاية من التعاون والصفاء قلما توفرت لغير هذه الأوطان ، وسنتناول هذا المعنى بمزيد بيان في كلمة خاصة إن شاء الله .

وليس في قيام هذه الحكومة ما يثير علينا نائرة الدول الأخرى ، فقد تركت هذه الدول للشعوب وللأمم حق اختيار حكوماتها وطبقت ذلك عملياً مع كثير من الشعوب الأوروبية عقب هذه الحرب .

وإذا كان التيار العالمي يتجه إلى الصبغة المدنية وتوحيد فكرة الحكم تحت نظام الديمقراطية ، فإن لهذه الديمقراطية معنى واسعاً يتشكل بحسب الأمم التي تطبقه ، وفي الإسلام أفضل هذه الأشكال وأنفعها ، فلن يخرجنا الوضع الإسلامي عن الديمقراطية الصحيحة التي تتجه إليها فكرة الحكم الآن ، كما أن الإسلام ليس ديناً فقط ولكنه دين وحكم بطبيعته ، وقواعد الحكم فيه أعدل وأصلح ما عرفت الدنيا من نظم وأكثرها مرونة ومسايرة لظروف الزمان والمكان .

ومهما يكن الأمر فلسنا مخيرين في هذا الوضع ، بل نحن مدفوعين إليه دفعاً مقيدون به بحكم أننا مسلمون، لأن القرآن حتم هذا وافترضه على المؤمنين به وجعله شرطاً لإيمانهم كما جاء في سورة النساء «فَلَا

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، العدد (٥١) ، السنة الأولى ، بتاريخ ٣ شعبان ١٣٦٥هـ - ٢ يوليو ١٩٤٦م - ٢٥
بؤونة ٦٦٢ .

وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» الآية ٦٥ ، وكما جاء في سورة المائدة «وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ دُذُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ» الآيتان ٤٩ و ٥٠ إلى كثير مما جاء من الآيات والأحاديث النبوية مؤكداً هذا المعنى فمادنا نتمسك بوصف الإسلام لا مناص لنا من الرجوع إلى هذا الوضع والعمل للوصول إليه ، وسنتناول هذا الإجمال بالتفصيل في موضوعات خاصة إن شاء الله ، وإنما نريد أن نكشف عن القاعدة العامة التي يزن بها الإخوان الحكومات ، وعلى ضوء هذه القاعدة حدد الإخوان منذ نشأتهم رأيهم في الحكومات المتعاقبة التي عاصروها وبنوا عليه موقفهم منها .

ولقد جاء في رسالة «المنهج» الصادرة في رجب سنة ١٣٥٧هـ ما يأتي عن موقف الإخوان من الحكومات ، ولا يؤيد الإخوان أية حكومة تقوم على أساس الحزبية وهم يعتقدون أن كل حكومة تقوم على غير الأصول والقواعد الإسلامية لا يرجى منها صلاح ولا تستحق تأييداً ولا مناصرة ، ولهذا يطالبون دائماً بالتعديل الذي يحقق نظام الحكم الإسلامي بكل مظاهره ، والإخوان مع هذا يرون من واجبهم التعاون مع الحكومة التي يأنسون منها استعداداً صادقاً لتأييد منهاجهم ، والعمل على تحقيقه .

وجاء في رسالة «التعاليم» الصادرة في جمادى الأولى سنة ١٣٥٩هـ أن من واجبات الأخ المسلم العمل على إصلاح الحكومة حتى تكون إسلامية بحق ، وبذلك تؤدي مهمتها كخادم للأمة ، وأجير عندها ، وعامل على مصلحتها .. إلخ .

وجاء في رسالة المؤتمر الدوري السادس الصادرة في ذي الحجة سنة ١٣٥٩هـ تحت عنوان «نحن والحكومات» .. وأما موقفنا من الحكومات المصرية على اختلاف ألوانها فهو موقف الناصح الشفيق الذي يتمنى لها السداد والتوفيق ، وأن يصلح الله بها هذا الفساد وإن كانت التجارب الكثيرة كلها تقنعنا لأننا في واد وهي في واد ، وياويح الشجي من الخلي ، لقد رسمنا للحكومات المصرية المتعاقبة كثيراً من مناهج الإصلاح ، وتقدمنا لكثير منها بمذكرات إضافية في كثير من الشؤون التي تمس صميم الحياة المصرية ، لقد لفتنا نظرها إلى وجوب العناية بإصلاح الأداة الحكومية نفسها باختيار الرجال وتركيز الأعمال وتبسيط الإجراءات ومراعاة الكفايات والقضاء على الاستثناءات ، وإلى إصلاح منابع الثقافة العامة بإعادة النظر في سياسة التعليم ومراقبة الصحف والكتب ودور السينما والمسارح والإذاعة ، واستدراك نواحي النقص فيها وتوجيهها الوجهة الصالحة ، وإصلاح القانون باستمداده من شرائع الإسلام ، ومحاربة المنكر ومقاومة الإثم بالحدود وبالعقوبات الزاجرة الرادعة ، وتوجيه الشعب وجهة صالحة يشغله بالنافع من الأعمال في أوقات الفراغ ، فماذا أفاد كل ذلك ؟ .. لا شيء وستظل لا شيء هي الجواب لكل المقترحات ما دمنا لا نجد الشجاعة الكافية للخروج من سجن التقليد والثورة على هذا الروتين العتيق ، هي الجواب لكل المقترحات ما دمنا لا نجد الشجاعة الكافية للخروج من سجن التقليد والثورة على هذا الروتين العتيق ، وما دمنا لم نحدد المنهاج ولم ننخير لإنفاذه الأكفاء من الرجال ، ومع هذا فسنتظل في موقف الناصحين يفتح الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الفاتحين .

ومن جميل صنع الله لهذه الأمة المصرية أن الذين وضعوا دستورها لاحظوا هذا المعنى فجاءت المادة ١٤٩ منه تنص على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام ، وبذلك أصبحت المطالبة بتطبيق النظم الإسلامية فريضة دستورية ، كما هي فريضة إسلامية وأصبحت الحكومات التي لا تبادر إلى تحقيق هذا المطلب معطلة للدستور ، كما هي معطلة للقرآن .

ومن هذا البيان الموجز يتلخص موقف الإخوان من الحكومات المصرية قديماً وحديثاً في الحدود الآتية :

- (١) اعتبارها جميعاً مقصرة في تنفيذ أحكام الإسلام وأحكام الدستور .
- (٢) العمل الدائب في سبيل تصحيح هذا الوضع الخاطئ بالطرق الدستورية .
- (٣) بذل النصيحة لها في نقد ومعارضة نزيهة عن الغاية إذا أساءت ، وفي تشجيع ومعاونة إذا أحسنت من غير ممالأة ولا تأييد حتى يتم التغيير المنشود .

وقد التزم الإخوان هذه المعاني وطبقوها تطبيقاً دقيقاً في صلتهم بالحكومات المصرية منذ سنة ١٩٢٨م إلى الآن كما سنوضح ذلك في الكلمة التالية :

وقبل أن نختم هذه الكلمة نوجه رجاءً عميقاً إلى الحكومات الإسلامية الجديدة في البلاد العربية أن تنتهز هذه الفرصة فتضع نظامها على الأساس الإسلامي القويم من غير أن تتردد في ذلك أو تخشى فيه لومة لائم والعاقبة للمتقين .

- ٣ -

«نحن والحكومات» (*)

في عام ١٣٤٧هـ الموافق ١٩٢٨م تقريباً برزت فكرة الإخوان المسلمين فعاصرت منذ ظهورها إلى الآن حكومات محمد محمود باشا والنحاس باشا الأولى وعبد الفتاح يحيى باشا ومصطفى النحاس باشا الثانية ونسيم باشا وعلي ماهر باشا والنحاس باشا مرة ثالثة ومحمد محمود باشا مرة ثانية كذلك ثم حكومات سني الحرب علي ماهر باشا وصبري باشا وسري باشا والنحاس باشا وأحمد ماهر باشا والنقراشي باشا وأخيراً حكومة صدقي باشا الحالية .

قد قدمت أن موقف الإخوان من الحكومات المصرية يتلخص في اعتبارها جميعاً مقصرة في تنفيذ أحكام الإسلام وأحكام الدستور وفي العمل الدائب في تصوير هذا الوضع الخاطئ بالطرق الدستورية وفي بذل النصيحة لهذه الحكومات جميعاً من نقد ومعارضة نزيهة ، إذا أساءت وفي تشجيع ومعاونة إذا أحسنت من غير ممالأة ولا تأييد وأن الإخوان قد التزموا هذه الحدود وطبقوها تطبيقاً دقيقاً .

ونستطيع أن نقسم تاريخ الإخوان مع الحكومات منذ نشأتهم إلى الآن إلى فترتين ، فترة ما قبل الحرب ، وفترة نشوب الحرب إلى هذا الوقت .

فأما في الفترة الأولى فقد كان الإخوان فيها يؤثرون العمل المنتج والتربية الصالحة والتنظيم النافع على الدعاية الفارغة ويقولون الزمن جزء من العلاج والتدرج خير من الطفرة ، فلم تشعر بهم الحكومات إلا في مناسبات عادية .

ولقد ذكر الأستاذ المرشد في بعض أحاديثه أنه قابل رفعة النحاس باشا في منزله بالإسكندرية في صيف سنة ١٩٣٦م بمناسبة مطالبة حكومة نسيم باشا حينذاك بالعناية بالتعليم الديني في المدارس المصرية مع وفد على رأسه محمد المغازي باشا ، فكان النحاس باشا يظن أنه أحد العُمد (جمع عمدة) الذين يتألف منهم الوفد ، كما ذكرني في حديث آخر أن محمد محمود باشا رحمه الله اقترح عليه أن ينشئ شُعباً للإخوان في الصعيد لخلوه من هذه الشُعب في الوقت الذي كانت حفلات الإخوان فيه تقام من مضيعة الأسرة بأبي تيج ولقد استمرت وزارة المعارف المصرية إلى وقت قريب تجهل أن الأستاذ البنا المدرس بمدارسها هو المرشد العام للإخوان المسلمين

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، العدد (٥٢) ، السنة الأولى ، بتاريخ ٤ شعبان ١٣٦٥هـ - ٣ يوليو ١٩٤٦م - ٢٦
بؤونة ٦٦٢ .

مع أن الإخوان لم يدعوا حكومة من هذه الحكومات إلا وتقدموا إليها بالمذكرات الوافية في مختلف الشئون ، ولعل من الخير أن تعنى جريدة الإخوان بنشر ما لم ينشر من هذه المذكرات وإعادة نشر ما نشر فلا زال الأمر في شئون الإصلاح كما كان من قبل وكأن الزمن يمر بغيرنا ونحن حيث نحن واقفون والله في خلقه شئون .

وأما فترة الحرب فقد تفتحت فيها العيون على الهيئات والجماعات وبدأ احتكاك الحكومات بالإخوان نتيجة للظروف الاستثنائية والأحكام العرفية وبعض الدوافع والمؤثرات الخارجية وخصوصاً بعد أن دخلت الحرب في أدوارها الجديدة .

جاءت حكومة علي ماهر باشا فلم يكن بينه وبين الإخوان من صلة أكثر من أنهم أعلنوا تأييدهم لقرارها الخاص بتجنيب مصر ويلات الحرب في صراحة ولم يتصلوا بوزير من أعضائها ، اللهم إلا معالي عبد الرحمن عزام باشا وزير الشئون الاجتماعية الذي كانت تربطهم به ثقافته الواسعة في شئون العالم الإسلامي وآراؤه الطيبة في القضايا العربية ، ومعالي صالح حرب باشا الذي كان يقربهم إليه ويقربه إليهم جهاده السابق في الحركة السنوسية وما عرف عنه من استقامة ومناصرة للفكرة الإسلامية ، وما كان هذا الاتصال يتعدى الحديث في الموضوعات التي تتصل بهذه المعاني ، وما يشبهها من النواحي الأخلاقية .

وتلتها حكومة صبري باشا رحمه الله ، فلم يكن للإخوان بها من صلة في قليل ولا كثير وإن تخولوها بالموعة والنصيحة في كتاباتهم وفي خطاباتهم الخاصة والمفتوحة كشأنهم مع كل الحكومات .

وجاءت حكومة سري باشا فاشتد عليها الضغط بالنسبة للإخوان من السفارة الإنجليزية والقيادة كذلك فوقفت من الإخوان موقفاً عنيفاً وصادرت مجلتي التعارف والشعاع الأسبوعيتين كما صادرت مجلة المنار الشهرية ومنعت منعاً باتاً طبع أية رسالة من رسائلهم حتى إعادة طبع رسالة المأثورات التي لا تشتمل على غير آيات وأحاديث في الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ وأغلقت مطبعتهم وحرمت على الجرائد أن تذكر شيئاً عنهم كما منعت اجتماعاتهم ثم عمدت إلى تشريد رؤساء الجماعة فنقلت الأستاذ المرشد إلى قنا في قصة طويلة كما نقلت الأستاذ أحمد السكري وكيل عام الجماعة إلى دمياط ثم أعادتهما تحت ضغط الحملة البرلمانية التي أثارها النائب المحترم الأستاذ محمد عبد الرحمن نصير ومن ناصرته من حضرات النواب المحترمين ، ولكنها لجأت بعد ذلك إلى ما هو أعنف فاعتقلت الأستاذ عبد الحكيم عابدين سكرتير عام الجماعة في معتقل الزيتون ستة أشهر تقريباً كما اعتقلت الأستاذ المرشد والوكيل العام في هذا المعتقل شهراً ثم أفرجت عنهما انقاء ما أحدثه هذا الإجراء من حرج في صدور الإخوان في كل نواحي القطر .

وعلى هذه الصورة مضت حكومة سري باشا .. إرهاب وإعنات من جانب الحكومة وصبر واحتمال ودفع بالتالي هي أحسن من جانب الإخوان ، ومن الإنصاف أن نقرر أن الإخوان قد استفادوا في هذه الفترة أكبر الفائدة من حيث الكم والكيف فقد لفتت هذه الحوادث أنظار الناس إليهم ونشرت بينهم دعوتهم فانضموا إليها مخلصين كما عودتهم الصبر على الشدائد ومقارعة الخطوب وأقامتهم على سُنن المجاهدين .

وجاءت بعد ذلك حكومة النحاس باشا وحل مجلس النواب القائم ودعيت الأمة إلى انتخاب مجلس جديد ورأى الإخوان أنه لا غنى لهم عن صوت منهم ينطق بلسانهم فيه فتقدم الأستاذ المرشد مرشحاً نفسه بدائرة الإسماعيلية ولأن الإجماع منعقد على نجاحه وظهرت بودار في ذلك جلية في كل أنحاء الدائرة ، ثارت ثائرة الدوائر البريطانية وطلب النحاس من الأستاذ المرشد أن يقبله في مينا هاوس وكانت هذه هي المقابلة الأولى بعد مقابلة صيف ١٩٣٦م التي أشرنا إليها في أول هذا الكلام وصارح النحاس باشا الأستاذ المرشد بحرج الموقف وطلب إليه التنازل عن هذا الترشيح ورأى الأستاذ المرشد أن من الخير للدعوة ألا تصطدم بأحد في مثل هذه الظروف وحول كرسي من كرسي البرلمان فوافق على ذلك ، وقد كشفت الحوادث بعد ذلك عن عظيم توفيق الله

للإخوان في هذا الموقف الذي وقفوه بعد تردد طويل لخير الدعوة لا لفائدة مادية ولا لمصالح شخصية ولا لغرض دنيوي وتأولوا به الأسوة في موقف الرسول ﷺ في الحديبية .

وتبع ذلك أن سمحت الحكومة للإخوان باجتماعاتهم وصرحت لهم بمجلتهم الأسبوعية وبفتح مطبعتهم ، ولكن هذا الموقف لم يدم طويلاً فقد أمر النحاس باشا بوصفه الحاكم العسكري بإغلاق شُعَبهم في كل أنحاء المملكة المصرية ما عدا المركز العام وبالتضييق عليهم في اجتماعاتهم ومطبوعاتهم ونواحي نشاطهم واستمر هذا الوضع أكثر من ثلاثة أشهر كان الإخوان فيها على طبيعتهم صابرين محتملين يكتسبون بالصبر والأناة أكثر مما ينالونه بالعنف والشدة حتى اضطرت الحكومة أن تعدل عن هذه الخطة وأن تقر في أن يزور بعض الوزراء دار الإخوان المسلمين وفعلاً تمت هذه الزيارة وحضر إلى الدار معالي فؤاد سراج الدين باشا وزير الزراعة ومعالي الأستاذ عبد الحميد عبد الحق وزير الشؤون الاجتماعية ومعالي الأستاذ محمود سليمان غنام وزير التجارة ومعالي الأستاذ أحمد حمزة وزير التموين والأستاذ محمد صلاح الدين سكرتير مجلس الوزراء وتحدثوا بكلام طيب وأعلنوا فيه تأييدهم لفكرة الإخوان وإعجابهم بها ، وقد رد الأستاذ المرشد عليهم بكلمة قيمة كان مما جاء بالنص «ومن خصائص هذه الدعوة أنها منذ نشأت وقد مضى عليها الآن خمسة عشر سنة عاصرت فيها مختلف الهيئات والحكومات لم تتحدر يوماً من الأيام إلى المزالق السياسية ولم تتلون بالألوان الحزبية ولم تتورط في المنافع الشخصية ولم تخضع لهيمنة عظيم من العظماء أو سلطان وجيه من الوجهاء ولم تعمل ساعة من نهار لحساب شخص أو هيئة أو حزب أو دولة لأنها «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً» ، ودعوة الإسلام وهل أقدس منها دعوة ، وهداية الله للناس أجمعين لم تنفرد بها أمة دون أمة ، وهي ميراث رسول الله ﷺ فهي أكرم على الله وعلى القائمين بها من أن تكون وسيلة لمغنم حزبي أو تورط سياسي أو استقلال شخصي» ، «وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» ، ولقد قام الإخوان المسلمون بدعوتهم معتمدين بعد الله على أنفسهم لا يتوجهون إلا بوحى من ضمائرهم ولا ينفقون إلا من ذات يدهم ولا يستمدون من أحد عوناً إلا الله «وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا» .

وهم يعتقدون أن ذلك سر نجاحهم فهم به مستمسكون وعليه ثابتون إن شاء الله «وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» .. إلخ (*) .

واستمر الموقف بين حكومة الوفد والإخوان يتقلب بين أطوار مختلفة تارة تدع لهم الحرية فيعملون ، وأخرى ترهقهم بالتضييق فيصبرون هم على كل حال لا يدعون التقدم إليها بالنصح وبيان وجه الحق تارة بالكتابة وأخرى بالمشافهة حتى أقيمت الوزارة في أكتوبر سنة ١٩٤٤ م .

وأحب أن أقرر هنا حقيقتين لا ينكرهما إلا جاحد أو مكابر (أولاهما) أن الإخوان لم يسيروا في ركاب الحكومة ولم يكونوا أداة في يدها في أية ناحية من النواحي كما أنها لم تحاول ذلك معهم من جانبها ، (وثانيهما) أنها لم تمنحهم من المساعدات المادية أو الأدبية أكثر من الحقوق العادية المقررة للجماعات المسجلة لوزارة الشؤون الاجتماعية ، بل إن نصيب الإخوان في كثير من الأحيان أقل نسبياً مما يستحقون ومما يمنح لغيرهم وكل ذلك ثابت في ملفات الوزارات والمصالح المختصة .

ولعل الأستاذ المرشد يبر بوعده سمعناه منه وهو أن ينشر مذكرات له عن الإخوان في فترة الحرب ، فيرى القراء تفصيلاً أوفى وشرحاً أوسع .

أما الحكومات الباقية فموعدنا لبيان موقف الإخوان منها العدد التالي .

(*) راجع العدد ١٨ من مجلة الإخوان المسلمين بتاريخ ١٢ يونيو سنة ١٩٤٣ م .

«نحن والحكومات» (*)

وجاءت بعد وزارة الوفد والدكتور أحمد ماهر باشا رحمه الله وبدأت عملها بحل البرلمان ودعوة الأمة إلى انتخاب مجلس النواب من جديد ورأي الإخوان المسلمون أن يتقدموا إلى هذا الميدان تسجيلاً لأرائهم في هذا المجال الرسمي وانتصاراً لمبادئهم عن طريقه وتنفيذاً لقرار المؤتمر السادس المنعقد بالقاهرة في ذي الحجة ١٣٥٩ هـ / يناير ١٩٤١ م الذي ينص على «تأييد مكتب الإرشاد العام في إقراره استخدام الوسيلة الثالثة من وسائل الإخوان المسلمين وهي ترشيح الأكفاء من الإخوان وتقديمهم للهيئات النيابية على اختلاف درجاتها على أساس خدمة المنهاج الإسلامي القويم والمطالبة بنظام الحكم الإسلامي كلما وجد الظرف المناسب لذلك» .

فتقدم الأستاذ المرشد إلى دائرة الإسماعيلية والأستاذ أحمد السكري إلى دائرة الفاروقية بحيرة والأستاذ صالح عشاوى إلى دائرة مصر القديمة والأستاذ عبد الحكيم عابدين إلى دائرة قديمين فيوم والأستاذ عبد الفتاح البساطي إلى دائرة الفيوم البندر والسيد محمود حامد أبو النصر إلى دائرة منفلوط .

وكان موقف الحكومة منهم جميعاً موقفاً عجيباً فقد بذلت كل ما في وسعها لعدم نجاح أحد منهم واستخدمت كل الوسائل في هذا السبيل حتى تم لها ما أرادت ومع ذلك فلم يحمل الإخوان لها في أنفسهم حفيظة بهذا الخصوص بل طبقوا عليها قاعدتهم العامة التي يعاملون بها الحكومات المصرية جميعاً ومحضوها النصح خالصاً في كثير من المواقف وبخاصة لما كان يشاع عن رئيسها رحمه الله من استعداد للتفاهم ولما له من سابقة طيبة مع الإخوان في حكومة سري باشا إذ كان يرى بوصفه رئيساً لمجلس النواب أنه لا معنى لاعتقال الإخوان ، التضييق عليهم وأرسل الأستاذ حامد جودة وزير التموين حينذاك نيابة عنه إلى الأستاذ المرشد بمعتقل الزيتون لزيارته والتحدث إليه في أن يفرج عنه أولاً ثم يفرج بعد ذلك عن الأخوين الأستاذ السكري والأستاذ عابدين فأبى الأستاذ المرشد هذا العرض وشكر للوزير وللدكتور ماهر عاطفتهم وحفظ الإخوان لهما هذا الشعور الطيب .

ولكن الحكومة برغم هذا كله مضت في طريقها من التضييق على الإخوان وتحديدهم وإحراجهم ، وكأنه لم يكفها ما فعلته معهم أيام الانتخابات ، فزادت في الطنبور نغمة بهذا المسلك الذي لا مبرر له وصبر الإخوان واحتسبوا هذا الصبر وانتظروا حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وتلا ذلك موقفها من إعلان الحرب على ألمانيا وبريطانيا ولم يكن الإخوان يشاركونها هذا الرأي ولم يريدوا كذلك التشهير بها فيه إذ كان يهمهم بذل النصيحة والوصول إلى نتيجة فكتبوا إلى الدكتور ماهر رحمه الله خطاباً شخصياً ضمنوه رأيهم ودعموه بالأسباب والحجج ونصحوا له بالعدول عن هذه الفكرة ، وحدث بعد ذلك حادث وفاته رحمه الله فجاءت وزارة النقراشي باشا .

بدأت وزارة النقراشي باشا عهداً مع الإخوان باتهام غليظ إذ اعتقلت الأستاذ المرشد والأستاذ السكري والأستاذ عابدين وقدمتهم إلى النيابة العمومية بشبهة الاشتراك في حادث الدكتور ماهر باشا وكان طبيعياً أن تؤكد النيابة بطلان هذا الاشتباه وأن تقرر الإفراج عنهم .

وقد زار الأستاذ المرشد رئيسي الحكومة عقب الإفراج معزياً إياه في سلفه ومتحدثاً إليه عن موقف الإخوان من حكومته مبيناً أن الإخوان لا يرون أن يصطدموا بالحكومات المصرية في هذه الظروف كما أنهم لا يرجون منها مساعدة خاصة بهم وكل الذي يريدونه منها لدعوتهم أن تدع لهم حرية العمل في تهيئة هذا الشعب

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، العدد (٥٣) ، السنة الأولى ، بتاريخ ٥ شعبان ١٣٦٥ هـ - ٤ يوليو ١٩٤٦ م - ٢٧
بؤونة ٦٦٢ .

لمهمته الكبرى وأن تنهض بوجباتها الوطنية والإصلاحية نهوضاً كريماً وبخاصة وأمامها فرص إن ضاعت فلن تعود .

وبدلاً من أن تقدر الحكومة هذا النصح البريء فرضت على الإخوان أثقل القيود في نشاطهم واجتماعاتهم ومراقبة دورهم لغير ما سبب وأخذ الإخوان أنفسهم بما اعتادوا من أناة وصبر ، فطريقتهم مرسومة وخطواتهم محدودة ولن يستفزههم اضطهاد يستفيدون منه قوة في أرواحهم ودقة في نظامهم بل هم يحمدون الله عليه ويعتبرونه تجربة تجهزهم لما هو أهم وأعظم ما كانوا يستطيعون أن يتيحوها لأنفسهم عن غير هذا الطريق وقد تخلل هذا الاضطهاد فترات قصيرة كانت الحكومة فيها تسمح للإخوان بعقد اجتماعات عامة أو مؤتمرات تحت ضغط الظروف والحوادث ولكنها سرعان ما كانت تعود إلى الخطة الموضوعية .. خطة العنت والإرهاق .

وجاءت الهدنة وانتظر الناس عمل الحكومة في سبيل الحقوق القومية والمطالب الوطنية واستكمال استقلال الوادي ووحدته فلم تعمل شيئاً يذكر ، وقابل الأستاذ المرشد رئيسها مرة ثانية يهيب به أن يعمل غير متردد وأن يسرع بالعمل متى وجد الطريق أمامه ممهدة و إلا فليدع الأمة إلى الجهاد وليتقدمها في سبيله وليثق بأنها جميعاً من ورائه وكان مما أجاب به دولته أنه غير حريص على الحكم وأنه على استعداد تام للاستقالة إذا لم يستطع أداء واجبه كاملاً وراجع الأستاذ المرشد في هذا بأن الحكم سلاح يجب أن يبقى في يد المجاهد ما دام عازماً على الجهاد .

وانتهت جهود الحكومة إلى المذكرة المصرية والرد البريطاني عليها وكان طبيعياً أن تثور لذلك الخواطر وتهيج الأفكار .

وجاء يوم ٩ فبراير عقب عودة الطلاب من إجازة نصف السنة إلى معاهدهم فاجتمع الكثير منهم في الجامعة ومعظمهم من الإخوان وأرادوا التوجه إلى قصر عابدين ليرفعوا احتجاجهم على هاذ الموقف وحدثت معركة كوبري عباس بينهم وبين البوليس وأعقبها الحوادث التي انتهت باستقالة الوزارة .

وأحب أن ألفت النظر إلى أنني لا أريد بهذا الكلام الحكم على موقف وزارة النقراشي باشا من القضية الوطنية أو الإصلاح الداخلي فذلك موقف له مقام آخر وقد يكون لها في هذا السبيل ما يذكره الناس بالخير يوم يكشف عنه .

ولكني إنما أردت فقط أن أعرض لموقفها من الإخوان الذي ما كنا نود أن يكون إذ لا مبرر له وموقفهم منها ذلك الموقف الذي لم يخرج عما وضعوه لأنفسهم من قواعد وحدود مع الحكومات المصرية جميعها .

وفي المقال التالي نتناول موقف الإخوان من حكومة صدقي باشا الحالية .

— ٥ —

نحن والحكومات (*)

باعت حكومة صدقي باشا القائمة وأمامها موجة من الشعور الوطني لم تكن من فعل الهيئات ولا الأحزاب ولا من ترتيبها ولكن نتيجة لهذا الوعي المستقر في نفس هذا الشعب ، بعثته جهود الإخوان المتواصلة قرابة عام منذ أعلنت الهدنة بالمؤتمرات العامة تارة وزيارة القرى والريف تارة أخرى والرسائل والمحاضرات والأحاديث والنشرات .

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمون اليومية» ، العدد (٥٤) ، السنة الأولى ، بتاريخ ٦ شعبان سنة ١٣٦٥هـ - ٥ يوليو ١٩٤٦م .

وقد بدأت مظاهر هذه الموجه قوية رائعة في أيام الجلاء والفداء والشهداء ٩ فبراير ، ٢١ فبراير ، ٤ مارس - وكان جنودها الطلاب والعمال وأفراد الشعب وفي مقدمتهم الإخوان من كل طبقة من طبقاته .

وأراد المركز العام لإخوان المسلمين أن تستفيد الأمة من هذه الظاهرة الجديدة التي طال عهد مصر بها منذ أيام الثورة سنة ١٩١٩م وأن تعتمد عليها في توجيه جديد أو عمل مفيد فوجه المرشد العام نداءه إلى الهيئات على اختلافها ليجتمعوا على هيئة لجنة قومية للنظر في تنظيم يوم ٤ مارس حتى يبدو في روعة تتناسب مع جلال الغرض الذي أقيم من أجله ، وختتم هذا النداء الذي نشر بجريدة الأهرام في يوم ٢٨ فبراير بأنه يرجو أن يكون لهذه الدعوة ولهذا الاجتماع ما بعده في تنظيم صفوف الجهاد وتنسيق جهود العاملين والله يعلم أن هذا النداء ، لم يكن الدافع إليه إلا هذه الغاية النبيلة والمقصد العالي لا ما يذيعه بعض المغرضين من أن الغاية لم تكن إلا مساعدة الحكومة على تهدئة الحال .

ولكن الأحزاب الظاهرة على مسرح السياسة المصرية لم تُعن بالأمر ولم يحضر الاجتماع إلا بعض شبابها الذي يمثلها أي تمثيل وتخلت بهذا الموقف عن المشاركة في قيادة الحركة وتنظيمها وتركت مصيرها للمقادير ، وعملت الحكومة من جانبها على التهدئة بكل الوسائل المغربية والوعود الطيبة مما كان له أثره في تهدئة الخواطر وانتظار ما سيكون بعد ذلك .

وكان الإخوان بين عاملين ، إما أن يقودوا حركة فجائية وينفخوا فيها إلى غير غاية مع أنها قد تؤدي إلى عكس المقصود منها وقد لا يكون لها من الأثر أكثر من استبدال حكومة بحكومة وهو ما لا يهتم له الإخوان فكل الحكومات في نظرهم سواء مادامت على هذه الأوضاع الفاسدة والأساليب البالية ، وإما أن ينتظروا حتى يروا ما سيكون من موقف الحكومة الجديدة ثم يحاسبوها عليه ، فضلوا الأمر الأخير ووقفوا من حكومة صدقي باشا موقفهم من غيرها من الحكومات التي سبقتها .

تقدموا إليه ناصحين وكان من قول الأستاذ المرشد لدولته أن عليه واجبين إن فاته أحدهما فيجب عليه ألا يفوته الثاني - عليه أن يسرع في انتهاز الفرصة الدولية السانحة ويطالب في إلحاح وحزم بحقوق الوطن كاملة من غير ضعف ولا تردد وعليه أن يعمل على تغذية هذا الشعور الوطني فهو عدته الوحيدة وعدة كل أمه مجاهدة تريد الوصول إلى حقها - وألا يقع في الأخطاء المتكررة التي يملها كرسى الحكم على الحاكمين من اعتبارهم الأمة خصماً عنيداً يجب أن تكتم أفواهه وأن توضع في يديه القيود والأصفاد ، كما أن من واجب دولته كذلك أن يصارح الأمة بكل ما يتصل بمستقبلها وحقوقها مما بين يديه من عقبات حتى تعاونه على تذليلها ، وأن من الخير، بل من الشرف أن تخفق المفاوضات المنتظرة فيجاهد وتجاهد الأمة معه أو مع غيره ، بدلاً من أن يساوم على حقها فيضعف ويضعفها معه ، إلى غير ذلك من المعاني الكثيرة التي تتصل بشئون الوطن الحيوية في الداخل والخارج .

واستمر موقف الإخوان من بعد ذلك وإلى الآن موقف المترقب اليقظ لا يجاملون ولا يتملقون ولا يمالئون ويصارحون بالحق في كل موقف مشافهة أو مكاتبة ، لا تمر مناسبة حتى يسجلوا رأيهم فيها بقرارات يصدرونها وبيانات يعلنونها وخطابات يوجهونها إلى الحكومة في وضوح وقوة وجلاء كما أنهم يواصلون الكتابة في جريدتهم بما يرون إنه الحق لا تحركهم رغبة ولا تثنيهم رهبة ، وإنما هو وجه الله وخير الوطن وما عند الله باق .

ويريد بعض الناس أن يصور موقف الإخوان بغير حقيقته وينسب إليهم العمل على إطفاء جذوة الشعور الوطني ممالأة للحكومة وتقرباً إليها وهم مع ذلك مخطئون متعنتون فان جذوة الوطنية المصرية لم تطفأ ولن تطفأ مادام هناك الإخوان المسلمون تمتلئ قلوبهم إيماناً و يقيناً وتلتهب غيرة وحماسة ويرون الموت في سبيل الحق حياة ليس أكمل منها الحياة ومتعنتون لأن الإخوان هم الذين أوقدوا هذه الجذوة بعد أن أخدمتها أباطيل

الزعماء وممالاتهم للغاصبين عشر سنين كاملة كانت المعاهدة فيها - على حد تعبيرهم - عنوان الشرف والاستقلال وكانت بريطانيا خير الأصدقاء وأفضل الحلفاء على أن الحوادث قد أثبتت أن هذا الذي تم كان من الخير للأمة فلقد انكشفت نوايا الإنجليز وانفضحت خبيثة أمرهم خلال أربعة أشهر ولم يعد هناك عذر للمعتذرين ولا حجة للمتخلفين .

ولا زالت الفرصة سانحة أمام الجميع ليجاهدوا ولازال الشعور قويًا دفاقاً بل زادته الحوادث المتعاقبة ومرارة الفشل والإخفاق جدة وقوة وإنا لجهودهم لمنتظرون على أننا سنعمل وسنؤدي واجبنا كاملاً بصرف النظر عن المتقدمين أو المتأخرين وإن كنا نؤثر دائماً وحدة الصفوف وتضافر الجهود والقلوب بيد الله يقبلها كيف يشاء .

والذي يؤسف أن الذين ينقدون الإخوان لا يفعلون ذلك بدافع وطني ولا يقفون في هذا النقد عند حدود الإنصاف والحق ولكنهم يتصيدون الاتهامات الباطلة ويختلفون المغريات المضللة «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ» .

(وبعد) فإننا نأخذ على حكومة صدقي باشا أموراً كثيرة لو كنا في غير مصر كان كل واحد منها كافيًا لتخليها عن كراسيها :

منها : ممالاتها للأجانب على حساب مصلحة الوطن كما حدث في اتفاقية الطيران وموضوعات شركة قناة السويس .

ومنها : تساهلها العجيب في السماح بتأليف الشركات التي تلبس أثواباً مصرية مستعارة بصورة لم تكن في أية حكومة من الحكومات واستصدار المراسيم الخاصة بها في أسرع وقت .

ومنها : عجزها عن علاج مشكلة العمال العاطلين التي صارت تهدد البلاد بشر مستطير وتعرض للجوع والشقاء عددًا عظيمًا من المواطنين .

ومنها : ترددها في قطع المفاوضات التي لا طائل تحتها وإعلان الجهاد ضد الغاصبين .

وسيزل الإخوان في جهادهم معها ومع غيرها حتى يفتح الله بينهم وبين الناس بالحق وهو خير الفاتحين .

- ٦ -

نماذج من مذكرات الإخوان وكلماتهم التوجيهية

إلى الحكومات المختلفة^(*)

تنبيه :

وقع أمس خطأ مطبعي في ترتيب أجزاء هذا المقال اقتضي أن نعيد نشره صحيحًا اليوم ، وسنوالي نشر هذا البحث الثمين إلى ختامه بمشيئة الله .

في الكلمات السابقة كشفنا عن موقف الإخوان من الحكومات المتعاقبة منذ نشأتهم إلى الآن نظريًا وتطبيقياً، وقد طلب إلينا أن ننشر نماذج من مذكرات الإخوان وكلماتهم الإصلاحية التي تقدموا بها إليها ، ونحن نجيب هذا الطلب لما فيه من فائدة مزدوجة فهر دليل قاطع على أن الإخوان المسلمون يسيرون إلى غايتهم في طريق مرسومة مستقيمة لا عوج فيها ولا انحراف ، كما أن الشؤون التي كتبت فيها هذه المذكرات مازالت عند وضعها القديم بحيث تصلح هذه المذكرات أن تعتبر خطابات مرفوعة إلى حكومة القائمة ، وهذا وضع عجيب إذ

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمون اليومية» ، العدد (٥٦) ، السنة الأولى ، بتاريخ ٩ شعبان سنة ١٣٦٥هـ - ٨ يوليو ١٩٤٦م .

المفروض أن ننتفع بالزمن ونستفيد من الوقت لو كنا له مقدرين وعلى الرغبة في الاستفادة مجتمعين ، ونسأل الله أن يجعل حاضرنا خيراً من ماضينا ومستقبلنا أفضل من حاضرنا ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

إلى صاحب المقام الرفيع محمد محمود باشا .. رحمه الله

حضرة صاحب المقام الرفيع محمد محمود باشا ورئيس الوزراء

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

من حق هذا الوطن علينا الصراحة في القول والجرأة في العمل فإن الوقت لا يحتمل الإبطاء والظروف تلح في وجوب الإسراع بالعلاج وإن مظاهر الفساد في حياة الأمة المصرية من كل نواحيها أوضح من أن يتناولها بيان أو يفصلها قول ما فالجهل والرذيلة والفقر والضعف الخلقي والصحي والثقافي متفشية ، في كل مكان وتلك طبيعة عصر الانتقال الذي نجتازه ، ومن واجبا أن نسرع بالسفينة إلى طريق النجاة ولاسيما ونحن في عهد نهوض وتوثب والعالم كله يعمل من حولنا ونحن مشغولون بما لا يجدي ولا يفيد .

يا صاحب الرفعة : إن الدواء بين أيدينا أثبت فائدته البحث والنظر وأيديهما التاريخ والعمل وليس بيننا وبين الشفاء والقوة إلا أن تمتد يد جريئة مخلصه إلى هذا الدواء فتؤمن به إيماناً عميقاً وتتعاظه وتقدمه للأمة في وضوح وفي جرأة وفي إلزام ، وليس ذلك الدواء إلا تعاليم الإسلام وكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا» .

يا صاحب الرفعة : تقدمها خطوة لله وللوطن واقتد في ذلك بجلالة الملك المسلم الصالح أيده الله وأعز به دولة الإسلام وقد أدي العلماء رسالتهم على لسان شيخهم من منبر الأزهر الشريف حيث قال فضيلة الأستاذ الأكبر في خطبته عقب يمين الجيش : «أيها المسلمون .. اسمعوا في دينكم قول الله الحق وقول رسوله الكريم ، يقول الله تعالى «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» ، ويقول « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا» ، يقرر القرآن نفي الإيمان عن الذي لم يرض بأحكام الله رضا يزيل الحرج عن صدره ويملاً قلبه استسلاماً وطمأنينة ويصف بالنفاق من يصد عن الداعي إلى الله ورسوله .. إن الدين أيها المسلمون مهما امتدت آفاقه وتأول فيه المتولون فهو لا يحتمل هذه البوائق ولا هذا الإلحاد ولا هذه الإباحية الجامحة ولا هذه الشهوات التي لا تقف عند حد وإنما يحتمل مدنية فاضلة تقوم على علم كامل وعمل صالح وخلق فاضل كريم» .. وقال فضيلته كذلك في كلمته التي أذاعها بالراديو ليلة عيد الأضحى : «والمسلم الذي لا يعرف أن الدين حق كله وخير كله ، ويقول أن بعض قواعده ضار بالمجتمع أو ضار بالمدينة أو بالسياسة مسلم مرتد عن دين الله لا يقبل الله منة صلاة ولا صوماً ، هذا حكم الله أجاهر به من هذا المعهد ليكون المسلمون على ذكر منه ، ذلك بأن الله انزل الكتاب بالحق ، وأن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد .

إضعاف سلطان الدين على النفوس والتفريق بين قواعده وانتزاع سلطانه على الحياة الاجتماعية يضعف نفس المسلم ويبعده عن دينه ويضعف خلقه ويجعله أهلاً للذلة والاستكانة والمؤمن محكوم له بالعزة من الله « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ» ، أولئك الذي يحاولون إبعاد الدين عن الحياة الاجتماعية ويحاولون إخفاء شعائره ومظاهره هم في الواقع أعداء الإسلام» .

فلم يبق إلا الوزارة وهي أداة التنفيذ تعمل على ذلك وتحققه فالكلمة الآن لها والتبعة عليها والخير الذي تقدمه للأمة عظيم لو كتب الله لها سلوك هذه السبل .

يا صاحب الرفعة : إذا كانت الوزارة تخشى أن توصف بأنها وزارة إسلامية ، وتحسب حساباً لهذه التهمة، وتحب أن تظهر أمام الناس بمظهر البعيد عن الإسلام الذي لا يعنيه أمره ولا يهتم لشأنه ، فيا لضيعة الآمال ، ويا لطول شقاء هذا الشعب الذي لا يريد قاداته أن يستقيموا به على الصراط المستقيم : « صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » ، وكأنهم جميعاً في ذلك على اتفاق سواء .

- ٧ -

نماذج من مذكرات الإخوان وكلماتهم التوجيهية

إلى الحكومات المختلفة^(*)

إلى صاحب المقام الرفيع محمد محمود باشا .. رحمه الله

يا صاحب الرفعة : لا تظنوا أن الشعب المصري ضعيف إن وجد القائد ، وأقسم لكم أن لو سرتتم به في طريق الفضيلة والخلق والإسلام الصحيح لوجدتم منه شعباً هو أبسل الشعوب ، وجود بالنفس وبالمال في حماية عقيدته ، والذود عن حياضه ، والسير وراءكم إلى النهاية في سبيل هذا الإصلاح ، فأعلنوها كلمة باسم القرآن الكريم ، وارفعوها راية ترفرف عليها روح رسول الله ﷺ ، وتهب نسيمات النصر والتأييد من الملائكة الأعلى وأنا زعيم لكم - وأراهن عليها بدمي - أنكم سترون من هؤلاء الفلاحين المندثرين في خفايا القرى وزوايا الحقول جنداً لله ولرسوله يصغر أمامه جند هتلر ويضعف معهم جيش موسوليني وتحتمي بهم قوات بريطانيا ويدفعون العادية لا عن قناة السويس وحدها ولكن عن بحر المانش أيضاً وليس في عشرين سنة بل في عشر سنين وعند جيش إبراهيم باشا الخبر اليقين ، « وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » .

قد يقال وكيف ننادي بالإسلام والإنجليز لا يزالون في مصر بالمرصاد ، ونقول إن الإنجليز لا يعنيه من نظامنا الداخلي شيء وقد تركوا لنا ذلك نتصرف فيه كيف نشاء ومن مصلحتهم أن نكون أقوى ألسنا لهم حلفاء ، حجة مدموغة وقالة مردودة .

فإن كان صحيحاً أنهم يعارضون ولا يوافقون وجب إعلان الجهاد واستئناف العمل معهم من جديد حتى نطمئن على حريتنا ونتمتع بحق باستقلالنا ولا خير في استقلال سياسي صوري يحول بيننا وبين حقوقنا الطبيعية بل يقيد استقلالنا الفكري والاجتماعي والأدبي بأثقل القيود .

وقد يقال إن الجانب يقلقون لهذا ويتأثرون به وهم عصب البلاد الاقتصادي ولهم بين أيدينا مئات الملايين من الجنيهات ، حسن جدا فلندع زعماءهم ورؤساءهم ونتفاهم وإياهم ، وسيرون في الإسلام وحكم الإسلام وتعاليم الإسلام ضماناً لحقوقهم وحفظاً لأرواحهم وتطميناً على أموالهم ومصالحهم وذلك ما يريدون .

وقد يقال إن في الأمة عنصراً ليس مسلماً ولا يرضى حكم الإسلام وجوب ذلك مدفوع بالواقع فقد عاشر هذا العنصر الإسلام قرناً عدة فلم ير إلا العدل الكامل والإنصاف الشامل ولا تزال كلمات الخليفة الثاني لأميره على مصر مدوية في الأذان مرددة على كل لسان «يا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟» .. وليس ذلك بدعاً من إمام يناديه كتابه « لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » ويوصيه نبيه بقوله «ستفتح عليكم مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لكم فيها رحماً» .

الأمر أوضح من الصبح وإن كانت هناك عقبة فهي عقبة واحدة ولنكن صرحاء في تعرفها والإفصاح عنها، تلك هي أن زعماء مصر أنفسهم لم يتشبعوا بالإسلام ولم يتصلوا بتعاليم الإسلام ولم يفتنوا بجمال الإسلام

(*) نشر «جريدة الإخوان المسلمون اليومية» ، العدد (٥٦) ، السنة الأولى ، بتاريخ ١٠ شعبان سنة ١٣٦٥ هـ - ٩ يوليو ١٩٤٦ م .

كرعوا من معين غير معينة ودرسوا من كتاب غير كتابه فهم به لا يقتنعون وعلى حكمه لا ينزلون وأظن أن الأحداث كلها قد دلتهم على خطأ نظريتهم ونادتهم بوجوب العودة إلى عقيدتهم والتمسك بتعاليم دينهم وذلك ما نستبشر به ونحمد الله عليه .

يا صاحب الرفعة : إن كثيراً من الدول الشرقية الناهضة كان من شأنها أن اتجهت وجهة غير إسلامية وسلكت سبيلا غير إسلامية ولقيت في ذلك بعض النجاح المادي المظهري فأغرى هذا سواها بتقليدها وسلوك سبيلها وأوقع في روع كثير من قادة النهضات في الشرق أن النهضة الصحيحة لا تكون إلا إذا أهملنا جانب التعاليم الربانية وخرجنا على شرعة الإسلام ونادينا بالقومية المجردة من كل شيء البعيدة عن اعتبار كل ما سواها ، وسرت هذه العدوى إلى مصر نفسها فسمعنا من بعض زعمائها يوماً من يشيد بفهمه .. (لمعنى الدولة الحديثة التي تستطيع وحدها في الأحوال العالمية الحاضرة أن تعيش وأن تنمو) ، وسمعنا وزيراً من وزرائنا يعجب بالاصطلاحات الجوهريّة في دولة أعلنت أنها لا دينية وزمن إصلاحاتها هذه ما يمس الإسلام وينقص تعاليمه من الأساس ، ولا نريد بهذا أن نعرض لثئون غيرنا من الأمم نريد أن نقول إن العدوى قد سرت إلينا وانتشرت بيننا وأصبحنا ن فكر بعقول بعيدة عن فكرة الإسلام ونفوس خالية من روحانية الإسلام فإن كان هذا حقاً فهي نكبة النكبات وإن كانت مجاملة فإن وقت المجاملة قد فات وتلك هي العقبة الأولى ولعلها الأخيرة أيضاً إن صحت العزائم وصدقت النيات .

يا صاحب الرفعة : ليست مصر وحدها في إيمانها وموقعها ومنزلتها من زعامة الإسلام والمسلمين كهذه الشعوب التي رضيت أن تبني سياستها على غير أساس الإسلام الحنيف وذلك إجمال له تفصيل ليس هذا موضعه فحسبنا أن نقرر هذه الحقيقة ناصعة اللون واضحة الحجة والبرهان ، فلتنفرد حكومتك يا باشا بهذا الفخر وتترفع صوتها عالياً بكلمة الإسلام حين تخوف الناس كلمة الإسلام ولتجعل شعارها العمل على تحقيق مراميه والذود عنه ولتدع إليه مصر ولتتاد به في أوروبا ولتقم نفسها وصية علي العالم باسم الله وحكم الشريعة «وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ» .

لابد من تلقيح الأفكار المصرية والنفوس المصرية والأرواح المصرية بدم جديد وغذاء جديد تقوي النهضة به وتستمد النور منه ولا بد أن يُنصب لهذا الشعب هدف يحدى به ويتطلع إليه فلا تجعلوا هذا الهدف غير الإسلام «فتزل قدم بعد ثبوتها» وندذوق مرارة تجربة أليمة ما كان أغنانا عنها .

— ٨ —

نماذج من مذكرات الإخوان وكلماتهم التوجيهية

إلى الحكومات المختلفة(*)

إلى صاحب المقام الرفيع محمد محمود باشا .. رحمه الله

يا رفعة الباشا : بعد التقديم السابق أستطيع أن أتقدم إليكم ببعض المقترحات العملية :

القدوة أولاً وإصلاح الروح العام :

يا رفعة الباشا : إن لكل دعوة أئمة يهدون إليها وينهضون بها ، وإنما ينجحون إذا آمنوا هم بدعوتهم وعملوا بأحكامهم وكانوا أنفسهم أول المنفذين لها وبدون هذه القدوة لا تفيد العظة ولا تتمكن الغيرة ولا تنجح

(*) نشر «بجريدة الإخوان المسلمون اليومية» ، العدد (٥٨) ، السنة الأولى ، بتاريخ ١١ شعبان سنة ١٣٦٥ هـ - ١٠ يوليو ١٩٤٦ م.

الدعوة ولا يزرع القانون ، فأول واجب على الحكومة إن صح عزمها على مؤازرة الفكرة الإسلامية المنصفة العادلة أن تكون حياة رئيس الوزراء نفسه والوزراء من بعده في حقيقتها ومظهرها صورة رائعة قوية من الاستمسك بالإسلام في كل التصرفات الشخصية والحكومية والطريقة العملية لتحقيق ذلك هي :

أولاً : أن تمنع بتأنا هذه الحفلات الخليعة ساهرة وغير ساهرة التي يشرب فيها الخمر وتختلط فيها النساء بالرجال وتتحدى بها شعائر الله وهي مع ذلك حفلات رسمية تقام باسم الحكومة الإسلامية وينفق عليها من أموال فقراء هذا الشعب ، أو شبه رسمية فهي تحت رئاسة وزير أو رعاية أمير أو إشراف زعيم خطير ، ويجب ألا تدعى إلى الحفلات سيدة أيًا كانت مصرية أو أجنبية ولئن كان العرف الدبلوماسي يقضي بمثل هذه الدعوات فإن الشرع الإسلامي لا يبيحها بحال من الأحوال ونحن أحرار في إنفاذ تعاليم ديننا في بلدنا ، فمن أجابنا فيها ومن أعرض عنا فله رأيه ولن يضيرنا إعراضه ، وهذه تقاليد معمول بها في الدول الإسلامية دون أن يعترض عليها أحد بل إن ذلك أدهى إلى الاحترام لما فيه من معنى الشعور بشخصية الأمة والاعتزاز بقوميتها وتقاليدها كدولة مسلمة ، وإبائه التفريط في هذه الشخصية لإرضاء الأجانب أو تألف الغربيين الذين لا يرضيهم منا- مع ذلك- إلا أن ننسى ديننا وننكر شريعتنا وأخلاقنا « وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » .

ثانياً : إن يمتنع الوزراء ورؤساء المصالح وكبراء الدولة عن الذهاب إلى المجمع والأندية التي يلعب فيها القمار وتحتسى فيها الخمر وأن يتجنبوا ميادين السباق ومحافل اللهو الشائن حتى يضربوا بذلك المثل الصالح في الاستقامة للشباب فإن تردهم على هذه الأماكن وظهور صورهم في الجرائد والمجلات في وسط هذه الموبقات يمهّد العذر لكل فاجر ، ويحدو من رآهم ومن لم يرههم إلى تقليدهم واقتفاء آثارهم وبهذا تنهدم الأخلاق ويفسد كيان المجتمع المصري .

ثالثاً : أن يكف كبار الدولة عن نشر صور سيداتهم وفتياتهم في الجرائد والمجلات فهؤلاء هم القدوة والناس لهم تبع وفي نشر هذه الصور إيقاد لنار الفتنة وإغراء لذوي النفوس المريضة ويجب أن يحاكم الكتاب الذين يتدخلون في شئون الأسر وأسرار البيوت ويتغزلون بدعوى المدنية ويذيعون على الناس هذه المفاتن بكتاباتهم البذيئة .

رابعاً : أن يتواصى الحكام فيما بينهم بأداء الفرائض الإسلامية جميعاً ولا سيما الصلاة والتي يجب أن يقصدوا المساجد لإقامتها في الجمعة وغير الجمعة في هيئة شعبية مجردة من المظاهر الرسمية وإتيان كان ذلك في إعلان وبيان وعن عقيدة وإيمان لتسري هذه الروح ويقتدي بالكبار غيرهم من الصغار ولقد بدت فائدة ذلك جلية فيما ترك مظهر جلالة الملك الصالح في النفوس من أثر قوي فعّال أيده الله ، على أن يكون ذلك شعار الحكام في حفلاتهم وأعمالهم فلا يقام حفل في وقت صلاة يمتد حتى تضع هذه الصلاة وأن ترفع الاجتماعات أيًا كانت لأداء الصلوات وأن يكون ذلك تقليدًا يسري عليه كل ديوان ويعمل به كل موظف فليس أشق على نفس المسلم من أن يسمع أن اجتماعًا يقام في وقت صلاة الجمعة أو أن حفلًا يمتد من قبل المغرب إلى ما بعد العشاء وأن يجتمع قوم على إهدار فريضة من فرائض الله في غير ضرورة ولا حاجة ملحة .

خامساً : أن يعمل كبار الدولة على أن يكون المظهر الغالب في بيوتهم مصريًا إسلاميًا ، فالأحاديث باللغة العربية والمربيّات من الأسر المصرية والمدارس الحكومية إسلامية فلا يخفي أن كل بيوت العظماء لا تكاد تمت إلى مصر ولا إلى الإسلام بصلة ما ، وفي هذه البيوت سيتخرج الأمير والوزير والموظف الكبير وكيف يكون لهم في المستقبل الحظ الكافي من الغيرة على مصالح بلاد تعلموا في مهدهم غير علمها وتحادثوا وأهلهم بغير لغتها وتربوا في نشأتهم على غير أيدي أبنائها؟

سادساً : ألا نفرق بين الناحية الشخصية والناحية العملية في الموظف فينص القانون المالي على مؤاخذه الموظفين المستهترين إدارياً فضلاً عن مؤاخذاتهم قانوناً بمسالكتهم الشخصية مع أدب الإسلام في أمة تنتهي إليها زعامة الإسلام .

ومن غير المعقول أن يكون الموظف دائم السهر في المواخير والحانات ثم يقال عنه إنه كفاء في عمله أو قائم بواجبه فلا سلطان للقانون عليه وهل يأتي التقصير والاختلاس والخيانة والإفلاس إلا في هذه المسالك النكراء؟؟

هذه النواحي يا رفعة الباشا لا نقول إنها جميعاً مما يتناوله القانون أو يستطيع إصلاحه التشريع بل إن كثيراً منها وجداني صرف ، وأكبر العوامل فيه الإقناع الشخصي

فإذا رأت الوزارة أن تحرز هذا الشرف وتمكن لها في قلوب الشعب وتقرب من نصر الله وتأييده فليتواصل أعضاؤها الوزراء فيما بينهم بتنفيذ ذلك ثم ليوص كل وزير رؤساء المصالح في وزارته وليوص هؤلاء الرؤساء من تحت أيديهم من الموظفين ولتوضع التشريعات لما يقع تحت طائلة التشريع من ذلك والله شاهد والناس رقباء والألسنة تملك الكلام وتستطيع إظهار الشعب على الحقائق المؤلمة حتى لا يغفل عن واجبه في توجيه القادة وحمل الناس على الاستقامة وإن أسكتته القوة فسينطقه الضيق ، والضغط يولد الانفجار .

— ٩ —

نماذج من مذكرات الإخوان وكلماتهم التوجيهية

إلى الحكومات المختلفة^(*)

إلى صاحب المقام الرفيع محمد محمود باشا .. رحمه الله

الاجتمع بعد ذلك

يا صاحب الرفعة : مجتمعا المصري كما تعلمون تحطمت فيه المقاييس الخلقية وتدهور مستوي الفضائل تدهوراً يدعو إلى الأسف الشديد وتظاهرت عليه معاول الهدم من كل جانب ، فالشبان والشابات والأسر والأفراد والجسوم والأرواح كلها محطمة تحطيماً يدعو إلى منتهى السرعة في الإصلاح والترميم .

وذلك يا سيدي الباشا .. إنما يكون بوسائل كثيرة من أصولها الرئيسية :

(١) إصلاح منابع الثقافة .

(٢) إصلاح القانون .

(٣) استغلال وقت الفراغ .

(٤) محاربة المنكرات .

وتحت كل منها مسائل فرعية جديرة بالعناية والتفكير وإلى رفعتكم بعض ذلك بشيء من التفصيل الذي هو أقرب إلى الإجمال :

(*) نشر «بجريدة الإخوان المسلمون اليومية» ، العدد (٥٩) ، السنة الأولى ، بتاريخ ١٢ شعبان سنة ١٣٦٥هـ - ١١ يوليو ١٩٤٦م.

(١) إصلاح منابع الثقافة العامة :

أهم منابع الثقافة العامة في كل أمة المدارس والصحف والمطبوعات والسينما والتمثيل والإذاعة اللاسلكية، وهذه كلها تحتاج إلى إصلاح .

(أ) ففي المدارس لا بد من وضع سياسة ثابتة للتعليم يكون من شأنها استقرار المناهج والتقريب بين الثقافات وتوحيد الأنواع المتشابهة من المعاهد توفيراً للمال والجهد والتبعات وتحديد الاختصاصات والتفريق بين مناهج البنين والبنات وتشجيع الناحيتين العملية والاستقلالية ما أمكن والبعد عن مجرد النظريات والفصل التام بين الجنسين في دور التعليم وخصوصاً في الجامعة المصرية فإن من المستحيل أن يكون في كلية الآداب مثلاً نحو مائتي فتاة كلهن في السن الكاملة يختلطن صباح مساء بفتيان الكلية ثم لا يكون من ذلك فساد أو إفساد .. ولا نريد أن ندخل في ميدان جدل ، فالواقع أن ذلك قد أفسد من أخلاق الجنسين وأرواحهم مهما كابر المكابرون وأنكر المغرضون ، كما يجب القضاء على الدروس التي تتنافى مع الفكرة الإسلامية في المدارس الفنية كدروس الطبيعة الحية مثلاً ويجب العناية كذلك بأقسام الحفاظ والتاريخ الإسلامي والقومي والسير النبوية والتربية الوطنية وصيغ المدارس من بنين وبنات بروح إسلامي فاضل يجعل المدرس والمدرسة والناظر والناظرة والطالب والطالبة وكل موظف بالمدرسة ومن ورائهم المراقبون والمفتشون بالوزارة كلهم جميعاً يستمسكون بأداب الإسلام في مظاهرهم الخاصة من الزى والهيئة وأداء الفرائض بمصليات المدارس ومساجدها ، ومظاهرها العامة متجلياً هذا الروح في الحفلات والمجالات المدرسية والرحلات العلمية وما إلى ذلك من نواحي النشاط المدرسي .

(ب) وفي الصحف والمطبوعات والسينما والتمثيل والإذاعة تراقب كل هذه النواحي مراقبة فعالة منتجة وينص في القانون على عقوبات زاجرة رادعة وأساس ذلك أن يختار المراقبون من الأمناء على دينهم الموثوق بأخلاقهم بحيث لا تكون الناحية الفنية وحدها هي الأساس في الاختيار فكم يحارب الفن باسم الفن وكم يعدل الفنيون عن الحقائق إلى الأهواء وما كل فن يذاع وليس كل ما درس في أوروبا يطبق في مصر فلتختر الحكومة لجان المراقبة على أسس صالحة لتنتج مراقبة صالحة ولتوضع مناهج الإذاعة بدقة وإحكام فإن (الراديو) بقدر ما أفاد غيرنا جنى على أخلاقنا وحرام أن يستخدمه هتلر في إنهاض شعبه وإلهاب شعور الحماسة فيه ، ونستخدمه نحن في الحب والغرام وأدوار العبث والهيام وهذه الأنواع الرخيصة في الأغاني التي تذاع ، ولتصادر الصحف الماجنة الخليعة التي يتشرب روحها أبناءنا الأظهار وفتياتنا الصغار فتفسد عقولهم وأرواحهم وعواطفهم وشعورهم سواء كانت أجنبية أو مصرية ولتهتم الحكومة بحركة التأليف والنشر فتشجع المؤلفين الذين يعالجون النواحي الإصلاحية النافعة وتعين اللجان لوضع البحوث والرسالات في هذه النواحي ، ولتهتم كذلك بتهديب الأغاني والأناشيد فأثرها في تكون الشعب الروحي جد خطير بل لعلها أقرب الوسائل في هذا الباب .

بذلك وأمثاله تصلح منابع الثقافة وتقدم للشعب غذاءً شهياً صالحاً ينمو به أفضل النماء وتزكو عليه العواطف والعقول والأرواح .

(٢) إصلاح القانون :

وإنما يكون ذلك الإصلاح بصبغه بالفكرة الإسلامية وتأليف اللجان من جديد للنظر في التوفيق بين القوانين القائمة والقوانين الشرعية حتى يشعر الإنسان بأنه محكوم بقانون الله السماوي لا بقانون الناس الوضعي فيكون له من المهابة في نفسه ما يتحقق به الغرض من وضعه وبذلك تتوحد (المحكمة المصرية) ويقضي على هذا الاضطراب في الاختصاصات وكل ما يعرض في ذلك من عقبات تذلله الهمة وتتغلب عليه العزائم .

(٣) القضاء على الموبقات :

وما أكثر هذه الموبقات المهلكات في المجتمع المصري البغاء بنوعية السري والعلني يجب أن يزول من الوجود وإنا لنشكر الحكومة خطوتها لتحريم إعطاء الرخص للبغايا ونلح في المطالبة بالإسراع في القضاء على هذا الداء وإيجاد الملاجئ لهؤلاء المسكينات والقمار بأنواعه ومنها اليانصيب بكل صورته ولأي غرض مفسده وإضاعة للأموال وزرع للضغائن والأحقاد فيجب أن يحرم كذلك .

والخمر هي أم الخبائث وأصل الشر في كل مجتمع يجب أن تحارب كما حوربت المخدرات وقد سبقتنا في ذلك الهند ، فما بال مصر زعيمة الشرق والإسلام تتلأ وتتردد في القضاء عليه .

- ١٠ -

نماذج من مذكرات الإخوان وكلماتهم التوجيهية

إلى الحكومات المختلفة (*)

إلى صاحب المقام الرفيع محمد محمود باشا .. رحمه الله

والمراقص والصلوات والأندية التي هي في حقيقة أمرها بيوت سرية لا أندية أدبية ، هذه الأماكن التي تنتحر فيها الفضائل وتراق فيها دماء الخلاق وتذهب باللب والقلب والعقل والمال يجب أن تغلق كما يجب القضاء على التسول (والبلطجة) وكل احترام غير شرعي من دجل أو شعوذة باسم الدين أو الطب والعادات الضارة في المآتم والأفراح والزار والمجتمعات والمصايف وما فيها من خلاعة ومجون وتهتك وفساد وكذلك الأزياء الخليعة والاختلاط الشائن .

كل هذه وأمثالها من المهالك مما يجب على الحكومة أن تنشط لمحاربتة وأن تسن القوانين للقضاء عليه وأن تعنى بنظام بوليس الآداب واختيار رجاله من الأمناء الأكفاء مع أخذهم أنفسهم بالعقوبات الرادعة أن قصرُوا في واجباتهم أو أهملوا بشرف مهمتهم .

الانتفاع بوقت الفراغ :

يأتي بعد ذلك توجيه الشعب إلى الانتفاع بوقت فراغه وذلك يكون بوسائل كثيرة أهمها تشجيع الروح العسكرية والرياضية في نفوس الشباب وتأسيس الملاعب والبياديين وتوسيع نطاقها حتى تشمل عواصم المديرات والمراكز والقرى الكبيرة ثم الصغيرة والعناية بالمدرسين وتأسيس وحدات عسكرية ورياضية تشرف على الجهاد وأن يفرض عليها فرضاً التمسك بالآداب الإسلامية والمحافظة على أداء الفرائض .

وقد بدأت مظاهر الاهتمام بذلك من الشعب لتأليف هذه المجتمعات الأهلية البسيطة كجماعة نهضة القرى وجماعة الدفاع الوطني وجمعية الطيران .. الخ .

وعلى الحكومة أن تشجع هذه الهيئات كل التشجيع وأن تلفت نظرها إلى وجوب تركيز الفكرة الإسلامية في نفوس أعضائها والقائمين بشأنها ويستخدم الموظفون الشبان والطلبة ورجال التعليم الأولي خصوصاً في تثقيف الشعب ومحو الأمية وإنارة الأذهان مع جعل تعليم القراءة والكتابة إجبارياً في وقت محدود وفرض عقوبة على من لم يتعلم خلال هذه المدة وتعتبر المساجد والمقاهي والأندية والحدائق من وسائل هذه الثقافة العامة كل فيما يناسبه وهو إعداد يتناسب مع هذه الغاية وتحدد للقهاوي والأندية ونحوها مواعيد تجعلها من عوامل

(*) نشر «بجريدة الإخوان المسلمون اليومية» ، العدد (٦٠) ، السنة الأولى ، بتاريخ ١٣ شعبان سنة ١٣٦٥هـ - ١٢ يوليو ١٩٤٦م، وكذلك مجلة «النذير» ، السنة الأولى ، العدد (٣) ، سنة ١٣٥٧هـ .

الإصلاح لا الإفساد وإتلاف الصحة بالسهر الكثير والعبث الفارغ وبذلك ينصرف الشعب إلى الجد ويستخدم أوقاته ومواهبه في النافع وقد بدأت مظاهر الاهتمام بذلك من الشعب .

توحيد القوى والجهود :

بقيت بعد ذلك كله ناحية هامة يتوقف عليها نجاح هذه المقاصد وتحقيق تلكم الغايات ألا وهي وجوب تضافر جهود الأمة ومواهب أبنائها على تحقيق هذه الغايات وسيرها صفاً واحداً إلى الهدف المنشود وإنما يكون ذلك بالقضاء العام على الحزبية السياسية بشكلها الحالي البغيض وما دامت هذه العصبية العمياء والتهاتر الحزبي في الأمة فسيشغل بعضها بعضاً وسيحبط بعضها عمل الآخر فتتعاكس القوى ولا تتوحد ويتعدد الهدف ولا يتحدد ويضعف الأثر ولا يتمكن وأول القوة الوحيدة ، ولقد لمسنا أثر هذا الخلاف في كل موقف ولقد مزقت هذه العصبية الحزبية أوصال الشعب في كل مكان وفرقت بين الأسر المترابطة في القرية الواحدة والبلد الواحد ، وأنتم الآن يا صاحب الرفعة في موضع يمكنكم من التقدم بهذه الخطوة خطوة الدعوة إلى الوحدة فالأحزاب القائمة كلها معكم وليس بعيداً عنكم إلا حزب واحد هو حزب الوفد الذي يرأسه رفعة النحاس باشا وليس في مناهج الأحزاب القائمة وجه مخالف فكلها يدعي انه سيتناول الإصلاح العام مع أن المهمة التي أسست من أجلها قد انتهت وبدأنا عهداً جديداً فلم يبق مجال لقيامها بتلك الأوضاع السابقة والتخاصم الآن إنما هو على الأسماء الموروثة والألقاب المزعومة والمسائل الشخصية التافهة فاقترحوا يا رفعة الباشا على هذه الأحزاب وأولها حزبكم أن يتنازل كل واحد منها عن اسمه وتتألف من الجميع هيئة وطنية أو حزب سياسي واحد يضع للبلد منهاجاً إنشائياً صالحاً تتوافر على رسمه وتنفيذه القوى والجهود وتكون المعارضة في داخل هذا الحزب بحسب آراء الأعضاء في كل مسألة تعرض ، ومن خرج عن الوحدة وأباها فقد خرج على الأمة فإن نجحتم في هذا المسعى فذاك ، وإلا فقد أديتم الواجب وخلصتم من التبعة وحسب حكومتكم أن تسير على منهاج قومي في كل خطواتها تكافئ المحسن لإحسانه وتأخذ المسئئ بإساءته بغض النظر عن لون كل امرئ الحزبي .

ذلك يا صاحب الرفعة ما بدا لنا في الموقف الحاضر رفعناه إليكم ولنا بعد ذلك مقترحات في الناحية الإدارية والاقتصادية وما إليها ندعها الآن وحتى نرى من أثر هذا الخطاب وإنما لتحقيق هذه الوحدة الإصلاحية لمنتظرون .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

حسن البنا

المرشد العام للإخوان المسلمين

- ١١ -

نماذج من مذكرات الإخوان وكلماتهم التوجيهية

إلى الحكومات المختلفة^(*)

حضرة صاحب المعالي أحمد خشبة باشا وزير الحقانية ..

أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تمسك بشريعته إلى يوم الدين، وأرفع إليك تحية الإخوان المسلمون ، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمون اليومية» ، العدد (٦١) ، السنة الأولى ، بتاريخ ١٥ شعبان سنة ١٣٦٥هـ - ١٤ يوليو ١٩٤٦م .

يا سيدي الباشا .. لست في حاجة إلى أن أتحدث عن إسلامكم وحسن استعدادكم لمناصرة الفكرة الإسلامية المنقذة ، بل التي لا منقذ للعالم سواها الآن .

ولست في حاجة إلى أن أتقدم إليكم بالبراهين الكثيرة والحجج المتضافرة على أن دواء هذه الأمة في رجوعها إلى هدى الإسلام في كل الشؤون ، وأول هذه الشؤون القانون فأنت بحمد الله – فيما أعتقد – مقتنع بهذه الفكرة : سمعتك تتحدث بها وتدلل عليها وتعمل لها وأنت خارج الحكم، وأنت عضو في مجلس إدارة الشبان المسلمين ، وأنت أمين صندوق اللجنة العامة للدفاع عن فلسطين، وأنت رئيس جماعة إحياء مجد الإسلام .

والآن معالي الباشا .. وقد جاء دور العمل وواجهنا الحقائق ، ودخلنا بوتقة التجارب ، وأصبحت وأنت شيخ القضاة ورأس المشرعين في مركز تستطيع أن تحقق ما يرجوه المسلمون جميعاً ويتمنونه ، ويريدون الحصول عليه مهما كلفهم ذلك من أثمان ، وما كنت أنت نفسك تتمناه وترجوه وتؤمن بصلاحيته وتعتقده ، من وجوب تعديل القوانين ، وتوحيد المحكمة المصرية حول الشريعة الإسلامية .. الآن وقد صرت راعياً مسؤولاً عن الرعية من ناحيتك .

يا سيدي الباشا .. إن صدور الأمة محرجة أشد الحرج لشعورها بأنها تحكم بغير كتاب الله وقانونه وشريعته ، وإن الشعوب إن تعودت الصبر حيناً ، فإن الانفجار نتيجة طبيعية لهذا الصبر في كثير من الأحيان ، وليس يجرح النفس شيء أكثر من الاصطدام بالعقيدة الراسخة الثابتة ، وإن قوانيننا الحالية تنافي الإسلام وتصدمه وتحطمه في نفوس المؤمنين به وهم كل هذا الشعب ، وقد تفتحت أذهان الأمة وأركت بُعد ما بينها وبين دينها في هذه الناحية فشعرت بالحرج الشديد إن بقيت الحال على ما هي عليه ، فلا تلجأوا الناس إلى عصيان القوانين واحتقار الشرائع والتبرم بالقضاء وبالأحكام .

يا باشا .. لنقف معاً بين يدي الله ونسمع معاً ، ألم يقل الله تبارك وتعالى «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» سورة النساء ، «وَأَن أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ دُنُوْبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَن أَحْسَنُ مِّنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ» سورة المائدة في بيان طويل يستفتح بالآية الكريمة «وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» و«الظالمون» و«الفاسقون» ، «إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا» سورة النساء ، هذا في الناحية الكلية ، وفي الناحية الجزئية قد بيّن القرآن كثيراً من الأحكام في كثير من الشؤون المدنية والجنائية والدولية والتجارية وما إليها ، وأكدت الأحاديث الصحيحة كل ذلك أيده ، وما أنزلها الله وقدرها إلا ليعمل بها المسلمون وينتهوا إلى حكمه فيها ، ويستمدوا منها ويطبّقوا عليها ، فإذا كانت قوانيننا وشرائعنا والدستور نفسه مستمدة من معين غير هذا المعين مستقاة من مصادر أوروبية بحتة بلجيكية وفرنسية ورومانية وهي في الكثير من كلياتها وجزئياتها تتناقض تناقضاً صارخاً مع التعاليم الإسلامية الصريحة ، فكيف يكون موقف المسلم الذي يؤمن بالله وكتابه فيما إذا عرضت له قضية حكم فيها بغير ما أنزل الله وكان الحكم مناقضاً لدين الله؟! وكيف يستحل القاضي هذه المخالفة ، وكيف يستسيغها وكيف يتحمل تبعاتها شيخ القضاة ووزير العدالة والتشريع بين يدي أحكم الحاكمين ؟

أنقذونا يا باشا من هذا الحرج وأخرجونا من هذه الورطة ، ولا تجعلوا أعمالنا تصطدم بعقائدنا وأنا أعرف كثيراً من الناس يفضل ضياع حقوقه مدنية أو جنائية أو تجارية على أن يقف بين يدي قاض يحكم بغير ما أنزل الله ، إن التبعة يا باشا كبيرة ، ولئن كان هذا الحساب شديداً فإن هناك حساب الله ، ومهمتنا التذكير ، ولا يغني أن نتعلل بالمعاذير فإن الله لا ينظر إلا إلى القلوب والأعمال .. هذا من الوجهة الروحية البحتة – ولنأت من الوجهة القانونية ، ألم يعترف كبار رجال القانون من مصريين وأجانب بأن الشريعة الإسلامية من أخصب منابع التشريع

وأزكاها وأدقها وأشملها؟ ولم ننس بعد تصريح المسيو بيولاكازللي بوجوب تصحيح القواعد الفاسدة في القانون الفرنسي المعمول به في مصر طبقاً للشريعة الإسلامية ، ولم ننس كذلك محاضرات المسيو لامبير وتصريحاته الخطيرة الواضحة في هذا الشأن ، ولم ننس بعد تقارير مؤتمر لاهاي في الإشادة بالشريعة الإسلامية وامتداح نظرياتها القانونية والبحوث القيمة وكفايتها في التشريع التام ، وفي مصر كثير من أعلام رجال القانون يؤمنون بذلك ويصرحون به ويودون أن يكلفوا الاضطلاع بهذا العبء ، وعجيب أن يكون من بينهم المستشارون في المحاكم المختلطة بله المحاكم الأهلية ، ومن هؤلاء محمد بك صادق فهمي رئيس محكمة المنصورة المختلطة ، والأستاذ عبد الرزاق السنهوري بك عميد كلية الحقوق السابق ، كما أشار إلى ذلك حضرة كامل بك مرسي ، وعبد الفتاح بك السيد والأستاذ علي بدوي من أساتذة القانون في المحاكم وفي كلية الحقوق .

والبحث العلمي أعدل شاهد على صحة هذه النظريات ، وما قال هؤلاء ما قالوا إلا بعد دراسات طويلة وبحوث عميقة خلدوا بعضها بكتاباتهم وبقي بعضها مستقراً في نفوسهم إلى الوقت المناسب ، وليس المقصود من هذا الخطاب هذه الموازنات فذلك له موضع آخر .

ولنأت إلى الأمر من وجهته العملية :

لقد عاشرتنا هذه القوانين خمسين عاماً ونيفاً ، فماذا أفادت منها الأمة إلا كثرة الجرائم وتزايدها عاماً بعد عام ويوماً بعد يوم وانتشار الموبقات وارتكاب الجنايات ذلك أنها لا تتفق مع طبيعتنا ولا تصلح في بيئتنا ولا تُجدي في علاج أدوائنا ولا دليل أصدق من الواقع المشاهد وذلك في الوقت الذي ترى فيه البلاد الإسلامية التي أخذت بتشريع الإسلام وقد استتب فيها الأمر وتوطدت السلطة وعمت السكينة وساد احترام القانون واطمأن الناس على الدماء والأموال والأعراض وفعلاً تريد مصر أن تصل إلى هذه النتيجة المرضية برجوعها إلى تعاليم الإسلام وشرائع الإسلام .

— ١٢ —

نماذج من مذكرات الإخوان المسلمين

لمعالي وزير الحقانية في وجوب العمل بالشريعة الإسلامية^(*)

يا سيدي الباشا ..

الأمر واضح لا يحتاج إلى بيان وبقيت بعض شبهات يتعلق بها الذين يقفون في طريق الإصلاح بحسن قصد أو سوء قصد ، نحب أن نناقشها في إيجاز ، وأنا معتقد أن معاليكم أعرف الناس بأن هذه الشبهات أو هي من أن تقف في سبيل إصلاح ما .

يقول هؤلاء المرتابون :

(١) إن في مصر عناصر غير إسلامية ، إن حُكمت بأحكام الإسلام كان ذلك متنافياً مع حرية الدين التي كفلها الدستور للمواطنين ، وإن حُكمت بغير أحكام الإسلام كان ذلك نوعاً من الامتياز البغيض الذي حمدنا الله على التخلص منه ، وإزاحة كابوسه عن صدور ، هذه الشبهة مردودة بجزئها ؛ فإنهم إن عوملوا بتعاليم الإسلام لم يكن في ذلك اصطداماً بحرية الدين ، فإن الحرية المكفولة هي حرية العقيدة وحرية العبادة والشعائر وحرية الأحوال الشخصية ، أما الشؤون الاجتماعية فهي حق الأمة ومظهر سيادتها ، فهم فيها

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمون اليومية» ، العدد (٦٢) ، السنة الأولى ، بتاريخ ١٦ شعبان سنة ١٣٦٥هـ - ١٥ يوليو ١٩٤٦م .

تبع للأكثرية ، فإذا ارتضت أكثرية الأمة قانوناً في هذه الشؤون الاجتماعية بصرف النظر عن مصدره فهو قانون للجميع ؛ إذ إن محاربة الجريمة من حق الدولة بدليل أن الأمم الأوروبية وهي التي تفخر باحترامها للحرية والحقوق الشخصية وتزهد بأنها أقرت الديمقراطية ونادت بحقوق الإنسان ، مع هذا هي تعامل كل نزلائها وأقلياتها بحكم القوانين الموضوعية المرضية عندها بصرف النظر عن أديانهم وعقائدهم فالإنسان في فرنسا أو إنجلترا أو في ألمانيا أو نحوها سواءً أكان نزيلاً يتمتع بجنسيته الخاصة أو مواطناً يخالف الأكثرية في الدين يحاكم بمقتضى قانون البلاد الموضوع ، دون نظر إلى قانون بلده أو تشريع دينه ، وبغير ذلك لا تتحقق سيادة الأمة ولا يتحقق استقلالها الداخلي ، هذا إن عوملوا بأحكام الإسلام وشريعته ، وإن عوملوا بحسب شرائعهم مع الاحتفاظ بحقوق الدولة كاملة معهم ، فليس في ذلك امتياز يُخيف ، فإن المساواة في الأحوال الشخصية بين المسلم وغير المسلم مفقودة إلا إذا رضي غيره بذلك ، ولا يقال إن إقرارنا لهؤلاء المخالفين على أحكام دينهم في أحوالهم الشخصية امتيازٌ ممنوحٌ لهم ، يفضلون به غيرهم ، بل هو خلاف خاص بهم ، وأما الامتياز المؤلم فهو أن تضيع حقوق أبناء الوطن في سبيل الأجانب وغير المسلمين بحكم الضعف والاستكانة والذلة والمهانة والإسلام الفسيح المدى لا يحتم علينا أي الطرفين ، فنحن نختار ، والأولى إلينا أحب ، وبحالنا أوجب ، ولأمر ما قال الله تبارك وتعالى في صدر آيات الحكم بتنزيله «فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَسْتَرْوُا بِآيَاتِي ثَمَّ قَلِيلًا» ، على أننا نعرف كثيراً من أفضل رجال القانون من مواطنينا المسيحيين جهروا كثيراً بأنهم يودون لو عوملوا بأحكام الشريعة الإسلامية في كل شيء .

(٢) ويقولون كذلك إن نصوص المعاهدة تحتم علينا أن نسير في تشريعنا على أحدث النظريات ، وذلك يمنعنا من العودة إلى تشريع الإسلام ، وإلا كنا خارجين على أحكام هذه النصوص ، وتلك شبهة مردودة كذلك بجزئها أيضاً ، فإن تعديل المعاهدة لا يعد تملاً وخروجاً في كل حال ، فإذا اتفق الطرفان على التعديل فهو تميمٌ لهذه المعاهدة واستكمالٌ لنقصها لا نقضٌ لها ، وليست هذه المعاهدة تنزيلاً من حكيم حميد ، فهي عرضة للتعديل والتحويل في كل وقت حسب ما يطرأ للطرفين من عوامل وظروف ، وإلا فلماذا يحق للطرف الآخر أن يحور ويعدل في كل وقت كما هو مشاهد ملموس ؟ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فعلماء القانون من المسلمين أزهريين وغير أزهريين على استعداد لأن يثبتوا لكل مخالف أن تشريع الإسلام الحنيف أفضل من كل تشريع حديث يعرفونه ، بالدليل القاطع ، والبرهان الناصع ، فلا حجة لمخالف ، ولا يصح أن نقف عن إصلاح شئوننا إرضاءً للمكابرين الذين لا يرضون منا إلا بأن نسير وراءهم ، وأن نقيد خطانا بشهواتهم ورجواتهم .

(٣) ويقولون كذلك إن كثيراً من هذه التشريعات لا يمكن تطبيقه عملياً ، ولناخذ مثلاً «الربا» فهل نستطيع إبطاله من محاكمنا وقانوننا ونحن مرتبطون بالنظام الاقتصادي الدولي العام؟! والشبهة مردودة كذلك بما نشاهد من أحوال الدول القوية العزائم ، التي وضعت لنفسها نظاماً اقتصادياً خاصة ، وفرضتها على أممها وأجبرت العالم على احترامها ، وكان العامل الأكبر في ذلك صدق عزيمة حكوماتها ، وحسن استعداد شعوبها ، فلا عقبة أمامنا في مثل هذا إلا الوهن وتجسيم الأمور والخوف الذي لا مبرر له ، ونحن والحمد لله أمة غنية بمواردها ، وكل المواد الحيوية والضرورية موفرة لدينا ، ونستطيع الاستغناء إلى حدٍ كبير عن غيرنا مع حفظ كياننا الاقتصادي لو صحت عزائمنا ، ماذا فعلت إيطاليا حين وقفت أمامها بالمرصاد اثنتان وخمسون دولة ، فيها الدول العظمى وفرضت عليها العقوبات وحصرتها داخل ديارها ؟ ألم تُرغم هذه الدول على احترام مشيئتها وتقدير عزميتها ، وأنفذت قرارها بدون سيف أو نار ، ولكن بغيرة الشعب وعزيمة الحاكمين؟! وماذا فعلت الدول لهتلر حينما أصدر أمره بعدم خروج النقد من ألمانيا بتأناً؟ هل

وقف دولاب التجارة في ألمانيا أم احترمت الشعوب الأخرى هذه الإرادة وعاملت ألمانيا على أساس
المبادلة التجارية؟

لا يقال إن هاتين الدولتين قويتان ونحن ضعفاء ، فليس الكلام في حشد الجيوش وتجهيز المعدات ، ولكن
نتكلم في البيع والشراء والأخذ والعطاء، وكل شعب مهما ضعُف حرٌّ في ذلك كله إن حُدِّت وجهته ، واستبانته
غايته ، وقويت عزيمته .

إن الشعوب الأخرى يهْمُها أن تكون معها شرفاء في المعاملة ، ونحن نلاحظ أن كثيراً من المصارف
والدائنين يرضون بالتسويات ، وفيها نزول عن شيء من الحق الأساسي في سبيل الحصول على هذا الحق ، فإذا
منع القانون التعامل بالربا وتشدَّد في استيفاء الحقوق ، كان في ذلك الضمان الكافي للممولين الآخرين ، ورضوا
به واطمأنوا إليه وعاملونا على غير أساس الفوائد والربا المحرم شرعاً في كل كتاب .

ولماذا لا تكون مصر السابقة بإنقاذ العالم (من نظام الفائدة البغيض)؟ ولماذا لا تبشر حكومة مصر بهذا
المبدأ السامي الإنساني الرحيم؟ ولماذا لا ترفع راية الدعوة إلى تحرير الإنسانية من رقِّ الربا وإقناع الشعوب
بوجاهة هذه الفكرة كما رفعت بعض الدول الأوروبية راية الدعوة إلى تحرير الإنسان من رقِّ العبودية ، وأقنعت
الشعوب بوجاهة نظرتها وكسبت فخر هذا الدفاع!؟

ولمَ الخوف؟ وفيم اليأس؟ هل نعجز عن أن نقدم للإنسانية خدمة جليلة ونحن الذين أنقذناها في كثير من
المواقف ، وأشعلنا بين كثير من أممها شعلة العرفان والنور؟ ليس هذا من الشعر ولا من الخيال يا باشا ، ولكنها
حقائق سيتنبه لها العالم ، ونريد أن يكون لنا شرف سبق بهذا التنبيه .

ولماذا لا تكون هذه الخطوة يا باشا سبيلاً إلى الحرية الاقتصادية ، وطريقنا إلى تعويد هذا الشعب الذي
طال به عهد الاعتماد على الغير أن يعتمد على نفسه وعلى موارده ، وأن يستغني في كثير من شئونه عن الناس؟
وهل هناك فرصة أتمن من هذه؟ وهل هناك عامل يُساق به هذا الشعب المتمسك بدينه أقوى من الدين؟ وهل
هناك إنقاذ لهذا الشعب الفقير أعظم من إنقاذه من اللصوص السرقة القساة من المرابين؟

هذا مثلٌ أحببت أن أتقدّم به لدحض هذه الشبهة ، شبهة صعوبة تطبيق الشريعة الإسلامية ، وأخرت لذلك
أعقد المسائل وأصقها وأمسها بحياة الناس حتى لا يكون هناك قول للقائل ولا حجة لمعتذر .

— ١٣ —

نماذج من مذكرات الإخوان المسلمين

لمعالي وزير الحقانية في وجوب العمل بالشريعة الإسلامية^(*)

يقولون : إننا حين نطبّق هذه الشرائع الإسلامية في قطع يد السارق ، ورجم الزاني وما إلى ذلك ، نرجع
بالأمة إلى عهد الهمجية ، ونفوت عليها فرصة الانتفاع بما بلغت من رُقْيٍ ومدنية ونسلكها في نظام الأمم
المتأخرة المتبربرة ، وهذا كلام لا يساوي سماعه ، ولا يستحق أن يردّ عليه ، وإنما أملاه على هؤلاء الناس
تحلّهم من عقدة النظم الاجتماعية ، وعكوفهم على الإباحية في كل شيء ، واعتداؤهم على ما ليس لهم من
أعراض وأموال ، وتخوفهم من أن يكونوا الضحايا الأول لتطبيق هذه النظم الحازمة وما كانت الجريمة في يوم
من الأيام مظهر المدنية ولا الرقي ، ولا كان القانون الذي يستأصل الجريمة ويقضي عليها مهما كان من شدته

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمون اليومية» ، العدد (٦٣) ، السنة الأولى ، بتاريخ ١٧ شعبان سنة ١٣٦٥هـ - ١٦ يوليو
١٩٤٦م .

قاسياً ولا رجعيًا ، ولكنه عينُ التقدم ومظهرُ الارتقاء الصحيح ، وهي إذن قديمة وأفكار بالية عتيقة أن لها أن تنقرض وأن للمصلحين ألا يعيروها شيئاً من الاهتمام ، بعد أن رأينا أن الفكرة العامة في التشريع أصبحت متجهة إلى أخذ المجرمين بالحزم ، واستبدال السُّبُل الرادعة والأحكام الزاجرة بمظاهر الرخاوة القانونية التي ساعدت على انتشار الجرائم في الأمم ، وجعلت القوانين تكاد تكون عديمة الفائدة في تهذيب الناس ، وأضاعت على الشعوب كثيراً من الأموال والجهود في المحاكم والسجون والشرط والموظفين القضائيين بغير طائل ، نحن نريد النتائج العملية ، ولا عبرة بزخرف القول وتزويق العبارات .

ويقولون : إن ذلك غير ممكن عملاً ؛ فإن رجال الشريعة الإسلامية لا يحسنون التنسيق القانوني الواجب ، ورجال القانون لا يلمون بالشريعة الإسلامية الإلمام الكامل ، ومتى كان الأمر كذلك فمن يتولى إخراج القانون الإسلامي الجديد للناس في صورة منسقة وصياغة قانونية تامة ؟ وتلك شبهة واهية كذلك ، والتعليق على هذه الصعوبة من أهون المسائل ، والدعوى غير صحيحة على إطلاقها ؛ فإن من رجال الشريعة الإسلامية من يحسن التنسيق القانوني إلى حدٍ كبير ، ومن هؤلاء الأستاذ الشيخ أحمد إبراهيم بك وكيل كلية الحقوق ، وإن من رجال القانون من درس كثيراً من مسائل الشريعة دراسة تامة عميقة ، ومن هؤلاء الأستاذ السنهوري ، ونسوق ذلك على سبيل المثال ، وإلا ففي رجالنا والحمد لله خيرٌ كثيراً ، وقد اضطلع الأستاذ السنهوري وحده بكثير من هذا العبء يوم دُعي لتنسيق القانون في العراق فأحسن وأجاد .

وأخيراً يرجف هؤلاء القائلون بفكرة مادية بحتة تدور حول المصالح الشخصية ، فيقولون : إنكم بهذا تعطّلون هذا الجيش من رجال المحاكم الأهلية ، من قضاة ومحامين ومستشارين محترمين ، وتتعصّبون لرجال المحكمة الشرعية على اختلاف أعمالهم ، فتعطون قوماً أكثر مما يستطيعون أن يقوموا به ، وتحرمون الآخرين من كل شيء ، ذلك إلى أنكم ترون أن المحاكم الأهلية أدقّ نظاماً ، وأعظم في الإجراءات إحكاماً من سابقتها ، فكيف تريدون أن تحملوا المنظم الدقيق على ما هو أقل منه في ذلك ؟ وهذه مغالطة مكشوفة ، فليس العلم وفقاً على قوم دون آخرين ، وفي وسع القاضي الأهلي والمحامي الأهلي أن يدرس أحكام الشرع الإسلامي في بضعة شهور ، والنظام في المحاكم لا يتقيد بنصوص مواد القانون ، وإنما يرجع إلى أسباب أخرى كلها تزول إذا صحت العزائم ، على أننا لا نريد بهذا الإصلاح تعصباً لناحية ، بل نريد أن يزول هذا التفريق كله ، ونقضي على هذا الانقسام في حياة أمة تسير إلى الوحدة ، ولا قوة لها إلا بالوحدة ، فلا محاكم أهلية ، ولا محاكم شرعية ، ولكن محكمة واحدة إسلامية مصرية على أدقّ النظم وأحكم الإجراءات ، عماد قانونها شريعة الله وحكم الإسلام .

هذه هي بعض الشبهات التي تقال ، وقد رأيت- معاليكم- أنها مردودة بالحجة مدفوعة بالبرهان ، وذلك شأن كل شبهة يملئها الهوى ويراد بها الصدُّ عن الحقائق ، لم يبق بعد ذلك عذراً يا باشا ، ولهذا يتوجّه الإخوان المسلمون إليكم بالرجاء ، معتقدين أنهم في ذلك إنما يمثلون الأمة الإسلامية جميعاً بهذين الطالبين :

أولاً : أن تسلّموا معهم بمبدأ (وجوب العودة إلى التشريع الإسلامي وتوحيد المحكمة المصرية على أساسه الآن).

ثانياً : أن تأمروا بإعادة تشكيل لجنة تعديل القوانين الحالية التي يرأسها الأستاذ كامل بك صدقي تشكيلاً جديداً يحقق هذه الغاية بأن تسند رياستها إلى معاليكم رأساً ، أو إلى فضيلة شيخ الأزهر أو المفتي الأكبر وأن تضمّ بين أعضائها أكبر عدد ممكن من رجالنا البارزين في الشريعة الإسلامية ، من رجال القضاء الشرعي والأزهر الشريف ، وفي القانون الوضعي بفروعه المختلفة ، ولا بأس بأن يكون من بينهم الأستاذ كامل صدقي بك .

يا معالي الباشا .. إننا أمة مسلمة وقد وطننا بالعزم على ألا نُحْكَمَ بغير قانون الله ، وشريعة القرآن الكريم ،
وتعاليم محمد عليه الصلاة والسلام ، مهما كلفنا ذلك من ثمن، ومهما بذلنا من تضحيات ، وذلك أبسط حقوقنا
كأمة لا تعدل باستقلالها في كل مظاهره السياسية والاجتماعية شيئاً ، فأعينونا على الوصول إلى هذا الحق ،
وارفعوا عنا هذا الحرج ، ولا تُلجئوا الأمة إلى سلوك سبيل المضطربين .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

— ١٤ —

نماذج من مستقبل الثقافة في مصر للحقيقة والتاريخ (*)

كان وزير المعارف محمد حسين هيكل باشا في سنة ١٣٥٨ هـ ، أي من سبع سنوات قد فكر مع فضيلة
شيخ الأزهر الأستاذ المراغي رحمه الله في مشروع توحيد التعليم الديني والمدني في المعاهد المصرية وتناولت
الجرائد هذا البحث بكثير من الكتابات والتعليقات فبعث الإخوان المسلمون هذه المذكرة إلى معالي وزير
المعارف وإلى فضيلة شيخ الأزهر ليدلون فيها برأيهم في المشروع .

سيدي صاحب المعالي .. أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أصلي واسلم على سيدنا محمد وعلى آله ومن
تبع هداه .. وأرفع إليك تحية الإخوان المسلمين ، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

يا صاحب المعالي .. إن من أمتن دعائم النهضة وأقوى أركانها وحدة الفكر ووحدة العاطفة ووحدة الشعور
ووحدة الآلام والأمال وذلك كله تتمه وحدة الثقافة ، ولهذا كانت فكرة توحيد المدارس الدينية والمدنية إلهاماً
مباركاً في هذا الوقت الذي نتياً فيه للعمل والنهوض ، ولكن الفكرة وحدها لا تكفي ، بل لا بد من الإنفاذ والعمل ،
والإنفاذ وحده لا يكفي ، بل لا بد من التفكير في أفضل طرقه ووسائله حتى لا تنحرف بنا الطريق فنضرب أكثر مما
نفيد ، ولهذا كان من واجب الغيورين أن يتقدموا بما عندهم من ملاحظات وآراء ، والحقيقة رهن البحث
والتفكير .

إننا يا صاحب المعالي أمة متحدة في كل شيء إلا في شيء واحد لعله أهم مظاهر الوحدة وهو الثقافة
والتفكير ، ولقد طفت هذا القطر المصري الكريم من أقصاه إلى أقصاه وجبت مدنه وقراه واتصلت بأوساطه
المختلفة وبيئاته العديدة فوجدت الوحدة تشمل كل مظاهر حياته من نظام معيشة وتقاليده وعادات إلا بعض
الخلافاً الموضوعي الذي هو وليد الظروف الخاصة فقط ، وليس هناك تخالف جوهرية في نظم الحياة العامة
فنظام حياة الطبقة الوسطى مثلاً في أسوان هو نظام حياة هذه الطبقة في القاهرة وفي طنطا وفي الزقازيق وفي
غيرها شرقاً وغرباً ، فالمأكل واحد والمشرب واحد والملبس يكاد يكون واحداً وهكذا ، ولكن الخلاف الصارخ
العظيم هو في التفكير والثقافة والأمال والآلام ، ولذا لا تكاد تلتقي وجهات النظر إذ دار بحث قضية من القضايا
في مجتمع من مجتمعاتنا المصرية .

هذا الخلاف طبيعي بالنسبة للظروف التي تجتازها الأمة قديماً وحديثاً ولخطوات التطور التي تخطوها
ولعصر الانتقال الذي اجتازه ، مما جعل ثقافة الأمة ذات طابعين متميزين تميزاً تاماً ، لا يكاد يلتقي أحدهما
بالآخر وإن أخذاً يتقاربان .

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمون اليومية» ، العدد (٦٤) ، السنة الأولى ، بتاريخ ١٨ شعبان سنة ١٣٦٥ هـ - ١٧ يوليو
١٩٤٦ م .

فلقد أتى على مصر زمان كانت ثقافتها فيه تدور حول محور واحد هو فروع الدين وتنحصر في معهد واحد هو الأزهر وفروعه ، ففي الأزهر يتخرج العلماء والأئمة والوعاظ والقضاة والحاكمون ، وأبناء الأزهر هم الذين يتفنون الأمة ويطبعونها بالطابع الذي يريدون ، واستمر ذلك وقتاً رسخت فيه أصول هذه المدرسة وثبتت دعائمها ثم جاء دور الاتصال بأوروبا والنقل عن أوروبا في أطواره المختلفة فأنشئت المدارس المدنية إلى جوار الأزهر وعدت على اختصاصاته واحداً فواحداً حتى حصرته في نطاق ضيق هو نطاق الفكرة الروحية وأخذت منه كل المظاهر العلمية تقريباً وتعددت أنواع التعليم وتكاثرت وتكررت التجارب فإذا بنا نرى سلسلتين من أنواع المدارس :

فهناك الأزهر وأقسامه وفروعه من الابتدائي والثانوي والكليات وأقسام التخصص ويلحق به في مهمته مدارس المعلمين الأولين إن شئت ذلك .

وهناك كذلك المدارس المدنية من رياض الأطفال والابتدائي والثانوي والجامعة ويلحق بها المدارس الخصوصية والفنية من زراعية وصناعية وتجارية إن شئت ذلك ، وهناك معهدان حائران بين القسمين هما دار العلوم ومعهد التربية .

لكل من هاتين السلسلتين أثر بالغ في نفوس قسم من أقسام الأمة وكل نوع من هذه المدارس يهيمن على عقول وأفكار يوجهها توجيهاً كثيراً ما يكون بعيداً من توجيه القسم الآخر وفي ذلك ما فيه من الخطر على أمة ناهضة لا سناد لها إلا الوحدة ، وإذن لابد من أن نبحت وحدة الثقافة ، ولا بد من أن نعمل على تحقيقها .

— ١٥ —

من تتمة مذكرة الإخوان المسلمين إلى معالي وزير المعارف وفضيلة شيخ الأزهر سنة ١٣٥٨هـ^(*)

يظن كثير من المدنيين أن في مقدور الحكومة ، وفي مقدور الصحف وغيرها من دعاة الفكرة المدنية القضاء على آثار الفكرة الإسلامية وتخليص الأمة منها وصبغ كل شيء بالصبغة المدنية البحتة ويحتجون لذلك بما فعلته بعض الأمم الشرقية في هذا السبيل ، وهم يتحمسون لفكرتهم هذه ، ويوجهون إليها الشعب بمختلف الوسائل والدعايات ، وفاتهم أن الحال في مصر غيره في البلاد الأخرى ، فقد امتزج الإسلام بدم كل مصري ، وتغلغل في قلبه وروحه ودمه وعروقه ، وآمن به إيماناً هو أبقي على الزمن الباقي من الزمن ، فكل محاولة في سبيل هدم هذا الإسلام في نفوس المصريين محاولة فاشلة ، إن أخفت مظاهرها حيناً فلن تقضي عليه ، وإنها لتظهر بأقوى مجالها في أحيان أخرى كثيرة، والواقع أعدل شاهد على ذلك، فقد ظن الناس في وقت قريب أن الإسلام قد وهن في نفوس الشعب حتى عجز عن حماية نفسه، وإذا بهذا الإسلام ينتفض فتتخطم باسمه هيئات راسخة ، وتتغلب باسمه حكومات وطيدة ويهرم الدهر بعد ذلك والإسلام إسلام .

ويظن كثير من الدينيين أن هذه المظاهر المدنية شرٌّ كلها ، وأن تخليص الأمة من شرورها وآثامها هيّن ممكن، فهم يتحمسون لفكرتهم بدورهم ، ويدعون الناس إليها بمختلف الوسائل والأساليب ، وإن كانت أجهزتهم أضعف وأسلحتهم أقل ، ولكنهم يجدون من الشعب تعزيراً وتأييداً ، وهؤلاء متغالون كذلك ؛ فإننا لن نستغني أبداً

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمون اليومية» ، العدد (٦٥) ، السنة الأولى ، بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٣٦٥هـ - ١٨ يوليو ١٩٤٦ م .

عن هذه القوة المادية ، ولن نتغلب على أعدائنا ، إلا إذا سبقناهم في ميادين علومهم ومعارفهم ، وأعدنا أنفسنا بمثل ما يعدون لنا إن لم يكن في الكم ففي الكيف على الأقل .

وإذن فلا محيص من المزج بين الفكرتين ، وبخاصة أن الإسلام دينٌ مرّنٌ فسيحٌ، يساعد على الإصلاح ، ولا يقف في طريقه ، ويحض على التعلم ولو بأقصى الأرض ، ويأخذ الحكمة وهي ضالة المسلم ، ولا يبالي من أي وعاء خرجت ، ويجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وذلك هو واجبنا لتوحيد الفكرة والقضاء على هذه الفوضى وتكوين الأمة القوية العزيزة الموحدة الأهداف والغايات هو الذي يجعلنا نستقبل فكرة توحيد المدارس الدينية والمدنية في الدور الابتدائي والثانوي بسرور وفرح واستبشار ؛ ولهذا يتقدم الإخوان المسلمون بهذه الملاحظات ، معتقدين أنها ستلقى من عنايتكم ما يتكافأ مع الغاية التي أملتها والشعور النبيل الذي أوحى بها :

أولاً : نرجو ألا يكون ذلك على حساب الفكرة الإسلامية ، وألا يكون معناه تقليد الغرب في سلخ مناهج التعليم عن الفكرة الدينية والعدول بها إلى العلمانية البحتة بالتدريج ، بل لا بد أن يكون المقصود بذلك تكوين الطالب في أدوار فعلية تكويلاً صالحاً تتكافأ فيه معلوماته الدينية ومشاعره الروحية وتربيته الخلقية مع ثقافته العلمية .

ثانياً : نرجو أن يكون هذا التوحيد فاتحة تعديل تام في مناهج التعليم تعديلاً يجعلها غذاءً صالحاً للعقول والأرواح في كل المعاهد ، ويبعد بها عن الحشو واللغو ، ويربط سلسلة التعليم بعضها ببعض ، فيتكون نظام المعاهد في مصر على النحو الآتي مثلاً :

(أ) التعليم التحضيري أو الأولي ، ومنه رياض الأطفال ، ويكون إجبارياً ذا منهاج يتناسب مع مدارك الطفل في هذه السن ومع مطالبه النفسانية .

(ب) التعليم الابتدائي ، ويستمد من سابقه ، وتحذف منه اللغات الأجنبية بتأثراً، وتضاف مدة دروسها إلى اللغة الوطنية والعلوم الإسلامية الخلقية ، وهذا الرأي – وهو حذف اللغات الأجنبية من المدارس الابتدائية – يقول به معظم حضرات رجال المعارف المختصين بالتربية ودراسة علم النفس ، وقد نادوا به من قبل وهو المعمول به في كل الأمم الأجنبية ؛ حيث يخصص هذا الدور من التعليم بإتقان لغة البلاد .

(ج) التعليم الثانوي ، ويستمد من سابقه ، وتُدرس فيه لغتان أجنبيتان : لغة شرقية ولغة غربية بدلاً من لغتين غربيين ، وذلك هو المتفق مع نهضتنا وأماننا ومطامحنا وصلتنا بالشرق ، ويُعنى فيه بالدروس الإسلامية والخلقية وتاريخ الإسلام والتربية الوطنية ، ويلحق بهذا التعليم ويكمله أو يبنى عليه التعليم الفني والخصوصي ومدارس المعلمين الصغيرة بعد تخصص في التربية وعلم النفس .

(د) التعليم العالي أو الجامعي ، ويستمد من سابقه ، وتتفرع الجامعات فيه إلى الجامعة الأزهرية بأقسامها الحالية بعد تعديل وزيادة بحسب حاجة الأمة ومقتضيات الأحوال ، والجامعة المصرية بأقسامها بعد تعديل كذلك، والجامعات الأخرى التي ستتطلبها النهضة ، ويلحق بهذا القسم المدارس العسكرية ومدارس المعلمين الراقية بعد تخصص في التربية وعلم النفس كذلك ، أو تكون هذه الدراسة في كليات جامعية مع توحيد الدرجات وتحديد الاختصاصات في كل الكليات ، ويُعنى في جميعها بالدراسات الإسلامية وتاريخ الإسلام على تفاوت يتناسب مع مهمة كل منها ؛ بحيث يخرج الطالب وقد حذق تعاليم الدين والعقائد ، وبذلك تتم مراحل التعليم العادية في الأمة ، ويفتح المجال أمام من أراد الاستزادة من عبادات ومعاملات .. إلخ ، بما رأوا في إطلالته .

وحبذا لو فُكّر في اختيار طائفة من خريجي الكليات الإسلامية والعربية المقترحة في مئاة من الخلق وغنى من الثروة، يحتلون هذا المسجد العتيق (الأزهر) ويتفرغون للبحث والتنقيب والكتابة والتأليف وإمداد العالم الإسلامي ، بما هو في حاجة إليه من فتاوى ونظم وأحكام ، وتجري عليهم أرزاق كافية ويكونون بعيدين كل البعد عن تقلبات السياسة وعواصف الحكومات وتحكم الملوك والأفراد ، يخدمون العلم للعلم ، ويقولون الحق للحق ، ويتمكنون من دراسة دين الله ، ويختصون بهذه البحوث في شريعته ، ويختارون من بينهم شيخهم فيكون هو شيخ الإسلام، وبذلك ينفصل منصب شيخ الإسلام عن منصب مدير الجامعة الأزهرية ، وحبذا لو انفسح صدر هذا المجمع الإسلامي للعلماء من الأقطار الإسلامية الأخرى على اختلاف أقطارهم ومذاهبهم فوسعهم وتعاونوا على إحقاق الحق وتقريب وجهات النظر وجمع شتات المسلمين ودعوتهم جميعاً إلى الخير .

وحبذا لو تمّ مشروع توحيد مناهج التعليم في الأقطار الإسلامية ، فيسهل بذلك على الطلاب من كل قطر إسلامي أن ينتسبوا رأساً إلى كليات الجامعة الأزهرية .

- ١٦ -

من تمة مذكرة الإخوان المسلمين إلى معالي وزير المعارف وفضيلة شيخ الأزهر سنة ١٣٥٨هـ^(*)

بقي أمامنا مشكلة لا بد من علاجها في وضوح وجرأة وصراحة تلك هي مشكلة تحفيظ القرآن الكريم ، فقد درجت المناهج في مصر وتقرر في أذهان الناس أن تحفيظ القرآن جزء من مناهج التعليم لأول أدواره ؛ إذ إن هذه السن هي وقت قوة الحافظة والذاكرة ، ولا يتيسر حفظه فيما بعد ذلك ، وصار هذا عرفاً يجد الناس في مخالفته كثيراً من الحرج ، ويخيل إليهم أن في ذلك ضياعاً لكتاب الله ، وترى من جانب آخر أن اشتغال الطلبة بحفظ القرآن كله في هذه السن يفوت عليهم كثيراً من استخدام مواهبهم العقلية ، ويعطل كثيراً من قواهم النفسانية، ويرسم القرآن في عقولهم وقلوبهم ألفاظاً لا معنى لها ، ويعودهم القراءة بدون تفكير ولا تدبر في مستقبل حياتهم ، فهذه الطريقة إن خرّجتهم أوعية القرآن فقد حرمتهم لذة تدبره وثمره التفكير في معانيه ومقاصده ، والمشكل قديم ، وقد عالجه «أبو بكر بن العربي» ، وأشار إليه ، وأبان أن التحفيظ ابتداءً طريقة المشاركة ، ونقد هذه الطريقة نقداً مرأً ، وزكى طريقة المغاربة والأندلسيين في البدء بتعليم اللغة وتذوق الأدب ، ثم يأتي دور دراسة القرآن بعد ذلك ، ونحن نريد أن نوفق بين حفظ كتاب الله والمحافظة عليه وبين الانتفاع بكل القوى والمواهب في الطفل وتربيتها جميعاً تربية متناسقة ؛ بحيث يقوي بعضها بعضاً ، ويمد بعضها بعضاً ، ولنجمع بين الفائدتين نقترح أن يوزع حفظ ثلث القرآن على الأدوار الثلاثة من أدوار التعليم السابقة الأولى والابتدائي والثانوي ، فيحفظ التلميذ في مدة دراسته التحضيرية أو الأولية جزءاً واحداً فقط ، وفي دراسته الابتدائية أربعة أجزاء مع استذكار الماضي ، وفي دراسته الثانوية خمسة أجزاء مع استذكار ما سبق ؛ وبذلك يكون كل متعلم في الأمة قد حفظ شيئاً من كتاب الله ، ويكون كل من تخرج من المدارس الثانوية قد حفظ ثلث القرآن ، وفي دور الدراسة العالية يحفظ كل طالب في كليات الأدب أو الدراسات الإسلامية الثلثين الباقيين ؛ بحيث لا يجاز بشهادته إلا إذا أدى امتحاناً دقيقاً تاماً في القرآن كله، ويحفظ كل طالب في الكليات الأخرى خمسة أجزاء ليتم بذلك حفظه نصف القرآن ، ولا يعطى شهادته كذلك إلا بامتحان دقيق في كتاب الله ، وللتغلب على صعوبة اختلاف الأديان في المدارس يكلف غير المسلمين من الطلبة حفظ محفوظات مختارة من جيد النظم والنثر تحل درجاتها محلّ

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمون اليومية» ، العدد (٦٦) ، السنة الأولى ، بتاريخ ٢١ شعبان سنة ١٣٦٥هـ - ٢٠ يوليو ١٩٤٦م .

درجة القرآن الكريم في الشهادات والامتحانات المدرسية ، ويلفت دائماً نظر الطلبة إلى أن القرآن شيء يتعبد به ؛ فهو للعلم ، وهو للعبادة، فعليهم أن يقرؤه دائماً كذكر الله ، يطلب به ثوابه ، ويتقرب به إليه حتى يدوم تعلقهم به، وتستمر ملازمتهم له ، ويستذكرونه عن رغبة وإجلال ، لا عن عنف وإرهاق ، وبذلك نخدم كتاب الله، ويكثر عدد الحفاظ المتفقيين ، ونقضي على الاحتراف بالقرآن الكريم الذي ما نزل إلا ليكون نوراً وهداية للناس جميعاً ، وتتحل مشكلة تحفيظ القرآن على أفضل وجه ولا يختص بدراسته قوم دون قوم .

ومن متممات هذا البحث أن نصارح بأنه لا بد من التفريق بين مناهج التعليم وأماكنه بين البنين والبنات في غير الدور التحضيري ، فليس تكوين البنت كتكوين الغلام ، وليست مهمتها كمهمته ، ولا بأس بأن تتعلم ما تشاء وترقى في درجات التعليم إلى ما شاءت ؛ ولكن في حدود ما يناسب تكوينها ومهمتها ، وفي بعد تام عن الفتیان بعد سن التعليم الأولى، ولا يعتذر عن ذلك بقلة الأماكن أو قلة الأموال ، فإن صيانة أخلاق الأمة وكيانها الأدبي أمرٌ واجبٌ لا يكثر في سبيله إنفاق ، وقد جربنا مضار هذا الاختلاط واكتوينا بناره وحسبنا هذه التجارب ، والرجوع إلى الحق خير من التماذي في الباطل .

تلك بعض المقترحات الإصلاحية نضعها بين يديكم ؛ لمناسبة التفكير في إصلاح مناهج التعليم ، وتوحيد أنواعه، رجاءً دراستها وإنفاذها، وهي نقطة إجمالية ليس هنا موضع تفصيلها ، والإخوان المسلمون على استعداد للتقدم بالتفصيل إذا طلب إليهم ذلك ، وصحت العزيمة على العمل ، كما أنهم على استعداد كذلك لأن يقاوموا بكل ما أوتوا من قوة كل نظام وكل توحيد وكل مناهج يراد به سلخ البقية الباقية من المظاهر الإسلامية في أية ناحية من نواحي حياة الأمة السياسية أو الاجتماعية أو التشريعية أو الثقافية - فحن أمة مسلمة قبل كل شيء - ونريد أن نستعيد ما فقدنا من إسلامنا ، لا أن نفقد ما بقي منه بين أيدينا، وسنعمل لذلك مهما كان الثمن الذي سندفعه غالباً ، ومهما كانت التضحية التي نبذلها عريضة كريمة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

- ١٧ -

كتبنا الفصول السابقة في بيان موقف الإخوان من الحكومات المختلفة ونقفي عليها الآن ببيان رأي الإخوان وموقفهم من كثير من الشؤون والهيئات نحن والديمقراطية والأحزاب (*)

إذا كان المراد بالنظام الديمقراطي هو ذلك النظام الذي يدافع عن القواعد الأساسية للمجتمع وهي الدين والأسرة وحرية التعاقد وحقوق الأفراد على أن تكون القوانين متجهة إلى مساعدة الضعفاء والنهوض بهم للحكومة أن تتدخل في الشؤون العامة بالدرجة التي تساعد على الوصول إلى الإصلاحات الاجتماعية اللازمة .

وإذا كان المراد بالحكومة الديمقراطية أن يكون للشعب فيها نصيب في الحكم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على أساس أن لكل فرد شريف بالغ من الحقوق ما لأي فرد آخر في الاشتراك في شؤون بلاده العامة .

إذا كان المراد بالنظام الديمقراطي والحكم الديمقراطي هذه المعاني السابقة ولا نريد أن نخوض في التعريفات السياسية والمصطلحات الدبلوماسية ، فإننا نرحب بالديموقراطية على أنها ما جاء به الإسلام الحنيف .

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمون اليومية» ، العدد (٦٨) ، السنة الأولى ، بتاريخ ٢٣ شعبان سنة ١٣٦٥هـ - ٢٢ يوليو ١٩٤٦م.

فقد جاء الإسلام الحنيف ليقوم المجتمعات الإنسانية على أصلح القواعد وأقربها إلى السعادة والطمأنينة والسلام وجاء يدافع عن العقيدة الحقة وعن الأسرة الصالحة ويضع لها أحكام النظم وأكفلها للمودة والرحمة وجميل المعاشرة ، ويضمن حرية التعاقد وحقوق الأفراد الشخصية وحقوقهم في الملك والرأي والتعليم والعمل وخص الضعفاء والفقراء من الناس بعناية لم تتوفر في أي نظام آخر ، حتى قال الخليفة الأول رضي الله عنه «ألا وإن أقوامك عندي الضعيف حتى أخذ الحق منه» ، وفي القرآن الكريم وهو أساس النظام الإسلامي آيات لا حصر لها في العناية بالضعفاء والفقراء ووجوب العمل على رفع مستواهم وتحسين أحوالهم والعناية بهم والتقريب بينهم وبين غيرهم حتى تسود العدالة الاجتماعية كل أفراد الأمة ، كما أن الحكومة في الإسلام راعية فهي مسئولة عن الشؤون العامة والخاصة ولها أن تتدخل كلما كان تدخلها هذا أجدى على المجتمع وأنفع للناس ، وقد قرر الإسلام مبدأ الشورى والنصيحة وأشرك بذلك الأمة في حكم نفسها ، فقال القرآن الكريم «وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ» ، وقال «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ» ، وقال النبي ﷺ (الدين النصيحة) ، قالوا لمن يا رسول الله ؟ قال الله ولسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم) ، ولقد كان المسلمون الأولون يقدرون هذا الحق ويستخدمونه مع حكامهم وأمرائهم رجالاً ونساءً وأطفالاً ، وحسبك بهذا الرجل الذي وقف يقول لعمر : اتق الله يا أمير المؤمنين .. فقال له عمر (لا خير فيكم إن لم تقولوها لنا ، ولا خير فينا إن لم نسمعها منكم) ، وراجعت المرأة في مقدار الصداق فرجع عن رأيه علانية وقال (أصابت امرأة وأخطأ عمر) ، وحاجه عبد الله بن الزبير وهو صبي حين مر به ، ففر الغلمان ولم يفر ، وسأله عمر عن سبب وقوفه مع فرارهم، فقال (لم أجن ذنباً فأخاف منك ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع لك) ، فسر به وشجعه على مثل هذا الموقف الكريم .

وزاد الإسلام على هذه المعاني بأن أشعر الحاكم عظم التبعة حتى كان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم يكادون يذوبون إشفاقاً من هول ما حملوا وأشعر المحكومين من فضل الطاعة مما جعل الأمة تستنصر بدعاء أمرائها وتتقرب إلى الله تبارك وتعالى بمحبتهم وجميل طاعتهم وأقام على ذلك حارساً من الضمانات الحية التي تخاف الله وتذكر اليوم الآخر ، فلم تكن ديمقراطية الإسلام ألفاظاً جوفاء ولا نظماً جامدة ميتة تتحكم فيها الظروف والأهواء وليس بعد ذلك مطمع لطامع .

نحن إذن نرحب بالديمقراطية على أنها مما جاء به الإسلام ونخضعها في تطبيقها وتفسيرها لقواعده وأصوله لا لنظريات الغرب وأهوائه ونوازع علمائه وأهواء رجال السياسة فيه .

ثم نقول بعد ذلك هل تستلزم الديمقراطية انقسام الأمة إلى أحزاب مختلفة يتناحر بعضها مع بعض ابتغاء الحكم ، فلا تكون الأمة أمة تأخذ بالنظام الديمقراطي حتى تختلف فيها الأهواء ويتمزق الشمل وتفرق الكلمة ، والجواب على ذلك أن كل ما تستلزمه الديمقراطية أن تكفل حرية الرأي وتنظم الشورى وإشراك الأمة في الحكم ، أما الحزبية فمعنى زائد على ذلك قد يؤخذ به إذا كان في ذلك تنظيم لهذه الحرية وقد يعدل عنه إذا كان إثمه أكبر من نفعه ولا تخرج الأمة بذلك عن أنها أمة ديمقراطية ، وها نحن نرى مثلاً أن بعض البلاد الديمقراطية ليس فيها إلا حزب واحد كروسيا مثلاً وأن بعضها لم تتعدد فيه الأحزاب إلا حديثاً كتركيا والعراق ، وإن أعرقها في الديمقراطية الحديثة والحزبية تعدل عن حزبيتها فوراً إلى القومية متى أُلجأتها المصلحة إلى ذلك في الحرب أو السلم على السواء وإنجلترا أظهر مثل على ذلك ، وفي هذا الدليل الكافي على أن الحزبية ليست ضرورة من ضرورات الديمقراطية .

فإذا وضعنا إلى جانب ذلك أننا أمة مسلمة ، وأن الإسلام الحنيف جاء يوحد الأمة التي تؤمن به بحكم الدين ويؤلف بينها ويجعلها كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

ويقول القرآن الكريم «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» ، «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» ، ويحرم عليهم التنازع والتخاصم ، فيقول «وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» .

ويقول النبي ﷺ (ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصوم والصدقة؟) ، قالوا بلي يا رسول الله ، قال (إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين) .

وقد جعل الإسلام عقوبة الانتشاق والانقسام وتمزيق وحدة الأمة الإعدام ، فقد قال رسول الله ﷺ (من أتاكم وأمركم جمع يريد أن يشق عصاكم فاقتلوه) ، وفي رواية (فاضربوه بالسيف كأننا من كان) .

فإذا اجتمع قوم على هذا الخلاف والفرقة وشقوا عصا الطاعة سماهم الإسلام البغاة وأباح لولي الأمر قتالهم حتى يعودوا إليها .

نعم .. إن ذلك في حالة الخروج على القانون وإعلان الثورة على النظام العام ، ولكنني أسوقه كاستئناس به واستدلال على حرص الإسلام التام على وحدة الأمة وبقاء كيانها سليماً لا تزعه الخصومات ولا تعصف به الضغائن والأحقاد والخلافات .

على أن الأمر لا يحتاج إلى كل هذا الإيضاح فإن كل من له أدنى إلمام بروح الإصلاح وقواعده يعلم علم اليقين أنه إنما جاء ليقم هذه الوحدة بين الذين يؤمنون به ليتخذها سبيلاً إلى وحدة عالمية ونظام مشترك تسعد في ظله الإنسانية وينعم بثمراته البشر جميعاً .

وإن من كمال النظام الإسلامي في هذه الوحدة أن يربط بين المسلمين من أبنائه وغيرهم من أبناء الأديان الأخرى في الوطن الواحد برباط الذمة والعهد والميثاق والمصلحة الوطنية ويجعل منهم جميعاً وحدة مشتركة في الحقوق والواجبات وشعاره في ذلك معهم (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) ، وبذلك يسد كل ثغرة تؤدي إلى انقسام أو خلاف وتكون وسيلة إلى ضعف أو وهن .

وهناك ملاحظة ثانية وهي : أننا معشر المصريين وأبناء وادي النيل ، بل أبناء العروبة في أوطانها وأبناء الإسلام في جميع أقطاره ما زلنا أمماً مجاهدة تكافح في سبيل حريتها واستقلالها ثم في سبيل إصلاح شئونها الداخلية وعلاج مشاكلها وأمراضها ، ونكاد نكون جميعاً متفقين على تشخيص الداء ووصف الدواء ، ومن استعرض برامج الأحزاب في مصر ، بل في مصر وغيرها من بلدان الشرق العربي الإسلامي نراها جميعاً صورة واحدة تشرحها بصورة تكاد تكون واحدة ، بيانات الزعماء وخطب البرلمانات وقرارات الاجتماعات والمؤتمرات ، لا نكاد نلمس فيها خلافاً واضحاً أو فرقاً شاسعاً .

وإن الفرقة والاختلاف لم تنتشأ في الغالب إلا عن بعض النواحي الشخصية البحتة ، كما يبينه تاريخ هذه الأحزاب كلها .

ونحن بعد هذا كله لم نجن من وراء هذه الحزبية إلا إضعاف قوة الأمة وانحلال عزميتها ، ولم نصل إلى شيء مما وصلنا إليه إلا بالوحدة والإجماع .

وإذا لاحظنا كل هذا استطعنا أن ندرك أية خسارة تجرنا إليها هذه الحزبية ، وأي بلاء محيط لقيناه من جراء هذا الخلاف والانقسام ، ولهذا ينادي الإخوان المسلمون بوجوب اتحاد هذه الأحزاب جميعاً والاستفادة بوحدتها وبكل الكفايات في داخلها وخارجها ، خاصة في هذا الظرف الدقيق الذي يتقرر فيه مصير الوطن في الداخل والخارج .

وسيرى القراء في الكلمة الآتية أن هذا الرأي ليس بجديد ، وأن الإخوان كانوا ينادون به منذ أكثر من عشر سنوات ، كما سنعرض عليهم كذلك موقف الإخوان النظيف من الأحزاب المصرية ورجالها .

- ١٨ -

نحن والديمقراطية والأحزاب (*)

انتهينا في الكلمة السابقة إلى أنه لا خير لمصر في هذه الحزبية القائمة فيها الآن ، وأن الظروف تحتم على الأمة المصرية أن تهيب برجال الأحزاب فيها أن يضموا صفوفهم ويوحدوا جهودهم ويعملوا متكاتفين في سبيل تحقيق مطالبها ونيل حقوقها ، وأن هذا هو رأي الإخوان المسلمين الآن كما كان رأيهم منذ عشر سنوات مضت ، ومن العجيب أن يصدق ما كتب الإخوان في هذا الماضي البعيد على ما نعانيه الآن ونلمسه من أضرار الحزبية وسيئاتها ، كأن هذه السنوات لم تفيدنا شيئاً ولم تغير من أوضاعنا شيئاً برغم الحرب الضروس التي غيرت كل ما في العالم من نظم وأوضاع وعقول وآراء .

وإلى القارئ نماذج مما كتب الإخوان حينذاك عن الحزبية والأحزاب :

من رسالة المؤتمر الخامس بسراى آل لطف الله سنة ١٣٥٧ الهجرية

الإخوان المسلمون والأحزاب

الإخوان المسلمون يعتقدون أن الأحزاب السياسية المصرية جميعاً قد وجدت في ظروف خاصة ولدواع أكثرها شخصي لا مصلحي ، وشرح ذلك ما تعلمونه حضراتكم جميعاً ، ويعتقدون كذلك أن هذه الأحزاب لم تحدد برامجها ومناهجها إلى الآن ، فكل منها يدعي أنه سيعمل لمصلحة الأمة في كل نواحي الإصلاح ، ولكن ما تفاصيل هذه الأعمال ؟ وما وسائل تحقيقها ؟ وما الذي أعد من هذه الوسائل ؟ وما العقبات التي ينتظر أن تقف في سبيل التنفيذ ؟ وماذا أعد لتذليلها ؟ كل ذلك لا جواب له عند رؤساء الأحزاب وإدارات الأحزاب ، فهم قد اتفقوا في هذا الفراغ ، كما اتفقوا في أمر آخر هو التهالك على الحكم وتسخير كل دعاية حزبية ، وكل وسيلة شريفة وغير شريفة في سبيل الوصول إليه وتجريح كل من يحول من الخصوم الحزبيين دون الحصول عليه ، ويعتقد الإخوان كذلك أن هذه الحزبية قد أفسدت على الناس كل مرافق حياتهم وعطلت مصالحهم ، وأتلفت أخلاقهم ، ومزقت روابطهم ، وكان لها في حياتهم العامة والخاصة أسوأ الأثر .

ويعتقدون كذلك أن النظام النيابي ، بل حتى البرلمان ، في غنى عن نظام الأحزاب بصورتها الحاضرة في مصر ، وإلا لما قامت الحكومات الائتلافية في البلاد الديمقراطية فالحجة القائلة بأن النظام البرلماني لا يتصور إلا بوجود الأحزاب حجة واهية وكثير من البلاد الدستورية البرلمانية تسير على نظام الحزب الواحد وذلك في الإمكان .

كما يعتقد الإخوان أن هناك فارقاً بين حرية الرأي والتفكير والإبانة والإفصاح والشورى والنصيحة ، وهو يوجبه الإسلام ، وبين التعصب للرأي والخروج على الجماعة والعمل الدائب على توسيع هوة الانقسام في الأمة وزعزعة سلطان الحكام ، وهو ما تستلزمه الحزبية ويأباه الإسلام ويحرمه أشد التحريم ، والإسلام في كل تشريعاته إنما يدعو إلى الوحدة والتعاون .

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمون اليومية» ، العدد (٦٩) ، السنة الأولى ، بتاريخ ٢٤ شعبان سنة ١٣٦٥هـ - ٢٣ يوليو ١٩٤٦م .

هذا مجمل نظرة الإخوان إلى قضية الحزبية والأحزاب في مصر وهم لهذا قد طلبوا إلى رؤساء الأحزاب ، منذ عام تقريباً أن يطرحوا هذه الخصومة جانباً وينضم بعضهم إلى بعض ، كما اقترحوا التوسط في هذه القضية على الأميرين الجليلين صاحب السمو الملكي الأمير محمد علي وصاحب السمو الأمير عمر طوسون ، كما التمسوا من جلالة الملك حل هذه الأحزاب القائمة حتى تندمج جميعاً في هيئة شعبية واحدة تعمل لصالح الأمة على قواعد الإسلام .

و إذا كانت الظروف لم تساعد في الماضي على تحقيق هذه الفكرة فإننا نعتقد أن هذا العام كان دليلاً على صدق نظرة الإخوان ، وكان مقنعاً لمن كان في شك بأنه لا خير في بقاء هذه الأحزاب ، وسيواصل الإخوان جهودهم في هذا السبيل ، وسيصلون إلى ما يريدون بتوفيق الله و فضل يقظة الأمة ، وبتوالي فشل رجال الأحزاب في قيادتها وسيتحقق قطعاً ناموس الله «فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ» .

يظن رجال بعض الأحزاب أننا إنما نقصد بهذه التعاليم هدم حزبهم لغيره من الأحزاب وجرئاً وراء منفعة خاصة ، وليس أدل على خطأ هذه النظرية من أن هذا الوهم قد سرى إلى نفوس الأحزاب جميعاً ، فكثيرون من رجال الوفد يتهمون الإخوان المسلمين بأنهم يعملون لمحاربتهم ، وبأنه هو وحده المقصود بهذه النعوت والأوصاف ، وبأن الإخوان إنما يحملون الناس على محاربتهم والانتفاض عنه وبأنهم إنما يقصدون بذلك خدمة الحكومة وتقوية الأحزاب الممثلة فيها ، في الوقت الذي نسمع فيه هذه التهمة بعينها من أحزاب الحكومة أيضاً ، فهل هناك دليل أصدق من هذا على أن الإخوان يقفون من الجميع موقفاً واحداً ، يصدون فيه عن عقيدتهم ، ويعملون فيه بوحى من ضمائرهم وإيمانهم ؟

أحب أن أقول لإخواننا من دعاة الأحزاب ورجالها : إن اليوم الذي يستخدم فيه الإخوان المسلمون لغير فكرتهم الإسلامية البحتة «لم يجئ ولن يجئ أبداً» ، وإن الإخوان لا يضمرون لحزب من الأحزاب أيّاً كان خصومة خاصة به ، ولكنهم يعتقدون من قرارة نفوسهم أن مصر لا يصلحها ولا ينقذها إلا أن تتحل هذه الأحزاب كلها ، وتتألف هيئة وطنية عاملة تقود الأمة إلى الفوز وفق تعاليم القرآن الكريم

و بهذه المناسبة أقول إن الإخوان المسلمين يعتقدون عقم فكرة الائتلاف بين الأحزاب ، يعتقدون أنها مسكن لا علاج ، وسرعان ما ينقض المؤتلفون بعضهم على بعض ، فتعود الحرب بينهم جذعة على أشد ما كانت عليه قبل الائتلاف ، والعلاج الحاسم الناجح أن تزول هذه الأحزاب مشكورة فقد أدت مهمتها وانتهت الظروف التي أوجدتها ولكل زمان دولة ورجال كما يقولون .

وسيرى القراء الكرام في الكلمات التالية تقريراً لهذا المعنى ودليلاً قاطعاً على أن صلة الإخوان بالأحزاب المصرية عملياً لم تخرج عنه في يوم من الأيام .

— ١٩ —

نحن والديمقراطية والأحزاب(*)

وقد تناول الأستاذ المرشد في كلمته في مؤتمر الطلاب المنعقد بدار الشبان المسلمين في المحرم ١٣٥٧هـ، رأي الإخوان المسلمين في الحزبية والأحزاب بأوضح ما قدمناه نقلاً عن رسالة المؤتمر الخامس ، ودعا إلى الوحدة دعوة عالية ، وكان من ضمن قرارات هذا المؤتمر هذان القراران بالنص :

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمون اليومية» ، العدد (٧٠) ، السنة الأولى ، بتاريخ ٢٥ شعبان سنة ١٣٦٥هـ - ٢٤ يوليو ١٩٤٦م .

(١) المطالبة بحل جميع الأحزاب الحالية السياسية وأن تستبدل بها هيئة موحدة لها منهاج إسلامي يتناول كل شؤون النهضة وتتوافر على وضعه وإنفاذه جميع المواهب والقوى لما ثبت من أضرار النظام الحزبي وفشله في النهوض بالأمة ، ولما نجم عنه من فتن وحزازات ، ولما تتطلبه النهضة وتكاليها من تضافر وتعاون واستقرار ، ولما عرف من أن الفرقة هي باب التدخل الأجنبي ، ولأن هذا التدابر والتقاطع والتعصب المقيت يلائم الحزبية أمر لا يقره الإسلام «وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» .

(٢) وجوب تجرد كل طالب ينتسب إلى الإخوان المسلمين من كل لون حزبي مع الاصطباغ العام بالفكرة التي تعتمد على سياسة القرآن وتعاليمه «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً» .

ولعل من تمام الفائدة أن ننشر نص ما جاء في هذه الكلمة تبصرة وذكرى .. والذكرى تنفع المؤمنين .

أيها الأخوة الكرام ..

بقي للسياسة معنى آخر يؤسفني أن أقول أنه وحده هو المعنى الذي يراد منها ويلازمها بغير حق في أذهان كثير منا ، ذلك هو (الحزبية) .

وإن لي في الحزبية السياسية آراء هي لي خاصة ولا أحب أن أفرضها على الناس ، فإن ذلك ليس لي ولا لأحد ، ولكني كذلك لا أحب أن أكتمها عنهم ، وأرى أن من واجب النصيحة للأمة وخصوصاً في مثل هذه الظروف يدعوني إلى المجاهرة بها وعرضها على الناس في وضوح وجلاء ، وأحب كذلك أن يفهم جيداً إنني حينما أتحدث عن الحزبية السياسية فليس معنى هذا إنني أعرض لحزب دون حزب أو أرجح أحد الأحزاب على غيره أو أنتقص أحدها وأزكي الآخر ، ليس ذلك من مهمتي .

ولكنني أتناول المبدأ من حيث هو ، وسأعرض للنتائج والآثار المترتبة عليه وأدع الحكم على الأحزاب للتاريخ وللرأي العام والجزاء الحق لله وحده «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا» .

لا بد من الوحدة :

أعتقد أيها السادة .. أن الحزبية السياسية إن جازت في بعض الظروف في بعض البلدان ، فهي لا تجوز في كلها ، وهي لا تجوز في مصر أبداً ، وخاصة في هذا الوقت الذي نستفتح فيه عهداً جديداً ، ونريد أن نبني أممتنا بناء قوياً يستلزم تعاون الجهود وتوافر القوى والانتفاع بكل المواهب ، والاستقرار الكامل والتفرغ التام لنواحي الإصلاح ، إن وراينا في الإصلاح الداخلي منهاجاً واسعاً مطولاً ، يجب أن نصرف كل الجهود إلي تحقيقه ، لإنقاذ هذا الشعب الدائم الحيوية ، الجم النشاط ، المجهز بكل وسائل النشاط ، الذي لا ينقصه إلا القيادة الصالحة والتوجيه القويم ، حتى يتكون أصلح تكوين ، يقضي على الضعف والفقر والجهل والرذيلة ، وهي معاول الهدم وسوس النهضة ، وليس هنا محل تفصيل هذا المنهاج فذلك له وقت آخر ، وأنا أعلم أننا جميعاً نشعر بثقل وطأة الأعباء ، وبالمجهودات العظيمة التي يجب أن تبذل في سبيل التنظيم الداخلي في كل مظاهر الحياة .

بين الوحدة والحزبية :

وأعتقد كذلك أننا جربنا الوحدة مرتين كانت كل واحدة منهما ألمع نجم في تاريخ النهضة ، أما أولاهما ففي فجر النهضة حينما برزت الأمة صفاً متحدًا رائعًا تنادي بحقها وتطالب باستحقاقها في اجتماع أفرع الغاصبين وروع المستعمرين ووهنت أمام سلطانه قوى الظالمين ، وأما الثانية فحين تكوين الجبهة الوطنية التي خطت بنا خطوة مهما كانت قصيرة فهي إلى الأمام على كل حال ، وجربنا التفرقة في مرات كثيرة من قبل ومن بعد فما

رأينا فيها إلا تمزيق الجهود وإحباط الأعمال وإفساد الشئون وإتلاف الأخلاق وخراب البيوت وتقطيع الأرحام واستفادة الخصوم على حساب المختلفين المتنازعين .

الحزبية والتدخل :

واعتقد أيها السادة أن التدخل الأجنبي في شؤون الأمة ، ليس له من باب إلا التدابر والخلاف ، وهذا النظام الحزبي البغيض ، وأنه مهما انتصر أحد الفريقين فإن الخصوم بالمرصاد ، يلوحون له بخصمه الآخر ، ويقفون منهما موقف القرد من القطتين ، ولا يجني الشعب من وراء ذلك إلا الخسارة من كرامته واستقلاله وأخلاقه ومصالحه .

إننا يا إخوان أمة لم نستكمل استقلالنا بعد استكمالاً تاماً ، ولا زلنا في الميزان ، ولا زالت المطامع تحيط بنا من كل مكان ، ولا سيجاح لحماية هذا الاستقلال والقضاء على تلك المطامع إلا الوحدة والتكاتف .

وإذا جاز لبعض الأمم التي استكملت استقلالها وفرغت من تكوين نفسها أن تختلف وتتحزب في فرعيات الأمور ، فإن ذلك لا يجوز في الأمم الناشئة أبداً ، على أننا نلاحظ أن الحوادث العالمية قد ألجأت الأمم جميعاً إلى التجرد من الحزبية مطلقاً ، أو الإبقاء على حزبية صورية تقليدية مع الوحدة في كل الاتجاهات .

هذه تركيا بدأت أعمالها في توجيه الشعب بتوحيد القوى وإلغاء الأحزاب وهذه شقيقتنا العراق تخطو خطوات حثيثة إلى التكوين الصالح بعد إلغاء الأحزاب ، وهذه رومانيا قد ألغت الأحزاب ووضعت على رأس حكومتها بطريكاً من رجال الكنيسة فقضت بذلك على مبادئ من خاصة مبادئ السياسة الأوروبية هما الحزبية وفصل السياسة عن الدين ، ولا أقول أين الأحزاب في إيطاليا وفي ألمانيا ، فذلك أمر مفروغ منه ، ولكني أقول إن إنجلترا نفسها وهي كما يزعمون أم النظام الحزبي والدستوري قد تضاعف فيها المعنى الحزبي حتى صار معنى هو إلى التقاليد أقرب منه إلى التحالف في المناهج والآراء ولا تزال الوزارات البريطانية قومية لا حزبية ، فقد اقتضت الحوادث العالمية من الشعب البريطاني الخروج على نظام الأحزاب .

هذه نماذج من تدهور النظام الحزبي في الشرق وفي الغرب ، فلا أدري لأي معنى تظل مصر التي هي أحوج الأمم إلى الوحدة مستمسكة بنظام فشل في قيادته غير لها وذائقته هي منه الأمرين وبلت من ثمره الحنظل والصاب .

لا أحزاب في مصر :

واعتقد كذلك أن هذه الأحزاب المصرية الحالية أحزاب مصنوعة أكثر منها حقيقية ، وأن العامل في وجودها شخصي أكثر منه وطني ، وأن المهمة والحوادث التي كونت هذه الأحزاب قد انتهت ويجب أن ينتهي هذا النظام بانتهائها ، لقد تكوّن الوفد المصري من الأمة كلها للمطالبة بالاستقلال على أساس المفاوضات وتلك هي مهمته ، ثم تفرع منه حزب الأحرار الدستوريين للخلاف في أسلوب المفاوضات ، وقد انتهت المفاوضات بأساليبها ونظمها وقواعدها فانتتهت مهمتها بذلك ، وتكوّن حزب الشعب لإيجاد نظام خاص ودستور خاص ، وقد انتهى ذلك الدستور وذلك النظام بأشكاله وأوضاعه فانتتهت مهمته هو الآخر ، وتكون حزب الاتحاد لموقف خاص بين السراي والأحزاب ، وها هي الأمة مجمعة على محبة جلالة الملك والالتفاف حول عرشه المفدى والدفاع عنه بالأنفس والأموال .

لقد انتهت هذه الظروف جميعاً ، وتجددت ظروف أخرى تستدعي مناهج وأعمالاً ، فلا معنى أبداً لبقاء هذه الأحزاب ، ولا معنى أبداً للرجوع إلى الماضي والمستقبل يلح علينا إلحاحاً صارخاً بالعمل والسير بأسرع ما يمكن من الخطوات .

الإسلام لا يقر الحزبية :

وبعد هذا كله أعتقد أيها السادة أن الإسلام وهو دين الوحدة في كل شئ ، وهو دين سلامة الصدور ، ونقاء القلوب ، والإخاء الصحيح ، والتعاون الصادق بين بني الإنسان جميعاً فضلاً عن الأمة الواحدة والشعب الواحد ، لا يقر نظام الحزبية ولا يرضاه ولا يوافق عليه ، والقرآن الكريم يقول «وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» ، ويقول رسول الله ﷺ (هل أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصوم ؟ قالوا بلى يا رسول الله ، قال إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين) .

وكل ما يستتبعه هذا النظام الحزبي ، من تناز وتقاطع ، وتدابير وبغضاء ، يمقته الإسلام أشد المقت ، ويحذر منه في كثير من الأحاديث والآيات ، وتفصيل ذلك يطول ، وكل حضراتكم به عليم .

وفرق أيها الإخوان بين الحزبية التي شعارها الخلاف والانقسام في الرأي والوجهة العامة وفي كل ما يتفرع منها ، وبين حرية الآراء التي يبيحها الإسلام ويحض عليها ، وبين تمحيص الأمور وبحث الشؤون والاختلاف فيما يعرض تحريماً للحق ، حتى إذا وضح نزل على حكمه الجميع سواء أكان ذلك اتباعاً للأغلبية أو للإجماع ، فلا تظهر الأمة إلا مجتمعة ولا يرى القادة إلا متفقين .

أيها الإخوان .. لقد آن الأوان أن ترتفع الأصوات بالقضاء على نظام الحزبية في مصر ، وأن يستبدل به نظام تجتمع به الكلمة وتتوحد به جهود الأمة حول منهاج إسلامي صالح تتوافر على وضعه وإنفاذه القوى والجهود .

هذه نظرات يرى الإخوان المسلمون أن واجبهم الإسلامي أولاً ، والوطني ثانياً ، والإنساني ثالثاً ، يفرض عليهم فرضاً لا مناص منه أن يجهروا بها وأن يعرضوها على الناس و في إيمان عميق وبرهان وثيق ، معتقدين أن تحقيقها هو السبيل الوحيد لتدعيم النهضة على أفضل القواعد والأصول «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ نُحْشَرُونَ» .

ولقد خطا الإخوان خطوة عملية في سبيل تحقيق فكرتهم هذه في توحيد الأحزاب ، فكتبوا إلى جلالة الملك حفظه الله كتاباً ضافياً ، وكتبوا إلى صاحب السمو الملكي الأمير محمد علي توفيق ، والأمير عمر طوسون رحمه الله ، طالبين تدخلهم في جمع الكلمة ، ولكن ذلك لم يتحقق رغم شدة الحاجة إليه ، ومناسبة الظروف له ، وبخاصة عقب معاهدة سنة ١٩٣٦م ، وفي الكلمة التالية ننشر نصوص هذه الكتب للعبارة والتاريخ .

— ٢٠ —

نحن والديمقراطية والأحزاب (*)

خطاب الإخوان إلى جلال الملك

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول

حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول .. أيد الله ملكه وأعز به دولة الإسلام .

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمون اليومية» ، العدد (٧١) ، السنة الأولى ، بتاريخ ٢٦ شعبان سنة ١٣٦٥هـ - ٢٥ يوليو ١٩٤٦م .

أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، وأرفع إلى السدة العلية ولاء أعضاء جماعة الإخوان المسلمين في القطر المصري كله بل في العالم الإسلامي أجمع ، وإخلاصهم لعرشكم المفدى وتحيتهم لذاتكم المحبوبة فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

يا صاحب الجلالة : بالنيابة عن مئات الآلاف من شعبكم المحبوب ورعيتكم المخلصة من أعضاء جماعات الإخوان المسلمين «بمصر» أرفع إلى جلالتم هذا الرجاء ، لا يدفع إلى ذلك إلا حب الخير الذي تحرصون عليه لأمتكم المخلصة ، والحرص على المصلحة التي تحدون إليها شعبكم الكريم ، وقد أخذ رسول الله ﷺ العهد والموثق على كل مسلم أن يجهر بالحق ويتقدم بالنصيحة (لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) .

يا صاحب الجلالة : مصر الناهضة في حاجة إلى الوحدة والاستقرار حتى تفرغ للإصلاح الضروري في كل مظاهر حياتها وتدعم نهضتها على أصول ثابتة من التعاون الوثيق والعمل المنتج ولكن الحزبية السياسية التي تفتشت بين الناس فرقت الكلمة ومزقت الوحدة وأضعفت القوة وذهبت بمعنى التعاون على الخير في شعب أشد ما يحتاج إليه التضافر والاتحاد الحزبية السياسية ، يا مولاي : أفسدت كل الأعمال وعطلت كل النواحي من الخير وأنت على كل جوانب الإصلاح عبثت بالأخلاق والضمانر وباعدت بين أبناء الأسرة الواحدة والبيت الواحد وغرست البغضاء والحزازة في نفوس الإخوة والأقارب والأصهار فضلاً عن الأجانب والأبعاد وجاوزت المدن إلى القرى والكفور والنجوع ، ففي كل قرية خلاف حزبي وفي كل تجمع حزازة حزبية ، وكل فريق يتربص بالآخر الدوائر ويدبر له المكائد ويتقانى في القضاء عليه والنيل منه ويشغل بذلك عن الواجبات الشخصية والوطنية والإنسانية ويضحى في سبيل الانتصار على خصمه السياسي بكل نفيس من خلق ومال وأواصر وصلات وصار من المستحيل على أي مصلح أن ينهض بمشروع نافع في أي بلد من بلاد القطر إذ تحول الخصومة الحزبية من أعيان البلاد دون الاجتماع على النجاح ولا يترك فريق منهم الآخر يعمل دون أن يعاكس جهوده ويقضي على ما يلقي من تعضيد وتأييد وبذلك تعطلت مظاهر النشاط، وصارت القوى وقفاً على المعاندة والمخاصمات وذلك موقف لا يطاق في أمة تناديها الدقائق قبل الساعات بوجود الجد والعمل والتكوين والنهوض الصحيح .

يا مولاي : إن الأحزاب السياسية القائمة في مصر الآن أوجدتها ظروف وحوادث وغايات قد انتهت كلها ولم يبق منها شيء وليس هناك من تخالف جوهرى في برامجها يدعو إلى تعددها وتكاثرها ، وكل حزب منها يدعي أنه يعمل للإصلاح في كل نواحي الحياة، مع أن الحقيقة أنها لم تفكر بعد في أي برنامج عملي منتج تعمل على أساسه فلا معنى لبقاء هذه الأحزاب بهذه الصورة الشكلية الجوفاء واشتغالها بالتناحر والتهاتر حول الأسماء والمصالح الخاصة والأمور الشخصية النافهة وجرها الأمة معها في خلاف شديد لا نتيجة له إلا أن يكسب رؤساء الأحزاب داخل الحكم وخارجه على حساب الفلاح والعامل والصانع وغيرهم من عامة هذا الشعب الطيب القلب الذين يقومون وحدهم بكل التضحيات .

يا مولاي : لقد برهنتم جلالتم في كل موقف على اعترازكم بتعاليم الإسلام وحرصكم على أن تسود الروح الإسلامية النبيلة مظاهر حياة شعبكم المخلص ، وكنتم في ذلك خير قدوة- ومصركم يا مولاي - زعيمة العالم الإسلامي فلا يمكن إلا أن تكون صورة واضحة للحياة الإسلامية الصحيحة فعنها يأخذ المسلمون وبها يقتدون ، والإسلام يا مولاي دين وحدة واجتماع وتعاون على البر والتقوى وتواص بالحق والصبر، وحث على الوفاق والوثام ، وإرشاد إلى سلامة الصدور وطهارة القلوب ونقاء السرائر والإخاء بين الناس ، وحض على الجماعة في كل الشؤون والأمور لا يعرف الإسلام الفرقة ولا يقر الخصومة ، ولا يعترف بهذا التمزيق في قوى الشعب المسلم الواحد، وإنه ليتوعد المختلفين المتفرقين بعقوبة الدنيا من وهن العزائم والبعد عن النجاح، وبعقوبة الآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم والله تبارك وتعالى يقول «وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا

وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبَرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» ، ويقول «وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِيَعْمَتِهِ إِخْوَانًا» .

والنبي ﷺ يقول «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تتاجشوا، وكونوا عباد الله إخوانًا ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث» ويقول ﷺ «ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصوم ، قالوا بلى يا رسول الله ، قال إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين» .

والآيات الكريمة والأحاديث الشريفة في ذلك أكثر من أن يحيط بها كتاب .

يا مولاي : إن الأمم الغربية التي ليس فيها كتاب قيم ككتابنا ، وليست لها شريعة مطهرة كشريعتنا أدركت بحكم مصلحتها الحيوية ضرر الخصومة الحزبية فقضت عليها من أساسها واستأصلتها من ديارها وقذفت بها من حائق وطهرت أرض الوطن من الفرقة والخلاف حتى إنجلترا أعرق البلاد في النظام الحزبي كما يقولون لا يكاد يرى فيها أثره أو تلمس نتائجه وهي أمام الأخطار التي تتهدد العالم تبدو حكومة قومية وشعبًا متعاونًا وأمة واحدة ، وإن فرنسا وهي مثال التناحر الحزبي قد ارتفعت صيحات زعمائها بوجوب تعديل هذه النظم الحزبية حتى تستقر الأمور وتتمكّن الحكومات من العمل والإصلاح ، وأن حكومات الشرق التي نهضت بعد الحرب العظمى لم تتركز نهضتها إلا على أساس من الوحدة العاملة المتعاونة ، وهذه جارتنا العراق تسير على نظام الحزب الواحد وتتقدم بخطى واسعة إلى الإصلاح والإنتاج .

يا مولاي : إن الإسلام الذي يحرم هذه العصبية الحزبية ، يشجع حرية الرأي ، ويدعو العقول إلى التفكير والنظر ، ويوجب النصح والبيان ، وكل ذلك في حدود الوحدة المتماسكة والكتلة المترابطة المصطفة يظهر كل إنسان رأيه ، ويقول كل ما يريد أن يقول ويترك للجماعة بعد ذلك أن تحكم وأن تسير .

لهذا يا مولاي : يلتمس الإخوان المسلمون من جلالكم أن تعملوا بسامي حكمتكم وثاقب نظركم على جمع كلمة الزعماء بتأليف هيئة قومية واحدة من جميعهم ومعهم كل أهل الكفايات والمواهب تضع برنامج الإصلاح والنهضة في كل النواحي على أساس من الإسلام القوي العزيز الفاضل النبيل مع تنازل كل حزب عن اسمه الخاص واندماج الجميع في تلك الهيئة الواحدة .

يا صاحب الجلالة : مع هذا الملتمس التماسات كثيرة برجاء الإصلاح الاجتماعي إذ بدت في المجتمع المصري ظواهر خطيرة من التحلل والإباحية والخروج على الدين والخلق والفضيلة تنذر بأخطار جسام إن لم تتدارك بالإصلاح والعلاج وقد تناولت هذه العرائض كثيرًا من تلكم الظواهر .

وإن مكتب الإرشاد العام للإخوان المسلمين ليشرفه أن يتقدم إلى السدة العلية بهذه الأصوات المخلصة وأن يضم صوته إليها فتداركوا يا مولاي شعبكم المتقاني في الإخلاص لعرشكم المفدى ، في قاداته وزعمائه وفي منهاج نهضته وكل مظاهر حياته وخذوا بيده إلى أقوم السبل وأنجح الخطط وسيروا به على ضوء القرآن الكريم وعلى هدى رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين المهديين من بعده ،، أيد الله ملككم وأعز بعهدكم السعيد دولة الإسلام .

وإلى صاحبي السمو الأميرين الجليلين محمد على توفيق وعمر طوسون سيدي صاحب السمو .

أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأرفع إلى سموكم تحية الإخوان المسلمين مشفوعة بالإجلال والإكبار ، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

يا صاحب السمو : موافقكم الإسلامية المجيدة وعطفكم العظيم على الشعب المصري الذي يدين لكم بالولاء والإخلاص ورغبتكم الأكيدة في صلاح الشعب ورخائه كل ذلك دفعنا إلى التقدم إلى سموكم بهذا الخطاب .

يا صاحب السمو .. إن الحزبية السياسية قد مزقت أوصال الأمة وتركت في حياتها العامة والخاصة أسوأ الآثار ومحال أن يتم إصلاح أو ينتج عمل مع هذا التناحر البالغ والخصومة الشديدة اللدد ، ومحال أن تصل إلى غاية وكل همّ زعمائها ورؤساء الأحزاب فيها أن يكيد بعضهم لبعض ، وينال بعضهم من بعض وإن أخطار هذه الخصومة لم تقف عند حد الزعماء ومن يليهم ولا عند المدن والأندية والصحف بل إنها تغلغت في حياة الأفراد والأسر وأفسدت على الناس كل شيء فشغلتهم عن كل الواجبات الوطنية والشخصية والإنسانية والخلقية ، وإن الأمم الناهضة الآن قد أخذت تتخلص من آثار الخصومة الحزبية المعقولة فضلاً عن الخصومة الحزبية الهوجاء التي لا تقف عند حد ولا تعرف مدى تنتهي إليه ، وإن الإسلام يا صاحب السمو يحرم هذه الفرقة وينهي عنها أشد النهي ويأمر بإصلاح ذات البين ويجمع الكلمة ويوحد قوى الأمة وإن الأحزاب في مصر لا تخالف بينها في المناهج ولا تباعد في الغايات وقد أنتجت حوادث مضى عهدها وانتهى أمدها ولا معنى لتعددتها وبقائها على هذه الصورة العقيمة التي لم تنتج إلا الشحناء والبغضاء والتناحر حول الأسماء والألقاب والمطامع الشخصية التافهة الصغيرة .

ولما لسموكم من المنزلة الرفيعة في كل نفس ، والمقام الأسمى في كل قلب ، رأى مكتب الإرشاد العام للإخوان المسلمين أن يتوجه إلى سموكم وسمو الأمير .. وإلى سعادة رئيس مجلس الشيوخ ورئيس مجلس النواب باسم الإسلام الحنيف وباسم مصر الناهضة أن تتدخلوا في الإصلاح بين الزعماء وجمع كلمتهم في هيئة قومية واحدة باسم جديد تضمهم جميعاً ومعهم كل ذوي الكفايات والمواهب تضع برنامج النهضة وافيةً شاملاً لكل نواحي الحياة على أساس من تعاليم الإسلام القويمة وتشريعه الحكيم وإرشاداته السامية مع تنازل كل حزب عن اسمه في سبيل الله والإصلاح .

أنقذ الله بكم الأمة وحقق بكم آمال الشعب المصري الكريم .

ربيع الأول سنة ١٣٥٧هـ

— ٢١ —

نحن والديمقراطية والأحزاب (*)

من الحزب الوطني — من الوفد المصري

تناولنا في الكلمات السابقة موقف الإخوان المسلمين من الحزبية عامة ، وجهادهم في سبيل لفت نظر الأمة إلى أضرارها جمعاً للكلمة وتوحيداً للجهود في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى ذلك ، ووعدنا بأن نتناول موقف الإخوان التطبيقي من كل حزب منها على السواء .

فأما الحزب الوطني فالإخوان أصدقاء رجاله جميعاً فسعادة حافظ رمضان باشا ولجنته الإدارية والأستاذ عبد الرحمن بك الرافعي ومن معه من أعضاء الحزب جميعاً أصدقاء للإخوان وفكرة الإخوان ، كما أن الإخوان لم يحاولوا أن يخوضوا يوماً ما في هذا الخلاف الحزبي بين الطرفين وإن كانوا يودون من كل قلوبهم أن تزول كل معاني هذا الخلاف .

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمون اليومية» ، العدد (٧٢) ، السنة الأولى ، بتاريخ ٢٧ شعبان سنة ١٣٦٥هـ — ٢٦ يوليو ١٩٤٦م .

وأما الوفد فقد تشكك في الإخوان المسلمين من أول نشأتهم وظنهم أداة من أدوات خصومه أعدت لحربه وأوعز فيما مضى بذلك إلى لجانته وأنصاره في البلاد ، ولكن مُضي الإخوان في طريقهم ، وتأنفهم القلوب بما وجههم إليه الإسلام من آداب ودفع بالتّي هي أحسن لم يجهل لهذا التشكك أثرًا عمليًا وكان كثير من الوفديين في البلاد يناصر الدعوة ويساعدها مع أن الإخوان على قاعدتهم كانوا حريصين أشد الحرص على ألا تبنى تشكيلاتهم الأساسية على أشخاص من الحزبيين لأنهم يدركون ما وراء ذلك من ضعف إذا تعارضت التوجيهات الحزبية مع حق الدعوة ومقتضياتها .

ولم يهمل الإخوان مع هذا واجبه في التقدم بالنصح إلى هيئة الوفد في الحكم وخارج الحكم ، كما سيرى القراء في الخطاب الذي بعث به الأستاذ المرشد في جمادى الثانية سنة ١٣٥٧ هـ ، أي منذ تسع سنوات كاملة ، بمناسبة قرار الوفد عقد مؤتمر وفدي في عيد الفطر من ذلك العام يُدعى إليه ممثلو الشعوب الشرقية المظلومة لتبادل الرأي ، وقراره الآخر الخاص بمساعدة عرب فلسطين ، وسنشره في الكلمة التالية إن شاء الله .

ووقف الإخوان من حكومة الوفد الأخيرة موقفهم الذي فصلناه فيما تقدم عند الكلام على الإخوان والحكومات ، ولم يكن الإخوان فيه معاندين ولا متجنين ، وإن كانوا دائمًا ناصحين مذكرين مما جنب الإخوان الاصطدام بالحكومة وجنبها الاصطدام لهم ، اللهم إلا في بعض الحالات التي كانت تصادر فيها اجتماعاتهم وتغلق دورهم ، فيصبرون حتى تنكشف الغمة وتزول الغاشية .

وأقبلت الحكومة فلم يكن بين الإخوان وبين الوفد إلا ما بينهم وبين الناس جميعًا يرونه هيئة شعبية ويرون أن فيهم هيئة شعبية كذلك ، ومن خير الأمة ألا تصطدم هاتان القوتان وأن تمضي كل في سبيلها إلى ما اختارت من ألوان البناء والإصلاح وليس في وقت الإخوان متسع للمخاصمة أو المناوأة ، وقد استغرقت واجبات الدعوة كل أوقاتهم ، بل زادت بكثير على هذه الأوقات .

وفوجئ الإخوان وفوجئ معهم الناس بهذه الحملة العنيفة من الوفد على الإخوان في وقت كنا أحوج ما نكون فيه إلى الانصراف إلى النافع المفيد من الأعمال والنظر في الحاضر والمستقبل بعين الحذر واليقظة والاهتمام ، وقابل الإخوان كل ما دبر لهم في هذه الحملة من صنوف الكيد القولي والعملي ، وكل ما نشر عنهم من أكاذيب وأباطيل بالخصلتين اللتين يحبهما الله ورسوله (الحلم والأناة) ، واعتبروا هذه الصحف المأجورة التي لا هم لها إلا أن تلغ في أعراض الأبرياء في غير تورع ولا حياء سهماً يعود إلى راميها ولا يحتاج إلى رد أو تعليق فرده (منه فيه) .

وجاوزت الحملة الافتراء إلى الاعتداء وخرجت عن اللسان إلى الأيدي ، ومع ذلك فالإخوان هم الإخوان شعارهم قول الله تبارك وتعالى «وَإِذَا سَمِعُوا اللَّعْنَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنَعِي الْجَاهِلِينَ» ، وهم أحرص على أن يكونوا خير بني آدم «لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِيَدَيْكَ لِأَفْتُلُكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ» ، ونحن نعتقد أن العقاب للمتقين والنصر للمؤمنين «وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ» ، وقد يقول الناس إن هذا ليس من أساليب السياسة ولا من ضروب الكياسة ، وإنكم ما لم تكيلوا للناس الصاع صاعين وتقابلوا الضربة بضررتين ، فأنتم مغلوبون في هذا الميدان الذي لا ينتصر فيه إلا المعتدون ، على حد قول المتنبي :

من الحلم أن تستخدم الجهل دونه إذا اتسعت في الحلم طريق المظالم

ولكننا نقول إننا مقيدون في كل خطواتنا بتوجيهات الإسلام وتعاليمه ، والإسلام يقدم الحسنة قبل السيئة ، ويقيم الحجة قبل المخاصمة ليكون الحق في يده حجة أولى والتهجم عليه حجة ثانية .. وإنا لنسأل الله أن يختار لهذه الأمة ، وأن يجمع قلوب أبنائها على الخير .

وأما بقية الأحزاب ، فصلة الإخوان بها صلة عادية لنا في كل حزب منها أصدقاء من كباره وأنصاره يعرفون فكرتنا ويساعدون في أغراضها الخيرية والاجتماعية ويودون أن لو تحققت أهدافها الإصلاحية والإخوان من جانبهم يوجهون دعوتهم للجميع ويحمدون لمن اتصل بهم هذا التشجيع وسيظلون يرتفعون بالدعوة فوق الحزبية ويمثلونها دائماً دعوة إصلاحية إسلامية عالمية لا تحدها الفواصل السياسية ولا الحدود الجغرافية حتى يفتح الله بيننا وبين الناس بالحق وهو خير الفاتحين «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ» .

- ٢٢ -

موقفهم من كثير من الشؤون والهيئات (*)

وعدنا في الكلمة الماضية أن ننشر خطاب الإخوان إلى صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا بمناسبة قرارى الوفد الخاصين بمساعدة فلسطين ودعوة ممثلى الشعوب الشرقية للاشتراك فى المؤتمر الوفدى ، كأنموذج من النصح الخالص البرئ الذى أخذ الإخوان على عاتقهم أن يوجهوه إلى رؤساء الأحزاب بعد رؤساء الحكومات فى مصلحة الوطن والإسلام .

وها نحن أولاً نبر بوعدنا ، فنقدم إلى القراء فى هذه الكلمة وفى الكلمة التى تليها غداً إن شاء الله نص هذا الخطاب ، وقد نشر بالعدد الثالث من مجلة «النذير» بتاريخ ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ١٣٥٧ هـ ، أى منذ تسع سنوات كاملة .

حاضرة صاحب المقام الرفيع ..

أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو وأصلى وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأحبيكم ، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فأبدأ هذا الخطاب بشكر أعضاء الوفد المصرى الموقر فى شخص رفعتكم على قرارىهم الحكيمين الخاصين بمساعدة إخواننا الأبطال المجاهدين عرب فلسطين وبدعوة ممثلى الشعوب الشرقية المظلومة إلى المؤتمر الوفدى المزمع عقده فى عيد الفطر القادم إن شاء الله ، هذا عمل حميد حقاً واتجاه مشكور يا باشا ، وبهذه المناسبة أتقدم إلى رفعتكم بهذه الكلمات راجياً أن تتفضل بإنعام النظر فيها والحكم عليها بدافع من وحي ضميرك وحده بعيداً عن كل المؤثرات وعن تزيين أو تزييف أهل الأهواء والأغراض مهما كانت صلتهم بكم فإن العاطفة التى أوحى بها الروح الذى سكبها على صفحات هذا الخطاب لأطهر وأنقى من أن يبتغى بها غير وجه الله وحده وخير هذا البلد ، وهو فى الوقت نفسه لا يضرر لكم ولا لأحد من العاملين لقضية هذه الأوطان إلا التمنيات الطيبة والخير العظيم ، وليس بينه وبينكم خصومة تجور به عن الحق أو تعدل به برأيه عن جادة الصواب والإنصاف وسأكون صريحاً واضحاً فى كل ما أكتب ولئن كان فى الصراحة قسوة وشدة ففيها مع ذلك راحة وشفاء وبيان واهتداء فمعذرة إذا ورد فى كلامى بعض الحقائق المؤلمة فإن الحق المر خير من الباطل الناعم الملمس ، فيكشف بعد حين عن سم زعاف .

يا باشا .. يوم اعتقد الناس أن مصطفى النحاس باشا والوفد المصرى وحكومة الوفد تقف من الإسلام وقف المنصرف عن تصرفه المتبرم بمظاهره العامل على إضعاف تأثيره رغم ما يعلمون عن ماضيكم المشرق الصفحات منذ كنت طالباً فى مدرسة الحقوق فوكيلاً للنيابة ققاضياً نزيهاً فعاملاً مجدداً للنهضة المصرية فى فجرها بنادي طلبة المدارس العليا وإلى جانب مصطفى كامل ومحمد فريد وأضرابها ورغم مواظبتكم على أداء الصلوات فى المساجد .

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمون اليومية» ، العدد (٧٤) ، السنة الأولى ، بتاريخ ٢٩ شعبان سنة ١٣٦٥ هـ - ٢٨ يوليو ١٩٤٦ م .

يوم اعتقد الناس هذا ولا يزال كثير منهم يعتقدونه ، وأنا واحد منهم لم تكن هذه العقيدة وليدة خلاف حزبي ولا حزازة شخصية ولم يكن يعوزهم الدليل على صحة عقيدتهم هذه بل كانت الأدلة المنطقية والمادية قائمة بين أيديهم متوافرة لديهم ملء السمع والبصر والفؤاد ، وإليكم بعضها :

أولاً : نادى الوفد بالفكرة القومية والوحدة الوطنية بين عناصر الأمة الواحدة حتى تقوى الكتيبة ويتوحد الصف أمام الغاصبين والمستعمرين ، وهذا موقف طبيعي وعمل جليل وأساس صالح للمطالبة بالحرية في بلد مغصوب ، وقد عمل لذلك الزعماء الوطنيون من قبل ونادوا بطرح الخلافات المذهبية أمام مطالب الوطن ومستلزمات الجهاد في سبيل خلاصه ، والإسلام الحنيف السمح يقر هذا ولا يعارضه ويدعو إليه ويأمر به ، بل يتجاوز مجرد الوحدة إلى حسن المعاملة والبر بالمخالفين في العقيدة ، فيقول تبارك وتعالى «لَا يَهَآكُمُ اللَّهُ عَنَ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» .

ولكن الموقف الغريب المؤلم هو أن أعضاء الوفد وأنصاره فهموا هذه الوحدة فهماً خاطئاً وظنوا أنها لا تتحقق إلا بأن يتهاونوا في واجباتهم الدينية وأن يهملوا العمل على إحياء شرائع الإسلام ومظاهر الإسلام وأن يحذفوا من برامجهم خدمة الإسلام حتى لا يكون في هذا إيلاام لغير المسلمين من المواطنين ودام هذا الشعور بأنفسهم ودأبوا على تغذيتهم والافتناع به حتى فترت تماماً حرارة حماسهم للإسلام وبردت غيرتهم عليه برودة لم تجعلهم يفكرون في مصلحته وذلك حكم إن شمل المجموع فلن يشمل الجميع طبعاً لكن هذا هو الذي شاهده الناس ولمسوه ، ومن هنا رأينا أن كل صوت يرتفع مطالباً بحق إسلامي في ناحية من النواحي أيًا كانت ، يقابل بجواب واحد هو أن ذلك لا يتفق مع الوحدة الوطنية ولا نريد أن نمس شعور إخواننا المواطنين غير المسلمين حتى خيل إلى جمهرة المسلمين اليقظين لمجريات الأمور والحوادث أنه لن يتحقق مطلب فيه خير للإسلام وأبناء الإسلام مادام هذا السلاح مشهوراً في وجه كل من يريد الإصلاح .

ومن هنا كذلك رأينا كثيراً من رجال الوفد في الحكم وخارجه يهتمون لمصالح غير المسلمين مادية وأدبية، أفراداً وجماعات وهيئات ، اكثر مما يهتمون لمصالح المسلمين بحجة دفع التعصب الديني ، ومن هنا كذلك رأينا أن الاجتماعات الوفدية والتشكيلات الوفدية بعيدة كل البعد عن الاهتمام بالشعائر الدينية والمظاهر الإسلامية ، فليس ما يمنع عندها من أن تكون الاجتماعات في أوقات الصلوات ، وليس ما يمنع من أن تفعل بعض ما يخالف تعاليم الدين في سبيل المجاملات ، وليس ما يدعو إلى تشجيع روح التمسك بالإسلام والعناية به وبين اللجان والتشكيلات ، ومن هنا كذلك رأينا كثيراً من كبار رجال الوفد يوزعون إلى كثير من أنصاره ورجاله الذين يشتركون في الحركات الإسلامية أو يعملون مع بعض الجماعات الإسلامية أو يشتغلون في الأغراض الإسلامية في المدن والقرى بالبعد عن هذه الجماعات والانصراف مع تأييدها أو النهوض بها أو الأخذ بيدها ، كل ذلك وقع يا باشا والأمثلة عليه كثيرة لا داعي لذكرها ، وسببه ومصدره شيء واحد هو توهم أن مناصرة الفكرة الإسلامية يتنافى مع أساس الوحدة الوطنية والفكرة القومية ، وهو وهم خاطئ ، وظن بعيد عن الصواب .

ومواطنونا الأفاضل من غير المسلمين لا يريدون هذا ولا يهتمون له وكل الذي يعنيههم أن يتمتعوا بحقوقهم، وحياتهم كاملة وذلك ما لا يعارض فيه أحد أو يابأه عليهم عاقل ولا يتبرم منه منصف غيور ، وأؤكد لكم أن هذه الموقف أضر بالمسلمين وغير المسلمين ، فأما ضرره بالمسلمين فهو أنه ضيع عليهم وقتاً كبيراً لم يتحقق لهم فيه أمل إصلاحي وأما ضرره بغير المسلمين فهو أنه أحفظ عليهم القلوب وأثار ضدّهم ثائرة النفوس وكاد يؤدي إلى عكس المطلوب من الوحدة ويدعو إلى الانقسام والفرقة .

ثانياً : جاء تصريح رفعتكم في يونيه سنة ١٩٣٥م لمكاتبة شركة الأنباء الأناضولية ، وفيه تقولون بالنص:

«أنا معجب بلا تحفظ بكمال أتاتورك ليس فقط بناحية العسكرية ولكن لعبقريته الخالصة وفهمه لمعنى الدولة الحديثة التي تستطيع وحدها في الأحوال العالمية الحاضرة أن تعيش وأن تنمو» .

جاء هذا التصريح قبلة مدوية ، وإن لم يشعر بها إلا القليل من أهل اليقظة ، وصدمة عنيفة لآمال وقلوب رجال الإصلاح الإسلامي والغيريين على الدين في مصر خاصة ، وفي العالم الإسلامي عامة ، وكتبت لدولتكم إذ ذاك راجياً أن تلتحقوا هذا الكلام بما يبين للناس أنكم لا تقصدون به إلا ناحية وطنية صرفة أو إصلاحات في بعض النواحي المادية البحتة أو نحو هذا من وجوه التأويل والتخريج ، فلم أظفر بجواب .

هذا التصريح ليس تصريحاً أجوف وليس تصريحاً يصدر هكذا عن مجاملة أو عن غير رؤية سابقة وفكرة مستقرة تريد أن تبرز إلى حيز الوجود في الوقت المناسب حتى تتهياً لها الظروف وإن سبق اللسان فأظهر مكنون الضمير ، فأنتم تسجلون في هذا التصريح أن هناك شيئاً اسمه الدولة الحديثة ، وهي التي فهمها كمال أتاتورك وشكل على غرارها تركيا ، وتسجلون في هذا التصريح كذلك أن هذه الدولة هي التي تستطيع وحدها في الأحوال العالمية أن تعيش وتنمو ، ومعلوم أن أتاتورك في دولته الحديثة قد تجرد من كل المظاهر الإسلامية، فكأنكم في هذا تعلنون في صراحة أن مصر لا تستطيع أن تعيش وأن تنمو في الأحوال العالمية الحضارة إلا إن تجردت هي الأخرى من كل مظاهر الإسلام كما فعلت تركيا ، وكأن هذا هو عنوان منهاجكم ومحور الإصلاح الذي تريده لهدا الوطن بعد الانتهاء من قضاياها الخارجية ، ولست رجلاً من آحاد الناس ، بل أنتم زعيم يؤول إليه الحكم وتلقى إليه مقاليد الأمة ، واسمح لي يا رفعة الباشا أن أنبه هنا إلى نقطة قد تكون خافية وهي أن أتاتورك جاهد بالسيف في تحرير بلاده ، وطرد منها الأجانب ، وبت فيها روح العزة والكرامة ، ووفر لها بعض الراحة في الاقتصاد والماديات ، وهذا جميل لا غبار عليه ، وقد وصل إليه أتاتورك وهو مسلم يحمل المسبحة ، ويتلو القرآن في المصحف ، ويسجد لله على رمال الصحراء بين أعراب الأناضول ومسلميه حتى إذا مكن الله له في الأرض نسي ما كان يدعو إليه من قبل ، وقد كان يتيسر له كل ما أراد من إصلاح ، بل وأضعافه معه لو كان متمسكاً بدينه وإسلامه ، فلم يكن الإسلام حائلاً يوماً دون الوصول إلى المجد ، ومن ظلم الحقيقة أن ينسب إصلاح مصطفى كمال لتركيا إلى الجحود والفجور والإلحاد والرقص والقبعة وغير ذلك من المظاهر الفارغة الخادعة التي لا تقدم ولا تؤخر .

هذا التصريح دليل مادي بين يدي الذين يرون أن الوفد يعمل على سياسة إن لم تكن تناوى الإسلام فهي على الأقل لا تستمد منه ولا تعنى بشأنه ويسرها أن تتخلص من تبعاته .

- ٢٣ -

موقفهم من كثير من الشئون والهيئات(*)

تتمة خطاب الإخوان إلى حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد المصري بمناسبة قراري الوفد الخاصين بمساعدة فلسطين ودعوة ممثلي الشعوب الشرقية للاشتراك في المؤتمر الوفدي والمنشور بمجلة «الندير» بتاريخ ٢٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٧هـ

ألقيت مقاليد الأمة إلى الوفد منذ بدء النهضة الأخيرة وقاد الرأي العام فيها وتعاقبت حكوماته على كراسي الوزارة مرات ، فماذا فعل بشأن الإصلاح الإسلامي ؟ وماذا حقق من آمال المسلمين ؟

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمون اليومية» ، العدد (٧٥) ، السنة الأولى ، بتاريخ ٢ رمضان سنة ١٣٦٥هـ - ٣٠ يوليو ١٩٤٦م .

لا شيء .. بل العكس فإن كثيراً من مشروعات الحكومة يراد به تقلص كل النواحي الإسلامية كمشروع إصلاح المجالس الحسينية مثلاً ، وهذا الإهمال التام والتناسي المطلق لمطالب المصلحين الإسلاميين مع التصريح بعكس ما يريدون ، والعمل عليه دليل آخر على ما يرى الناس ويظنون .

وقد يقال إن الوفد كان طول هذه المدة مشغولاً بالقضية السياسية الكبرى - قضية الاستقلال - وهو كذلك ، ولكن مهما كانت المشكلة كبيرة فإنها لن تنس القائمة بالأمر علاج هذه الموبقات التي تصطدم مع أبسط المبادئ الإسلامية ، ولا يستدعي القضاء عليها وقتاً ، ولا مالاً ، ولا يحتاج إلا إلى تأشيرة من وزير ، وقد تقدمت إليكم بخطاب إصلاحي شامل وزع على الوزراء جميعاً وعلى أعضاء البرلمان ، فكان مصيره مصير سوابقه من الخطابات والمذكرات .

وقد يقال إن شأن كل الهيئات على هذا الغرار ، ولكن واحدة منها لم تتل يوماً منذ فجر النهضة من السلطان والنفوذ ما مال الوفد ، ولم يكن زمام الرأي المصري التام في يدها ، كما كان في يد الوفد ، فهو وحده الذي تقع عليه التبعة ويتوجه إليه اللوم .

يا رفعة الباشا .. تناولت في هذا الخطاب ناحية واحدة هي موقف الوفد من الإسلام وأعرضت عن الناحية السياسية ، إذ كان أهم ما يعنيني سلامة البناء الداخلي ، وإذ كنا قد انتهينا في قضية الاستقلال إلى حد ما وصار علينا الآن أن نفكر في ترتيب البيت كما يقولون ، والآن وقد انتهينا من قضية الاستقلال إلى الحد المعلوم وقد رأيتم أن موقف الوفد من الإسلام قد أضر به ، وإن أمضى سلاح استخدمه خصومكم ضدكم هو الدين فحولوا بذلك وجهة الرأي العام عنكم وأن الشعب المصري تربة غير صالحة بوجه من الوجوه للانقلابات الملحدة الفاجرة ، فهو شعب مؤمن بفطرته ، متدين بما ورث عن آبائه وأجداده ، معتر بمجده الإسلامي وزعامته لأُم الإسلام ، والآن وقد فكرتم في الاتجاه إلى الناحية الإسلامية العربية فأصدرتم قراركم بخصوص فلسطين الباسلة، وبخصوص دعوة ممثلي الأمم الشرقية .

الآن والأمل كذلك .. هل لنا أن نأخذ من هذا أن الوفد جاد في تعديل موقفه الماضي من الإسلام ؟ أم لا زالت هذه المظاهر مناورات سياسية اقتضتها الظروف والحوادث يراد بها الانتصار السياسي على خصوم الوفد والعودة إلى قيادة الرأي العام ثم إلى الحكم حتى إذا تم ذلك عاد سيرته الأولى من الإقضاء والتجاهل والإهمال لكل إصلاح يمت بصلة إلى الإسلام .. ثق يا باشا بأنه إذا كانت هذه الغاية فإن الله لا يؤيد إلا من أخلص له وصدق توجهه إليه ، ولن ينال الوفد شيئاً مما يفكر فيه أو يتطلع إليه فإن الله أشد غيرة على دينه من أن يكون سلماً للمطامع ومطية للأهواء والشهوات ، وإن كانت الأولى فندع الماضي جانباً ولننسه بخيره وشره ولنضع منهاج المستقبل فذلك هو الذي يعين الأمة ويؤدي إلى النجاح وليكن هذا المنهاج مرتكزاً على قواعد الإسلام مستمداً من تعاليمه السامية وأصوله النبيلة الدقيقة ، ولذلك - إن صح العزم عليه - علامات ودلائل نطالبكم بها ونحاسبكم عليها فلا قيمة لدعوى بغير دليل وبرهان .

ومن هذه الدلائل :

أولاً : أن يكون أعضاء الوفد والهيئة الوفدية وعلى رأسهم رفعتكم نماذج صالحة للاستمساك بالإسلام في أنفسهم وبيوتهم وكل مظاهر حياتهم فيؤدون الفرائض ويؤمنون المساجد ويمتنعون عن غشيان الأندية الفاجرة ، والذهاب إلى الصالات الخليعة ، ويصدون عن هذه المسالك في تصرفاتهم العامة والخاصة ، وتزدان اجتماعات الوفد ومؤتمرات الوفد بملاحظة الأوقات وأداء الصلوات ، وينبه على ذلك تنبيهاً جاداً في كل

اللجان الوفدية صغيرة أو كبيرة ، ويراقب أعضاؤها في هذا ، ويؤخذون به على أن القدوة الحسنة من جانبكم وأعضاء الوفد البارزين فيها الكفاية في التأثير وحمل الأنصار على نتهاج هذه الخطة القوية والتمسك بأداب الإسلام وشعائره ومظاهره .

ثانياً : أن يعلن الوفد منهاجه الإصلاحى مستمداً من قواعد إسلامية متضمناً لما يأتي :

- (١) العناية بإصلاح التشريع ، وتوحيد المحكمة المصرية في ظل الشريعة الإسلامية .
- (٢) العناية بإصلاح التعليم ، وتوحيد المدرسة المصرية في ظل الشريعة الإسلامية كذلك .
- (٣) العناية بتجنيد القادرين في الأمة جميعاً تجنيداً تطوعياً لا يكلف الحكومة شيئاً باسم الواجب الديني المفروض على كل مسلم ، واجب الجهاد المقدس الذي يدوي به النفير العام في قوله تعالى «انفروا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» .
- (٤) محاربة الموبقات التي يحرمها الله والتي أفسدت أخلاقنا ، وهددت مجتمعنا ، والقضاء عليها قضاءً تاماً كالبغاء والقمار والخمر والتهتك والمراقص والصلوات والأندية الداعرة .. إلخ وأخذ كل خارج عن أدب الإسلام بالعقوبة الرادعة .
- (٥) العناية بمشروعات الإصلاح الاقتصادي والاستعانة في تحقيق ذلك بتنظيم الزكاة جبايةً ومصرفاً .
- (٦) مقاومة روح التقليد الأوروبي ، وتعويد الشعب الاعتزاز بكرامته وقوميته .
- (٧) العناية بإصلاح الإدارة والأسرة والقرية ، وتطهير ذلك كله من كل ما يتنافى مع أدب الإسلام وتعاليمه .
- (٨) العناية بالسياسة الخارجية التي تربط مصر بغيرها من الأمم الإسلامية والعربية تمهيداً لعودة (الخلافة) وتوكيداً للوحدة التي فرضها الإسلام .
- (٩) دعوة خصوم الوفد السياسيين إلى انتهاج هذا المنهج وبذلك يقضى على الحزبية السياسية .

هذه نماذج مما يجب أن يعلنه الوفد في منهاجه الجدي على الأمة لم نقصد بإيرادها الاستقراء التام ولا الاستقصاء الكامل ، ولكن نسوقها كأمثلة مما يجب أن يكون ، إذا وافقتم على هذه الخطة يا رفعة الرئيس فنقدموا بها إلى هيئة الوفد الموقرة ، واطلبوا إليها إقرارها وإعلانها وإذاعتها على لجانها وهيئاتها وأنصارها ، وحينئذ تقوا بأنكم سترون من الشعب المصري الكريم ، وعلى رأسه جلالة الملك الصالح - أيده الله - نجاحاً تاماً وتأييداً كاملاً وموافقة شاملة ، وحينئذ تتوحد القوة وتتجه الأمة إلى الخير مجتمعة ، ويكتب الله لكم أجر العاملين والمخلصين .

هذه كلمة ليس مصدرها حب الشهرة ولا التشهير ، وإنما هي النصيحة الخالصة يتقدم بها إليكم قلب يضمن بخطواته أن تكون لغير الله والإسلام .. فانظروا ما ترون .

«وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ» .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

الباب الثاني

مقالات متنوعة نشرت بجريدة الإخوان المسلمين

- (١) وصية
- (٢) عامان في الميزان .. عام مضى .. وعام في ضمير الغيب
- (٣) الدكتور هيكل وكتاب حياة محمد ﷺ
- (٤) حول قرض القطر
- (٥) تعاون الدولة والأمة على الخير يحقق الأمل المنشود
- (٦) حول قضايا العالم الإسلامي .. خواطر مهداة إلى الأمة البريطانية عامة .. وإلى مستر تشرشل ووزراء الدومنيون خاصة
- (٧) حول قرض القطر
- (٨) من الوصية
- (٩) بيناء والسودان
- (١٠) دول العروبة والإسلام بين الأطماع الاستعمارية وآمال الشيوعيين
- (١١) هذا الجنيه
- (١٢) نستطيع أن نفع كل كثيرًا لو أردنا
- (١٣) حول خط اب النقراشي باشا
- (١٤) مسألة ألة وقت
- (١٥) بيان وقت
- (١٦) بالجس : ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ ÷ ١٧٠٠٠٠٠٠٠ = ٢٩٤١٢ جنيه
- (١٧) كلام صريح حول الموقف الحاضر
- (١٨) خط اب الإخوان إلى دولة رئيس الوزراء
- (١٩) ٢١ فبراير
- (٢٠) رد غبطة البطيرك على رسالة فضيلة المرشد العام
- (٢١) أجانن ومصير
- (٢٢) الخطاب الذي أرسله فضيلة المرشد العام إلى الباغ ردًا على ما نشرته بالأمس
- (٢٣) ماذا أعيدنا لما بعد الاحتكام ؟
- (٢٤) إذا كان هذا صحيحًا يا دكتور فقد اتفقنا ؟
- (٢٥) نص ف ش

[١]

وصية (*)

صورة من الخطاب الذي بعث به فضيلة الأستاذ المرشد العام للإخوان المسلمين إلى الأخ المسلم الأستاذ أمين أفندي محمد السكري عضو الإخوان بالمحمودية وعضو بعثة المعارف بإنجلترا .

القاهرة : من الديار المصرية المحبوبة في السابع عشر من شهر جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ هـ

أخي أمين أفندي رعاه الله وكلاه

أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأصلي وأسلم على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه ومن تمسك بشريعته إلى يوم الدين ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته يوم تسافر صالح النية نبيل المقصد ويوم تعود راشد المسعى حميد الأوبة ، ويوم تخدم الإسلام المفدى ومصر الحبيبة بما قطفت من يانع ثمر العلوم وناصر أزهار المعارف .

بعد فترة قليلة أيها العزيز ستكون بين قوم لم تعرفهم وأناس لم تألفهم ويرون فيك مثال المسلم الفاضل وصورة المصري الكامل ، فاحرص با عزيزي أشد الحرص على أن تكون خير مثال وأفضل صورة يفهم منها القوم أن المسلم فضيلة وأن المصري نبيل وأن معك «وديعه» من لحمك ودمك وعواطفك وأملك ، تلك هي زوجك الفاضلة التي تمت إليك بصلة القرابة أولاً ، ثم بصلة الزوجية ثانياً ، ثم بصلة التضحية ثالثاً ، فقدرك كل ذلك ، وكن لها رفيقاً أميناً يوفر لها الراحة ويحقق لها السعادة ويشاطرها الهناءة في غير تسهل في الحقوق أو تغافل عن الواجبات ، وقرأ معاً في هذه الكلمة التي أملاها حبي إياكما وإخلاصي لكما كأخ كبير يتمنى لأخويه أفضل الأمناني ، ويرجو لهما أسعد الحياة يا أمين أفندي :

(١) أحسن مراقبة الله تبارك وتعالى في كل شأنك واعلم أنه رقيب عليك وناظر إليك ومحيط بكل شأنك أينما كنت وهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، فاجتهد ألا يراك الله إلا حيث يرضى عنك وقتاً وحالاً ولا تغفل عن مراقبة الحق تبارك وتعالى فيتسرب إلى نفسك الشيطان وتغلبك وساوس النفس ، وأعتقد يا عزيزي أن القلب المعمور بمراقبة الله تبارك وتعالى لا يقربه شيطان أبداً فإن خلا من معرفة الله استهوته الشياطين وسكنته الشهوات والأهواء ، فحصد قلبك بالمراقبة واستعن على ما يحيط بك باليقظة ولا تكن من الغافلين .

(٢) أذ فرائض الله التي افترض عليك ولا تهملها اتكالا على القضاء أو اشتغالا بالأعمال أو تعلقا بالمعاذير فإن ذلك من خداع النفس ونزعات الهوى فلا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، واعلم يا عزيزي أنه ما تقرب أحد إلى الله بمثل ما افترض عليه كما جاء في حديث البخاري رضي الله عنه (فاياك إياك وإهمال الفرائض والتكاسل ، أذ الواجبات لله عليك فأقم الصلاة وأحسن الصوم) ، ولا تعجز عجزاً تاماً عن ذلك فيكون لك مندوحة في قول الله تبارك وتعالى «وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ» ، واحذر أن تتخذ ذلك ذريعة للتقصير فلأن تصوم بمشقة وأنت في ديار غربة أعظم لأجرك وأجزل لثوابك وأرضى لربك وأزكى لنفسك ، فلا تقرين الفطر إلا مغلوباً لا يجد إلى الصوم حيلة ولا يستطيع إليه سبيلاً ، ولا أزيدك بالفرائض وصية فإنها رأس المال وما بالك بمن ضاع رأس ماله كيف يكون حاله مع الربحين غداً .

(*) نشر بمجلة «الإخوان المسلمين الأسبوعية» ، مرتبة تبعاً لتاريخ نشرها .

(٣) اقض ما استطعت من وقتك في الطاعات من النوافل فأدّ سنن الصلوات وأكثر من الاستغفار وسبح باسم ربك العظيم ، واعلم أن دعاء المرء وهو على سفر وفي اغتراب مستجاب فأكثر الدعاء تضرعاً وخيفة وأدم ذكر الله تبارك وتعالى ، فقد أوصى الرسول ﷺ علياً كرم الله وجهه بأن يظل لسانه رطباً بذكر الله ولا تدع سبيلاً تستطيع أن تسلكها إلى الخير إلا سلكتها فإن الطاعات منك مضاعفة للأجور ، وذكر ربك بين الغافلين من أبناء تلكم الأمم نور على نور ، فاغتنم هذا الوقت فهو موسم من مواسم الأرباح الأخروية لمن أراد أن يغتني الفرص وينتفع بالمواسم .

(٤) أكثر من تلاوة القرآن بتفهم وتدبر فهو شفاء الصدور وربيع القلوب واجعل لك منه مندوحة تستفتح به يومك وتختتم به عملك فنعمة البدء ونعم الختام .

(٥) سترى من مباحج الحياة وزخرف الدنيا ما يستهوي القلب ويسترعى العين ويخلب اللب ويغلب ضعاف النفوس فلا يفتنك ذلك عن الفضيلة ولا ينسينك الآخرة «وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ حَيْرٌ وَأَبْقَىٰ» ، « وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْنَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرِزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ» ، واعلم يا عزيزي أن هذه المتع جميعاً لا تزن عند الله جناح بعوضة ولا تدل على شرف أو فضيلة وإنما هي مطايا الشهوات ومهاوي الفتن ، فاحذر أن يستخفك الشيطان فتتردى في مهواة الإثم والفتنة واذكر دائماً قول الله تبارك وتعالى «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ» ، وكتاب الله يتلو عليك هذه الحقائق صباح ومساء فلا تكن ممن يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة ويخدعه القشر عن اللباب وما من لذة من هذه اللذائذ التي جاءت بها المدنية الحاضرة إلا تعقبها آلام تربو على حلاوتها وتذهب بعذوبتها فتجنب مظاهر دنياهم ولا تأخذن بقيادك ولا تتخذن بها لتكون من الفائزين .

(٦) يا عزيزي إن القوم يرون بعض ما حرم الله علينا حلالاً لهم فلا يتخرجون من مقارنته ولا يتوقفون عن ارتكابه فلا توافقهم على أهوائهم ولا تخالطهم في آثامهم فإن ذلك لا ينجيك من مؤاخذه الله تعالى ولا يصلح لك حجة يوم القيامة .

لا تصاحب فتياتهن ولا يكن بينك وبينهن صداقة خاصة ولا صلة عاطفية فإن ذلك إن كان من غيرك جرم فهو منك جرمان وأنت تعلم تأويل ذلك والعهد بك العفاف والأمانة وإنما ذكرت ذلك تنبيهاً على مزلق الإثم حتى لا تنزل قدم وفي طهارتك الغناء وفي شرف نفسك الكفاء .

الخمير : لا تقربها ولا تتعلل بالجور فإن الله حين حرّمها كان يعلم الأجواء جميعاً فلم يستثن بلدًا دون بلد ولا أمة دون أمة ولكنه حرّمها تحريماً لا شك فيه ولا استثناء معه ، فإياك أن تحتل من بطنك مكاناً فتظل بقعة سوداء في ذلك الأديم الطاهر ، وكن أشد ما تكون عزيزة أمام الكأس الأولى فإنها إن خامرت عقلك استتبعته الثانية فالثالثة فانزلقت إلى هاوية لا تجد لك منها خلاصاً وجنيت بذلك على نفسك وعلى غيرك جناية ، إن كفرتها التوبة فمن لك بسابق الطهر وروعة الحصانة .

مطاعم القوم المحرمة من خنزير وميتة : لا تذق منها شيئاً ولك في الحلال مندوحة وغنى فلا تتذوق الحرام ولا يثبت لحمك منه فكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به وما حرّمه الله إلا وهو خبيث يحل لكم الطيبات ويحرم عليكم الخبائث فانصرف عن الخبائث إلى الطيبات .

المقامر والملاهي ودور العبث : وقتك أغلى من الضياع فيها فاحرص عليه إن يضيع في غير ثمرة تستفيدها أو خير تفعله ، ولقد رأيت من قال إن الوقت من ذهب فلم يعجبني ذلك لأن الوقت أغلى من الذهب فالوقت هو الحياة ، وهل حياتك إلا هذه الساعات التي لا تدري متى تنتهي ، فاحرص يا عزيزي أشد الحرص على أوقاتك ولا تصرفها إلا في الجد وروح نفسك بالحلال من المروحات وإن في السماء لروحاً وإن في الأرض لجمالاً وإن في الحدائق لنضرة وإن في البحر لعظمة وإن في نفسك لآية وإن في الهواء لغذاء فخذ من ذلك كله راحة لنفسك واستجمام لخاطرک ، ولا تكثر من اللهو والغفلة فإنها حجاب عن الخيرات ومدعاة إلى السوء .

(٧) كن مع القوم ناقداً بصيراً ومنصفاً خبيراً لا تستهويك محاسنهم فتنسى مساويهم ولا تؤلمنك مساويهم فتنسى محاسنهم ، بل ادرسهم دراسة الفاحص المدقق وأحط بكل ما تستطيع من شئونهم علماً ثم انقد ذلك كله بعين البصيرة فما كان حسناً فأهده إلى أمتك وقومك وعد به مظفراً مؤيداً وما كان غير ذلك فألقه إليهم لا تقم له وزناً ولا تأت إلا وقد نفضت منه يدك وفرغت خاطرك ، وستجد قومًا يعيبون دينك وينالون من نبيك ويجهلون قرآنك وينتفضون قومك فلا تقعد معهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإن دعاك الأمر إلى النقاش فجادلهم بالتي هي أحسن وأوضح لهم ما تعلم في ذلك من المحاسن ، وإياك والمرء المؤدي إلى البغضاء والفتنة فإنك «لا تُهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» ، واكتب إليَّ إن أردت بياناً أو استيضاحاً يأتك الجواب ، واعلم يا عزيزي أن الدعوة الفعلية أجدى من الدعوة القولية وأن دفاعك عن دينك وأمتك ودعوتك لهما بحسن خلقك وكمال نفسك واستقامة مسلكك ، وإن أتيتك سبيل القول والمحاضرة في مجامع القوم وأنديتهم فاستعد لذلك وتخبر ما لا يثير فتنة ولا يجرح كرامة ولا تتهيب الموقف فإن معونة الله مع المخلصين ، وكن إيجابياً فلا تقدر في عقائد القوم ولكن جُلِّ لهم محاسننا واكشف لهم عن عقائدنا وحسبك هذا دعاية وتشويقاً واذكر الإخوان المسلمين ودعوة الإخوان المسلمين وجريدة الإخوان المسلمين بالخير .

وأما بعد فإن في القول سعة وكنيت أحب أن أستمرك لك مناجياً لولا أنني أخشى أن أطيل عليك فتنسى فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً أما الأمل فيك فعظيم وأما الشوق إليك فشديد وأما الدعاء لك فمتجدد والهه عليم نعم الخليفة ، رافقتكما السلامة ورعاكما الله وأعادكما على خير ما يحب لكما المخلصون ، ونستودع الله دينكم وأمانتكم وخواتيم عملكم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،

أخوكم

حسن البنا

في دار رئيس التحرير

جريدة الإخوان المسلمين

[٢]

عامان في الميزان

عام مضى .. وعام في ضمير الغيب (*)

أحببت لأول العهد بهذه الصحيفة أن أتحدث إلى الإخوان المسلمين حديثاً موجزاً كل الإيجاز عن دعوتهم في عام مضى وعام في ضمير الغيب لم يمض فيه إلا ليال قلائل ، فلعل في هذا الحديث ذكرى والذكرى تنفع المؤمنين .

يريد الإخوان المسلمون من الناس في مصر المسلمة وفي غيرها من بلدان العالم الاسلامى أن يكونوا مسلمين حقاً ، يفكرون كما رسم لهم الإسلام ، ويعملون بما أمرهم به الإسلام ، ويتركون ما نهاهم عنه الإسلام ، وينظمون شؤون حياتهم على القواعد التي وضعها الإسلام وبينها كتاب الله وتناولتها السنة الصحيحة .

يريد الإخوان المسلمون الفرد المسلم الذي تتجلى في اتجاهاته وأعماله صورة الإسلام الصحيح والشعب المسلم الذي تسود مجتمعاته آداب الإسلام الصحيح والحكومة المسلمة التي تقوم على أمر الله فتحق الحق وتبطل الباطل ولو كره المجرمون .

هذه هي دعوة الإخوان المسلمين كاملة : رجوع بالناس إلى هدى الإسلام ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

ووسيلة الإخوان في ذلك القدوة أولاً : فهم لابد أن يأخذوا أنفسهم بتعاليم الإسلام وأن تسود هذه التعاليم كل وسط لهم عليه سلطان ، والدعوة ثانياً : فهم يرفعون الصوت بهذه التعاليم في كل مكان ، والقوة ثالثاً : قوة الإيمان وقوة الإخاء وقوة العمل المنتج الذي لا يقف في سبيله شيء مهما كان .

ولا يجهل الإخوان المسلمون ما أمام دعوتهم من عقبات فهم يعلمون تمام العلم أنهم سيواجهون صعاباً قاسية في سبيل دعوة الحق تختلف إشكالاتها وألوانها ومصادرها ومواردها ولكنهم بايعوا الله على الجهاد والاحتمال .

هم يعلمون تمام العلم أن هناك صعاباً سيقومها كثير من المسلمين أنفسهم – بل المتمسكين منهم ببعض تعاليم الإسلام – لأنهم يجهلون هذا المعنى الجديد بل التليد من معاني الإسلام الحق ، أو لأنهم يرون في هذه الدعوة حائلاً دون المطامع والأهواء ، وكثير منهم إنما يعيش بالمطامع والأهواء أو لأنهم جمدوا على ناحية من نواحي الفكرة الإسلامية فلم يروا غيرها شيئاً مذكوراً ، بل رأوا أن كل مناداة بغيرها من أركان الإسلام صرف للناس عنها وانتقاص منها ، وقد عاهدوا الله أن ينصروها ولا يكون ذلك في رأيهم إلا بالوقوف في وجه كل دعوة سواها وإن كانت في حقيقة الأمر قوة لدعوتهم وتأييداً لفكرتهم ولكنهم لا يعلمون .

يعلم الإخوان هذا ، ويعلمون أن صعاباً أخرى ستقيمها الهيئات المدنية التي لم تؤمن بعد بقضية الإسلام من رسمية وشعبية ، سياسية أو غير سياسية ، إما اخلاصاً خاطئاً لمبادئ لا تسمن ولا تغني من جوع ، وإما حرصاً على وجاهة المناصب وموارد والجاه .

(*) الإسماعيلية سنة ١٩٢٨/١٩٢٩ م .

ويعلم الإخوان كذلك أن صعابًا من نوع ثالث سيقمها في وجههم خصوم الإسلام في داخل بلاده وخارج هذه البلاد ، ومما يبكي ويؤلم أن يكون هؤلاء الخصوم أعرف بنا وأيقظ لنا وأكثر وقوفًا على خطواتنا من كثير ممن يعاشرننا ويخالطوننا ويعيشون معنا ، وبديهي أن يضع هؤلاء الخصوم في طريق كل عامل ناجح للإسلام ألف عقبة وعقبة وألا يتركوه هادئًا إلا بقدر ما يشغلهم عنه ما هو أهم في نظرهم منه .

ويعلم الإخوان مبلغ قوة كل هذه النواحي التي يواجهونها في دعوتهم هذه وما تملك من جاه ونفوذ وسلطة ومال ، ولكنهم مع ذلك كله يستمدون نجاحهم ويعشون أملهم بالاستناد إلى الله الذي تكفل بنصرة المؤمنين وتأييد المحسنين ، فالإخوان يعتمدون على الله في كل شأنهم ويرون في معونته تبارك وتعالى إياهم وفي طهارة أنفسهم من المطاعم والأهواء أيا كانت فهم لفكرتهم وحدها يعيشون ، وفي سبيلها وحدها يجاهدون ، ثم في صبرهم على غضاضة الجهاد بل استرواحهم إلى ما في الجهاد من ألم ومشقة يستعذبون ذلك ويرونه السبيل إلى النصر في الدنيا والفوز في الآخرة ، يري الإخوان في كل هذه المشاعر ما يكفل لهم الطمأنينة التامة حتى يؤدوا رسالتهم كاملة وينضوا بواجبهم غير منقوص .. والله الأمر من قبل ومن بعد .

ودع الإخوان بهذا المحرم عامًا من أعوام حياتهم هو العام الحادي عشر لهذه الدعوة من هتف بها هاتفهم بالإسماعيلية في أول ذي القعدة سنة ١٣٤٨ هـ واستقبلوا عامًا آخر هو العام الثاني عشر لهذه الدعوة .

ولقد كان عامهم الماضي حافلًا حقًا بالحوادث والمفاجآت لهم وللعالم كله ، حافلًا بالنشاط كذلك من جانبهم، ففي العام الماضي تقلبت بالناس الحوادث سرعًا فأعلنت الحرب واقتضي إعلانها كثيرًا من التغيرات الجوهرية في القضايا التي تشغل بال العالم كله والعالم الإسلامي خاصة وانصرف اهتمام الناس إلى ما يقتضيه الوضع الجديد والكفاح الجديد ودخل العالم الإسلامي كله في تجربة أن لم تعضه بنابها الآن فهو لم يزل بين مخالبتها وقامت لذلك ولغيره حكومات وهوت حكومات وواجه الناس أسلوبًا في شئونهم العامة والخاصة لم يألفوه من قبل ، وكان على الإخوان أن يحددوا موقفهم كهيئة تعمل للصالح العام وتستخدم كل الظروف في سبيل نجاح فكرتها وتحقيق غايتها فحددنا موقفنا فعلاً وأفضينا بأرائنا في هذا إلى الرجال المسؤولين ، ووجدنا منهم كثيرًا من الإصغاء ، ونعتقد أن مهمتنا في هذا المعني لا تقف عند هذا الحد فنحن دائماً على قدم الترقب والاستعداد معاً ، ولا يمنعنا شيء عن أن نؤدي واجبنا كاملاً غير منقوص كما يفرضه علينا الإسلام الذي يوجب اقتداء العزة الإسلامية بالنفوس والأبناء والأموال .

وقامت في مصر خلال العام الماضي حكومة جديدة زادت في وزارتها كرسياً جديداً للشئون الاجتماعية فحمدنا لها هذا الشعور وترقبنا عمل هذه الوزارة الناشئة وكتبنا إلى وزيرها نصارحه بأننا على استعداد لتأييد هذه الوزارة في مشروعاتها الإصلاحية أن كانت جادة حقاً ، وسارت على نمط يتفق مع منهاج الإسلام الصالح ، ومن الأسف أن هذه الوزارة وقد مضى عليها وقت ليس بالقليل لم تعمل شيئاً بعد ولم يري الناس لها أثراً يصلح أن يحاكموها إليه في إساءة أو إحسان وكل ما هنالك دعاية لمشروعات والإعلان عن خطوات .

ولو قد أرادت هذه الوزارة الناشئة أن تعمل لوجدت مكان العمل واسعة ولوجدت في هذه الهيئات المخلصة العاملة الجادة خير نصير يؤازرها ويمدها بتجارب كثيرة منتجة نافعة ولا ندري هل ستندرك هذه الوزارة ما فاتها فتتفجع بذلك الناس وتبقي أداة صلاح لهم أم ستظل في بطنها هذا فيحكم الزمن عليها وتتناولها سنة الله «فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً» .

ونادت الحكومة منذ أول عهدها بكراسي الحكم بالجيش المرابط وما إليه وتفاءلنا خيراً كثيراً وكتبنا لقائد الجيش المرابط نصارحه بذلك بأنه يجد من فرق الإخوان وتشكيلاتهم أفضل نواة لما يجب أن يكون عليه الجندي الحق المخلص لمبدئه ووطنه وترقبنا ماذا سيكون فإذا بعوامل المد والجزر تتناول هذه الفكرة بالمحو والإثبات والتطويل والاختصار حتى وصلت إلى ما يعرفه الناس ، ولازلنا مع هذا نأمل من ورائها خيراً أن شاء الله ،

وكل ما يتصل بهذه الناحية من حيث تقوية الروح في نفوس الشعب ولقت أنظار الشباب إلى قدسية الجهاد وواجب الاستعداد ، فنحن نزيهه وننميه ونرحب به على كل حال .

ولقد سار الإخوان سيرهم الطبيعي في نشر دعوتهم ولكن في قوة وإسراع لم يكونا مقصودين لقيادة الإخوان فقط ولكنهما كانا كذلك طبيعيين لسير الدعوة التي لقيت من الشعب المصري ومن الهيئات العاملة في الشعوب الإسلامية كلها فوق ما كنا نتصور من ترحيب وتشجيع وتأييد فتكونت الشُعب في القاهرة وفي غير القاهرة ونشطت دوائر الإخوان الرئيسية في الأقاليم لزيارة ما حولها من القرى المباركة وتأسيس الفروع بها .

وكانت الرحلات من مندوبي المكتب العام ومن مندوبي الشُعب الرئيسية في الصيف وفي خلال فترات العام وفي مواسم الحفلات الإسلامية لفتحاً للعقول والنفوس والأرواح تضاعف بها سيرها وتجد في عملها ونجح مشروع المعسكرات الصيفية نجاحاً مشكوراً ، وبخاصة في القاهرة وفي أسبوط وفي بور سعيد .

وعلى كل حال فقد كان العام الماضي عام نشاط وجد للإخوان المسلمين في نواح كثيرة من نواحي جهادهم الطويل توج معظمها بالنجاح والتوفيق والحمد لله على كل حال .

وإذا ماذا علينا أن نعمل وكيف نواجه عامنا هذا الجديد المثقل بالتبعات والظروف والمفاجآت ؟

أيها الإخوان : إن الخطوة الأولى من خطواتنا صلاح النفس فهل اطمأننا على صلاح أنفسنا ؟ أنفسكم أولاً أيها الإخوان أن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً .

فحاسبوا أنفسكم لتعلموا أين هي من التمسك بمبادئ الحق والقوة والسلام .

هل أنت مؤد للفرائض كاملة ؟ هل أنت بعيد عن المعصية والمنكر؟

هل تحب الخير وتعمله ؟ ماذا قدمت من أنواع الخير .. لنفسك أو للناس ؟ هل أنت مستعد للعمل في سبيل فكرتك ، فجسمك صحيح وفكرتك صحيح ووجدانك طاهر سليم ؟ هل حاولت أن تثبت فكرتك في المحيط الذي يتصل بك ؟ وهل آمن بدعوتك إليها واحد أو أكثر من أصدقائك ؟

بمثل هذه الأسئلة يجب أن يحاسب الأخ المسلم نفسه أولاً حتى يتأكد أين هو من طريق الإخوان ثم المجتمع بعد ذلك ، وهذه ليست مهمتكم وحدكم ولكنها مهمة المكتب العام معكم ومهمة الهيئات الإدارية للإخوان قبل أن تكون مهمة الأفراد .

ماذا قدمت هيئة الإخوان من الخير لمن يحيط بها من الناس ؟ وكم من فرد أقتنعتهم بالدعوة وثقتهم بمبادئها وتعاليمها ؟ وكم مشروعاً من مشروعات الخير نجح على يديها ؟ وبمثل هذه الأسئلة نريد أن تزن هيئات الإخوان وسائل جهادها ونواحي عملها .

ثم النظام العام بعد ذلك كله ، وهذه مهمتنا مجتمعين ومعنا كل مسلم يؤمن بالله ورسوله فعلى أن نسأل أنفسنا دائماً في التغييرات الجديدة التي حدثت في نظام حياتنا العام فقربنا بها أو بعدنا عما رسمه الإسلام فإن رأينا أننا نقرب ولو قرباً ضئيلاً فهو النجاح بعينه وإن رأينا أننا نتحرف انحرافاً يسيراً فهو الإخفاق بعينه وعلينا أذن ألا يبعث النجاح في أنفسنا القناعة والخمود فإن الطريق طويلة وألم سالك متشعبة وألا يبعث الإخفاق في أنفسنا اليأس والقنوط فإن رحمة الله قريب من المحسنين ، بل واجبنا دائماً أن نستمد من النجاح قوة تدفعنا إلى الأمام ومن الإخفاق درساً يدعوننا إلى مضاعفة الجهود ، هذا هو المقياس الذي أحببت أن أضعه بين يديكم أيها الإخوان في عامكم الجديد لتظلوا دائماً إلى الأمام .

الدكتور هيكل وكتاب حياة محمد ﷺ (*)

عرفت الدكتور هيكل بأثاره الأدبية وكان من أروع ما أخذ من نفسي منها مقال كتبه في مجلة «الرابطة الشرقية» أيام صدورها في حضارة الشرق ، أشاد فيه بهذه الحضارة وذكر وجوها ناضرة من وجوه عظمتها وخلودها وأبان أن العالم لا ينجيه إلا أن تقوم حضارة الشرق بأصولها الروحية ومزاياها النفسية وفضائلها الإنسانية وأنه لهذا يعتقد أن حضارة الشرق ستبعث من جديد ويهيب بالشرقيين أن يكون لهم في هذا البعث نصيب مشكور .

كل ذلك منذ أعوام ثم مرت الأيام سراعاً فعرفت الدكتور مرة ثانية في جماعة الدفاع عن الإسلام يوم جمعنا فكرة واحدة هي فكرة الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه .

وكنت أسمع الناس يرددون اسم هيكل في المتشككين مرة ، وفي البعيدين عن روح الإسلام مرة أخرى ، وفي المناصرين لحركة الفكر الحر بمعناها الاصطلاحي في هذا العصر لا بمعناها اللغوي البري مرة ثالثة وهكذا دواليك حتى كانت تلك المقالة في الحضارة الشرقية وهذا التلاقي في جماعة الدفاع فرأيت في الدكتور هيكل شخصاً غير الذي يقول الناس وظهر في عالم التأليف كتاب حياة محمد ﷺ وأخذ دوره من التقريظ والنقد والإعجاب والتقدير والإطراء والتكريم ، ولنا حول هذا الكتاب بحث نحب قبل أن نعالجه أن يعلم الدكتور نفسه والقارئون معه أننا سنعالجه على ضوء الشعور البرئ الخالي من التأثير بأية عاطفة إلا عاطفة الوصول للحق والحق أسمى مطالب المخلصين .

وقد لفت نظرنا في بحوث الكتاب أنها تناولت بعض الروايات التاريخية بما يخالف الحقيقة على ما وصل إليه علمنا وبما يصطدم ببعض العقائد الإسلامية الثابتة في اعتقادنا .

وأحب قبل أن أتناول هذه النقاط بالتمحيص أن أتفق أنا والدكتور على تحديد بعض الأصول التي لا بد من الاستناد عليها ورد الفروع إليها خلال البحث فإذا ما اتفقنا في هذا التحديد كانت مهمة التمحيص بعد ذلك واضحة بيّنة لا تلتوي بها الطريق ولا تتشعب فيها المسالك ، ولهذا أرجو أن يتكرم الدكتور بأن يدلي إلينا برأيه في هذه النقاط إن أحب ذلك ورأه حسناً فإذا سكت ، فسأبين ما في هذه الأصول أولاً ، ثم أفصي بتطبيق موضوعات البحث عليها إن شاء الله حتى يكون القارئ في مأمن من الزلل والعناء .

أما تلك النقاط الأساسية فهي :

- (١) ما رأي الدكتور الفاضل في المعجزات ماهيتها وثبوتها وأمثلتها ؟
- (٢) وما رأي الدكتور في حجية الحديث ؟ وهل يرى حضرته أن كلام الفنيين من علماء الحديث الأثبات حجة في الفن يعتمد عليها ويصار إليها أم له في ذلك رأي آخر .
- (٣) وأخيراً هل كان الدكتور متأثراً في الكتابة بملاحظة ضرورة إقناع المستشرقين ومن حذا حذوهم من الشرقيين بعظمة النبي ﷺ أم كان كل مقصده أن يسير مع البحث إلى أية نتيجة أدى إليها ؟

ذلك ما أردت أن نتفق على تحديد أولاً ، وسأنتظر رأي الدكتور الفاضل ثم أتمم ما بدأت به إن شاء الله تعالى ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

جمعية الإخوان المسلمين

حسن البنا

(*) نشر بمجلة «الإخوان المسلمين الأسبوعية» ، السنة الثالثة ، العدد (٦) ، بتاريخ ١٨ صفر ١٣٥٤هـ - ٢١ مايو ١٩٣٥م .

في مجلة الرسالة^(*)

كتب الأستاذ الزيات في العدد الحادي والعشرين من مجلة الرسالة الخاص بعيد الوطن الاقتصادي عن نهضة الشباب في مصر فكان ختام مقاله هذه العبارة الرائعة «إن القبعات في الطرقات أكثر وأخطر منها في الثكنات واليوم الذي لا ترى فيه على الرؤوس غير الطربوش ولا تقرأ على جباه الحوانيت إلا العربية ولا تسمع في مختلف المعامل غير اللهجة المصرية ، هو اليوم الذي تقول فيه وأنت صادق لقد صفا النيل وملك الأصيل واستقلت مصر .

وأنا مع الأستاذ الزيات بكل قلبي في أن القبعات في الطرقات أكثر وأخطر منها في الثكنات وبأن اللغة العربية وحدها في جباة الحوانيت مستقلة عما يضاف إليها من حواشي اللغات مظهر من مظاهر الاستقلال الصحيح .

ولكن الذي لفت نظري أن مجلة الرسالة لم تحل جبهتها بهذا المظهر الفريد من مظاهر الاستقلال فظهر فيها اسم الجريدة عربياً مقروناً باللاتينية ، فهل وصل تحكم الاستعمار إلى جبهة الرسالة أيضاً ، أم يرى الأستاذ الزيات أن جباه الحوانيت أولى من الرسالة في الانتصار للعربية كمظهر من مظاهر الاستقلال أم هو سلطان العادة ، قاتلها الله طغى على سلطان الفكرة .

أمل أن يكون السبب هو الاحتمال الأخير وأرجو أن يسري حكم الرسالة على نفسها أولاً ثم على الناس فيمحي من جبهتها هذا المظهر المنافس للاستقلال .

حسن أحمد البنا

(*) نشر بمجلة «الإخوان المسلمين الأسبوعية» ، السنة الثالثة ، العدد (١٩) ، بتاريخ ٥ شعبان ١٣٥٢ هـ .

مرحى ٠٠ مرحى الأستاذ هيكل بعد الأستاذ الزيات هذا خير كثير ٠٠ وحبذا لو اطرده (*)

علم الله أني إنما أكتب هذه الكلمة بدافع قوي من شعور قوي ووجدان صادق وعاطفة مخلصنة .

وعلم الله أن أسعد الأيام عندنا ذلك اليوم الذي نرى فيه قادة الفكر في هذه الأمة يتوجهون إلى الواجهة الصحيحة المجدية ويدعون وراءهم بنيات الطريق ، والوقت أضيق من أن يتوزع على ما لا طائل تحته ولا خير فيه ، وإذا وضع الحق فلا معنى للوقوف في ساحة الباطل ساعة من نهار .

طلعت علينا - الرسالة - في عدد المولد النبوي الكريم وإذا بالأستاذ الزيات يهتف بجمال التشريع الإسلامي ، ويدعو في حرارة وإيمان إلى الاستمساك بتعاليم الإسلام في كل شؤون الحياة مدنيها ودينيها ودينيها، ويهيب بالعالم أن يلجأ إلى الإسلام ففيه وحده النجاة من كل مشاكل الحياة .

وطلع علينا المصور في الأسبوع الماضي وفيه يستفتي الأستاذ محمد حسنين هيكل ماذا يفعل لو كان وزيراً للحقانية ؟ فيقول بعد أن يتبرم بنظام الامتيازات المقبوت البغيض «أما التشريع فإني أجعل رائدي فيه أن أقرب ما استطعت بين التشريع الحالي والفقهاء الإسلامي في التشريع الاقتصادي فإن ذلك يؤدي إلى إسعاد الجماعة المصرية وإسعاد الجماعة الإنسانية كلها .

مرحى مرحى يا دكتور إي وربي إن التشريع الإسلامي يؤدي إلى إسعاد الجماعة المصرية بل الجماعة الإنسانية كلها في كل ضروب الحياة الاقتصادية وجنائية ومدنية وشخصية وعادية وعبادية ، فقل ذلك بكل قواك واعمل على أن يتحقق وإن لم تكن وزيراً للحقانية فإنك تستطيع أن توصل هذا الصوت إلى وزير الحقانية وغير وزير الحقانية .

وأنت الآن تريد ذلك تدريجاً ، أما إذا طالت دراستك الإسلامية وهي ستطول إن شاء الله فستتادي بذلك في الحال وسترى أن الطفرة في هذا ليست بالمحال فاذع ثم أذع .

ولعلك تهتمس بهذه العقيدة السلمية الموقفة في أذن أشخاص قد تكون أقرب الناس إليهم فتسمع منهم ما ناديت به الآن وهم أحق الناس بهذا النداء .

وإذن لم نكن مسرفين حين تفاعلنا في عدد ماض بأن الفكرة المصرية أخذت تتجه إلى الناحية الصحيحة ، ناحية تلمس الخير من طريق العودة إلى الإسلام والرجوع إلى الله ، وحين تساءلنا هل يأتي اليوم الذي تحل فيه الشريعة الإسلامية محل القانون الوضعي وعسى أن يكون قريباً .

ولعل أعظم الناس فرحاً بهذا التوجه من الأستاذين الفاضلين الإخوان المسلمين الذين تنص عقيدتهم على أن من واجب المسلم إحياء مجد الإسلام بإنهاض شعوبه وإعادة تشريعه .

حسن البنا

(*) نشر بمجلة «الإخوان المسلمين الأسبوعية» ، السنة الثالثة ، العدد (١١) ، بتاريخ ٢٤ ربيع أول ١٣٥٤هـ - ٢٥ يونيو ١٩٣٥م

[٤]

حول قرض القطن(*)

منذ يومين أذاع دولة رئيس الوزراء نداء على الأمة يدعوها فيه إلى المساهمة في اكتتاب قرض القطن ، كما نشرت الجرائد اليوم أن هذا القرض قد غُطي فعلاً .

نحن أمة مسلمة يحرم عليها كتابها الربا ، ويقول في صراحة الآية «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ» ، ويقول في آية أخرى «وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا» ، والأحاديث في ذلك أكثر من أن تحصر ، ويوم حرم الإسلام الربا هذا التحريم القاطع لم يحرمه تحكماً في أموال الناس ولا تعظيلاً لمصالحهم ، ولكنه حرمه لما يترتب عليه من المضار الاقتصادية والاجتماعية ، ولما يحمله من معنى المساومة على العاطفة الإنسانية والأخوة بين البشر بدراهم معدودات .

ونحن نحاول أن نعود ما استطعنا إلى تعاليم هذا الدين الحنيف ونتمسك بقواعده وأصوله حكومة وشعباً ، ونتخلص من آثار هذا التفكير التقليدي : تفكير السير وراء الأساليب الغربية وحدها ، وعلاج مسائلنا الاجتماعية وشؤونها الحيوية بغير نظر إلى حرام أو حلال .

وأولى الناس بذلك الحكومة ، لأنها القدوة والناس لها تبع ، فإذا سهل لديها الحرام فهو على الناس أسهل ، وإذا دفعتم إليه دفعاً ، وهم له محبون ، كانوا إليه أسرع وعليها كما عليهم الإثم ، ومن دعا إلى ضلالة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً .

وهناك أمور كثيرة تحمل طابع الربا وصورته في التعامل بين الحكومة والجمهور ، وتستطيع الحكومة أن تتخلص من هذا الطابع البغيض بمجهود يسير لو كلفت نفسها عناء البحث .

ففي بنك التسليف ، وفي الجمعيات التعاونية ، وفي هذا القرض وأمثاله صورة من هذا ، ولا شك أننا حريصون كل الحرص على المنافع التي تعود على الناس من وراء هذه الأعمال ، ولا شك في أن بنك التسليف وجمعيات التعاون خير من التعامل بين المرابين بالربا الفاحش والفلاح المسكين ، ولا شك أن قرض القطن سينقذ الآلاف من المنتجين والتجار ، ولكن ما الذي يمنع من التفكير في أن توضع هذه العمليات الاقتصادية في صور شرعية كأن تعتبر فوائد بنك التسليف أو الجمعيات التعاونية نفقات للموظفين والعاملين بالبنك ، وتحتسب على هذا الاعتبار حساباً دقيقاً يتراضى عليها الطرفان ، كما تعتبر سهوم القروض سهوماً في شركات مثلاً .

وإذا كانت بعض الدول المعاصرة قد لمست أضرار الربا فحرمته بتاتاً تحريماً قانونياً ، فكيف لا تفعل ذلك حكومة دينها الإسلام وكتابها القرآن ؟

أنا لا أدعي بهذه الكلمة أنني قد حللت المشكلة ، ولكن الذي أدعو إليه أمران :

أولهما : أن تشعر الحكومات شعوراً قوياً بأن من واجبها ألا تحمل الأمة على ما يتنافى مع عقائدها وأحكام دينها ، وأن تخلع ثوب التقليد ، وتفكر في الأمور بروح جديدة ، هو روح الاستناد إلى الإسلام .

ثانيهما : ندب أهل الخبرة في الشرع والاقتصاد للدراسة الدائبة المنتجة التي تنتج التوافق بين ضرورات التعامل وأحكام الدين .

(*) نشر بمجلة «الإخوان المسلمين الأسبوعية» ، السنة الأولى ، العدد (١٦) ، بتاريخ ١٩٤٦/٥/٢٣ م .

[٥]

تعاون الدولة والأمة على الخير يحقق الأمل المنشود
وزارة المعارف تستعين بالإخوان المسلمين على مكافحة الأمية
كتاب معالي وزير المعارف إلي فضيلة المرشد العام

بولكلي في ١٩٤٦/٩/٢١ م

وزارة المعارف العمومية
مكتب الوزير

حضرة صاحب الفضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين

قد علمتم مدي عناية الإسلام بمحاربة الفقر والجهل والمرض وما كان يتخذه الرسول - صلوات الله عليه - من الوسائل لمكافحة الأمية بين أصحابه ، حتى لقد كان يجعل فدية الأسري من المشركين في غزواته أن يعلموا المسلمين الكتابة ، وفي كتاب الله وسنة نبيه ملا يحصي من الآيات والأحاديث في الدعوة إلى العلم والتعليم ، وقد جعل النبي - صلوات الله عليه - التعليم والتعلم في بعض حديثه باباً من أبواب الجهاد .

وقد كان لكم جهود موفقة في الدعوة إلى التعليم ، فكان من آثار هذه الجهود أن أنشئت طائفة من المدارس في طائفة من البلاد لا تزال تقوم حتى اليوم بواجبها في التنقيف العام .

وقد علمتم كذلك أن في مقدمة برنامج الحكومة أن تكافح الجهل والفقر والمرض بكافة الوسائل الممكنة وقد ألقى على عاتق وزارة المعارف عبء كبير من هذا البرنامج ، فوكل إليها مكافحة الجهل - ومحو الأمية - ونشر الثقافة الشعبية فوق ما تحمل من نصيبها في مكافحة المرض والفقر في محيط التلاميذ الذين يعملون في مدارسها ، أو الذين تنظيهم هذه المدارس في المستقبل ، وذلك بما تتخذ من أسبابها لتزويد تلاميذ وتلميذات المدارس بأنواع من الفنون والثقافات العلمية التي تعينهم حين يشاؤون على اكتساب الرزق ، والتماس أسباب الوقاية الصحية .

وقد وضعت وزارة المعارف برنامجها لتحقيق هذه الغاية ورصدت كل جهودها وجندت كل من فيها من ذوي الكفاءة والدراية للعمل في هذه الميدان ، على أن الغاية البعيدة التي تهدف إليها وزارة المعارف ليس يتأتى بلوغها إلا إذا وجدت المعونة والتأييد من كل طبقات الشعب ، وتطوع لمؤازرتها كل ذي فن ، وذو رأي وذو مال من محب الإصلاح ، وإنا لنحمد الله على أن دعوتنا إلى الشعب قد لقيت استجابة عند كثير من الموسرين وذوي البر ، فأخذت التبرعات بالأموال وبالمباني وبالمرافق التعليمية ترد إلينا تباغاً ، وإنا لنا أمل أن يستمر هذا المدد المتواصل من كرام الوطنيين والأجانب حتى تجتمع لنا الأسباب المادية التي تهئ لنا تحقيق مشروعاتنا .

ولكننا إلى جانب هذه التبرعات والمؤازرات المادية لم نزل بحاجة إلى معونة أهل الإيمان من دعاة الإصلاح ليحملوا على عاتقهم جزءاً من البرنامج العملي للكفاح .

وقد رأينا جماعتكم المنبثة في كثير من القرى والحواضر من الشمال إلى الجنوب حقيقة بأن تقوم بقسطها في الكفاح لتحقيق هذا البرنامج ، ولعله ليس عسيراً أن يعمد كل مركز من مراكز الجماعة في القرى والحواضر ، فيهيئ نفسه ليكون - إلى جانب الأغراض المقصودة منه - مركزاً من مراكز مكافحة ومدرسة شعبية لمقاومة

الأمية ونشر الثقافة الشعبية والتهديب العام على أن تمده وزارة المعارف بما يحتاج إليه من الأسباب المادية
ووسائل الإرشاد الفني ، فتقدم إليه الأدوات والكتب وتشرف على سير العمل فيه من الناحية الفنية وتعيره
المعلمين وتؤدي المكافأة المقررة للعاملين من أعضائه .

وأني لعلي يقين بأن هذه الدعوة الخالصة لله ، إن وجدت قبولا منكم ستهيئ لكم سبيلاً إلى النفع العام جديراً
بان يذكر في التاريخ الاجتماعي لمصر النهضة ، وتتيح لكم فرصة لتحقيق جزء كبير من برنامجكم الإصلاحي ،
فإذا رأيتم أن تجيبوا هذه الدعوة فسأصدر أمري إلى المختصين في وزارة المعارف – فور وصول إجابتكم –
ليهيئوا لكم كل أسباب التنفيذ شاكرين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

المخلص

محمد حسن العشماوي

وزير المعارف العمومية

[٦]

حول قضايا العالم الإسلامي خواطر مهداة إلى الأمة البريطانية عامة والى مستر تشرشل ووزراء الدومينيون خاصة^(*)

هناك حقائق قائمة حول قضايا العالم الإسلامي لا ينكرها الآن إلا كل غافل مكابر ، ومن الخير أن يواجه الناس الحقائق بشجاعة ، وأن يسرعوا في الانتفاع بما وراءها من خير ودفع ما تنذر به من سوء ، وما أحوج قادة العالم إلى سرعة الإدراك وإلى شجاعة ، والشجاعة الكاملة في هذه الأوقات العصيبة التي تجتاز البشرية فيها مرحلة انتقال من أدق مراحل تاريخها .

من هذه الحقائق أن العالم الإسلامي - عربياً وغير عربي - بدأ يحدد أهدافه وبدأت حقوقه السياسية تبرز واضحة مجسمة أمام ناظريه بعد أن غفل عنها طويلاً بفعل الحكومات الجائرة ، أو الأمم الأجنبية المستعمرة ، فكل مسلم على ظهر الأرض الآن يعلم تماماً هذه القضايا ، ويحس بأحقيتها إحساساً عميقاً لا نزاع فيه ، يدرك كل مسلم الآن :

- (١) أن إندونيسيا يجب أن تكون دولة إسلامية حرة تتكون من سبعين مليوناً من المسلمين .
- (٢) وأن المسلمين في الهند يجب أن يمنحوا حريتهم ، وأن يسلم لهم بوجهة نظرهم في «الباكستان» حتى تقوم في الهند دولة إسلامية حرة كذلك قوامها مائة مليون مسلم .
- (٣) وأن إيران المسلمة يجب ألا يهدد استقلالها ، وألا تكون مسرحاً للدسائس والفتن وأن تجلو عنها كل القوات الأجنبية .
- (٤) وأن فلسطين المقدسة من صميم الوطن العربي الإسلامي ، وهي عند العرب والمسلمين أولى القبلتين وثالثة الحرمين ، وفكرة قيام الوطن القومي اليهودي أو الدولة الصهيونية فيها هوس سياسي ، لا يمكن أن يكون من ورائه إلا الفتنة التي لا يعلم مداها إلا الله ، ولن يكون هناك وحدة عربية ولا استقلال حقيقي لشعوب الجزيرة المباركة ، إلا إذا اطمأنت على أن فلسطين باقية بيد العرب .
- (٥) وأن وادي النيل دولة واحدة لا يمكن إلا أن تكون حرة مستقلة موحدة ولا يمكن أن يقبل شعبه إلا هذا الوضع .
- (٦) وأن الشمال الأفريقي كله ليبيا بأكملها وتونس والجزائر ومراكش قد أعجزت المستعمر عن أن ينال منها شيئاً بالرغبة أو بالرهبة ، وظلت وستظل عربية مسلمة تناضل وتجاهد في سبيل الحرية والاستقلال ، وستظل كذلك حتى تصل وهي واصلة بإذن الله .

دعك من شعور كل مسلم إلى جانب هذا كله بالرابطة القوية التي تربطه بالأقليات الإسلامية الأخرى أينما وجدت : في آسيا ، في الصين واليابان والفلبين والجمهوريات السوفياتية الآسيوية ، وفي أوروبا : في البلقان وأسبانيا وفنلندا وبولندا والقوقاز .. إلخ ، ومن عطفه الأكيد على هذه الأقليات وتمنياته الطيبة لها ودعائه في صلواته ومناجاته لربه أن يخلصها من الظلم ، وأن ينقذها من الجور ، وأن يهب لها الطمأنينة والخير والسلام .

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، السنة الأولى ، العدد (١٧) ، بتاريخ ٢٣ مايو سنة ١٩٤٦ م .

ومن هذه الحقائق : أن هذا الشعور في كل هذه الشعوب التي تبلغ أربعمئة مليون من البشر قد أصبح من القوة ومن الانتشار ومن الحيوية بحيث لا يمكن بحال من الأحوال أن يكبت أو يقتل أو يموت ، فهو يستمد قوته من اليقظة الشاملة التي غذتها الصيحات المدوية العالية بمبادئ الحرية والعدل خلال حربيين عظيمتين غيرتا وجه العالم ، وأثرتا في نفوس أبنائه أعمق الأثر الذي يستمد قوته من التضحيات العظيمة الكثيرة التي بذلتها هذه الشعوب نفسها خلال هاتين الحربين من نفوس وأموال وثمرات وجهود وضيق مادي وأدبي ، كما يستمد ذلك من إدراك هذه الأمم والشعوب لعراقتها في تاريخ الإنسانية ، وما أسدت من حضارات وفلسفات وحملت من مشاغل وأضواء ، وأشرفت به على الدنيا من رسالات ونبوات ، فهي مهد نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلم ، وهي مشرق الفلسفة الصينية والهندية والحضارة الفارسية والآثار الآشورية والبابلية والحموانية والفينيقية والمدنية المصرية ، وهي بعد ذلك كله وارثة مجد الأمويين والعباسيين والغزنويين والأترک العثمانيين ، سلسلة من الأمجاد والمفاخر لم يتحل جيد التاريخ بمثل قلاذتها الزاهية بالدر والجوهر من مآثر سلف هذه الأمم وأخلاقهم ، كما يستمد ذلك أخيراً من الخلق العربي القويم ومن الإسلام الحنيف العظيم الذي جاء بالحرية الكاملة للأفراد والشعوب جميعاً وعرس معاني العزة في نفوس المؤمنين به والمنقادين له «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ» ، وحرّم على الناس تحريماً قاطعاً أن يستعبد بعضهم بعضاً ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، ومنعهم منعاً باتاً أن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، ولكن أخوة وتعاون «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» .

ومن هذه الحقائق : أن هذه الأمم والشعوب أمم ذات وفاء وصدق ، وإذا قالت وفت ، وإذا تعهدت أنفذت ، ولا يمكن إلا أن تكون هكذا ، لأن الأمم التي أنجبت السموم وعرفت حاجب بن زراره وكان من بينها صاحب النعمان ، والأمم التي تقرأ في كتابها دائماً : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْفُسُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ» ، وتقرأ «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا» ، حتى في عهد المشركين «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْفُسُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَيْمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» وتقرأ : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» ، وتعلم أن الكذب قرين الكفر في قول الله تبارك وتعالى « إِنَّمَا يَقْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ» ، وتعلم أنه مقرون باللعنة والطرده « ثُمَّ نَبَّهْلُ فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الكَاذِبِينَ» ، وهذه الأمم لا يمكن أن تكون إلا مضرب المثل في الصدق والوفاء ، ولقد كانت كذلك فقد وفت وصدقت مع الأوربيين مرتين في أقل من نصف قرن في الحرب الأولى ، وفي الحرب الثانية ، ولعلها لم توت إلا من هذا الجانب ، وهي على ذلك ليست نادمة فحسبها إن بقيت لها صفة الشرف ومنقبة النبيل والوفاء .

ومن هذه الحقائق : أن إنجلترا غير إنجلترا بالأمس ، وبريطانيا في هذه الأيام ليست بريطانيا برازافيلي وغلادستون وسيسل رودس ، فقد تطورت الأفكار والأوضاع وشب عمرو عن الطوق ، وظهر في عالم المنافسة خصوم أقوىاء أشداء ، وخرجت أمريكا من صومعتها لتأخذ بنصيبها من خيرات العالم ، وبرزت روسيا على المسرح العالمي الدولي ترتل أنغام الشيوعية والمساواة والحرية والإنصاف إلى آخر هذا القمص الطويل العريض ، وحملت بريطانيا أعباء حربيين طاحنتين كانت فيهما على شفا الانهيار لولا قضاء تحقق وقدر مضى وكلمة سبقت والأمور بيد الله ، فبريطانيا اليوم غير بريطانيا بالأمس وقد أدرك كثير من سياستها وفلاستها هذه الأوضاع ، بل لعل شعبها نفسه قد أدرك هذا الوضع وعبر عن هذا الإدراك بانتصاره لتعاليم العمال في الوقت الذي قاده المحافظون فيه إلى النصر ، وقد بدأ ذلك واضحاً كذلك في كثير من التصريحات والخطب التي يلقيها السياسة في مجلس العموم ومجلس اللوردات .

ومن هذه الحقائق أخيراً أن هذه الظروف والملابسات خلال الفترات الطويلة من تاريخ الأمم العربية الإسلامية الحديث ، التي قضت عليها أن تتعامل مع إنجلترا صديقة وحليفة أحياناً ، ومحاربة وشريكة في السلاح أحياناً أخرى ، ومخاصمة مناضلة في سبيل حريتها مرة ثالثة ، هذه الظروف نفسها قربت بين هذه الشعوب وبين الأمة البريطانية ومجموعة أمم المملكة المتحدة تقريباً حقيقياً ، ولولا الأغاليط الفظيعة التي يقع فيها الساسة الإنجليز من حين إلى حين كغلبة لجنة التحقيق الفلسطينية ، وغلبة تشدد المستر تشرشل في أمر الجلاء عن مصر ، وهكذا ، لولا هذه الأغاليط لسارت العلاقات بين هذه الأمم وبين بريطانيا على حال من التفاهم تيسر الوسائل وتحقق الغايات .

إذا كانت هذه الحقائق محل اتفاق من الجميع وقد أدركناها تمام الإدراك ، فلماذا تعوزنا الشجاعة التي تجعلنا نقدم غير هيايين على الانتفاع بهذه الفرصة السانحة : فرصة تهيو النفوس والأوضاع لتعاون حقيقي له أثره البالغ في النظام العالمي الجديد ، وتحقيق السلام والسعادة لبني الإنسان .

ولماذا لا تخطو الأمة البريطانية والحكومة البريطانية الخطوة الأولى في شجاعة وإقدام ، ولا تخشى التهديد ولا الوعيد ولا تستسلم للترهات والأوهام .

أريد أن أقترح علي الأمة البريطانية والحكومة البريطانية ، وأمم المملكة المتحدة وحكوماتها بعد أن بسطت أمام الجميع هذه الحقائق ، أن تؤمن إيماناً صادقاً بوجود التعاون مع العالم الإسلامي في هذه الساعات الفاصلة من تاريخ البشر ، وأن تثق بنياته الطيبة نحوها ثقة إلي حد ما ، وأن تعطيه البرهان الصادق علي ذلك بأن تمنحه قوتها الأدبية والمادية معاً لتتحقق مطالبه العادلة في الحرية والاستقلال ، وعليها هي أن تبدأ ، لأنها الأقوى والظهير في ميدان السياسة الدولية ويدها لا بيده تحقيق هذه الأحلام ولها - إن فعلت ذلك - فجلت عن الأرض الإسلامية التي تحتلها وأعلنت حريتها واستقلالها ، وأقامت من نفسها محامياً لا يراجع ولا يلين في قضاياها التي تتصل بغيرها ، لا كما فعل المستر بيفن في قضية ليبيا ، إذ سحب اقتراحه باستقلالها وشايح مطامع أهل الجشع والاستغلال - لها إن فعلت ذلك - أن يمنحها العالم الإسلامي كله أربعمائة مليون قلب من أظهر القلوب وأقواها ، وأن تكون قوة دولة وأممه المادية والأدبية سوراً يحميها ، ويحف بها ويدفع عنها العوادي والأضرار ، ويحالفها محالفة حقيقية لا تقوم على قوة الحديد والنار وسلطان الدبابات والحراب ، ولكن تقوم على التقدير والصدق والوفاء وتبادل المصالح وسعة الإدراك .

لماذا لا تكون عند بريطانيا الشجاعة الكافية للإقدام على هذه التجربة فتضرب عصفورين بحجر واحد ؟ تقييم سوراً حول نفسها وتكون السابقة إلى تحقيق مبادئ العدالة والإنصاف والحرية التي هتقت بها ، وإن ذلك ولا شك أجدى من أن تتحدى هذه المشاعر وتقف في وجه هذه الأمم فتكشف عداوتها ، ولن تنتهيها بعد ذلك عما تريد ، وكل ما في وسعها أن تؤخره أو تعطله بعض الوقت ، ثم تتغلب سنة الوجود وطبيعة الحياة فتصل إلى حقها «وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا» .

حلم من الأحلام يتردد في خاطر ، ويتراءى أمام النواظر لعل الأيام تعبره وحقائق اليوم أحلام الأمس ، وأحلام اليوم حقائق الغد .. والله الأمر من قبل ومن بعد « وَيَوْمَئِذٍ يُفْرِحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِبَصْرِ اللَّهِ » .

[٧]

حول قرض القطن (*)

جاءتنا هذه الكلمة من الأستاذ المفضل الشيخ محمد أحمد عثمان بجمعية مكارم الأخلاق الإسلامية معقبًا على الكلمة السابقة حول قرض القطن ، وقد عقب عليها الأستاذ المرشد العام بكلمة أخرى ننشرهما معًا .

حضرة صاحب الفضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

أما بعد :

فإني أحمد الله الذي إليكم الذي ألهكم وأعانكم على إخراج جريدة يومية تذودون فيها عن الحنيفية السمحة وحقوق الوادي ، تلك الصحيفة التي لا أستريح يوميًا حتى أتصفح ما فيها ، ولقد حدثتني نفسي أن أهنيئ ثم حالت مشاغلي دون التهئة في حينها معتقدًا أن هذا واجب المسلمين جميعًا وأن كل فرد منا جدير أن يهنا على هذا الخير العظيم .

واليوم وفي الصفحة الثالثة من جريدتنا الغراء رأيت مقالكم (حول قرض القطن) صدره تتفجر منه ينباع الحكمة ويحوطه النور السماوي وخاتمه دفعنتني إلى التحرير إذ تقررون فضيلتكم (أن قرض القطن سينقذ الآلاف من المنتجين والتجار ، ولكن ما الذي يمنع من التفكير في أن توضع هذه العمليات الاقتصادية في صور شرعية كأن تعتبر فوائد بنك التسليف أو الجمعيات التعاونية نفقات للموظفين والعاملين بالبنك وتحسب على هذا الاعتبار حسابًا دقيقًا يتراضى عليها الطرفان كما تعتبر سهوم القروض سهومًا في شركات مثلاً) .

هذه الجملة يا سيدي الأستاذ أوففتني ، وقد يكون قصوري عن فهمها هو السبب لأننا جميعًا نعلم أن قروض القطن وغيره لها فوائد من الحكومة ربحت عملية التسليف على القطن أم لم تربح ، وسواء باعت الحكومة القطن بأقل من الثمن المقرر له أم لا ، وفي بعض الصور التي اشترطتها الحكومات السالفة جعلت حصة للمساهم في حال الربح الكبير وليس للحكومة الرجوع عليه في حالة الخسارة ، فالعملية من أساسها باطلة ولا يصح لحكومة ينص دستورها على أن (دين الدولة الرسمي الإسلام) أن تقدم عليها ، فضلاً عن دعوة الأمة إلى مشاركتها في هذا الإثم .

أما الزعم بأن هذه العملية تنفذ الآلاف من المنتجين والتجار فهو يتنافى مع القرآن الكريم «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» .

أما طريقة الاعتبار الفرضي الذي ورد في المقال فإنني لم أفهمه على وجهه ، إذ كيف يسوغ لي أن أفرض أن الليل قائم مع وجود الشمس ساطعة تلهب حرارتها الأذان ؟ وهل يكفي يا سيدي الأستاذ أن يرضى الطرفان عن طريقه حتى يصبح الحرام الخالص حلالاً ؟

الذي كنت أنتظره من أستاذنا المرشد العام أن يوجه الحكومة وجهة أخرى وذلك بإيجاد شركة مساهمة لابتياح القطن من المزارعين وتصريفه على أن توزع أرباح هذه الشركة أو خسارتها على المساهمين على غرار شركة المضاربة المعروفة في كتب الفقه .

ثم الذي آمني أكثر وهو شيء يؤلم كل محب لفضيلتكم قولكم : «ولا شك أن بنك التسليف وجمعيات التعاون خير من التعامل بين المرابين بالربا الفاحش مع الفلاح المسكين» ، فهل يسمح لي سيدي الأستاذ أن أفهم

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية»، العدد (٢٦) ، بتاريخ ٣ يونيو ١٩٤٦م

أن فضيلته يجيز الربا القليل ، لأن المقال صريح في أن التعامل مع بنك التسليف خير من التعامل مع المرابين بالربا الفاحش ؟

ألمي كبير أن يفصح الأستاذ عن رأيه وأن نرى جريدة الإخوان وهي من الألسنة الناطقة بالمبادئ الإسلامية وقافة عند حدود القرآن الذي اتخذناه جميعاً شعاراً لنا .

ومع إجلالي وإكباري لفضيلتكم أرجو أن تتفضلوا بقبول فائق احتراماتي .

محمد أحمد عثمان

جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،،،

قرأت الكلمة الطيبة التي عقب بها الأخ المفضل الشيخ / محمد أحمد عثمان على كلمتي حول قرض القطن ، وإنني لأتقبل نصيحته وأشكر لحضرتة غيرته وأتمنى أن يوفقنا الله جميعاً لخير أنفسنا في الدين والدنيا ، وأضع بين يديه ويدي القراء هذا التعليق اليسير ، وذلك أن الغرض الذي رميت إليه من كلمتي كما لخصته في نهايتها إنما هو لفت نظر الحكومة إلى الخروج من حيز التقليد وحجابه الغليظ ، فلا نكون أسرى لما نتلقى عن الغرب بغير نظر أو تبصر ، ثم دراسة هذه الشؤون دراسة دقيقة تخلص الأمة المؤمنة بدينها من هذا الحرج الشديد الذي تلقاه ، ولم أقصد إلى تحليل الموضوع تحليلاً علمياً دقيقاً ، إذ إنها مهمة تحتاج إلى اختصاصي بهذا الأمر لهذه الدراسة من شرعيين أو اقتصاديين ، هذه واحدة ، والثانية أن ما أشار إليه فضيلة الأستاذ الشيخ عثمان من إنشاء شركة القطن سهوياً ، فهو يخصص وأنا أعم ونحن ملتقيان ، أما أمر بنك التسليف فالذي أقصد إليه أن تحسب النفقات التي يتكفها البنك ، وتضاف هذه النفقات على القروض بنسبتها على أنها نفقات لا فوائد ، وأظن أن ذلك ليس فيه شيء من الربا ، وإذا عمدت الحكومة إلى اعتبار البنك خدمة عامة كان ذلك أطيّب ، وقد فعلت ذلك بعض الحكومات الأجنبية ، والحكومة الإسلامية أولى وأحق .

أما تحليل القليل من الربا فلا أذهب إليه بحال بعد أن حددت الآية الكريمة التحديد الذي لا يدع مجالاً للاجتهاد بعد النص «فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ» ، وكل ما يمكن أن يقال أن هناك صوراً من التعامل قد لا تنطبق عليها أحكام الربا ، وهذه ليست موضوع البحث .

وأختتم هذا التعقيب بما بدأنا به من شكر الأخ المفضل الشيخ عثمان وتقدير نصحه ، والله أسأل أن يعيننا على النهوض بهذه الأعباء وهو المستعان .

[٨]

من الوصي؟ (*)

يزعم الغرب أنه بما وصل إليه من حضارة ومدنية وعلو في الحياة الدنيا قد صار وصياً على العالم يتحكم في شعوبه ويسيطر على شئونه ويتخذ ذلك وسيلة لتحقيق ما تريد أممه من المطاعم والأغراض ، وساعده على هذه المزاعم ما وصل إليه علماءه من كشف لبعض قوي الكون جعل في مقدوره أن ينعم بترف الحياة مما لم يتح لغير أممه ، ذلك إلى غفلة الأمم الشرقية ووقوعها في سبات عميق .

غرتنا نحن الشرقيين هذه المناهج فركنا إليها واطمأننا بها وألقينا بأنفسنا في أحضان المدنية الغربية وصارت كل أمة تعمل (لتكون قطعة من أوروبا) فإذا ما وصلت إلى شيء من مظاهر الحياة الأوروبية فاخرت به غيرها ، وجعلته مقياس رقيها وتقدمها ، وغلونا في ذلك حتى احتلت العادات الأوروبية والأفكار الأوروبية والزخارف الأوروبية عقولنا وبيوتنا وامتدت إلى نفوسنا وأخلاقنا وعواطفنا وسار إلى جانب هذا الاحتلال الفكري والاجتماعي سلطان آخر عمل على تثبيته وتقويته بقدر ما عمل على القضاء على ما لنا من خواص ومقومات ومميزات والسير بنا في طريق التمثل والفناء .

وأمام هذه المظاهر الخلابية غفلنا عما ينطوي تحتها من الخطر على كياننا ونسينا معها مهمتنا وكرامتنا وعزتنا ومقدساتنا وسلمنا للغرب ما يريد منا طائعين أو مكرهين رغباً أو رهباً ، فكان عن ذلك كله ما يقاسى من مصائب وويلات .

وها هي ذي المدنية الأوروبية التي اعتر بها أهلها حيناً من الدهر وزينوها للناس بكل أنواع الزينة تنهار صروحها وتندك ولا يستطيع أهلها أن يقيموا بناءها المنهار أو يمسكوا صرحها المتداعي رغم ما يبذلون من جهود ويعقدون من مؤتمرات : الثورات المتعاقبة القوية ، الفضائح المالية والاقتصادية التي لوثت سمعة كثير من عظمائهم ، الأزمة المستحكمة التي وقعوا فيها وأوقعوا العالم معهم ، المجاعة الروحية التي يذوقون ألمها ن ويقاسون مضاضتها ، المفاصد الخلقية التي استفاضت في مجتمعهم حتى أغرقته ، كل هذه مظاهر الإفلاس وآيات انهدام صرح هذه المدنية التي شيدها الغرب على المادة والمتعة وأهمل فيها جانب الخلق والروح وهما أقوى العوامل في حياة الأمم وأورع مظاهر الإنسانية أيها المسلم .

انقشعت الغشاوة وقام الغربيون أنفسهم يحاولون تغيير الحال ويريدون التخلص مما فرضته عليهم موضوعات مدنيتهم وقوانينها من حدود ومناهج ، فهل انقشعت الغشاوة عن أعيننا أيضاً أم لا نزال مخدوعين ؟ حدد النظر أيها المسلم وابحث عن الحقائق ، ولا تلهينك هذه الزخارف ، وأنا على يقين أنك بعد هذا البحث ستعود شخصاً آخر يتعرف مهمته ويعمل لأدائها .

ولعل هذه فرصة مناسبة أتحدث إليك فيها عن مهمتك وعن السبيل إلى أدائها في كلمات موجزة ، وسل التاريخ يفصل لك ما أجملت .

بعث الله نبيك محمداً ﷺ رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً وبعث معه ديناً قيماً فيه النظام الشامل والقانون المحكم والدستور الكافل لسعادة الأمم ورفعتها وصلاحتها في الحياة وبعد الحياة وفرض هذا الدستور

(*) نشر بمجلة «الإخوان المسلمين الأسبوعية» ، السنة الأولى ، العدد (٣٢) ، بتاريخ ٢٩ ذي القعدة ١٣٥٣ هـ .

على كل مسلم أن يتطوع للعمل على أن يكون هذا القانون هو نظام البشرية جميعاً ، وبين له بياناً لا يدع زيادة لمستزيد أن عليه في ذلك أن يقدم نفسه وماله وما يملك فإن قصر في ذلك فهو آثم ، وضمن للمسلمين إن أنفذوا ذلك سيادة الأرض أو بعبارة أدق هداية الأرض وإرشاد العالم .

فهم المسلمون ذلك من الإسلام في حياة النبي ﷺ ، فهبوا معه ينفذون أمر الله الذي أنزله إليهم ويجاهدون مع نبيهم ﷺ في سبيل إبلاغ هذه الرسالة وقلوبهم تهزج بأهازيج السرور والنصر والفرح لما انتدبهم الله تعالى له من إنقاذ البشرية وألسنتهم تترجم عن هذا الشعور السامي النبيل بهذه العبارة الفطرية الحلوة :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما حيننا أبداً

حتى أثنى الله تعالى عليهم بقوله : «لكنَّ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» .

وجاء المسلمون من بعدهم فتبعوهم بإحسان وفهموا الدين كما فهمه سلفهم فعرفوا مهمتهم وعلموا أنهم ورثة رسول الله ﷺ في مهمته وخلفاؤه في أداء رسالته والقائمون عنه لإنقاذ العالم وإسعاد الإنسانية وتعميم الإسلام بين ربوعها ، فهبوا هم الآخرون يعملون ويجاهدون عملاً وعلماً وحرماً وسلاماً ، فكان عن ذلك في دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة دول ثابتة الدعائم شامخة الذرى ، وحضارة قوية الأصول ومدنية سامقة الفروع وحية يجول فيها النعيم الروحي والمادي وترف عليها أزاهر السعادة مصداق قول الله تبارك وتعالى «مَنْ عَمَلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» .

يوم كنا أوصياء على العالم كان ينعم بالحرية الصحيحة والعدالة المنصفة والسعادة الشاملة ذلك لأن المسلم إذا فتح بلدًا أو غزا أرضًا فإنما يفعل ذلك وهو يعتقد من قرارة نفسه أنه إنما فعله ليسود المبدأ الذي يسوى بين الناس لا لتسود الأشخاص ولا العناصر فإذا دخل أهل هذا البلد في الإسلام كان لهم ما للفتح وعليهم ما عليه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى .

ثم شاخت الأمة الإسلامية القوية الزعيمة فتسلط عليها من كانوا بالأمس تلامذتها وغمروها بمظاهر قوتهم فكانت عن ذلك فكرة التقليد الأوروبي القائمة التي نسينا فيها مهمتنا وحرَم العالم بتقصيرنا نعمة التمتع بشمس الإسلام المشرقة وقد نلنا بذلك من أنفسنا ما لم ينل منا الأعداء .

والآن أيها المسلم وقد أدال الله لدولتك وأثبتت الحوادث حق الخلود لشريعتك وتهياً العالم لمهمتك ، هل ستظل غافلاً مفرطاً حتى تضيع الفرصة السانحة أم ستستيقظ لأداء الرسالة الذي أوجبت على نفسك القيام بأدائها منذ نطقت بكلمة الإسلام واعتنقت تعاليم الإسلام .

حسن البناء

لا ندري إلى متى يظل الساسة في مصر على جهل تام بالحقائق القريبة ، بل القريبة جدًا التي يجب أن تكون أول المقررات التي تدرس للطلبة في المدارس ؟

وما ندري إلى متى نظل مخدوعين بالتعاليم الاستعمارية التي شوهدت الحقائق بين أيدينا ، وتعمدت إخفاء الكنوز الدفينة المنثورة في كل مكان من هذا الوطن الغني القوي العزيز ؟

ولا زلنا نذكر السورة الطويلة العريضة التي حفظناها ونحن طلاب من كتاب المستر هنري مارون عن مصر والسودان ، من أن مصر بلد زراعي ولا يمكن أن تقوم فيها الصناعات ، لعدم ملائمة جوها ولخلوها من الخامات اللازمة والمواد الأولية الضرورية للنهوض الصناعي إلى آخر هذه الأقصوصة التي كذبها الواقع أوضح تكذيب .

أكتب هذا بمناسبة ما ورد في بيان صدقي باشا على لسان أحد الساسة المصريين عن التعبير عن سيناء المباركة لفظ (برية سيناء) ووصفها بعد ذلك بأنها أرض قاحلة ليس فيها ماء ولا نبات إلا أربعة بلاد جعلت للتموين وقت اللزوم .

وقد أثار هذا المعنى في نفسي سلسلة المحاولات التي قام بها المستعمرون منذ احتلوا هذه الأرض ليركزوا هذا المعنى الخاطئ في أدمغة السياسيين المصريين وفي أبناء سيناء أنفسهم فأخذوا يقللون من قيمتها وأهميتها ، ويضعون لها نظاماً خاصاً في التعليم والتموين والحكم والإدارة ، ويحكمها إلى العام الماضي فقط محافظ إنجليزي يعتبر نفسه مطلق التصرف في كل مقدراتها ، ويجعلون الجمرک في القنطرة لا في رفح إيداناً بأن ما وراء ذلك ليس من مصر ، حتى صار من العبارات المألوفة عند أهل سيناء وعند مجاورهم من المصريين أن يقال هذا من الجزيرة وهذا من وادي النيل ، كأنهما إقليمان منفصلان .

مرت بنفسي هذه الخواطر جميعها فأحببت أن أنبه الساسة الكبار ، والساسة الصغار وأبناء هذا الشعب إلى الخطر الداهم العظيم الذي تخفيه هذه الأفكار الخاطئة ، ولا أدري كيف نقع في هذا الخطأ الفظيع مع أن القرآن الكريم نبهنا إليه ولفت أنظارنا إلى ما في هذه البقاع من خير وبركة وخصب ونماء ، وأنها إنما أجذبت لانصرافنا عنها ، وإهمالنا إياها ، فذلك قوله تعالى «وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَيِّغُ لِلْأَكْلِينَ».

إن سيناء المصرية تبلغ ثلاثة عشر مليوناً من الأفدنة ، أي ضعف مساحة الأرض المنزرعة في مصر ، وقد كشفت البحوث الفنية في هذه المساحات الواسعة أنواعاً من المعادن والكنوز فوق ما كان يتصور الناس ، واكتشف فيها البترول حديثاً ، ويذهب الخبراء في هذا الفن إلى أنه في الإمكان أن يستنبط من سيناء من البترول أكثر مما يستنبط من آبار العراق الغالية النفيسة ، وأرض سيناء في غاية الخصوبة ، وهي عظيمة القابلية للزراعة ، وفي الإمكان استنباط الماء منها بالطرق الارتوازية وإنشاء بيارات يانعة على نحو بيارات فلسطين تنبت أجود الفواكه وأطيب الثمرات ، وقد تنبه اليهود إلى هذا المعنى ووضعوه في برنامجهم الإنشائي وهم يعملون على تحقيقه إذا سنحت لهم الفرص .. لن تسنح بإذن الله .

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، السنة الأولى ، العدد (١٣٧) ، بتاريخ ١٣ أكتوبر ١٩٤٦ م .

فمن واجب الحكومة إذن أن تعرف لسيناء قدرها وبركتها وألا تدعها فريسة في يد الشركات الأجنبية والصوص والسرقة من اليهود ، وأن تسرع بمشروع نقل الجمر من القنطرة إلى رفح ، وأن تقيم هناك منطقة صناعية على الحدود ، فلفل هذا من أصلح المواطن للصناعة ، ويرى بعض المفكرين العقلاء أن من الواجب إنشاء جامعة مصرية عربية بجوار العريش تضم من شاء من المصريين ، ومن وفد من فلسطين وسورية والعراق ولبنان وشرق الأردن وغيرها من سائر أوطان العروبة والإسلام ، ويرون في هذه البقعة أفضل مكان للتربية البدنية والروحية والعقلية على السواء .

وحرام بعد اليوم أن تظن الحكومة أن يتخيل أحد من الشعب أن سيناء برية قاحلة لا نبات فيها ولا ماء ، فهي فلذة كبد هذا الوطن ومجاله الحيوي ومصدر الخير والبركة والثراء ونرجو أن يكون ذلك كله بأيدينا لا بأيدي غيرنا .

وقد امتد إهمالنا لهذا الوطن العزيز وانصرافنا عن دراسة الحقائق عن طبيعته ووضعته إلى الجزء الجنوبي منه السودان بعد الجزء الشرقي سيناء ، فسمعنا دولة رئيس الحكومة في بيانه يعرض للسودان في موضعين ، ويمر به فيهما مروراً خاطفاً ، ولكن يضم تحته كثيراً من المعاني التي تحتاج إلى تفكير .

فيقول في الموضوع الأول في صدد المحالفة والمعاهدة : إنها للحصول على جلاء عاجل ولتسوية مسألة السودان على قواعد الشرف والكرامة ، مع ضمان مصالح إخواننا السودانين ، وهنا نرى أن صدقي باشا مازال يسترسل مع النغمة الإنجليزية التي تفرق بين مصر والسودان ، وتجعل منهما شعبين مختلفين ووطنين متباينين لكل منهما مصالحه الخاصة به .

وذلك فهم عريق في الخطأ ، ومصر والسودان وطن واحد وشعب واحد ومصالح السودانين هي مصالح المصريين ، وإذا كان السودانيون يرون أن تقوم في بلدهم حكومة سودانية داخلية تحت التاج المصري ، فليس ذلك منهم إلا مراعاة لبعض الأوضاع الخاصة في السودان ، كما نتيج الحكومة المصرية للقبائل العربية في مصر أن يكون لها مشايخ منها لهم وضعيتهم الخاصة وتقاليدهم الخاصة ، ولا يقال : إن لهم بذلك مصالح تختلف عن مصالح الوطن العامة .

ويقول في الموضوع الثاني : ومصر الحريصة على كرامتها واستقلالها وحقوقها في النيل تعلم هي الأخرى مبلغ الفائدة لها من مصادقة دولة عظمى كبريطانيا ، وهذا كلام يحتاج إلى تفكير حقاً ، فماذا يقصد دولة الباشا بحرص مصر على حقوقها في النيل ؟ إن مصر لا تحرص على وحدة الوادي لمجرد حصولها على ما تحتاج إليه من هذا الماء ، كما لا تحرص على الإسكندرية مثلاً ، لأنها ميناءها على البحر ، فهذا التفكير المادي البحت بعيد عن الشعور المصري ، وإن أراد الإنجليز دائماً أن يصوروا الأمر بهذه الصورة ، وجاراهم في ذلك رئيس الحكومة ، ووقع في هذا الفخ كثير من الساسة المصريين ، ولكن مصر حريصة على السودان لأنه جزء من حدود هذا الوطن ، ولأن أبناءه مواطنون حقيقيون بدمهم ولغتهم وعقيدتهم وشعورهم وآلامهم وآمالهم وأنسابهم وألقابهم ، وعلى الساسة المصريين أن يدركوا هذه الحقيقة ويؤمنوا بها مهما جهلها أو تجاهلها الساسة البريطانيون .

كم نتمنى أن نستقل ونتحرر في أفكارنا ومشاعرنا لننتحرر بحق في أرضنا وتصرفاتنا .. والله عاقبة الأمور.

دول العروبة والإسلام بين الأطماع الاستعمارية وآمال الشيوعيين(*)

لا ندري إلى متى يظل الساسة في مصر على جهل تام بالحقائق القريبة ، بل القريبة جدًا التي يجب أن تكون أول المقررات التي تدرس للطلبة في المدارس ؟

أخذت الدول الأوروبية منذ قرون خلت تفتح أعينها على ما في الشرق من خيرات وتنصب الحبال والشباك وترسم السياسات البعيدة المرامي لتقسيم تركة الرجل المريض ولتقتنص هذا الصيد السمين ، وتسابقت في ذلك إنجلترا وفرنسا ، وأرادت كل منهما أن تتغلب على الأخرى ، وأن تبسط نفوذها السياسي والثقافي والاقتصادي ، ولكن القاهر الأصيل تغلب في النهاية ، وكان يخرج من كل شوط من أشواط هذه المنافسة بما يريد .

فإنجلترا هي التي حطمت إمبراطورية محمد علي ، وحالت دون مصر ودون ثمرات حروبها وفتوحها وانتصاراتها وقضت على أسطولها وحدت من قدرة جيشها ، ووقفت لها بالمرصاد تقاوم كل نهضة فيها ، وتحول دون أي خير يأتيها ، حتى انتهى أمرها باحتلالها والاستئثار بالسودان دونها .

وإنجلترا هي التي أوقعت العداوة والبغضاء بين الترك والعرب في إقليم الجزيرة ، وأذكت نار الحقد والحسد فيما بينهم حتى جذت من العرب جيوشًا تناصرها وتزاملها في السلاح وتقف إلى جانبها في وجه إخوانهم في العقيدة والدين ، ثم قلبت لهم ظهر المحن ، فاحتلت أرضهم وباعت فلذة كبذ هذه الأوطان لليهود ، وتربصت بشريكها فرنسا الدوائر حتى أخرجتها من الميدان ، وطردتها من الجزيرة نهائيًا ، لعلها تستطيع أن تنفرد بشيء من السيطرة والسلطان .

وإنجلترا هي التي أغمضت العين عن فرنسا لنلتهم أفريقيا الشمالية وتبتلعها لقمة سائغة في نظير إغصائها عن عدوان إنجلترا على مصر والسودان ، ثم هي التي تضيق عليها الخناق الآن ، وتحاول بكل سبيل أن تقصيها عن هذه الأرض ليخلو لها حوض البحر الأبيض المتوسط ولتقيم على آثارها إمبراطورية إفريقية الإنجليزية كما يحلمون .

وإنجلترا هي التي حطمت دول الإسلام العزيزة المجيدة في الهند ، وأوقفت تياره المتدفق على هذه البلاد بالخير والبر والرحمة والنور والهداية ، لتقيم للوثنية نصبًا وتمائيل ومحاريب ، مادام ذلك سيمكن لها في هذه الأرض ويدر عليها ما تطمع فيه من خيراتها وثرواتها ومواردها الخام ، ويجعل منها سوقًا نافقة للبضائع الإنجليزية .

وإنجلترا هي التي وقفت على باب اليمن لتسد عليها المنافذ ، ولتقيم حوله حصارًا بريًا وبحريًا في عدن والمحميات ، فلا تشم نسيم الحرية ، ولا تجد إلى الاتصال بالعالم من سبيل .

وإنجلترا هي التي فعلت بالعالم الإسلامي وبدول العروبة والإسلام الأفاعيل ، ووقفت لها بالمرصاد ثلاثة قرون أو تزيد تحطم من كيائها ، وتهد من بنيانها ، حتى تم لها ما أرادت وأصبحت هذه الدول جميعًا الآن منطقة

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، العدد (١٤٦) ، بتاريخ ٢٨ ذو القعدة ١٣٦٥هـ - ٢٣ أكتوبر ١٩٤٦م .

نفوذ لها ، تتحكم في مقدراتها ، وتتدخل في أوضاعها وتضع العقبات في طريق قوتها المادية والأدبية والعسكرية والاقتصادية .

ولكنها مع هذا كله عجزت عجزاً تاماً عن قتل روح الشعوب العربية والإسلامية ، فلم تهن ولم تضعف ولم تستسلم لهذا الجبروت يوماً من الأيام ، وهذه الثورات المتعاقبة في مصر ، وفي العراق ، وفي فلسطين ، وفي سوريا أقرب شاهد وأوضح دليل .

وظهرت روسيا في الميدان ، ترسم لنفسها مجالها الحيوي ، وتطل مراكبها على البحر الأبيض المتوسط ، تدخل في منطقة نفوذها أوروبا الشرقية جميعاً وتطالب بسهمها الحرام في أفريقيا وفي آسيا ، تنافس هذا النفوذ القديم في القارتين معاً ، ويبدو هذا الصراع واضحاً جلياً عملياً في مناطق النفوذ والاحتلال ، وسياسياً في مؤتمرات الصلح ، وجلسات مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة .

وأغرق المتنافسان في الخداع ، ولبس كل منهما مسوح الرهبان وجلود الضأن على قلوب الذئاب ، وحاول كل منهما أن يستتر الطمع المادي بدعوى رسالة السلام والإصلاح تقدمها إنجلترا باسم الديمقراطية وتقدمها روسيا باسم الشيوعية .

والعالم العربي الإسلامي والشرق كله يتربص وينظر في حيرة بين هذه الأطماع والآمال ، ويتيهأ للعمل ، ولكن لم يعمل بعد .

لقد خطت إنجلترا خطواتها البارعة في ميدان السياسة ، وهي الخبيرة العليمة بهذه الخطوات ، فجمعت دول العروبة في ظل الجامعة العربية ، وهي تحاول أن توسع النطاق بربط هذه الجامعة بميثاق سعد آباد ، ولا أظنها ستقف عند هذا الحد حتى تربطها بالهند الجديدة وبما وراء الهند من أمم إسلامية وأصقاع ، ولعلها تذهب إلى أبعد من ذلك ، لا حباً في سواد عيوننا ولا رغبة في تقويتنا وتجمعنا ، ولكن لتقيم من هذه الأمم سوراً أمام أطماع خصومها وأعدائها ، وإن شئت قلت حلفائها وأصدقائها .. وقاتل الله رياء السياسة .

ولكننا مع هذا يجب أن نرحب بهذه الخطوات وأن ننتفع بها وأن نستفيد منها وأن نحولها لمصلحتنا نحن ، وذلك بصلابة الحكومات ويقظة الشعوب ، ولن يمر بنا ظرف أمدع وأوفق وأكثر ملائمة لتحقيق ما نرجو من استقلال ووحدة كهذا الظرف الذي نحن فيه .

فعلينا إذن أن ننتفع بالفرصة السانحة وألا ندعها تفلت من أيدينا أبداً ، يجب أن تتصلب الحكومات وتتشدد وألا تخشى التهديد والوعيد ، فهو سراب خادع لا وجود له ، ويجب أن تنيقظ الشعوب وتنهض فإن الكلمة لها والأمر أمرها ، وعلينا أن نضع أمام العقيدة عقيدة ، ومعنا الحق ومعهم الباطل ولا يستويان ، علينا أن نعلن الإسلام بأصوله السابقة وتعاليمه العالية وقواعده الحقة أمام ديمقراطيتهم التي ترادف الفوضى والإباحية ، وأمام شيوعيتهم التي ترادف الإلحاد والديكتاتورية الدولية .

وعلينا أن نتجمع ونتشجع ونتساند ونتكاتف ونعمل ونجاهد في كل ميدان ، ميدان الدعاية الدولية وميدان المقاطعة الاقتصادية وميدان الكفاح العلمي حتى نصل وإنا لوصلون .. والله غالب على أمره .

[١١]

هذا الجنيه (*)

«أتعهد بأن أدفع عند الطلب مبلغ جنيه واحد مصري لحامل هذا السند ، أصدر بمقتضى المرسوم العالي المؤرخ في ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٨م» .

هذا الجنيه سند على البنك الأهلى ، يتعهد البنك بمقتضاه بدفع قيمته لحامله عند الطلب ، والتصريح للبنك بهذا الامتياز ، وهو بنك غير مصري خالص المصرية ، احتلال اقتصادي أشد وطأة وأبعد أثراً من الاحتلال العسكري الذي نلح ونشدد ونطالب بكل قوة بأن يرتفع كابوسه الثقيل عن كاهل البلاد ، وإذا كانت ظروفنا في سنة ١٨٩٨م التي مُنح فيها البنك هذا الامتياز تضطرننا إلى ذلك ، فما الذي يجعلنا نرضى بهذا الوضع المخجل ونستمر عليه وقد مضت ستون سنة تقريباً .

هذه واحدة وليست على فظاعتها شيئاً مذكوراً إذا قيست بما بعدها وذلك أن قانون إصدار الأوراق المالية يحتم على البنك أن يكون لديه وفي خزانته رصيد من الذهب يوازي نصف ما يصدر من أوراق على الأقل ، فإذا أصدر البنك أوراقاً بمليون من الجنيهات وجب أن يكون في خزائنه نصف مليون جنيه من الذهب وإلا كان مخالفاً للقانون ونتج عن تصرفه هذا تضخم مالي ونقصت قيمة أوراقه العملية بقدر ما نقص هذا الرصيد ، فهل راعى البنك الأهلى هذه القاعدة ؟

قالوا : إنه صدر في يونيو سنة ١٩١٦م قرار من وزارة المالية المصرية - بغير توقيع - يبيح للبنك أن يصدر أوراقاً بغير نظر إلى قيمة الرصيد ، نظراً لظروف الحرب القائمة حينذاك ، وانتهاز البنك هذه الفرصة فأصدر ما شاء من الأوراق ، وانتهت الحرب ومضى على نهايتها ربع قرن وما زالت الرخصة قائمة ، ولا ندري لماذا وقد زالت كل الضرورات ؟ وكان عجيباً أن تظل وزارات المالية المتعاقبة تغط في نوم عميق ولا تسحب هذه الرخصة الفريدة من يد البنك حتى تجئ الحرب الثانية فيعتمد عليها من جديد ويصدر الأوراق المالية بغير حساب لتشتري بها القوات البريطانية في مصر ما تشاء من أقواتنا وأرزاقنا وملابسنا وتستخدم ما تريد من مرافقنا ، وكل ذلك بغير رصيد ذهبي حتى بلغ ما أصدره البنك أكثر من مائة وثلاثين مليوناً من الجنيهات يقابلها ستة ملايين فقط من الذهب والباقي بضمانة الخزانة البريطانية .

ومعنى هذا أن هذا الجنيه المصري الذي في يدي ويدك أيها المواطن العزيز صار لا يساوي في حقيقته أكثر من ١٩ قرش (تسعة عشر قرشاً) ونزلت قيمته الشرائية إلى الخمس فقط فهو ريال لا جنيه ، وصار الموظف الذي يتقاضى عشرة جنيهات إنما يعمل في الحقيقة بجنيهين فقط والذي يتقاضى خمسين جنيهاً إنما يعمل بعشرة فقط ، وسارت السلعة التي كانت تشتري بجنيه في الماضي لا بد أن تشتري الآن بخمسة جنيهات والتي كانت تشتري بريال واحد لا بد أن تشتري الآن بجنيه ويبحثون عن سر غلاء المعيشة وعن علاج هذا الغلاء وكيف يكون ويغالطون الناس ويفر الجميع ويهربون من الحقيقة لأن الخصم الحقيقي فيها البنك الأهلى أولاً والخزانة البريطانية ثانياً والأرصدة الأسترلينية وارتباط مصر بكتلة الأسترليني .

ومع هذا يقول المستر بيفن : إن بريطانيا فعلت ما لم تفعله دولة من الدول للرقى بهذه البلاد وأنها تعمل دائبة على رفع مستوى المعيشة فيها والترفيه عن أهلها ، وأنها لا تفكر أبداً أبداً في استغلالها وأن هذا القول من

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، العدد (١٤٩) ، بتاريخ ٢ ذو القعدة ١٣٦٥هـ - ٢٧ أكتوبر ١٩٤٦م .

الهرء ، لمستر بيفن أن يقول هذا وللمستر تشرشل أن يتغنى بالعمل العظيم الذي قامت به بريطانيا في هذه البلاد منذ سنتين سنة ولغيرهما من الإنجليز أن يدعى ما يشاء ، ولكن ليس علينا نحن المصريين أن نصدق شيئاً من هذا ، بل واجبنا أن نفتح أعيننا على الحقائق ، وأن ندفع عن أنفسنا هذا الخراب المحيط بعزيمة ومضاء ، وأن نفقه الأمور على أوضاعها الصحيحة .

إن على الحكومة المصرية واجباً ثقيلاً في هذا الشأن ، وفي يدها سلاح ماض فتاك تستطيع أن تفهم به بريطانيا الفرق الواضح بين الصداقة والعداء ، وهو مع هذا حق قانوني لها لا ينازعها فيه منازع لو وجدت في نفسها الشجاعة والوطنية التي تدفعها إلى العمل النافع المفيد .

تستطيع الحكومة المصرية أن تعلن خروجها على قاعدة الإسترليني وانفصالها عن كتلتها ، وتؤسس حالاً بنك الدولة ليحل محل البنك الأهلي ، وتجمع الرصيد من الذهب بقرض أو دين على الخزانة المصرية ، وترفع قضية عاجلة على بريطانيا في محكمة العدل الدولية تطالبها برصيدها الذهبي وبسداد دينها البالغ قدره خمسمائة مليون من الجنيهات تقريباً في أسرع وقت .

فإذا لم تفعل أية حكومة مصرية هذا ، فقد آثمت في حق الوطن ، وتنكبت أفضل الطرق لمحاربة الجهل والفقر والمرض ، وعلى الأمة أن تعمل عملاً سريعاً حاسماً للجلء الاقتصادي ولل قضاء على هذا الاحتلال الذي هو أشد وأنكى من كل احتلال «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا» .

نستطيع أن نفعل كثيراً لو أردنا (*)

يقول العاجزون الذين يريدون أن يصلوا إلى الغايات العظيمة والآمال الجسام بالأمني والأحلام ، والمنى بضائع الموتى : ماذا عسى أن نصنع أمام الإنجليز ؟ وهل لنا في سبيل غير هذه المفاوضات ؟ وهبوا قد قطعت من جانبنا أو من جانبهم فما الذي ربحناه ؟

نقول : إن هذا المنطق لا يمليه إلا العجز وحب الراحة والدعة والهرب من تبعات النضال والكفاح في سبيل الحرية والاستقلال وتحقق المطالب والآمال ، ولكن الحقيقة أننا نستطيع أن نفعل كثيراً لو أردنا ذلك ، وكنا جادين في هذه الإرادة ، ونزع الله من قلوبنا هذا التهيب الكاذب من قوة الخصم ، أو الوهم الخادع من حسن الظن .

نستطيع أن نتقدم فوراً إلى محكمة العدل الدولية بطلب إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦م لمناقضتها لمبادئ ميثاق الأمم المتحدة الذي وقعناه نحن والإنجليز ، ولزوال الدوافع والأسباب التي دعت إليها ، وتغيير الظروف والملايسات التي صاحبها ، ولأن الإنجليز أنفسهم نقضوها بتدخلهم وتصرفاتهم عدة مرات ، وبأسباب كثيرة تؤيد هذا الإلغاء ونكسب من ذلك تعطيل مفعولها على الأقل حتى يفصل في هذا النزاع ، وليس ذلك رأينا وحدنا ، ولكنه رأي كثير من الخبراء القانونيين البريطانيين أنفسهم كما جاء في برقيات الأمس .

ونستطيع أن نرفع قضيتنا إلى هيئة الأمم المتحدة فوراً ، وأقل ما ننتظره فيها من نجاح أن نحصل على الجلاء عن أرض مصر بدون قيد ولا شرط ولا مخالفة عسكرية هي شر من الاحتلال مع الضمانة الدولية العامة التي ستكون في أيدينا نتيجة لقرار مجلس الأمن ، فلا يكون الأمر مجرد وعد أو معاهدة بيننا وبين الإنجليز ، ونحن قد بلونا المر من هذا الثمر ستين عاماً أو تزيد .

ونستطيع أن نطالب برصيدنا وديننا البالغ قدره خمسمائة مليون من الجنيهات ، وأن نتحرر من امتيازات الشركات الإنجليزية ، ومن المهاجرين البريطانيين ، ومن سلطان رؤوس الأموال الأجنبية في هذه البلاد ، وأن نتحرر من يد الكتلة الإسترلينية ، فنستفيد بذلك فائدة لا حد لها ، ونتخلص من هذا الاستعباد الاقتصادي ، وهو أقصى وأشد من الاحتلال العسكري .

ونستطيع أن نحول دون كل تدخل يريد القوم أن ينالوا به من حريتنا واستقلالنا وشئوننا الداخلية أو الخارجية ، ونستعدي عليهم هيئة الأمم المتحدة ، والرأي العام العالمي كلما امتدت أصابعهم بهذا العدوان .

ونستطيع بعد ذلك أن نفكر تفكيراً جدياً في توثيق صلاتنا بدول العالم ، وأن نتحرر بالمقاطعة من هذا النطاق الظالم الذي ضربته علينا إنجلترا ، فلا نتعاون معها في شأن من شئون الحياة .

نستطيع الكثير لو أردنا ، وبعض هذا مما يضايق الإنجليز ويدعوهم إلى التفكير الجدي في الاحتفاظ بصداقة المصريين وعدم التجني عليهم والعبث بحقوقهم ومطالبهم وإضاعة الوقت في المحاولات الفاشلة

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، العدد (١٨٤) ، بتاريخ ٦ من المحرم ١٣٦٦هـ - ١٠ ديسمبر ١٩٤٦م .

والمناورات الباطلة ، والأمة كلها – هيئاتها وأفرادها – مجمعة على أن المفاوضات وانتظار تعطف الإنجليز ، لم تعد بحال الوسيلة إلى تحقيق مطالب شعب وادي النيل والاعتراف بحقه الواضح الصريح .

وعجيب ألا تتجاوب خطة الحكومة المصرية مع مشاعر شعبها وعواطفه ، وأن تظل في وادٍ وهو في وادٍ آخر ، ولا تجد معه سبيلاً إلا كبت الشعور ، ومصادرة الحريات ، والاعتماد على سلطة الحكم وأدوات الجبروت والقهر ، وتدعي مع هذا أنها تحكم باسمه وتتكلم بلسانه وتعبّر عن إرادته وتعمل لخيره ومصالحته متجاهلة صيخته الدولية بالاحتجاج والاستنكار .

نضع هذه الكلمة بين يدي الحكومة المنتظرة ، لعل فيها عظة وعبرة ، ولعلها تراجع نفسها وترى من تعنت الإنجليز معها وغضبة الشعب من حولها لحقه المسلوب ، واستقلاله المغصوب ما يحملها على اختصار الطريق واحترام إرادة الأمة ، وإنهاء مهزلة المفاوضات ، وسلوك سبيل الجهاد .

حول خطاب النقراشي باشا (*)

الغاية والوسيلة والعدة والسياس هي الأمور التي يعرض لها خطاب رئيس الحكومة المفصّل إلى جلالة الملك المعظم فأوضح أن الغاية (هي العمل على جلاء الجنود الأجنبية عن أرض الوطن العزيز وتحقيق مشيئة أهل وادي النيل في وحدة مصر والسودان) .

وهذا الكلام على عمومته قد يكون كافيًا لو كنا نتعامل مع قوم لا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا ينفذون إليه من أضييق الثغرات فيه ، ولن ترضى الأمة بهذا التعبير أو تشارك الحكومة في القناعة به ، حتى يكون مفهومًا ومعلومًا أن المراد بالوطن هنا مصر والسودان معًا ، وأن الجلاء المقصود هو جلاء الجنود الأجنبية عن أرضهما جميعًا ، وحتى يكون مفهومًا ومعلومًا كذلك أن المراد بوحدة مصر والسودان الوحدة الحقيقية التي توجبها هذه اللحمة الطبيعية التي ربطت شقي الوادي من صلات اللغة والقربى والمصلحة من قديم التاريخ وحديثه .

كما أوضح الخطاب أن السبيل إلى هذه الغاية ليس مقصورًا على المفاوضات وحدها وأن الحكومة لن تدع سبيلًا يصل بالوطن إلى غايته العادلة إلا سلكته ، وهذا الكلام على عمومته كذلك قد يكون مقبولًا من الأمة ومعقولًا لديها لو كنا في أول الطريق ، أما ونحن قد وصلنا إلى النهاية الخطيرة المريرة ، وبلونا من خداع الإنجليز ومكرهم بنا وتضييعهم الفرص علينا ما جعلنا نؤمن إيمانًا لا شك فيه بأن المفاوضات لم تعد بحال من السبل التي تصل بالوطن إلى غايته ، فإن الأمة لن تقبل من الحكومة هذا التعبير ولن تقف معها عنده ، بل هي تطالبها بالإحاح أن تعلن فشل المفاوضات وانقطاعها وتأخذ فعلاً في السبل العملية الكثيرة وهي تستطيع أن تفعل الكثير لو أرادت كما أوضحنا ذلك بالأمس .

وقرر هذا الخطاب أن الحكومة لها في إيمان الأمة بحقها وثباتها ويقظتها وصبرها ومثابرتها وتقديرها الكامل لمسئوليتها خير عون ومدد في إدراك هذه الأهداف السامية الحقّة .

فهل الحكومة جادة حقًا في هذا التعبير أم هي بلاغة العبارة وخلابة اللفظ ونسيان المعاني وإهمال ما تؤدي إليه هذه الكلمات عمليًا ، وإذا كانت الحكومة جادة في اعتمادها على الأمة واعتدادها بإيمانها ويقظتها وصبرها .. إلخ ، فلم تخاف إذن أن تلقي خصمها في ميدان الجهاد العملي ومعها هذه الأمة المؤمنة الصابرة اليقظة المثابرة التي تقدر المسؤوليات وتحمل التبعات وبخاصة وقد أعلنت الأمة في وضوح وجلاء أنها على أتم استعداد لتحمل كل شيء في سبيل الوصول إلى أهدافها السابقة الحقّة ؟ وهل يليق بحكومة تؤمن بشعبها هذا الإيمان أن تكبت حرياته وتحارب خيرة جماعته وهيئاته وتغلق مدارس ومعهده وتسجن أحراره ومفكره وتلاحق بالتضييق والإرهاق والإعنات كل أبي فيه ؟ ثم تقول بعد ذلك : إنها عليه تعتمد ومنه تستمد ؟

ما أشد شوقنا وترقبنا لتلك اللحظة المباركة التي تدرك فيها الحكومات هذه الحقيقة فلا تتخذ من غير الشعب سنادًا ولا ترى لها غيره عمادًا .

ويتضمن الخطاب قرب نهايته تحفظًا قويًا رائعًا جميلًا هو أن مصر ستظل حريصة على أن تكون التزاماتها الدولية في الحدود التي رسمها ميثاق الأمم المتحدة بنصه وروحه ، فننذكر نحن حين نسمع هذا القول المثل العربي القائل : كلام كالغسل وفعل كالأسل ، بل نذكر قول الله العلي الكبير «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، العدد (١٨٥) ، بتاريخ ١٧ من المحرم ١٣٦٦هـ - ١١ ديسمبر ١٩٤٦م .

مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ» ، ونسأل الحكومة في إخلاص لا نريد به إخراجاً ولا عنناً : هل يتفق التحالف العسكري بقيوده الثقيلة وشروطه البغيضة مع هذا الميثاق في نصه وروحه ؟ أم إنه في حقيقة أمره طعنة تصوب إلى هذا الميثاق وتكشف فيه عبث هذه الدول الكبيرة الطامعة بالنصوص والشعوب والحكومات الصغيرة على السواء ، وما الذي يدفعنا إلى معاهدة جديدة أو تحالف جديد مادامنا نحن وبريطانيا قد أمضينا ميثاق الأمم المتحدة ؟

وتأتي بعد هذا كله ثلاثة الأثافي والثغرة الواسعة بل الهوة العميقة التي تنتردي فيها الحقوق والآمال وهي تصريح الحكومة بأن عهدنا في هذا الأمر التوجه بالسودان إلى الرقي من شتي نواحي الحياة ليدرك مرتبة الحكم الذاتي في ظل الوحدة مع مصر ، أي كلام هذا الذي تسجله الحكومة في أول وثيقة تخطها وتناقض به نفسها وتخرج به عن مشيئة شعب الوادي واردة وتسلب به باليسار ما قدمته باليمين ، إن الحقيقة التي يؤمن بها شعب وادي النيل ونريد أن تؤمن بها حكومته وأن تقنع بها من لم يفقهها بعد من المواطنين أو الأجانب على السواء أن مصر والسودان وطن واحد لا وطنان وشعب واحد لا شعبان وأن السودان قد وصل فعلا بحكم أنه مكمل لمصر إلى مرتبة الاستقلال الكامل التام وأنا في السودان لسنا مستعمرين يعملون لخير من استعماروهم من الشعوب والأمم ولكننا مواطنون نتساوى في الحقوق والواجبات وأن مصر بهذا الاعتبار عليها أن تتوجه بالسودان إلى الرقي في شتي نواحي الحياة لأن هذا واجبها لكل جزء من أرض الوطن العزيز ولا ينتقص من استقلال السودان إلا هذا الاحتلال البغيض فيه وهذه الشركة الظالمة الجائرة التي فرضت على مصر ظلماً وعدواناً .

لقد أحكمت السياسة الإنجليزية هذا المزلق وجرّت إليه السياسة المصريين فانجروا معها إليه ، وإن من الخير كل الخير أن تعود الأمور إلى نصابها وأن ترجع الرؤوس الخاطئة إلى صوابها .

وبعد فليس الأمر في حاجة إلى هذا العناد أو الالتواء وكان يغني الحكومة ويرضي الأمة أن تقرر الغاية في وضوح وهي الجلاء التام الناجز عن أرض الوادي كلها والمحافظة التامة على وحدته حقيقية وعملاً ، وأن تذكر الوسيلة وليست إلا الكفاح والعمل وأن تتخذ العدة وليست إلا الأمة ، وأن تسد على الخصومة كل المنافذ والثغرات ولئن فاتت الحكومة أن تستوعب ذلك بالقول فلعلها تستوعبه بالعمل «فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» .

[١٤]

مسألة وقت (*)

حدد شعب وادي النيل مطالبه واضحة سافرة صريحة عادلة ، وأعلن أنها الجلاء التام الناجز بلا قيد ولا شرط ، حتى يتم بذلك له معنى الاستقلال الكامل ويتذوق طعم الحرية الصحيحة والوحدة الحقيقية التي تجعل من الوادي وطناً واحداً لشعب واحد ، ألفت بين بنيه كل العوامل الطبيعية والاجتماعية والتاريخية ، ثم المصلحة المادية بعد ذلك ، فلا غنى لمصر عن السودان .. ولا غنى للسودان عن مصر .

وإذا كان بعض أبناء هذا الوادي قد انخدع بالدعايات الأجنبية والمغريات الإنجليزية ، فألقى بنفسه في أحضان الإمبراطورية يطالب بالانفصال والاستقلال اليوم ، ليكون السودان فريسة لبريطانيا في الغد ، فمن حسن الحظ أن هؤلاء أقلية لا يقام لها وزن ، وأن الشعب السوداني في الجنوب يدرك اماماً العوامل الخفية أو الدوافع الشخصية التي تدفعهم إلى مثل هذا القول .

وإذا كان البعض الآخر يتمسك بالحكومة الديمقراطية والاستقلال الذاتي وما إلى ذلك من التحفظات مع تسليمه بالوحدة وإيمانه بضرورتها إيماناً لا يرقى إليه الشك فإن الحوادث وضرورة الكفاح اليوم والإصلاح غداً ستقنعه تمام الاقتناع بأنه لا مناص من الاندماج الكامل والوحدة التامة .

وهي على كل حال قضية بين شقيقين لا يريدان دخيلاً بينهما ، ولا يستطيع أحد في الدنيا أن ينكر أن الانفصاليين والمتحفظين ، ودعاة الاندماج والمصريين قد اتفقت كلمتهم جميعاً على المطالبة بجلاء الإنجليز عن السودان ، فإذا كان الإنجليز صادقين في دعواهم العمل على رفاهية السودانيين ، وتحقيق مطالبهم ، فليحققوا إذن هذا المطلب المجمع عليه ، وليدعونا مع إخوتنا نتفاهم وسنصل إلى ما يرضي الفريقين ويؤدي إلى خير الشطرين ، ويريح أهل الشمال وأهل الجنوب على السواء .

أما التعلل بالتزامات بريطانيا نحو السودان وواجبها الدولي نحو أهله .. إلخ ، فحجج واهية وتستتر بغير الحق ، وإذا كان هناك التزام يحاسب عليه ملتزمه فهو التزام مصر للسودان أن تخلطه بنفسها وأن ترقى به كما ترقى بأي جزء من أرضها وأن تعمم فيه معالم الإصلاح ، ومصر على أتم الاستعداد للنهوض بهذا الواجب ، ولا يحول بينها وبين أدائه إلا استنثار بريطانيا دونها بالتحكم في مقدراته تحكماً لم ينتج بعد خمسين سنة تقدماً في أية ناحية من نواحي الحياة .

ولقد جاء هذا التحديد نتيجة لهذا الوعي القومي البالغ ، واليقظة الوطنية الكاملة التي تأججت شعلتها في صدر أبناء الوادي ، ومنذ وضعت الحرب أوزارها ، بل منذ نشبت هذه الحرب وقدم لها هذا الشعب دمه وأقواته ومرافقه جميعاً ، رجاء أن يصدق المنادون بمبادئ الحرية والعدالة والواضعون للمواثيق والعهود ، والمقسمون بأغلظ الأيمان أن يحققوا للشعوب المهضومة حرياتها ، ويقفوا إلى جانبها حتى تصل إلى حقها ، كما جاء هذا التحديد نتيجة حتمية لهذا التطور العالمي في تفكير البشر ومشاعر الناس ، بحيث صار الاستعمار بكل أنواعه وصوره وأشكاله معنى من معاني الرجعية التي يجب أن تحارب بكل سلاح حتى يزول من الوجود ، وحتى يبطل هذا الرق السياسي والاجتماعي ويقضي على استعباد الشعوب للشعوب ، فلم تكن المطالب القومية نتيجة لدعاية حزبية أو لعاطفة وقتية .

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، العدد (١٨٧) ، بتاريخ ٢٠ من المحرم ١٣٦٦هـ - ١٤ ديسمبر ١٩٤٦م .

ومن هنا كان من الخير كل الخير أن يعلم البريطانيون أن قضية هذا شأنها لا يمكن أن ينساها أهلها بالزمن، أو تنفع في شغلهم عنها وصرّفهم عن الجهاد في سبيلها مناورات المفاوضات أو مداورات النصوص والمعاهدات والوقوف عند الصيغ والتفسيرات ، فلن يزيد الزمن أهل الحق الواعين إلا تمسكاً بحقهم وجهاداً في سبيله ورغبة في الوصول إليه كاملاً غير منقوض ، ومن الخير للحكومات المصرية أن تدرك هذه الحقيقة – وهي لا شك تدركها – وهل هي إلا من أبناء هذا الشعب ، ومن واجبها أن تحس بإحساسه وتشعر بشعوره ؟ ولكننا لا نريد أن نقف عند حد الإدراك أو الشعور ، بل إن عليها أن تصارح البريطانيين رسمياً بهذه الحقيقة ، وأن يقوى إيمانها بها إيماناً يحول دون كل مظهر من مظاهر الضعف أو الوهن .

وإذن فالمسألة مسألة وقت فقط ، أما النتيجة فلن تكون إلا الوصول إلى هذه الحقوق كاملة ، وخير لإنجلترا أن تدرك هذه الحقيقة فتعجل بالجلء عن أرض الوادي وتعترف بوحدته وتكتسب بذلك عن إخلاص ، جميل معاونته وكريم صداقته وخير البر عاجله ، أما إذا تغلبت روح الرجعية الاستعمارية فستخسر بريطانيا صداقة هذا الشعب ومعه الشعوب العربية والإسلامية إلى الأبد ، وسيظل أبنائه يجاهدون بكل وسيلة حتى يصلوا إلى الغاية ، فإما النصر وإما القبر .. والله غالب على أمره .

بيان وقرار(*)

انتظر الناس بفارغ من الصبر بيان رئيس الحكومة المصرية ، وترقبوا فيه جديدًا يريح النفوس الفلقة ويطمئن الخواطر المضطربة ويجلوا غوامض الأمور ويرسم الطريق العملي ويشير إلى الخطوات التي ستسلكها الحكومة لتحقيق الأهداف القومية ، بعد أن أعلنت في خطاب تأليفها أنها ستسلك إلى ذلك كل طريق موصلة .

ولكن البيان جاء على غير ما كان ينتظر المترقبون ، فاكتفى بالإشارة إلى حقوق الوطن في إجمال لم يزد على أنها (تلك المطالب التي نقشت على كل قلب مصري وهي الجلاء ووحدة وادي النيل ، طبقاً لمشئئة أهل الوادي ورغبتهم ، وهي رغبة طبيعية ، مع بذل الجهد في السير بالسودان إلى الحكم الذاتي وتهيئة أهله لتولي شئونه ، ونحن لا نكره لإخوتنا في السودان أن يتولوا شئون هذا الشطر من الوطن ، فهم أحق بهذا التولي وأهله على ألا يكون وسيلة إلى الانفصال الذي ليس في صالحنا ، ولا في صالحهم بحال) ، وكما كان الناس في الجنوب وفي الشمال مشوقين إلى وضع هذا التحفظ في بيان رئيس الحكومة حتى تقطع جهيرة قول كل خطيب وتقف المناورات البريطانية والتلاعب السياسي الماكر بالألفاظ عند هذا الحد الواضح المستنير .

وكما كان الناس مشوقين كذلك إلى أن يتعرفوا خطة الحكومة العملية كما قدمنا ، وهل هي ستستأنف المفاوضات من جديد ؟ وعلى أي أساس يكون هذا الاستئناف إذا فكرت فيه ؟ أو أنها سوف ترفع القضية مباشرة إلى مجلس الأمن ؟ هذه أسئلة لم يفصح البيان عن الإجابة عليها مع شدة ترقب الرأي العام لهذه الإجابة وسأمة من سياسة الغموض والتلويح ، ولعل الحكومة في الأيام القريبة تكشف بالعمل عما أغفلته بالقول ، ولعلها تستجيب لهذه الرغبة الملحة التي ردها أبناء الوطن بكل لسان ، وهي التخلص من هذه المفاوضات العقيمة والتفكير في سواها من الوسائل القانونية والعملية للتخلص من بلاء التحالف والتدخل والاحتلال ، وإذا صدق العزم وضح السبيل .

ولقد طالعتنا الصحف منذ يومين بإقرار هيئة الأمم المتحدة لاقتراح مندوب مصر عبد الرزاق السنهوري باشا الذي نصه : وينبغي تنفيذاً لميثاق الأمم المتحدة بنصه وروحه أن تشرع الدول المشتركة في هيئة الأمم المتحدة في العمل بلا إبطاء على سحب قواتها المسلحة المرابطة في أراضي الدول الأخرى من أعضاء هذه الهيئة بغير موافقتها .

وقد اعتبرت الحكومة وأنصارها هذه الموافقة انتصاراً لها وسلاحاً في يدها تبرزه عند اللزوم إذا رفعت الأمر إلى مجلس الأمن ، واعتبرت موقف السنهوري باشا عملاً مشرفاً يشكر عليه ، ولكن ما عرف من أن السنهوري باشا قد قدم هذا الاقتراح منفرداً برأيه في هذا التقديم ، وأن سفير مصر في الولايات المتحدة وعضو وفدها لدى هيئة الأمم محمود حسن باشا قد اعترض على هذا التصرف وأبرق إلى دولة صدقي باشا قبل سقوط حكومته محتجاً عليه احتجاجاً صارخاً ، وأن الاقتراح الذي تقدم به محمود بك فوزي عضو الوفد أيضاً تعديلاً للاقتراح الروسي كان أدق وأحكم وأوفى بالغرض إذ كان نصه (وترى الجمعية العمومية طبقاً لنص الميثاق وروحه ولمبدأ المساواة في السيادة - أنه لا يحق لأي دولة أن ترابط قواتها المسلحة في أراضي دولة أخرى من

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، العدد (١٩١) ، بتاريخ ٢٤ من المحرم ١٣٦٦هـ - ١٨ ديسمبر ١٩٤٦م .

أعضاء هيئة الأمم المتحدة إلا في الحالات المنصوص عليها في الميثاق - وعملاً بهذا توصي الجمعية العمومية كل دولة مشتركة في عضوية هيئة الأمم المتحدة ولها قوات مسلحة في أراضي غيرها من أعضاء الهيئة أن تسحب قواتها فوراً) ، وبضاف إلى هذا ما قيل من أن اقتراح السنهوري باشا كان أخذاً بتوجيه المستر بيفن وتحقيقاً لسياسته وأنه فتح بالتحفظ الأخير الوارد فيه باب المراوغة والتهرب والتلاعب بالألفاظ أمام الدول المعتدية ، كل ذلك أثار الغبار الكثيف حول بريق الفوز الذي تدعيه الحكومة لرئيس الوفد المصري في الهيئة ، وإن كانت ترد على هذا كله بأنه إذا كان الاقتراح الأول قد رفض فما فائدة التمسك به والموازنة بينه وبين غيره ، وشيء خير من لا شيء ، ولسنا راضين عن الاحتلال بحال حتى ننتقيد بالتحفظ الوارد في التعديل ، والرأي العام في حاجة إلى بيان من الحكومة تكشف به غوامض هذه المسألة ويجليها على حقيقتها للناس وإنا لمنتظرون .

بالحساب : ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ ÷ ١٧٠٠٠٠٠٠٠ = ٢٩٤١٢ رجب جنيه (*)

ليتذكر كل مصري ومصرية ، صغيراً أو كبيراً ، غنياً أو فقيراً أن له طرف الإمبراطورية البريطانية تسعة وعشرين جنيهاً ونصف ، فإذا كانت هناك أسرة مكونة من زوج وزوجة وولد واحد ، فإن لهذه الأسرة طرف الحكومة البريطانية والخزينة البريطانية نحو تسعين جنيهاً أو تزيد ، وذلك أن دين مصر على إنجلترا ورصيدها الإستراتيجي عندها قد جاوز الخمسمائة مليون جنيه ، والمصريون يبلغون بالتقريب سبعة عشر مليوناً من الإنس ، وبالحساب الرقمي نصل إلى القيمة المذكورة كما هو مبين أعلاه وهو المطلوب .

لقد أعلنت الحرب وأبت إنجلترا إلا أن تجعل من أرضنا وبلادنا ووطننا قاعدة حربية ، وإلا أن تسخر كل مرافقنا وقوانا وضروريات حياتنا للدفاع عن أرضها وإمبراطوريتها ومصالحها المزعومة ووجودها المهدد بالرق والهزيمة والفناء .

لقد اتخذت من أرضنا مأوى للملايين من الجنود المغلوبة من كل مكان ، وتحولت صحارى مصر إلى معسكرات تزرخ بالموء والجنود والذخائر والمطارات والمعازل والمصانع والمستشفيات والمعتقلات ، واستخدمت كل طرق مواصلاتنا من السكك الحديدية إلى البواخر إلى السيارات إلى الدواب في الأغراض العسكرية ، وصودرت أقواتنا وحاصلاتنا وخيرات أرضنا طعاماً للجنود ، ولتصدر إلى خارج هذا الوطن حيث تباع بأضعاف ثمنها وتمد بها البلاد الجائعة والجنود الضائعة في مختلف الميادين ، فعرفنا الجوع والعري والبرؤس والشقاء وقاسينا ويلات الحرمان والفاقة ، وانتشرت بيننا الأمراض الفتاكة والأوبئة القتالة ، وعضنا الغلاء الفاحش بأنيابه القوية الصارمة ، وعرفنا كيف يكون الضيق في المسكن وأرض الله واسعة ، وصب علينا البلاء من كل مكان .

كل هذا والإنجليز الذين ينعمون بهذه الخيرات دوننا ويستأثرون بها في أرضنا لا يدفعون لها ثمناً إلا سندات على الخزينة البريطانية وإلا أوراقاً نقدية لا رصيد لها ، وإلا وعوداً معسولة بالسداد والوفاء وحسن المثوبة والجزاء حتى بلغ مجموع الدين الذي لمصر على بريطانيا خمسمائة مليون من الجنيهات .

ومرت هذه الأيام السوداء والأمة المصرية صابرة محتسبة تنتظر طلوع الفجر وإشراقه الصباح ووضح النهار لتتال حقاها وتستكمل استقلالها وتسهم مع ركب الأمم العزيزة في بناء العالم الجديد والحضارة الإنسانية المترقبة ، وإذا بها تفاجأ من بريطانيا بالجحود والنكران بعد التغافل والنسيان ، وإذا بالحكومة البريطانية التي ملأت الدنيا بكاءً وندباً لحرية الشعوب المغصوبة وشفقة وعطفاً على استقلال الأمم المغلوبة ، تأبى إلا أن تغلبها الطبيعة الاستعمارية الرجعية البائدة ، فتتكر على مصر حقاها السياسي في أن تتحرر من القيود والأغلال ، وأن يجلو كل جندي أجنبي عنها ، وأن تعود للوطن حريته ووحدته ، وتحاول أن تنكر عليها حقاها الاقتصادي فتساومها في هذا الدين ، وتعتذر عن سرعة سداده بشتى المعاذير ، وتدعي باطلاً أن الكثير منه قد أنفق في سبيل الدفاع عن مصر ، كأن ألمانيا أو إيطاليا أعلنتا الحرب على مصر لا على بريطانيا ، وكأنهما - رحمهما الله - لم

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، العدد (٢٣٨) ، بتاريخ ٢٠ من ربيع الأول ١٣٦٦هـ - ١١ فبراير ١٩٤٧م .

تستمر ا تجاملان مصر مع أن موقفها إلى جانب بريطانيا وحلفائها هو الذي غير وجه الحرب - ولولاه لما كان يعلم أحد إلا الله - لمن يكون النصر .

حجة داحضة ، وقول لا وزن له ، وأغلب الظن أن حكومة مصر لن تعبأ به وستطالب بحق بلدها كاملاً غير منقوص ، أما شعب مصر فقد عرف الصغير والكبير فيه أن له عند بريطانيا ديناً لن يفرض فيه ولن ينزل عنه ، والأخلق بشرف بريطانيا ألا تساوم في هذه الحقوق المقررة وألا تتستر بالمعاذير الباطلة .. ومطل الغني ظلم .

كلام صريح حول الموقف الحاضر (*)

لا شك أن فكرة التحاكم الدولي ورفع قضية الوطن إلى هيئة الأمم المتحدة وإلى محكمة العدل الدولية وإلى مجلس الأمن وإلى كل مؤتمر دولي ومجمع عالمي ، ونبذ فكرة المفاوضة مع بريطانيا والتفاهم الثنائي كوسيلة لتحقيق أهداف البلاد ، فكرة صائبة بعد أن أرغمتنا عليها التجارب والظروف ، ودفعنا إليها دفعاً مكر إنجلترا وتجنبيها وتعنتها وتكرها لحقوقنا ولموائيقها وللجميل البالغ الذي أسدته إليها هذه البلاد في محنتها ، وكان يجب علينا أن نتلقى هذا الدرس في وقت مبكر ، وأن نخطو هذه الخطوة من زمن بعيد .

ومهما قيل من أن هذه الهيئات الدولية خاضعة لنفوذ الدول الكبرى راضخة لسطانها متأثرة بتوجيهها ، فإننا نجني فوائد كثيرة لهذا التحول في أسلوب السياسة المصرية : منها جمع كلمة الأمة ، ومصارحتها بحقيقة نيات البريطانيين ، ووقوفها وجها لوجه أمام اعتدائهم على حقوقها وسيادتها ، ومنها : فضح سياسة الإنجليز وخداعهم أمام دول العالم وأممهم وشعوبهم ، وتصحيح آراء هذه الدول المخدوعة بهم عن العلاقة بين مصر وبريطانيا ، وعن حقيقة هذا الوطن ، مع القضاء على الصور المشوهة التي وضعها الاستعمار البغيض بين أيديهم ، ومنها : نبين نيات هذه الدول نفسها نحو مصر ، وانكشاف مطامعها أو عواطفها نحوها حتى نصادق من نصادق عن بيئة ونخاصم من نخاصم عن بيئة كذلك ، وهي التي أوسعت صدرها ومرافقها ومواردها للجميع . ومن واجب الجميع أن يقفوا إلى جانبها ، وبخاصة ومعها الحق ومع غيرها الإثم والبطلان .

ومن هنا أجمعنا أن إنجلترا تبذل جهوداً كثيرة لتحول دون سلوك مصر هذا المسلك ، فتارة تعلن حرب الأعصاب ، وتارة تشكك في النتائج ، وتارة تعلن سرورها بهذه الخطوة ، ونرى ذلك كله واضحاً في صحافتها المرائية الملتوية القصد والأساليب .

ولا شك أن الشعب كله على اختلاف هيئاته وطبقاته ، أفراده وساسته قد صادفت منه هذه الفكرة هوى في الفؤاد ، لا لأنه يثق بالنتائج مائة في المائة ، ولكنه لما ذكرنا من فوائد هذا الاتجاه والنتائج بعد ذلك بيد الله والعاقبة للمتقين ، ومازلنا نحسن الظن بالضمير الإنساني العالمي ، فإذا خذلتنا الهيئات الدولية في هذا الحق ، فنحن نعرف طريق الجهاد لاستخلاصه وعليها إثم الظالمين المعتدين ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

لكن التفكير في هذه الخطوة وحدها لا يكفي ، والإقدام عليها مجردة لا يفيد ، فإن لها ملحقات وتوابع يجب أن تهياً لها ونهتم بها ، وهذا واجب الحكومة ولا شك ، فمن ذلك الدعوة الجدية إلي توحيد الصفوف وجمع الكلمة حتى تواجه الأمة عدوها صفاً واحداً ، ومنه : تنظيم الدعاية في كل مكان ، في الداخل والخارج ، ومنه : استصدار التشريعات والقوانين التي تحبط على الغاصبين ما يبيتون ونشعرهم أننا جادون لا هازلون ، وهناك واجب آخر على الأمة بهيئاتها وأحزابها وزعمائها وأفرادها : أن يرسموا للحكومة خطة وطنية محكمة مفصلة ويطالبونها بالعمل على أساسها والسير في منهاجها ، ويستعدوا لموازرتها إن سارت في هذه الخطة بجرأة وإقدام وللعمل على إسقاطها إن أثرت السكوت والإحجام ، ولقد كنا نفضل أن يسلك الوفد في بيانه هذا السبيل ، ويمد يد المعاونة للحكومة على أساس خطة ومنهاج ، فينفي بذلك عن نفسه شبهة التعنت والتصلب وترقب سلطة الحكم والجهاد في سبيل الوصول إليه لا في سبيل حقوق البلاد ، كما كنا نفضل أن يترئس الحكومة في

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، العدد (٢٣٩) ، بتاريخ ٢١ من ربيع الأول ١٣٦٦هـ - ١٢ فبراير ١٩٤٧م .

رده ، أو أن يرد بما يمهد السبيل للتفاهم ولا يقطع خط الرجعة على وسطاء الخير ، على أننا نرى أن الفرصة لم تفلت بعد وأنه مازال في وسع رئيس الحكومة أن يعلن من جانبه خطة عملية ويدعو القوم إليها في رفق ولين وإخلاص وليذكر قول الله تعالى : «إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا» ، ولقد حدثوا : أن عمر رضي الله عنه اختصم إليه زوجان ، فبعث حكماً من أهله وحكماً من أهلها فلم يوفقا إلى إصلاح فخفقهما بدرته وقال : ويحكما لم تريدوا إصلاحاً ولهذا لم توفقا ، عودا مخلصين وستوفقان ، وقد كان وصدق الله العظيم ، فإن أجابوه فهو حظ الوطن في محتته الحاضرة والخير للأمة جميعاً ، وإن لم يفعلوا فحسبه أن أعذر إلى الله وإلى الناس وسيجد من المخلصين العالمين في هذه الأمة من يشد أزره ويعينه على الحق ما دام يعمل له ويجاهد في سبيله .

أما الإخوان المسلمون - وهم الذين لم يفكروا في يوم من الأيام بغير عقولهم المخلصة البريئة - فقد حددوا موقفهم في الخطاب الذي قرر مكتب الإرشاد العام رفعه إلى رئيس الحكومة غداً (اليوم) وبينوا فيه تفصيلاً الخطة التي يرون أنها واجبة الاتباع ، ولعل في هذه الخطة هدى ونوراً للذين ما زالوا حائرين في الطريق بعد ، وعلى كل حال فستكون هذه الخطة للإخوان هي أساس موقفهم من السياسة حاكمين أو محكومين .. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

خطاب الإخوان إلى دولة رئيس الوزراء (*)

توجه بالأمس الأستاذان صالح عشاوي وعبد الله أحمد قاسم إلى رئاسة مجلس الوزراء ، حيث سلما الخطاب التالي الذي قرر مكتب الإرشاد العام إرساله لدولة رئيس الحكومة المصرية :

حضرة صاحب الدولة محمود فهمي النقراشي باشا

رئيس الحكومة المصرية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد ،،،

فقد كانت خطوة موفقة تلك التي خطتها الحكومة المصرية استجابة لنداء الأمة ، فأعلنت انتهاء عهد المفاوضات مع الإنجليز ورفع قضية الوطن إلى الهيئات الدولية التي يستقر عليها رأي الإخصائيين من رجال القانون والتشريع .

والإخوان المسلمون يرون أن إعلان العزم على اتخاذ هذه الخطوة لا يفيد شيئاً ما لم يتبعه الإسراع في الدراسة - فقد بلغ القلق بالأمة منتهاه - وما لم تعززه فوراً خطوات أخرى يقتضيها الموقف وبفرضها هذا الاتجاه ومنها :

أولاً : دراسة الناحية القانونية التي تؤدي إلى إعلان بطلان معاهدة سنة ١٩٣٦م واتفاقية عام ١٨٩٩م وجميع القيود والعقود والاتفاقات السياسية المترتبة عليهما ، ومطالبة الحكومة البريطانية بسحب قواتها في الحال من أرض وادي النيل على اعتباره دولة مستقلة تامة السيادة .

ثانياً : أن تتصرف الحكومة المصرية في شؤون السودان التصرف الذي يصون حقوق أبناء الوادي ويحفظ كرامته واستقلاله ، فتعلن من جانبها عدم تمثيل الحاكم العام لها وبطلان تصرفاته وأنها غير مقيدة بشيء منها في الحاضر والمستقبل .

ثالثاً : تنظيم الدعاية في الخارج في جميع عواصم الدول الكبرى .

رابعاً : تنظيم الدعاية في الداخل وتغذية الشعور الوطني وعدم مصادرة الحريات .

خامساً : تنظيم الدعاية في البلاد العربية والإسلامية .

سادساً : تنظيم التعاون الأدبي مع البريطانيين .

سابعاً : دراسة عدم التعاون الاقتصادي والتخلص من قيوده الداخلية والخارجية .

كما يرى (الإخوان) كذلك أن العمل يكون أدعى إلى النجاح وأقرب إلى التوفيق ، إذا تحددت وجهته ورسمت خطواته ، ثم اجتمعت عليها الكلمة والتقت عندها الجهود .

فإذا كانت الحكومة ترى أن تتخذ هذه الخطوات فإن عليها أن تتقدم بهذا الرأي كمنهاج يحدد الغاية والوسيلة إلى رؤساء الهيئات والأحزاب بصفة رسمية وتطلب إليهم معاونتها في التنفيذ فمن أجاب فيها ومن أبقى فعليته إثمه .

ويرجو الإخوان أن يتم هذا المسعى في القريب العاجل حتى لا تضيع الفرصة وتتعدد الأمور .. والله يقول الحق ويهدي السبيل .

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، العدد (٢٤٠) ، بتاريخ ٢٢ من ربيع الأول ١٣٦٦هـ - ١٣ فبراير ١٩٤٧م .

في مثل هذا اليوم من العام الماضي ضاقت الأمة المصرية ذرعاً بتصرفات حكامها وزعمائها على السواء، ووقفهم من قضية البلاد موقف الذي لا يقدر الفرصة السانحة ، ولا يدرك عامل الزمن في لحظاته الفاصلة التي تتقرر فيها مصائر الأمم ، وغلبها هذا الشعور الغامر من الضيق والألم ، فتنفست وتحركت ، وأرسلت زفرتها الحارة الملتهبة في هدوء وسكون ووقار معلنة أنها لن تستطيع صبراً بعد اليوم على هذا التسويف والإهمال لحقوق الوطن ، وأظهرت الحكومة رضاءها على هذا الشعور الكريم الذي لم يعتمد إلى إيذاء أحد أو الاعتداء على أحد ، ولكن السائقين الإنجليز هزءوا بهذه المشاعر الصادقة ، وسخروا من هذه الوطنية المتدفقة ، ووطنوا بعجلات سياراتهم الضخمة أجساد هؤلاء الوطنيين الكرام ، فأهدروا دماهم وأزهقوا أرواحهم وانطلقوا في طريقهم آمنين ، وجرت الحوادث بعد ذلك سرا عاقي طريقها المعلوم .

ورأى الإخوان المسلمون ألا تمر ذكرى هذا اليوم العزيز على الأمة دون أن تحيي شهداءها فيه بعمل ، فقرر مكتب الإرشاد أموراً كلها في حدود القانون ، وليس فيها ما يخل بالأمن والنظام في شيء ، ولم يقصد الإخوان بقرارهم هذا أن يثيروا شغباً أو أن يحضوا على ثورة أو أن يدفعوا أحداً إلى التظاهر ضد حكومة أو حزب أو يشجعوا الاعتداء على دم أو عرض أو مال ، فإن ذلك كله يذهب بجلال الذكرى وروعة التحية الواجبة للشهداء ، فضلاً عن أنهم يعلمون أنه يضر قضية البلاد في هذا الموقف الدقيق الذي تسلك فيه طرقاتاً دولية جديدة في سياستها العامة ، وتقف وجهاً لوجه موقف التحاكم والتخاصم أمام دولة كل تاريخها السياسي سلسلة من الفتن والمآسي والمشاغبات وانتهاز الفرص وخلق الحوادث لتعكير صفو الأمنين ، والصيد في الماء العكر ، ولو بعد حين ، لهذا لم يكن الإخوان المسلمون - ولم يزالوا - يقصدون بقرارهم معنى من هذه المعاني بحال ، ولكنها - كما قلت - تحية واجبة ليوم عزيز ، ولشهداء أبرار قضوا فداء الحق ، وفي سبيل الوطن المفدى .

ولم نكن نشك في أن الحكومة - وهي أشد ما تكون حاجة إلى مؤازرة الشعب لها ، وإلى العمل بكل وسيلة على تغذيته بالشعور القومي والعلو بمعنوياته السياسية ، وتقدير مشاعره البريئة - ستسر لهذا الاتجاه وتتعاون مع الإخوان المسلمين على تحقيقه لا أن تقابله ببلاغ ومذكرة لا أثر فيهما لتحية الشهداء ، ولا لتقدير الدافع الكريم الذي دفع بالإخوان إلى تقرير هذا الإحياء .

والشعب المصري بحمد الله وقد بلغ وعيه القومي درجة عالية ، ليس في حاجة إلى من يدفعه بالقوة أو يحمله بالإجبار على أداء واجب من واجباته الوطنية ، و«الإخوان المسلمون» يربأون بأنفسهم وبأمتهم عن هذا الوضع ، وضع الإكراه والإجبار ، لأنهم مطمئنون تمام الاطمئنان إلى حسن تقديرها وإلى شعورها ، ولأنهم يعلمون أن مهمتهم التوجيهية والبلاغ «فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» .

ومن النصيحة الواجبة أن نقول للحكومة : إن الظرف يحتم عليها أن تسلك غير هذا المسلك في توجيه الشعور الوطني والانتفاع به ، والاستفادة منه ، والتعاون مع العاملين على تربيته وتنميته ، ومحو هذه الآثار البغيضة التي تركها الاستعمار البغيض والتوجيه الخاطيء من النفوس والأوضاع ، وحينئذ فقط سنستفيد ونفيد .. والأمر بيد الله .

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، العدد (٢٤٣) ، بتاريخ ٢٦ من ربيع الأول ١٣٦٦هـ - ١٧ فبراير ١٩٤٧ م .

رد غبطة البطريرك على رسالة فضيلة المرشد العام (*)

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ حسن البنا

المرشد العام للإخوان المسلمين

نهدي فضيلتكم أزكى تحية .. وبعد ،،،

فقد تلقينا كتابكم ، ومنه علمنا أنكم معتكفون في المستشفى لمرض ألم بكم ، شفاكم الله وأسبغ عليكم ثوب العافية .

ولقد قرأنا الكتاب فصادف ارتياحنا ما جاء فيه عن وحدة عنصرى الأمة ، ولعل من الحق أن يقال إن عنصرى الأمة عنصر واحد ، لأن افتراق الدين لا يصح أن يطغى على وحدة الدم واتفاق الصفات الخلقية والاشترك في العادات والأفكار والمصالح الدنيوية ، وقد صدقتم في قولكم «إن هذه الوحدة فرضتها الأديان السماوية ، وقدسها العاطفة الوطنية ، وخلدتها المصلحة القومية» ، فإن ذلك من الحقائق التي يدركها الأقباط حق إدراك ، ويحرصون عليها ويؤدون عن هذه الوحدة بأعز ما يمتلكون ، لأنهم يؤدون بذلك عن شرف وطنهم ومجد أمتهم .

وليس للأقباط من بغية إلا أن يعيشوا مع مواطنيهم على أتم ما يكون من الصفاء والوفاء من جانبهم عملاً بوصايا إنجيلهم وأوامر كتابهم وإذا كانت لهم أمنية أخرى فهي أن تكون العدالة والمساواة واحترام الحريات الدستورية أساساً لكل معاملة لتتم السعادة بذلك لجميع أبناء الأمة ، ويبسط الأمن والسلام رواقهما على البلاد .

أما ما اقتبستموه من الآيات القرآنية والحديث الشريف فمن شأنه حقاً أن ينير الأذهان ويبث مكارم الأخلاق إذا عُممت معرفته بين جميع الأوساط ، ولاسيما التي تحتاج إلى مزيد من التأدب بهذا الأدب الديني الرفيع ، وإذا سار على هديه الحكام والمحكومون ، وبذلك تتوثق عرى علاقات الإخاء والمودة بين المسلمين والأقباط .

ولذلك فقد أحسنتم صنفاً بالنشرة التي قلتم إن مكتب الإرشاد العام بعث بها إلى فروعه ، ويين فيها ما على كل أخ مسلم من واجب مقدس في أن يعمل جهد طاقته لدعم هذه الوحدة القومية وتعزيز أواصر الرابطة الوطنية، ففي ذلك عنوان على رقي الأمة ودليل على نضج تربيتها السياسية .

ولا يسعنا إلا أن نضرع إلى المولى جلت قدرته أن يرفع الكنانة بعين عنايته ، ويجنبها مساوئ الخصومات الداخلية الوخيمة العواقب ، ويديم على سكان الوادي نعمة المحبة والاتحاد في ظل رعاية المصري الأول جلالة فاروق الملك العادل أطال الله عمره وأعز به أمته وبوأها مكاناً علياً بين الأمم في عهد ملكه المبارك .

واقبلوا سلامنا وأطيب تمنياتنا ،،،

بابا بطريرك الكرازة المرقسية

بوساب الثاني

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، العدد (٢٩١) ، بتاريخ ٢٢ من جماد الأول ١٣٦٦ هـ - ١٤ أبريل ١٩٤٧ م .

أجانب ومصريون (*)

أذاع رئيس الحكومة المصرية على مواطنيه بياناً مطولاً يذكرهم فيه بما عرف عنهم من كرم الضيافة والإحسان إلى النزول ، ويذكر أن بعض الجرائد والمجلات الإفرنجية تناولت هذه المعاني وأشارت إلى بعض حوادث تدل على تبرم الأجانب وتخوفهم من أبناء هذا الوطن الذي كان شعاره الدائم (أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا) ، ولا شك أن رئيس الحكومة المصرية إنما أراد بهذا أن يطمئن الأجانب ، وأن يعاجل حملات هذه الصحف بالقضاء عليها في مهدها ، وأن يعلن على رؤوس الأشهاد أن الحكومة المصرية والشعب المصري يعرفان واجبهما تمام المعرفة ، ويقفان لكل فتنة بالمرصاد .

وهذا كلام صحيح في عرف الحجة والمنطق والإخلاص المتبادل أما حين يكون مصدر هذه الحملة المغرضة ، الهوى والاختلاق والكذب وانتحال الأباطيل وإثارة الخواطر ، فنحن نؤكد لرئيس الحكومة أن بيانه - رغم ما فيه من صدق العاطفة وكريم المجاملة - لن يثني شيئاً ، وستظل هذه الجرائد على خطتها ، وسنسمع كل يوم بجديد من هذه الأكاذيب المفتراة ، ولا يجدي حينئذ إلا أن نحترق هذا الدس الوضع حكومة وشعباً ، ونمضي في طريقنا إلى الأمام نصلح من شئوننا ونجاهد في سبيل حقنا ونوحد كلمتنا ونسوى صفنا ونغير من أنفسنا ليغير الله ما بنا ، ويومئذ فقط تعرف لنا هذه الجاليات جميلنا وتقر بمعروفنا .

وها هي ذي الحماية قد رفعت والامتيازات قد ألغيت ، فماذا حدث للأجانب في مصر؟! وأي اعتداء وقع على أموالهم أو أرواحهم أو مصالحهم من المصريين؟!

منذ عام تقريباً زارني بعض كبار الأجانب في مصر ، وأراد أن يشير من بعيد إلى أن نمو حركة الإخوان وانتشار فكرتهم ، قد أخذت في نفوس كثير من عامة الشعب المصري نوعاً من التعصب الديني ضد الأجانب ، فقلت له : يا صاحبي ، إذا أردت أن تواجه الحقائق بعين مفتوحة وقول صريح ، فأنا مستعد لمسايرتك ، أما إذا أردت مجرد الاتهام أو حاولت أن تعيش محجوباً بستار من الوهم فليست معك ، إن ما تزعمه من التعصب الديني وهم لا وجود له ، فليس الإسلام في جوهره دين تعصب أو عدوان ، ولكنه دين تسامح عجيب وإنسانية عالية وعالمية تتسع لكل أبناء آدم على ظهر هذه الأرض - مهما اختلفت نحلهم وآراؤهم وعقيدتهم - بالبر والإحسان والعدل والرحمة ، ولكن المسألة مسألة اقتصادية اجتماعية قبل كل شيء فلقد دخل الأجانب هذه الديار ، وأهلها يعيشون في عدد قليل وفي حاجات محدودة وعلى أسلوب من الحياة جعلهم يرضون بالقليل ، أما الآن وقد تضاعف عدد المصريين وحدهم حتى بلغ عشرين مليوناً ، وتغير أسلوبهم في الحياة هذا التغيير الذي كثرت فيه المطالب وتعددت به الحاجات وانقلبت الكماليات الماضية إلى ضروريات ملحة .

فلم يكن بد من أن ينظر المصريون إلى ما في أيدي الأجانب من خيرات بلادهم وغلاتها نظر الذي يريد أن ينال منها كما ينالون ويتمتع بها كما يتمتعون ، لا عن تعصب ديني كما تزعم أو فورة وطنية مجردة ، ولكن عن ضرورة اقتصادية اجتماعية قبل كل شيء وذلك حقهم ولا شك لا ينكره عليهم إلا كل جاحد أو مكابر .

ليست في الدنيا جاليات أجنبية تتمتع في أية أمة من الأمم بمثل ما تتمتع به الجاليات الأجنبية في مصر من تقدير وإكرام ، بل إنها لتنال من خيرات هذا البلد وثمراته أضعاف ما ينال الوطنيون ، ولكنها سياسة مرسومة

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، العدد (٣١٠) ، بتاريخ ١٦ من جماد الآخر ١٣٦٦ هـ - ٧ مايو ١٩٤٧ م .

تتجدد كلما حاولت مصر أن تعمل لتحقيق مطالبها القومية أو تجاهد في سبيل حريتها واستقلالها ، وتكون الإصبع الاستعمارية واليد الإنجليزية وراء ذلك كله .

تبدأ الخطة بإثارة الغبار حول فكرة الأقليات ، وترتفع الأصوات من كل جانب - أقباط ومسلمون - وظالمون ومظلومون ، ومصر أمة واحدة لا تعرف هذا التفريق ولا تشعر به ، حتى إذا انكشفت الدسياسة وحبطت الفتنة بفضل يقظة الأمة واستمسакها بعري الوحدة ، ثار الغبار من جديد وارتفعت الأصوات من كل مكان أجانب ومصريون وكارهون وخائفون ، وليس شيء من ذلك إلا في أدمغة الذين قالوه أو كتبوه أو صوروه، أما هنا في مصر فليس إلا الخلق الفاضل والتعاون الكامل .

وأذكر أن شفيق باشا ذكر في حولياته أن الجاليات الأجنبية اضطربت اضطرابًا عظيمًا حين بدت في الأفق فكرة رفع الحماية عن مصر عقب الحرب الماضية ، حتى إن الكثير منها استنجد بدوله وقنصلياته ، واحتجت بعض الدول رسميًا على الحكومة المصرية ، وتقدمت بمذكرات إلى دار الحماية في هذا المعنى ، وكان من أسبقها إلى هذا الاحتجاج فرنسا وإيطاليا فيما أذكر ، كما تجدد هذا القلق عندما أرادت مصر أن تدع الامتيازات الأجنبية ونادى المغرضون بالويل والثبور وعظائم الأمور .

ومفتاح الإصلاح اليوم في يد الأجانب ، لا في يد المصريين ، فالأجانب يستطيعون أن يحسنوا معاملة الوطنيين في الشركات وفي المصانع وفي المزارع الواسعة التي يملكونها ، ويشعروهم أنهم لا يستأثرون دونهم بشيء ، ولا يرتفعون بأنفسهم عن أهل وطن أوهم وأغناهم ووجدوا فيه رزقهم رغدًا من كل مكان ، وحبذا لو أن رئيس الحكومة اتجه في ندائه إلى الحكومات الأجنبية ، فأبان لها عن نصيب رعاياها في مصر من خيرها وبرها، وهو نصيب الأسد ثم اتجه إلى الجاليات الأجنبية في مصر لتتولى هي الرد على هؤلاء المغرضين الأفاكين .

وإذا كان دولته قد أثر أن يتجه إلى أمته ، فإننا باسم هذه الأمة نأمل أن يبادر النزلاء الفضلاء في مصر إلى إطفاء هذه الفتنة وإحباط هذه الدسياسة والرد على تلك المفتريات ، وبذلك يؤدون لمصر بعض حقها عليهم ومن الجميل عرفان المعروف وتقدير الجميل .

الخطاب الذي أرسله فضيلة المرشد العام إلى البلاغ رداً على ما نشرته بالأمس (*)

حضرة الأستاذ المحترم رئيس تحرير جريدة البلاغ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد ،،،

فقد نشرتم في عدد جريدتكم بالأمس ١١ مايو ١٩٤٧م بعد مقدمة طويلة ذهبت فيها مع التخيل - والافتراض المقدمات - وترتيب النتائج في عبارات مؤدبة مهذبة كل مذهب ، مما لا حقيقة له ، وما لا أحب أن أقابله بمثله أو أعلق عليه بما يناسبه ، إذ أن المهم هو جوهر الموضوع ، ومتى كان باطلاً فقد بطل كل ما سبقه أو لحقه .

نشرتم تحت عنوان (الشيخ البنا عضو في شركات بألوف الجنيهات .. إلخ) ، أنني مساهم في ثلاث شركات الأولى شركة الهلال للسياحة والثانية شركة دار الإخوان للصحافة ، والثالثة شركة دار الإخوان للطباعة ، كما أشرت إلى نص عقد الشركة الأولى ، فقرات من عقدي الشركتين الثانية والثالثة ، وطالبت ملحين بسماع ردي على ما ذكرتموه ، وها أنذا أجيب رغبتكم بإيضاح حقيقية ما ذكرتم ، راجياً أن ينشر هذا الرد في أقرب عدد يصدر وفي نفس المكان الذي نشرتم فيه مقالكم إنصافاً للحقيقة وعملاً بالقواعد الصحفية .

فأما عن الشركة الأولى ، وهي شركة الهلال للسياحة ، فقد ألفت لأغراض اقتصادية عربية إسلامية ، ورأي المؤسسون الأولون لها أن يشركوا معهم بعض الهيئات أو الجماعات الإسلامية ، فعرضوا الأمر على المركز العام (للإخوان المسلمون) والمركز العام للشبان المسلمين ، وقد وافق المركزان على الفكرة ، وقرر المركز العام للشبان المسلمين الاكتتاب أيضاً ، وانتدبت للتوقيع عن الإخوان ، كما انتدب الدكتور يحيى الدريدي للتوقيع عن الشبان ، وإذا فصاحب هذه الأسهم هو المركز العام للإخوان المسلمين والشيخ البنا لا يملك منهما سهماً واحداً ، والعقد الذي نشرتموه والفقرة التي نقلتموها من النظام الأساسي كان ذلك كله صورة للاتفاق الأول ، ولما أخبرت به كتبت توّاً إلى الأستاذ محمد عبد المنعم إبراهيم المحامي والمكلف باتخاذ إجراءات تسجيل الشركة واستصدار مرسومها هذا الخطاب بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٤٦م :

حفظه الله

عزيزي الأستاذ عبد المنعم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد ،،،

فقد اطلعت على عقد شركة الهلال وعلى فقرات من النظام الأساسي للشركة ، فرأيت أن أبدى عدة ملاحظات أرجو العناية بها مع جزيل الشكر :

أولاً : رأيت أن اسمي كتب في المساهمين المؤسسين بالصفة الشخصية مع أنني ساهمت بالصفة العامة وباسم المركز العام لهيئة الإخوان المسلمين بالقاهرة فأرجو أن ينص على ذلك صراحة في العقد .

ثانياً : رأيت أن إحدى الفقرات في نظام الشركة تنص على أن المساهم إذا تأخر عن السداد في المواعيد المقررة احتسب عليه هذا التأخير بفائدة ٥ % ، وأظنها الفقرة الثانية من المادة السابعة ، وهذه

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، العدد (٣١٤) ، بتاريخ ٢١ من جماد الآخر ١٣٦٦هـ - ١٢ مايو ١٩٤٧م .

صورة من صور الربا لا أقرها فأرجو حذفها من النظام الأساسي للشركة ، وملاحظة غيرها من النصوص حتى تكون جميعاً منطبقة على قواعد الشريعة الإسلامية تمام الانطباق .

ثالثاً : أرجو أن يوضح في صلب نظام الشركة مادة تنص على أن (كل معاملاتها وأبواب نشاطها تكون موافقة لما تقرره الشريعة الإسلامية) فلا يصح مثلاً أن تستأجر مرقصاً أو باراً أو نحو ذلك .

فإذا كان من المتعذر ملاحظة هذه المعاني ، فأرجو أن تقبلوا اعتذار الإخوان عن المساهمة ، شاكرًا لكم من كل قلبي عواطفكم الطيبة ، وسواء أكننا مساهمين أم غير مساهمين فإنها النصيحة الواجبة ، نتقدم بها راجين أن يلاحظ ذلك في تصرفاتكم ، وأنتم بحمد الله أحرص الناس على عزة الإسلام ، ولا زلت لكم دائماً الشاكر الذي يتمنى أحسن التمنيات ويساعد بكل جهد في الخير الذي تعملون .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

حسن البنا

المرشد العام للإخوان المسلمين

وبناءً على هذا الخطاب أرسل الأستاذ محمد عبد المنعم إبراهيم المحامي الخطاب الآتي إلى حضرة صاحب السعادة رئيس لجنة قضايا الحكومة بتاريخ ١٧ يونيو سنة ١٩٤٦ م :

حضرة صاحب السعادة رئيس لجنة قضايا الحكومة

أرجو إدخال التعديلات الآتية على شركة الهلال للسياحة والنقل :

(١) يضاف بعد حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ حسن البنا (بصفته) إذ أنه مشترك في الشركة بصفته المرشد العام للإخوان المسلمين .

(٢) يحذف من المادة السابعة الثماني عشرة كلمة الأولى وهي الخاصة بالفائدة .

(٣) ويضاف للمادة الثانية من العقد والنظام فقرة أخيرة نصها : «وكل معاملاتها وأبواب نشاطها تكون موافقة لما تقره الشريعة الإسلامية» .

الأفوكاتو

محمد عبد المنعم إبراهيم المحامي

ومن ذلك ترون أن الشيخ البنا لم يتعامل بالربا كما ذكرتم وما كان له أن يفعل ، بل وفقه الله وله الحمد والمنة إلى أن يكون نظام الشركة كله خالياً من كل ما يتنافى مع أحكام الشريعة الإسلامية الغراء .

وأما عن الشركتين الثانية والثالثة فأؤكد لكم أنني لا أملك في شركة دار الصحافة للإخوان أكثر من أربعة أسهم قيمتها ١٦ جنيه مصري (سنة عشر جنيهاً) لم تسدد كلها بعد ، ولا أملك في شركة الطباعة للإخوان أكثر من ثلاثة أسهم قيمتها ١٢ جنيه مصري (اثنا عشر جنيهاً) لم تسدد كلها كذلك .

وأما ما ذكر في العقد من أن لي في كل من الشركتين ١٠٠٠ جنيه فهو مبلغ اسمي فقط سببه : أن المساهمين في كل شركة منهما يبلغون ثمانية آلاف مساهم تقريباً ، ومن غير المعقول أن يوقعوا جميعاً على عقد الاتفاق ، فرأت الجمعية العمومية الأولى لهؤلاء المساهمين أن تنتدب من بينها عشرين شخصاً تعتبرهم مؤسسين، وتوزع عليهم رأس المال والسهم التي اكتتب بها هؤلاء المساهمون جميعاً توزيعاً اسمياً ، وتفوضهم في التوقيع على العقد (بصرف النظر عن حقيقة ما اكتتب به كل واحد من هؤلاء العشرين من السهوم) ، وذلك

إجراء يتخذ في كل الشركات المساهمة في مثل هذه الظروف ، وهو ثابت في محضر الجمعية العمومية التأسيسية الأولى وكذلك في دفاتر الشركة .

وأحب أن أنتهز هذه الفرصة فأضيف إلى معلوماتكم الصحفية في هذا المعنى أنني مساهم في شركة رابعة من شركات الإخوان - غاب عنكم ذكرها - وهي شركة المعاملات الإسلامية بخمسة أسهم قيمتها ٢٠ جنيه (عشرون جنيهاً) دفعت نقدًا وعدًا والحمد لله ، وأنني قد انتخبت رئيسًا لمجلس إدارة شركة الإخوان للصحافة نظير مبلغ قدره ١٠٠ جنيه (مائة جنيه) شهرياً ، ورئيس لمجلس إدارة شركة الطباعة نظير مبلغ ١٠٠ جنيه (مائة جنيه) أخرى شهرياً كذلك ، ولكنني رفضت رفضاً باتاً أن أتقاضى مليماً واحداً من إحدى الشركتين وعملت طوال العام الماضي متطوعاً حامداً لله أن وفقني إلى المساهمة بمجهودي الضئيل في هذه الخدمة الجليلة .

سيدي المحرر - أظنني بعد هذا في غنى عن ذكر مصدر الآلاف المزعومة أو الرد على ما تخيلتموه من فروض ونتائج باطلة تترتب على حيازتي إياها ، وأظن أنه قد وضح لكم جلياً أن مجموع سهومي في الشركات التي أشترتم إليها والتي غاب عنكم ذكرها لا يزيد على ١٢ سهماً (اثني عشر سهماً) قيمتها ٤٨ جنيه (ثمانية وأربعون جنيهاً) ما كان يعجز مرتبي الحكومي الذي أشترتم إليه عن سدادها ، ومع ذلك فلم تسدد كلها إلى الآن .. فلا أوقف ولا مئات .

كنت أظن الأحزاب والصحف في مصر تفرح وتسرع لأن هيئة إسلامية استطاعت أن تنهض على قدميها ، وأن تساهم بنصيب وافر في الإصلاح الخلقى والاجتماعي والاقتصادي والكفاح الوطني ، معتمدة على الله وحده معتزة بسلامة مبادئها وطهاره قلوبها وجوارحها بعيدة كل البعد عن الخضوع للأحزاب ، أو الأفراد ، أو الحكومات ، أو محتكري النشاط الاقتصادي في مصر من الدخلاء عليها والأجانب عنها ، ولكن يظهر أن عناصر الهدم لا زالت في أنفس الكثير منا أقوى من عوامل البناء ، وأننا لازلنا في حاجة ماسة إلى بناء ماهر يعمل جاهداً في ترميم هذا الانهيار الخلقى المؤسف ، فصبر جميل والله المستعان ، وكنت أظن أن آخر من يتحدث في مثل هذه المعاني هم الذين يعلمون حق العلم أن بيوتهم من زجاج .

على أنني أتقدم إليكم بالشكر الجزيل على هذه الفرصة التي كشفت عن كثير من نواحي التضحية والبذل التي ما كنت أحب أن تعرض على الناس ويرحم الله القائل :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

وختاماً أحب أن أطمئنكم ، وأؤكد لكم أن الشيخ البنا يشرف ، ويعتز بأنه كان فقيراً ، وما زال فقيراً ، وسيظل كذلك حتى يلقى الله ، وهو بثياب الكفاف والفقر ، وهي وسام العزة والفخر ، والله هو الغني الحميد .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

الفقير إليه تعالى

ماذا أعددتنا لما بعد الاحتكام؟(*)

ستتوجه الحكومة بالقضية إلى مجلس الأمن ، ولن تعدو النتيجة أحد أمرين ، فإما أن تعترف لنا الدول بحقنا ، فتطالب بريطانيا بالجلء عن أرض الوادي وتعترف بوحدته الحقيقية ، وحينئذ ما أوجنا إلى التفكير الطويل في بناء حياتنا الداخلية ، وتنظيم علائقنا الخارجية على قواعد تستمد من معاني قوميتنا الصريحة ، ومن نظام الإسلام الحنيف ، ومن روح هذا التطور العالمي الإنساني الجديد نحو المثل العليا والأهداف النافعة والمعاني العالية السامية .

وإما أن تتغلب المصالح الاستعمارية على الحق الواضح المنير ، فلا نظفر بما كنا ننتظره ونرجوه من تقدير الدول الكبرى لمعاني الحرية والحق والنصفة ، وذلك أمر محتمل غير بعيد الوقوع ، وإن كنا لازلنا نرجو أن يكون الضمير العالمي قد استيقظ ، والفكر الإنساني قد اتجه نحو الخير بعد هذه الدروس القاسية التي ذاقتها الأمم والشعوب في هذه الحرب الضروس ، ولذلك كان من الواجب أن نعد أنفسنا من الآن لمواجهة هذا الموقف .

وإنما يكون الإعداد من جانب الحكومة بأن تكاشف الأمة في صراحة ووضوح بتطورات القضية ، ولا تدعها تتلقف أخبارها من هنا ومن هناك ، فليس أضر من سياسة الصمت في الموضوعات التي لا سناد فيها للحكام إلا قوة الشعوب وبقظة الأمم .

كما أن من واجب الحكومة منذ الآن أن تسرع في تأليف لجان فنية للنظر في كل النواحي والمواقف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تترتب على موقف الخصومة الجادة مع الإنجليز ومناصرتهم ، ذلك الموقف الذي سنلجأ إليه مضطرين بعد أن فقدنا الأمل في عبارات السلام والوئام والحق والإنصاف .

ومن واجب الحكومة كذلك أن تدعو كل الهيئات الوطنية التي تستجيب لها لتكاشفها بحقائق الموقف ، حتى تستطيع هذه الهيئات أن تعد نفسها وتعد الشعب - على اختلاف طبقاته - لمواجهة هذا الموقف بما يجب أن يواجهه من جهاد وكفاح .

وأذكر أن الملك فيصل بن الحسين (رحمه الله) حين ذهب إلى مؤتمر الصلح بعد الحرب الماضية - وقد كان ملكاً لسوريا حينذاك - استدعى إليه رؤساء الناس وشيوخ العشائر والقبائل ، واتفق معهم على ما يجب أن يعمل إذا خذلتها الدول الغربية وأخلفت عهودها ومواثيقها مع العرب ، ولو استمر (رحمه الله) في خطته هذه ولم يعدل عنها وهو في أشد الأوقات حاجة إليها لكان للأمم العربية وضع آخر فيما نظن ، ويجب أن نعتبر تاريخنا ونستفيد مما مر بنا من حوادث وعبر .

ومن واجب الحكومة كذلك أن تهيب الفكرة في الشعوب الغربية والدول العربية ، وتبصرها في وضوح وصدق ولباقة بالنتائج الخطيرة التي تترتب على مثل هذا التحدي للحق والعرب وللشرق حتى تكون على بينة من الأمر .

كل هذه واجبات حتمية يجب أن تشرع الحكومة سريعاً في العمل على تحقيقها ، وإذا كان الشعب المصري يبدو الآن هادئاً ساكناً ، فإن في أفئدته من مراحل القلق ما لو انفجرت لدوى صوتها بين المشرق والمغرب ، ولكنه يريد أن يقطع السبيل على المتربصين ، ويقيم الحجة على الكاذبين ويمضي في شوط الحلم الحكيم إلى نهايته ، حتى إذا يأس من إنصاف الناس إياه ، عرف كيف ينصف نفسه «وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظَلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ» .

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، العدد (٣١٦) ، بتاريخ ٢٣ من جمادى الآخرة ١٣٦٦ هـ - ١٤ مايو ١٩٤٧ م .

[٢٤]

إذا كان هذا صحيحاً يا دكتور فقد اتفقنا؟ (*)

أقام الأساتذة والطلاب المناصرون للدكتور طه حسين بكلية الآداب حفلاً تكريمياً لحضرته بمناسبة تعيينه مراقباً للثقافة العامة ، وكان مما قاله الدكتور في هذا الحفل : «ثم أريد أن أنتهز هذه الفرصة - أيها الأصدقاء - لأقول ما قلته ألف مرة ومرة ، وما سأقوله ألف مرة ، فقد يظهر أننا لا نسأم من القول والتكرار ، وهو أن الإسلام أثبت مكانه وأمكن في قلوب المسلمين وفي قلبي أنا كذلك من أن يتعرض لخطر لأن فلاناً قال أو أن فلاناً لم يحسن القول .

أيها الأصدقاء : أرجو أن نكون أحسن ظناً بالإسلام وأحسن ظناً بأنفسنا ، وأن نكون أحسن ظناً بالله من أن نظن أن الإسلام معرض لأي خطر لأن فرداً يرى هذا الرأي أو ذلك وأتمنى أن يقيض الله للإسلام من يدافع عنه كما أَدافع أنا عنه ، وأن ينشره ويحبيه للناس كما أنشره أنا وكما أحبب أنا مبادئه للناس» .

هكذا قال الدكتور بالنص ، فهل حقيقة يدافع الدكتور طه حسين عن الإسلام وينشره ويحبيه للناس إلى درجة تجعله يتمنى أن يقيض الله للإسلام من يدافع عنه وينشره كما يفعل .

إذا صح هذا يا دكتور فقد اتفقنا كل الاتفاق واعتبرنا أيها الداعية المسلم من جندك منذ الساعة فإننا للإسلام نعيش ، وله نحيا وفي سبيل الدعوة نموت شهداء .

صدقني يا دكتور طه من غير أن أقسم لك وإن شئت فأنا أقسم على هذا أنني لأتمنى من كل قلبي مخلصاً أن أرى ذلك اليوم الذي تدعو فيه أنت للإسلام وتنشره بين الناس وتحبب تعاليمه إليهم ، وأعتقد أنك حينئذ تستطيع أن تخدم الإسلام بأجل وأكثر مما يفعل كثير منا نحن الدعاة المتواضعين فإنك رجل جريء لك قلم ولك لسان ولك تلامذة معجبون وأصدقاء مخلصون وفيك دأب ونشاط وإنتاج خصيب وما نحسدك على هذا - يعلم الله - ولكننا نتمنى أن يكون ذلك في ميزان الإسلام لا عليه ، ولا في كفة الخصومة له وتوهين أمره وبطريق غير مباشر فهل يجيء حقاً ذلك اليوم ؟ أسألك يا دكتور مخلصاً لأطمئن لا متحدياً ولا تعنتاً .

إن لك كتباً كثيرة ففي أيها ورد هذا الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه وتحبب تعاليمه للناس ؟

وإن لك تلامذة قد اقتصت بهم واختصوا بك فأيهم ظهر أثر دعوتك فيه فكان لساناً إسلامياً أو قلماً إسلامياً أو صفحة من صفحات الفكرة الإسلامية أو مظهراً من مظاهر التمسك بالإسلام ؟

وأنت قد ساهمت في خدمة كثير من القضايا الاجتماعية وحضرت كثيراً من الأبحاث والمؤتمرات في داخل القطر وخارجه ، ففي أي هذه جميعاً نطقت باسم الإسلام أو دعوت إلى تعاليمه ؟

وأنت يا دكتور أستاذ في الجامعة المصرية منذ أنشئت فأنشدك الحق ، هل تذكر أنك عرضت في دروسك ومحاضراتك لطلبتك ما يلفت أنظارهم إلى جلال هذا الدين وروعته ومثانة تشريعه ؟ هذا والمادة التي اقتصت بتدريسها ألصق مواد الدراسة بالإسلام ؟ وكتاب الإسلام ؟

ولا أخرجك فأقول - وأنشدك الحق - يا دكتور أفتحيا أنت في حياتك اليومية على نمط إسلامي وتطبع أسرتك كرب بيت بهذا الطابع ودع البيت وما فيه ، أفتقوم أنت في حياتك الشخصية بواجبات الرجل المسلم ،

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، العدد (٠٠٠٠) ، بتاريخ .

فضلاً عن الداعية الذي يتمنى أن يقبض الله للإسلام من يدافع عنه ، لا أخرجك بهذا السؤال الأخير ، ولا أطالبك بجوابه فأنتم معشر الدعاة العصريين تفرقون بين الحياة الشخصية والحياة العامة ، كأن واجبات الفضيلة وتعاليم الإسلام لا تتناولها جميعاً وكأن الحياة العامة للفرد ليست مرتبطة بحياته الخاصة كل الارتباط .

وبعد يا دكتور طه ..

فهل من الدعوة للإسلام .. أن تعرض للنظر في القرآن بالأسلوب الذي اخترته لنفسك من قبل ، ولعلك عدلت عنه من بعد - وهو ما أسر له - حتى مع تسليم الدعوى بأن البحث علمي بحت .

وهل من الدعوة للإسلام .. أن تقف وفتك المعروفة في شأن الكتابين الإنجليزيين ، وما كان عليك ولا على الجامعة ولا على حرية الفكر من بأس أن تستجيب لأبناء مؤمنين من تلامذتك رأوا في هذا الكلام طعناً في مقدساتهم فلجأوا إليك بالطريق القانوني في هدوء وأدب وأما كان أولى بالداعية إلى الإسلام أن يشجع هذه الغيرة ويسر لها ويعطف كل العطف على القائمين بها !؟

وهل من الدعوة للإسلام .. أن تنادي في صراحة لا تعدلها صراحة أنه لا سبيل لنا إلى الرقي إلا إذا قلنا أوروبا ، وسلكتنا مسلك الأوروبيين لتكون لهم شركاء في حضارتهم خيراً وشرها حلوها ومرها ، نافعها وضارها وما يُحَبُّ منها وما يكره وما يمدح فيها وما يعاب ، ومن زعم لك غير ذلك فهو خادع أو مخدوع ؟ ولعلك تقول كما قلت إنما أريد الدعوة إلى العلم وإلى القوة وإلى الخلق وإلى النظام ، وهذا حسن جميل ولكن أفترى أن الإسلام لم يأمر بها ولم يسلك المسلمون السبيل إليه قبل أن تخرج أوروبا من ظلمات جهلها بمئات السنين ، فلم تدعونا إلى العلم والقوة والخلق والنظام باسم أوروبا الناشئة المتخبطة ، ولا تدعونا إلى ذلك باسم الإسلام الثابت الدعائم الراسخ الأركان ؟

وهل من الدعوة إلى الإسلام .. يا دكتور أن تخلط بين الفتیان والفتيات هذا الخلط في كلية الآداب فتخذوا حذوها غيرها من الكليات وتبوء أنت بأثر ذلك كله وتزين للفتيات في صراحة هذا الاختلاط وتحتن عليه وتدعوهن إليه ولا تقل أن هذا من عمل غيرك فيداك وما تحمل لهذا ودعا إليه أحد وحمل لواءه واستخدم نفوذه في تحقيقه ، كما فعلت ذلك أنت ولعلك تعتبر هذا من مآثرك ومفاخرك ولكني أخالفك يا دكتور وأصارك بأن هذا الاختلاط ليس من الإسلام وقد رأينا وسنرى ما كان وما سيكون له من آثار .

هذه صحيفتك يا دكتور طه في الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه فهل لا تزال بعد هذا الحساب اليسير غير العسير الذي لا مناقشة فيه ولا قسوة ولا عدوان مصرّاً على أن يقبض الله للإسلام من يدافع عنه كما تدافع عنه ومن ينشره ويحبب تعاليمه إلى الناس كما تفعل ؟

على أننا على استعداد لأن ننسى هذا الماضي جميعه ونأخذ من جديد مثمر منتج على الأساس الذي وضعته أنت وارتضيانه نحن أن تُثَبَّت في نفوسنا ونفسك مكانة الإسلام وأن تدافع عنه وتنشر تعاليمه وأن تحببه للناس وعلى أن يكون هذا الإسلام هو كتاب الله كما تفسره اللغة العربية الواضحة وسنة رسوله ﷺ الثابتة الصحيحة كما فهمها السلف الصالحون رضوان الله عليهم .

فهل يضع الدكتور طه بك يده في يدنا على هذا الأساس ثم نعاهد الله جميعاً أن نكون أمناء عليه مخلصين له مجاهدين في سبيله ؟

وكلمة أخيرة يا دكتور .. لقد قلت وهو قول حق «أن حياتنا موقوتة وكل ما فيها موقوت وأن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يسترد المنحة التي منحها لنا وهي الحياة في أي لحظة وهو قادر على أن يسترد ما يمنحنا أثناء الحياة» ما أجمل هذا الإيمان ؟ أذكرك هذه الكلمات وأذكرك أنك الآن رجل قد جاوزت من الآمال الخلب

وصرت إلى الآخرة أقرب - وأسأل الله أن يطيل حياتك خادمًا مخلصًا للإسلام - وأذكرك أن هذا الشعب شعب كريم النفس طيب القلب سرعان ما تنسيه الحسنة الواحدة كثيرًا من السيئات وأن الله تبارك وتعالى واسع المغفرة عظيم الفضل عفو كريم ، فلا عليك يا دكتور أن تختتم المطاف بتوبة صادقة نصوح وتتجرد للإسلام ولخدمة الإسلام ولنشر الإسلام ولتحبب تعاليمه بحق إلى الناس فتفوز بخير الدنيا وسعادة الآخرة ذلك ما نرجوه منك ، ذلك وقلوب الناس بيد الله يصرفها كيف يشاء فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،

نصف شعبان (*)

بعث إلينا احد الإخوان بمحلة دمنة دقهلية يسأل عما ورد في ليلة النصف من شعبان وما يفعله الناس فيها من الدعاء ونحوه؟ وسنجيبه إن شاء الله تعالى .

ونذكر القراء الكرام بالمنهج الذي أشرنا إليه في العدد الأول في الفتيا من أننا نتحرى الحق جهد استطاعتنا مما بين أيدينا من المراجع والنصوص ثم نقدمه للقراء على أنه مبلغ جهدنا واستطاعتنا فمن وجد دليلاً غير ما أوردنا أو حجة غير ما وجدنا فليتقدم بذلك مشكوراً فإن الحق يجب أن يكون طلبه الباحث وغايته وفوق كل ذي علم عليم ، والله المستعان .

الكلام في ليلة النصف من شعبان يتصل بنواح ثلاث أولاها : ما ورد في فضل هذه الليلة ، وثانيهما : الحق والباطل مما يعتقده العامة فيها ويتلونه ، وثالثتها : حكم هذا الدعاء المعروف .

أولاً : ما ورد في فضل هذه الليلة :

(١) قول الله تبارك وتعالى في أول سورة الدخان « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ » ، اختلف العلماء في الليلة المقصود في هذه الآية الكريمة فمنهم من ذهب إلى أنها ليلة القدر التي تكون في رمضان ، ومنهم من ذهب إلى أنها ليلة النصف من شعبان ، ومنهم من ذهب إلى أن ليلة القدر قد تكون في النصف من شعبان فكأنه يريد إن يجمع بين القولين وهو قول ضعيف جداً لا يثبت أمام التحقيق فلندعه ، ولنحصر البحث في القولين الأولين اختصاراً .

فأما القول بأنها ليلة القدر فهو الراجح الوارد عن جمهرة المفسرين والعلماء المحققين ، وقد تعقبوا أدلة القائلين بأنها ليلة النصف من شعبان بما يبدو أمامنا صالحاً لرده وإليك نماذج من ذلك قال الألوسي في تفسيره عند قوله تعالى « فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ » ، هي ليلة القدر على ما روى عن ابن عباس وقتادة وابن جبير ومجاهد وابن زيد والحسن وعليه أكثر المفسرين والطواهر معهم ، وقال عكرمة وجماعة هي ليلة النصف من شعبان .

وقال الطبري في تفسيره عن هذه الآية الكريمة : واختلف أهل التأويل في تلك الليلة أي ليلة من ليالي السنة هي ؟ فقال بعضهم هي ليلة القدر ، ثم ذكرهم وقال بعد سردهم : وقال آخرون : بل هي ليلة النصف من شعبان ولم يذكرهم ، ثم قال : والصواب من القول في ذلك قول من قال هي ليلة القدر لأن الله جل ثناؤه أخبر أن ذلك كذلك ، وقد أكد هذا المعنى في موضع آخر من هذا البحث نفسه .

وقال النيسابوري في تفسير الآية الكريمة أيضاً وأكثر المفسرين على أنها ليلة القدر لقوله « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » ، وليلة القدر عند الأكثر من رمضان ، ثم نقل كلام الطبري وقال بعده : وزعم بعضهم كعكرمة وغيره أنها ليلة النصف من شعبان ، وما رأيت لهم دليلاً يعول عليه .

فأنت ترى من أقوال هؤلاء الأعلام أن الآية الكريمة لا تصلح أن تكون دليلاً في فضل ليلة نصف شعبان .

(٢) ما ورد من الأحاديث في فضل هذه الليلة ومن ذلك :

(*) نشر هذا المقال بالعدد (٢٠) من السنة الأولى ، وقد أعدنا نشره لما له من الأهمية .

(أ) ما أخرجه ابن ماجة والبيهقي في شعب الإيمان عن علي كرم الله وجهه قال قال رسول الله ﷺ «إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها فإن الله تعالى ينزل فيها لغروب الشمس إلى السماء الدنيا ، فيقول ألا مستقر فأغفر له ، ألا مسترزق فأرزقه ، ألا مبتلى فأعفيه كذا إلا كذا حتى مطلع الفجر ومنها :

(ب) ما أخرجه الترمذي وابن أبي شيبه والبيهقي وابن ماجة عن عائشة قالت : فقدت رسول الله ﷺ ذات ليلة فخرجت أطلبه فإذا هو بالبقيع رافعاً رأسه إلى السماء ، فقال يا عائشة أكنت تخافين أن يحيف الله تعالى عليك ورسوله ، فقلت : ما بي من ذلك ولكني ظننت أنك أتيت بعض نسائك ، فقال : إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم بني كلب ومنها :

(ح) ما أخرجه أحمد بن حنبل في المسند عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال «يطلع الله تعالى إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لعباده إلا اثنين مشاحن وقاتل نفس».

ولو صحت هذه الأحاديث وسلمت من العلل لكانت أدلة قوية في فضل الليلة ولكنها جميعها تكلم فيها المحدثون وأعلوها ، فمنها ما ذكروا أن ضعف إسناده كما قاله العراقي في الحديث الأول ، ومنها ما ذكروا أن في إسناده لنا كما ذكر الحافظ المنذري في الحديث الثالث حتى قال الحافظ أبو بكر بن العربي «لا يصح فيها شيء» ، ونقل عنه أبو شامة أنه قال ليس في ليلة النصف من شعبان حديث ساوى سماعه ، قال : وقد أولع الناس بها في أقطار الأرض .

والذي تطمئن إليه النفس أن هذه الأحاديث مع التسليم بضعفها وتعليلها تكفي لأن تجعل لهذه الليلة فضلاً على غيرها من ليالي هذا الشهر وتجعل القيام بما ورد من العبادات كقيام ليلها قياماً شرعياً وصيام يومها صياماً شرعياً كذلك من المستحبات بناءً على قاعدة العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال بشرط ألا يتخذ ذلك ذريعة إلى التعبد فيها بما لم يرد به دليل .

ثانياً : عقائد العامة في هذه الليلة وعبادتهم فيها :

أولاً : يعتقدون أن هذه الليلة هي الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم فيقضي فيها أمر السنة كلها فيما يتعلق بشئون الخلق ، وقد علمت ما تقدم الخلاف في الليلة المقصودة بترجيح أنها ليلة القدر .

ثانياً : يعتقدون أن من حضر الدعاء الذي يدعون به في المساجد بعد المغرب ، وصلى الصلاة التي ذكروها ، وحضر هذا الاجتماع الذي يجتمعونه لم يمض هذه السنة وثبت الله ورقة أجله ، ويتشاءمون إذا فاتهم هذا الجمع ، وهي عقيدة باطلة لا أساس لها من الدين البتة .

ثالثاً : يقرءون سورة يس في هذه الليلة ويجمعون بينها وبين هذا الدعاء بكيفية خاصة ولم أر في ذلك دليلاً - نعم إن قراءة القرآن أمر مستحب في كل وقت ولكن تخصيص هذه الليلة بسورة خاصة وبكيفية خاصة أمر لا يثبت إلا بدليل خاص وليس عندنا هذا الدليل ومن وجده فليأت به .

رابعاً : يذكرون أن لهذه الليلة صلاة خاصة هي مائة ركعة يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة وإن شاء صلى عشر ركعات يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة مائة مرة قل هو الله أحد ذكر ذلك الإمام الغزالي في الإحياء وقال كان السلف يصلون هذه الصلاة ويسمونها صلاة الخير ويجتمعون فيها وربما صلوا جماعة روي عن الحسن أنه قال حدثني ثلاثون من أصحاب النبي ﷺ أنه من صلى هذه الصلاة في هذه الليلة نظر الله إليه سبعين نظرة وقضى له بكل نظرة سبعين حاجة أداها المغفرة ، هكذا قال الإمام الغزالي في كتابه الإحياء ، وقد تعقبه الحافظ العراقي بأن حديث صلاة نصف شعبان حديث

باطل وهو رأي جمهور العلماء فيه ، بدليل أنه لم يرد في كتاب من كتب الحفاظ الأثبات ولم يسنده رواية إلى صحابي معروف ولم يرفع إلي النبي ﷺ .

وقد علمت أن تخصيص وقت بعبادة خاصة يحتاج إلى دليل شرعي ولا دليل على هذه الصلاة كما رأيت .

خامساً : الدعاء بالصيغة المعروفة وقد أفردناه ببحث خاص لأهميته وكثرة اختلاف الناس فيه .

ثالثاً : دعاء نصف شعبان وينقسم الكلام فيه إلى ثلاثة أقسام :

(أ) **صيغته :** يلاحظ بعض العلماء في صيغة هذا الدعاء أموراً تخالف ظواهر الأدلة الشرعية منها :

(١) نسبة التجلي الأعظم وإبرام الأمور والفصل فيها إلى ليلة النصف من شعبان وقد علمت رجحان أن ذلك في ليلة القدر لا في ليلة النصف .

(٢) نسبة المحو والإثبات إلى أم الكتاب ، وأم الكتاب إن كانت اللوح المحفوظ فلا محو فيها ولا إثبات وإن كانت علم الله تبارك وتعالى فكذلك ، فكيف يقال في هذا الدعاء اللهم إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقياً أو محروماً .. الخ ، فأمح اللهم بفضلك شقاوتي .. الخ ، وقد اختلف المفسرون اختلافاً شديداً في تفسير الآية الكريمة « يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُبَيِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » وعندني أنهم جزاهم الله خيراً لو انعموا النظر فيما قبل الآية وما بعدها لما كان ثمة داع لهذا الخلاف فقد نزلت الآيات حين سألت قريش نبينا ﷺ أن يستعجل لها العقوبة فأنزل الله قوله تعالى « وَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » ، إشارة إلى سريان أحكام البشرية عليهم وعليهم الصلاة والسلام « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » إشارة إلى أن النبي ﷺ لا يأتي بالآيات من نفسه ولا يستطيع ذلك إلا بأذن الله فلا معنى لسؤاله إياه ذلك « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » إشارة إلى أن الحوادث تقع في آجالها ومواعيدها الغائبة في تقدير الله تبارك وتعالى لا تستقدم لحظة ولا تستأجر فلا لزوم لإرهاقهم نبيهم ﷺ باستعجال ما لم يحن وقته بعد «يمحو الله ما يشاء ويثبت» يفعل الله ما يشاء ويترك ما يشاء يوجد ما شاء ويعدم ما شاء إشارة إلى مطلق تصرفه تبارك وتعالى في شئون الخلق إيجاباً وإعداماً وتنبهوا لهم إلى أن سؤال الآيات واستعجال العقوبات إنما يكون لله وحده «وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» علمه أو لوجه قد أثبت فيه ذلك المحو وذلك الأثبات على النحو الذي يقع فيه «وَأِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ» وسواء وقع هذا الذي ثبت في أم الكتاب وجوداً أو عدماً في حياتك أو توفيناك قبل وقوعه فذلك لا يقدر في مهمتك وهي تبليغ الشريعة فعليك أن تبلغهم ما أمرت به وعلينا أن نحاسبهم بعد ذلك على موقفهم منك .

(٣) هذا تفسير للآيات مطابق لظاهرها مخرج لكل خلاف فيها متفق مع السياق منسجم مع أسباب النزول بعيد عن الكلفة والتعسف فيما أعتقد والله أعلم بمراده ، وإنما عرضت له هنا لبيان أن هذه الآية الكريمة لا تصلح حجة للذين يصححون صيغة الدعاء وعليهم البحث عن دليل آخر .

(٤) سؤال الله تبارك وتعالى محو الشقاوة والحرمان والطرده والتقتير في الرزق وإثبات أصدادها من السعادة والقبول والسعة في الرزق وإثبات هذا الاعتراض على صيغة الدعاء يزوج بنا في مأزق القضاء والقدر وهو ما يحتاج إلى بحوث مستقلة والإمساك عنه خير والخلاف فيه شديد ومن ذلك نعلم أن اعتراض العلماء على صيغة هذا الدعاء مبني على خلاف شديد يتسع فيه مجال الرأي وتكثر فيه مواطن الشبهات ولا شك أن دعاء مجمعاً على صيغته خير وأجدي من دعاء تثار حوله كل هذه المشكلات .

(ب) أصله : هذا الدعاء لم يرد في القرآن طبعاً ولا في الأحاديث الصحيحة وكل ما علمناه عن أصله أنه ذكر أن بعضه قد ورد على لسان بعض الصحابة والتابعين والصالحين .

قال الألويسي في تفسيره : أخرج ابن أبي شيبية في المصنف وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : «ما دعا عبد قط بهذه الدعوات إلا وسع الله عليه في معيشته» : [يا ذا المن ولا يمن عليه ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا ذا الطول لا إله إلا أنت ظهير اللاجئين وجار المستجيرين ومأمن الخائفين إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقياً فامح عني اسم الشقاوة وأثبتني عندك سعيداً ، وإن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب محروماً مقترراً على رزقي فامح حرمانني ويسر رزقي وأثبتني عندك سعيداً موفقاً للخير ، فإنك تقول في كتابك الذي أنزلت «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ»] ، وأخرج عبد بن حميد وغيره عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال وهو يطوف بالبيت «اللهم إن كنت كتبت علي شقاوة أو ذنباً فامحه واجعله سعادة ومغفرة ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعند أم الكتاب» ، وذكر مثله عن شقيق أبي وائل هذا مع ما ورد في آثار كثيرة عن الصحابة والتابعين في النهي عن سؤال محو الشقاوة وإثبات السعادة نقل ذلك ابن جرير الطبري عن ابن عباس من طريق سعيد بن جبير ، وعن مجاهد كذلك من طرق عدة وذكر صاحب الإبداع أنه نقل عن الشافعي أن أول ما يدعى في ليلة النصف من شعبان «اللهم يا ذا المن ولا يمن عليه» .

هذا ما ورد في أصل هذا الدعاء ، ويلاحظ عليه ما يأتي :

- (١) أنه ليس مأثوراً كله جملة واحدة عن أحد من الصحابة أو التابعين .
- (٢) أن فيه ما يصطد بآراء بعضهم رضوان الله عليهم .
- (٣) أنه لم يؤثر عن النبي ﷺ ، والدعاء بالمأثور أولى قطعاً .
- (٤) أننا لا نعرف درجة ثبوت نسبته إلى من نسب إليهم من الأئمة .

(ح) **كيفية** : يتلى هذا الدعاء بتلقين الإمام أو غيره للداعين عدة مرات وهم يقولونه خلفه بأصوات عالية ، مع أن كثيراً منهم لا يفهمون معناه ويخطئون في ألفاظه من حيث الإعراب ويرددونه بحالة لا تدل على الخشوع أبداً ، ولا يقولونه إلا في هذه الليلة حتى صار شعاراً لها منسوباً إليها ، وكل ذلك مخالف للأحكام من عدة نواح منها :

- (١) التخصيص الذي يحتاج إلى دليل شرعي وهو غير موجود منها .
- (٢) فقدان الخشوع وحضور القلب ، والله تعالى يقول «ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً» ومنها .
- (٣) رفع الأصوات بهذا الحال ، وقد رأى النبي ﷺ أصحابه يرفعون أصواتهم في الدعاء فنهاهم عن ذلك بالحديث الصحيح «أربعوا عن أنفسكم إنكم لا تدعون أصماً إنما تدعون سميعاً بصيراً» ، ومنها :
- (٤) أن الداعين لا يتذوقون معناه ولا تتأثر به قلوبهم ، ولأن يناجي أحدهم ربه بحاجته التي يشعر بها ويجد في نفسه أثرها أنفع وأجدي من ترديد ألفاظ ملقنة لا يدرك معناها .

خلاصة البحث

إذا تقرر هذا .. علمت أن خلاصة هذا البحث تنحصر في هذه الأمور :

أولاً : ليلة النصف من شعبان ليلة فاضلة وإحيائها بأي طاعة من طاعات الله ، وصوم يومها أمر مستحب .

ثانياً : تخصيصها بعبادات خاصة من قراءة يس وصلاة الخير ، والدعاء الخاص أمر لا دليل عليه من الشرع فالواجب عدم التقيد به وعدم اتخاذه شعاراً لها .

ثالثاً : هذا الدعاء الذي تعودته الناس لم يثبت أصله من الكتاب والسنة وصيغته محل خلاف عظيم ، والكيفية التي يلقيه الناس بها مخالفة للأحكام الشرعية .

خاتمة

الناس في ليلة النصف من شعبان قسمان : قسم يتحمس لهذه التقاليد الموروثة تحمساً عظيماً ويدافع عنها دفاعاً قوياً وينلمس لأصحابها الحج والمعاذير ، ومنهم فريق من أئمة المساجد ، ومن أهل العلم ، وهؤلاء أقول لهم : عليكم أن تلاحظوا الأقوال الشرعية قبل ذلك فإنكم بلا شك ستتركون هذا الحماس ، وقسم يتحمس ضدها تحمساً عظيماً كذلك فيحقر من شأنها وينحى باللائمة على فاعليها وقد يؤديه ذلك إلى السب والشتم ، بل إلى الاشتباك أحياناً ، وهؤلاء أقول لهم : عليكم أن تلاحظوا أن الذين يفعلون ذلك إنما يفعلونه لأنهم يعتقدون أنه من الدين فهم حسنو النية وحسن النية لا بد من الرفق معه ، وأن هذا المظهر من المظاهر الدينية يوظف في المسلمين روح الشعور بالإسلام والحماس له ومقاومته بهذه الوسائل من التحقير والعنف يهدم في نفوس العامة ما بقي فيها من تقديس الدين واحترامه ويقوي دعاية الخروج على الدين والاستهتار به ، وإذن فيكون ضرر هذه المقاومة أشد من نفعها .

والذي يوجب الدين على كل مسلم استخدام الحكمة في الأمر والنهي ولاسيما في المظاهر التي تتعلق بأعمال الجماهير مجتمعة فإنها أحوج ما تكون إلى حسن السياسة ودقة المسلك ، فعلى الرعاة والمرشدين واجب قدسي هو أن ينشروا هذه الأحكام بين الناس في ظل التعليم الصحيح والحب الخالص وتبادل شعور العطف والتعاون في البحث عن الحقيقة وبمرور الزمن والدأب على الإرشاد يتعرف الجمهور الحق ، فيعود إليه .. والله الهادي إلى سواء السبيل .

حسن البنا

الباب الثالث

مقالات للإمام الشهيد

نشرت في جرائد ومجلات أخرى

- (١) الدعوة إلى الله
- (٢) الدعوة إلى الله .. على من تجب الدعـوة؟
- (٣) في سبيل الدعـوة
- (٤) مطـلع الفجر
- (٥) الرواية والاسناد : ما الإسناد
- (٦) الرواية والاسناد : الحديث والخبر والأثر
- (٧) الرواية والاسناد : المتواتر والآحاد
- (٨) الرواية والاسناد : أنواع الحديث ودرجاتها
- (٩) الرواية والاسناد : درجات الحديث الحديث القدسي
- (١٠) من أيامنا البيض على أسوار إيلياء
- (١١) عجل السـيد
- (١٢) حديث الجمعة : قنوت



نقلنا المقالات الثلاث الأولى في هذا الباب من كتاب «في الدعوة والتربية» ، وهو الكتاب الثاني عشر من تراث الإمام البنا «دار التوزيع والنشر الإسلامية» ، ولم يكن لدينا سابق علم بهذا الكتاب ، ولا بما سبقه وكان شفيعنا في ذلك المقالات الثلاث من كتاب مطبوع ، ونحن عادة لا نفعل هذا ، إن هذا الكتاب يوزع في إطار الإخوان المسلمين أنفسهم وكمراجع تعليمي لهم ، أما غير الإخوان فيغلب أن لا يعرض عليهم .

على أن هذا ليس هو المبرر الوحيد ، فقد رأينا إضافة بعض كلمات إلى المقالات تعين على فهم أو تضيف معلومة عليها .

من هذه الملاحظات :

إن هذه المقالات الثلاث كتبت في الأيام الأولى للدعوة ، وهي كما يرى القارئ مسهبة .. منظمة ، أي أن حسن البنا بدأ دعوته بعد أن نضج فكره واتسع أفقه ولانت له ملكة الكتابة ، وما تضمنه من كتب في العقائد أو التاريخ أو الحضارة وأسماء هذه الكتب كتاباً كتاباً يوضح لنا أن هذه المكتبة التي بدأ بها هي نفسها التي انتهى بها وقد شاهدها وقرأت منها عندما كان الإمام الشهيد - رحمه الله - يسكن في بيت الأسرة ، وقبل أن ينتقل إلى سكن مستقل ، ولا أعتقد أنها زادت عما رأيتُه وعما ذكره إلا الكتب التي كانت تهدي إليه ، أما الكتب التي افترض أن توجد لدى الداعية فإنها كانت موجودة عنده بالفعل سنة ١٩٢٨ م .

وأعتقد أن ما اتصفت به المقالات الثلاث من امتياز يعود إلى أنه كان لديه من الوقت ليدبجها أكثر ما أصبح لديه بعد ذلك عندما تعددت الواجبات الدعوية واتسعت الدعوة باتساع البلاد ، وانتقالها إلى الدول العربية ، مما جعل المقالات المسهبة أقل مما كانت الأيام الأولى .

جمال البنا

[١]

الدعوة إلى الله (*)

«قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي»

تمهيد

منزلة الدعوة في الأمم :

الحمد لله وسلام على عباده اصطفاهم قائمين بحجته ، وجعلهم مظهرًا لفيض حكمته ودعاة خلقه إلى جنبه وورثة أنبيائه وأصفيائه ، وجعل قلوبهم مصابيح الدجى ، ومنابع الحكم ، ومستقر الرحمة يطلعهم أنجمًا زاهرة في الفينة بعد الفينة من الدهر - إذا التبست السبل وأظلمت المناهج - ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، ويبعثهم قادة للخلق إذا دار بهم الزمان ، ومشت بهم العصور ، وأزمتهم سنة الرقي أن ينتقلوا من طور إلى طور ويستبدلوا حالاً بحال ، حتى لا تستحوذ لذة الجديد على مشاعرهم ، وتمثل بخمرته عقول فريق منهم ، وتصل في فهمه وتقريره ألبابهم ، فتزل بهم القدم إلى مهاوي الرذيلة ويدفعهم التيار إلى حمأة الفساد .

حاجة الأمم في انتقالها إلى القادة :

وما أحوج الأمة في دور انتقالها إلى قادة حكماء ، ومرشدين أدلاء ، وهداة فضلاء ، يسلكون بها سبيل السعادة ، ويجنبونها أضرار الاندفاع ، لا يزالون يتحسسون طريق النجاة بكل ممكنة وغير ممكنة من الطريق ، أحياناً باستخلاص العبرة التاريخية ، وأخرى بالمقارنة بين الحوادث الكونية ، وثالثة بما هدتهم إليه التجارب الطويلة والفتنة السليمة ، وما أرشدهم الله إليه من طرق الإصلاح وسبل النجاة ، كما يفعل الربان بسفينته إذا خفيت عليها المعالم ، وترامت بها الأمواج ، وضلت في فضاء المحيط بين السماء والماء ، أفتراها تهتدي بغير هادٍ أم تسلم بدون إرشاد ؟

أولئك القادة هم صفوة الله من خلقه وأمناؤه على عباده ، وهم المجددون حقاً الذين أشار إليهم الرسول في كثير من حديثه الشريف .

صحابه رسول الله :

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خير الهداة إمام المرشدين وعلى آله وصحبه الذين كانوا مثل الفضيلة الحية ونماذج الخلق الطيب الطاهر ومعجزة الدهر وطفرة الأمة العربية - بل العالم إن شئت - من أخط مراتب الهمجية إلى أرقى منازل المدنية :

أولئك آبائي فجنني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

ولا أظنك تجد - وإن قلبت صحائف الدهور وفتشت بطون العصور واستنبتت التاريخ واستوحيت الحوادث - عصابة حق كتلك العصابة التي غذيت بلبان النبوة وتربت في حجر رسول الله .

وجوب القيام بالدعوة وتعميمها :

وبعد .. فلست في حاجة إلى أن أقول : إن أمتنا المصرية - بل الإسلامية - بما تقلبت فيه من أطوار وما مر عليها من حوادث سياسية واجتماعية استبدت بدينها وأخلاقها فتركها كالمعلقة ، لست في حاجة إلى أن أقول

(*) نشر بمجلة «الفتح» ، العدد (١٠٠) ، السنة الثانية ، بتاريخ ٢٥ ذو الحجة ١٣٤٦هـ - ١٤ يونيو ١٩٢٨م .

أن هذه الأمة في أشد الحاجة إلى دعوة قوية فعالة ترددها إلي رَشدها وتهديها بهدي نبيها وترشدها إلى معالم دينها وتنقذها مما هي فيه من الانحلال الأدبي والفساد الخلفي .

فأنت أينما وجهت وجهك لا تجد إلا فسادًا ظاهرًا وتهتكًا مزريًا ، بله الفوضى في العقائد والتخبط في الآراء والمذاهب ، إلى من يتهجم على عامتنا فيجرحهم في دينهم ويسرق منهم إيمانهم من مرتزة التبشير وما إليه .

تسير في الشارع فتري ما يؤدي ويؤلم وتستعرض حياة الأسرة فتجد ما يمضي ويؤسف ، تولي وجهك شطر المدارس ومعاهد العلم فتلقى ما يزري ويخجل ، وقل مثل ذلك في مرافقنا وشؤوننا ، حتى لقد أصبح الداء عامًا يئن تحته الفرد والجماعة ويستغيث منه الصغير والكبير .

ولا يغرنك قوم من الكتاب يقولون هذا عصر مدنية وتجديد ورقي في المدارك والأفكار وثقافة حرة وحرية شاملة شخصية وغير شخصية وغير ذلك من الألفاظ التي يرصونها رصًا وينمقونها تنميقًا يخدعون بها البسطاء ويخلبون بروائها الضعفاء ، ذلك تعبير له تعبير ولو أن هؤلاء القائلين ممن لم يستول عليهم الافتتان والإعجاب بما يرون إلى حد لا يفقهون معه دليلاً ويذعنون لحجة «إِنْ يَبْغُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى» (النجم : ٢٣) ، لناقشناهم دليلاً وبدليل وساجلناهم حجة بحجة ، وبيتنا لهم أن الحق غير ما يظنون ، وصلاح الأمة بغير ما يفهمون ، ولنا معهم موقف آخر – إن شاء الله – بالرغم من ذلك كله ، يرون فيه الحق حقًا والباطل باطلاً .

وأما الآن .. فأوجه هذا النداء الصادق الحار إلى من يحس مثلي بداء هذه الأمة ويشعر به بين جوانحه همًا مبرحًا وجوى لاصقًا .

إن أمة هذا حالها ، حرام على المؤمن فيها أن يسكت على ما يرى وأن يجد مس الداء ويتوسد الهم والألم فلا يبدي حراكا ولا يرفع صوتًا وهو يتلو في كتاب الله «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ» (التوبة : ١١١) ، ويقرأ «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ» (الأحزاب : ٢٣) ، ويقرأ «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ» (التوبة : ٢٤) ، ويسمع «لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا» (المائدة : ٧٨) ، وأما الأحاديث فلا يحصيها العد ، ومواقف الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين لهم بإحسان وصادقي الإيمان من بعدهم في الدعوة إلى الله المذكورة معروفة ، فأين الإيمان من قلوبنا والدين من نفوسنا إن لم نؤد الأمانة؟! أمانة النداء بكلمة الله والقيام بحجته والدعوة إليه .

أفلمت ترى أولئك الذين ما يفتنيون يرمون الأنفس البريئة والعقيدة الحقة الثابتة بسهام من الشك ونبال من الأوهام ؟ وكأنها كلمة أمير المؤمنين علي - كرم الله وجهه - «والله إني لأعجب من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم وتخاذلكم عن حركم» ، وما جرأ هؤلاء و أظهر كوامن نفوسهم إلا أنهم رأوا الميدان خاليًا وأنسوا من أهل الحق تغافلًا ، فاندفعوا يطلبوه الطعن وحدهم والنزال ، وما هو إلا أن يقوم أهل الحق بتأييده وبيانه ، حتى ينجزر مد هؤلاء ، وينحسر طغيانهم ، ويتقهقروا إلى مراكزهم أدلة صاغرون .

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

وأعلم أيها الأخ الغيور - أيدك الله - أنه لم ينل من هذه الأمة أحد ما نال منها يأسها من نفسها وسكوت قادتها الغيورين عن إصلاحها ، فلا يمددك ما يُخدرون به الأعصاب وينيمون به الحمية ويثبطون به العزائم ، من قولهم طبيعة العصر ، وهذا تيار لا يغالب ، وقد استفحل الداء ، وغير ذلك من بنات اليأس ، وولائد الخمول ، وسلف الموت والفناء .

وفيم اليأس ، وقد وعدنا الله النصر ، وكتب على نفسه المؤازرة للهداة والمرشدين ، وأنظر ذلك جلياً في ثنايا الكتاب العزيز وفي تضاعيف صفحاته ومرامى سطورهِ وآياته «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» (النحل : ١٢٨) .

حدثت مرة أحد الدعاة إلى الله بلهجة اليأس ، فقال لى : حنانيك يا أخى ، لو أن حماية هذا الدين للخلق لتمكن الخلق من نقضه ، بل لزال وهو فى مهده ، ولكنه فى حماية الله ، والله غالب على أمره ، فلا تبتئس بما كانوا يصنعون، فقلت رحمك الله ياسيدى ، لقد نبهت منى غافلاً ومن «وَمَنْ أٰصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيْلًا» (النساء : ١٢٢).

وصفوة القول إن الدعوة واجبة علينا معلقة بأعناقنا ، فإن ظفرنا منها بما نحب من خير هذه الأمة وهدايتها فذاك ، وهو المامول بحول الله وعونه ، وإلا فحسبنا أن نكون قنطرة تعبر عليها فكرة الدعوة والإرشاد إلى من هم أقدر منا على التنفيذ ، أو بعبارة أخرى حسبنا أن نكون حلقة اتصال بين من تقدمنا ومن سيأتون بعدنا ، وإلا فحسبنا أن نعذر إلى الله وأن نؤدى الأمانة ونقوم بالواجب ، والقيام بالواجب غرض يقصد لذاته - أولاً ثم لفائدته - ثانياً ، وتأمل قول الله تعالى «قَالُوا مَعْذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» (الأعراف : ١٦٤) ، تلك ثلاث مراتب من أغراض الدعوة ، أعلاها أولها ، وما ذكرت الآخرين عن يأس من النجاح أو شك فى الفلاح والفوز أو استبعاد للنصر ، ولكن ليتضح لنا كيف أن الدعوة إلى الله علينا فريضة لا يخلصنا منها إلا الأداء ، ولا يقبل فيها عذر ولا هوادة .

وليت شعرى أية كارثة ألمت بنفوس المصلحين ، وهفت بأرواح القادة ، وطارت بحمية الغيورين على هذه الأمة ، فجعلتهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويثاقلون إلى الأرض ويستوعرون سبيل الجهاد ؟ واية حادثة نالت من موضع إبايهم وهزت مواطن الشجاعة فيهم :

أصوحت شجرات المجد أم نضبت عذر الحمية حتى ليس من رجل

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اتَّقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» (التوبة : ٣٨) .

وأنتم أيها السراة الأغنياء «هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِمَّنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ» (محمد : ٣٨) .

وانى لأشم بوادى النجاح ، وأستنشق عبير الفوز من تلك النهضة الإرشادية التى تفتت فى نفوس الشباب فخلقت منهم دعاة صادقين ، وكان من آثارها تلك الجماعة النبيلة المقصد وفى مقدمتها (جمعية الشبان المسلمين (جمعية مكارم الأخلاق) وغير ذلك ، وإنا لنرجو بعد ذلك مظهراً ، فتلك - إن شاء الله - باكورة أعمال تتلوها أعمال ، وتحقيق آمال بعدها ، والعهد بأدبائنا وسرانا بعد ما أنهضتهم الحادثات ، أن يثابروا على إمداد هذه الجماعات وتحقيق أغراضها حتى تكون دانية الجنى ، وارفة الظلال ، عميقة النفع ، والله الهادى إلى الصواب .

تلك خطرات و آراء بعضها ثمرة التجربة ، وبعضها وليد الفكرة ، أدلى بها على من يتكرم بالنظر فيها من أولى الغيرة ، لعل فيها تبصرة وذكرى .

الدعوة إلى الله .. على من تجب الدعوة(*)

«وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»
(عمرن : ١٠٤).

علمنا في المقام الأول كيف أن الدعوة إلى الله فرض لا مناص منه إلا بالأداء ، وهذا الفرض مقسم بين طبقات الأمة على كل منها أن تقوم به وان تؤديه بالشكل الذي يتناسب مع مركزها وحالتها من غير تواكل أو إهمال ، ومهما قام فريق بواجبه كان الداء أخف وقعاً وأيسر دواءً ، وأهم هذه الطبقات المكلفة بالدعوة والقادرة عليها هي :

أولاً : الحكومة :

إن الله ليزغ بالسلطان ما لا يزغ بالقرآن ، ولا سيما في الشعوب الحديثة النهضة التي لم تنضج فيها - بعد - ملكة السير في طرق الإصلاح وإنفاذ المشروعات بدون قيادة الحكومات ، والناس في كل زمان ومكان على دين رؤسائهم وأولى الحكم فيهم ، ولهؤلاء على النفوس سلطان يحدو بها إلى تقليدهم ويطبعتها بطابعهم ، ذلك على أن الحكومة هي السلطة التنفيذية التي بيدها مقاليد الأمور ، ولإطار المشروعات من حيز الفكر والقول إلى حيز العمل والتجربة .

وحكومتنا - هداها الله ووفقها - شغلته الأمور السياسية والحوادث الخارجية في السنوات الماضية عن حال الأمة الخلقية وعللها الاجتماعية حتى عم الخطب .

أما الآن وقد وجهت الحكومة جزءاً كبيراً من عنايتها إلى الإصلاح الداخلي ، فإننا نلقتها إلى أهم إصلاح تقوم به ، هو علاج الأمة في أرواحها وأخلاقها التي أهملت فأضحت أرضاً بوراً لا تمسك ماء ولا تنبت زرعاً ، وليس اهتمامها لشفاء الأجسام وعلاجها وإصلاح الأرضين وإروائها بأجل وأولى من اهتمامها بأرواح الأمة وخلقتها وعقيدتها التي هي مبعث أعمالها وجنة إسعادها ، وهي مطالبة بالأمرين جميعاً وبالإصلاحين المادي والأدبي معاً .

وصلاح الشعب الأدبي والخلقي يساعد الحكومة كثيراً في مهمتها ويوفر عليها جل عنائها ، فهو من جهة يوطد سلطتها ويدعم أوامرها حتى قال «ميكافيللي» على اتهامه في دينه : «يجب على الحاكم أن يعاضد المشروعات الدينية ليدعم بها سلطانه» ، ومتى صلحت الأمة وتعرفت إلى ربها وتيقظ فيها الشعور الديني استقامت على المحجة ، فقلت الجرائم ، واستراح رجال الأمن ، وقد يكون هذا هو خير علاج للمجرمين ، وأضمن طريق لزجرهم وإبعادهم عن الإجرام .

وقل لي بربك هل سمعت بكثرة الجرائم هذه الكثرة المروعة على تلك الفظاعة التي تقشعر لها الأبدان والتفنن الذي يعجز الأبالسة ؟ وهل سمعت بتهافت الناس على ما يقتل أرواحهم وأجسامهم ويمتص دماءهم وأموالهم ؟ وهل سمعت بانتشار حوادث الانتحار بين الطبقات الراقية وغيرها حتى العلية المستنيرين ؟ وهل سمعت بوفرة ضحايا الفجور والعبث وصرعى الخمر والرفث ؟ وهل سمعت بهذا الزور والبهتان والاختلاس ، وموت الضمائر ، وإهمال العمل وخراب الذمم وفناء الشعور بالواجب القومي العام ، والتطاعن والتهاك على المصالح الشخصية الذاتية ؟

(*) نشر بمجلة «الفتح» ، العدد (١٠٣) ، السنة الثالثة ، بتاريخ ١٧ محرم ١٣٤٧هـ / ٥ يوليو ١٩٢٨ م .

هل سمعت بكل هذه الموبقات كما سمعت بها الآن ؟ لا تقل ذلك الجهل وقلة العلم ، فنحن الآن – كما يقال – أعلم من أجدادنا وأبائنا ، ولا تقل ذلك الفقر وقلة المال ، فما كان أسلافنا يجدون من الذهب والفضة ما نجد ، ولا تقل ذلك إلا لشيء واحد هو قلة الدين وضياح الخلق وضعف الوازع الروحي ، والدين هو الحكومة الثابتة والرفيق الدائم الذي يحاسب المرء على عمله في حجرته الخاصة ، وعلى سريره ، وفي فراش نومه ، وبين طيات ثيابه لا يجد من مناقشته وقصاصه محيطاً .

أي حكومتنا الرشيدة – ألهمك الله التوفيق والسداد – أسست المشافي الثابتة والمتنقلة ، وزدت في عددها حتى شملت القرى والحواضر ، وشجعت المشروعات التي تعود على أبناء الأمة من زراع وتجار وصناع بالخير العميم والربح الوافر ، وزدت في عدد المدارس وتوسيع برامجها ، وسهلت للطلاب سبل الوصول إليها في نشر التعليم وتربية الأمة .

فعلت كل ذلك وكله يستحق الشكر والتقدير لو أنه أثمر وأفاد ، ولكن ما فائدة المستشفى إذا كان بجانبه ولصقه منبع الداء وأصل السقم من مواخير الفجور ومقابر الأرواح والجسوم ؟

وما فائدة الأرباح والأموال والثروة إذا كان بجانبها مترف يستترفونها ، وبحر تهوي إلى قراره تباعاً فلا تعود ؟ وما فائدة العلم إذا استغله صاحبه في الفتك بالجيوب والأعراض والتفنن في الأضرار والإجرام ؟

متى يبلغ البنيان يوماً تماماً إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

أي حكومتنا الرشيدة – هداك الله ووفقك – ولن تجدي سبيلاً أيسر ولا أقرب ولا أحب إلى هذا الشعب وأشد ملاءمة لمزاجه في علاجه وشفائه من ذلك الصراط المستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، هذا سبيل أثبتت التجربة صلاحه ، وأيدت الأيام نجاحه ، فإياكم يا قوم وبنيات الطريق ، فاليمين والشمال مضلة والطريق الوسطى هي الجادة ، ولن يدين الشعب إلا لهذه العقيدة الإسلامية والشرعة المحمدية التي خالطت لحمه ودمه وامتزجت بجسمه وروحه .

إن أمام حكومتنا الكثير الجم من الأمور الواجب نظرها والاهتمام بها ، فأمامها البغاء الرسمي ، وقد كثرت ضحاياه وانتشرت أضراره ، وكاد يقضي على نظام الأسرة وحياتها قضاء مبرماً ، وأمامها تعميم الديني في مدارسها ، فلا معنى لقصره على الابتدائي ، ولا نريد من التعليم الديني أن يكون ضمن المنهج كلمة «التعليم الديني» ، بل نريد أن يكون التعليم الديني مادة من المواد الأساسية التي تعنتي بها الوزارة عنايتها ببقية المواد ، وتكثر من عدد الحصص المقررة لها كثرة تتناسب مع أهميته ، ولاسيما في المدارس الثانوية حيث يكون الطالب في سن الشباب متعطشاً إلى معرفة العقيدة الحقة في الكون ، وما يحيط به محتاجاً إلى وازع روحي قوي يضبط شعوره وعاطفته ، وهل هناك أصلح من هذه السن لمواتاة الطالب بحاجته الروحية والعقدية ، وهذا موضوع نسير إليه الآن ونوفيه حقه من البحث في كلمة مستقلة إن شاء الله تعالى .

أمامها مكافحة هذا الداء الويل «داء الزار» الذي ترتكب باسمه أفضع المناكر ، وتنجم عنه أشد الأضرار ، وقد يؤدي إلى كفر كثير من السيدات ، ورجال الإدارة يتهاونون في إنفاذ القرار الخاص به ، وليس على الحكومة من بأس إذا هي شددت عليه النكير حتى تقطع دابره وتريح الناس من شره .

وأمامها تلك المجلات الهازلة التي تهدم الآداب والأخلاق هدماً ، ولاسيما أماكن اللهو الخليع والقمار المخرب ، وحرام أن يعاقب من سرق لا تساوي شيئاً في طي الخفاء ، وقد يكون في أشد الحاجة إليها ، وينجو من سرق القناطر المقنطرة جهاراً لا يستشعر خجلاً ولا ندماً .

وأمامها الضرب على أيدي دعاة الإباحية ، وأشبه الملحدين ، وأدعياء الفلسفة الكاذبة الذين يجرحون الأمة في أقدس مشاعرها وأعز عواطفها .

وأمامها غير ذلك كثير مما تعلمه ويعلمه الناس جميعاً من المشروعات الهامة التي لا يعوزها إلا التشجيع فقط ، ونحن نناشد حكومتنا الله وهذه الأمة الودیعة المحبوبة أن توجه الهمة إلى الإصلاح الخلقى وأن تعنى بهذه الناحية عناية خاصة ، ونسأل الله لها المؤازرة والتوفيق .

ثانياً : دار النیابة :

وهذه هي الهيئة الثانية من الهيئات القادرة على الإصلاح الخلقى والأدبي بما أنها السلطة التشريعية ويدها سن القوانين وتأييدها ، والنواب والشيوخ هم خلاصة الأمة وزهرة رجالاتها وأبر الناس بها ولهم سلطانهم الرسمي الذي يمكنهم من الإصلاح ، وبقي أمر آخر ، هم أولي الناس بتقديره واستغلاله ، ذلك هو «نفوذهم الشخصي» ، فإن لكل نائب في نفوس ناخبيه مكانة سامية وكلمة نافذة وسلطة أدبية تجعلهم يتبادرون إلى الإصلاح إن وجدوا منه ميلاً إليه ، ذلك إلى أنهم شركاء الحكومة في سلطانهم ، فعن رأيهم تصدر بقولهم تعمل ، فلم لا يكونون لرعي الأول من حماة الفضيلة وأنصارها ؟

وإذا كانوا يهتمون بالأخلاق ويغارون على مكانتها إلى درجة أن أحدهم يعاتب رقابة المطبوعات لأنها خاطبت يوسف بك وهبي بغير ما يليق به كمثل يعمل لعلاج الأخلاق ؟ فلم لا يوجهون عنايتهم إلى أحد المهمات وأقوم الطرق ، وهو تقويم الخلق نفسها بتنمية الشعور الديني ؟

إن جلسة ترفع للاستراحة ، فهل من مانع يمنع رفعها لصلاة المغرب ؟ ولتكن هذه هي الاستراحة وفي ذلك ما فيه من المغزى الديني الجميل .

أؤكد أنه لو استخدم حضرات نوابنا وشيوخنا نفوذهم الرسمي والشخصي في إرشاد الأمة وإصلاحها لخلصت مما تنن تحته من بلايا الانحلال الخلقى ورزايا الفساد الأدبي ، ولكسبوا رضا الشعب ومحبه ، وأيدوا مراكزهم النيابية ، ووضعوا أساساً متيناً للمستقبل لأنفسهم ولأمتهم ، فهل هم فاعلون ؟

ثالثاً : الأغنياء والسراة :

وهم الطبقة الثالثة ممن يقدرّون على الإصلاح ويجب عليهم القيام به ، وأغنيأونا بين عارف أن هذا المال لله وأنه مستخلف فيه ، فهو ينفق منه ، ولكن يخطئ طريق الإنفاق ، فكم نسمع أن فلاناً الغني بنى مسجداً في بلد غني بالمساجد ، أو أنفق كذا وكذا جنيهاً في تجصيص مسجد وطلائه ، أو أقام مولداً وهكذا من هذه الوجوه .

ومستبعد بأمواله يبعثرها في الملاذ والشهوات وبيوت أوروبا المصرية أو الخارجية ، حيث يصفو جو المتعة ، ويجد مسارح الشهوة مفتحة الأبواب ، ولو أن أغنياءنا ينفقون في سبيل الله ما ينفقونه في سبيل أنفسهم ، ويشجعون الأعمال المشروعة النافعة ، لكان لنا في الدين والخلق شأن آخر ، ولعلمهم بعد ما علموا أن المال غاد ورائح وما عند الله خير وأبقي ، رأوا شدة حاجة أمتهم إلى معونة يتنافسون في إنهاضها وإرشادها ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

رابعاً : العلماء :

يظن كثير من الناس أن هؤلاء هم وحدهم القادرّون على الإصلاح ، وأن عليهم تقع تبعه التقصير ، وما أعرق هذا الظن في الوهم ، فماذا يصنع العالم الديني ولا حول له ولا قوة ، إن خطب لا يسمع له وإن كتب لا تنشر الجرائد قوله ، وكم رأينا العلماء وقفوا مواقف دينية فلا يُنصرون لأسباب يعلمها الله ، والراسخون في العلم – مع أن الحق بجانبهم – ومع ذلك فلا نخليهم من بعض التبعة ، فإن من واجبه أن يصلحوا ما بينهم وبين الناس ، ويجاهدوا إلى النهاية ، وينادوا ، ولو ذهب النداء صرخة في واد فهذه وظيفتهم ، والداعي الصادق لا يعدم الوسيلة إلى غايته ، ولو أن العلماء الحديثين قدرّوا واجب الدعوة قدره فنادى كل منهم في حدود بلده ، وساعدهم

كبار العلماء ببعض الجولات والكتابات لأفاد ذلك فائدة عظيمة ، ولرجع العلماء مكانتهم الأولى من نفوس الشعب المتمسك بدينه .

خامساً : الطلبة :

والطلبة قوة فعالة في الدعوة - لا أعني الأزهريين فقط - بل الطلبة المسلمين على اختلاف مدارسهم - وهم الحمد لله كثير في كل بلد - فلو صلح من هؤلاء فريق وقام بدعوة غيره ، وانضم إلى ذلك معاضدة بعض الرؤساء والوجهاء ، لنجحت الدعوة نجاحاً باهراً ، ولكن مع الأسف الشديد نرى كثيراً من الطلبة في البلاد حرباً على الفضيلة وأعوانها ، قد أخذ منهم غرور الصبا ونزق الشباب كل مأخذ ، فلعلهم يفيقون من غشيتهم ويقدرّون ما عليهم من واجب مقدس .

هذه هي الطبقات التي يمكنها أن تقوم بالدعوة قومة ناجحة تستأصل الداء وتضمن الشفاء ، وهؤلاء عليهم تبعة التقصير ولهم فضل التحرير ، أما الشعب فبئس مسكين مستسلم يحب دينه جد الحب ، ويخشى ربه ويخدم نبيه ، ويطيع أمر قاداته ومرشديه بكل معنى الطاعة ، فهل نجد من يقدر هذا الواجب ويعمل للقيام به ، والله من ورائهم محيط .

[٣]

في سبيل الدعوة (*)

« ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ »

تكلما فيما تقدم عن وجوب الدعوة وتأكيدها ، وبيننا على من تجب من طبقات الأمة وهيئاتها وسنتكلم الآن - إن شاء الله تعالى - على وسائل الدعوة التي بها تصير نافعة تثمر المقصود منها .

الدعوة دعوتان : خاصة وعامة ، فالأولي دعوة العشيرة والأقربين من زوجة وولد وصديق وذو رحم ، والثانية دعوة باقي الأمة ، وكلتاها واجبة لازمة .

وجوب الدعوة الخاصة :

دعوة الأهل والأقارب إلى الله وحملهم على العناية بأمر دينهم واجب يشير إليه قول الله تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فُؤَادِكُمْ نَارًا وَفُؤَادُهَا النَّاسُ وَالْحَجَارَةُ» (التحريم : ٦) ، وقول رسول الله «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .. الحديث ، وقوله ﷺ ما معناه : «نضر الله وجه امرئ قام من الليل يصلي فأيقظ زوجته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل تصلي فأيقظت زوجها ، فإن أبى نضحت في وجهه الماء ، فقاما يصليان» ، يشير إلى تعاون أهل المنزل على طاعة الله سبحانه وتعالى وعبادته .

وليست النفقة والتربية الدنيوية بأوجب على الرجل لأهل بيته من التربية الدينية ، فهو كما يسأل عن الأولى يسأل عن الثانية ، وإذا راعينا أن التربية المنزلية أساس التربية الخارجية ، وأن مدارسنا لا تقوم لتلامذتها بالقدر الواجب معرفته من الدين فما لم يلق التلميذ عناية خاصة من المنزل ، وإلا فقل على دينه السلام .

إذا راعينا كل ذلك علمنا أن من الواجب الحتم على كل فرد منا أن يعني بغرس مبادئ الدين والأخلاق وتعاليمه في نفوس أبنائه ، ولا يعتمد على المدرسة في تلك المهمة ، وإذا كان أحدنا يعني بإحضار مدرس خاص لأبنيه إذا شاهد منه قصورا في مادة من المواد الدراسية ، فلأن يعني بدينه وهو أساس خلقه ومنبع سعادته أحق وأجدر .

وسائل هذه الدعوة الخاصة وكيفيةها :

أنت - يا أخي - أحد رجلين : إما عامي تعلم الضروري من دينك فحسب ، وإما متعلم تجيد القراءة والكتابة وتعني بالمطالعة والدرس ، فإن كنت الأول فواجبك في إصلاح أهلك أن تقص عليهم كل ما تسمع من العلماء وعن العلماء في المساجد ، أو في الجرائد ، أو في غير ذلك من أمور الدين وأحكامه ، وتساءل أهل الذكر عما لا تعلم وتوافي أبناءك بما علمت .

وهكذا تتحيل على أن تصوغ لهم معلوماتك الدينية في شكل مسامرات قصصية في أوقات فراغك لهم ، وأكثر أمامهم من ذكر شواهد قدرة الله وعظمة رسوله ، وفضل حبه وعظمة أصحابه وخلقهم الطاهر حتى تنغرس في نفوسهم محبة الله ورسوله ، وتتربي في قلوبهم الخشية ومعرفة الله ، وليكن في منزلك بعض ما تراه في هذه الكلمة من الكتب النافعة حتى يقرأها من يستطيع ذلك من أهلك وذويك ، وعليك أن تكون قدوة حسنة لأهلك في التمسك بالدين واحترام أهله وتنفيذ تعاليمه لا تأخذك في ذلك هواة ، واعلم أن أثر القدوة في النفس

(*) نشر بمجلة «الفتح» ، العدد (١١١) ، السنة الثالثة ، بتاريخ بتاريخ ١٥ ربيع الأول ١٣٤٧هـ - ٣٠ أغسطس ١٩٢٨م ، ص ٩ و ١٠ .

أشد وأزكى من أثر المواعظ والدروس ، فمتى وجدك أهلك مستمسكاً بدينك استمسكوا به مدفوعين إلى ذلك بما ركب في طفرتهم من تقليدك .

وهذا رسول الله ربي صحابته الكرام بأفعاله أكثر مما رباهم بأقواله ، فنشأوا على تقليد أكمل خلق الله فكانوا خلق الله .

وإن كنت متعلماً فهذه الدعوة إليك أقرب وأوجب ، وطريقك فيها أن تقوم بما تقدم من الأعمال ، ثم تردف ذلك بتخصيص جزء من وقتك لمطالعة بعض المختارات من كتب دينية وأدبية في أوقات سلوتك بأبنائك مع حملهم على الطالعة لا بالعصا ، ولكن بوسائل الترغيب النافعة من إحضار الكتب وتزيينها أمام أعينهم ، ولن يعدم عقلك المربي حيلة تجذبهم بها إلى ما تريد ، ولتباعد بينهم وبين الكتب الساقطة والروايات السافلة ذات المغزى الوضع ، ولكن لا بالشدة والقهر فسيعاندونك إن فعلت ، بل بتقديم غيرها لهم حتى ينصرفوا إلى ما تريد ، فمعاكسة ميول الصغار غير ممكنة ، ولكن تحويلها سهل يسير على من يعلم طريق ذلك التحول ، ولا تغفل أمر القدوة الصالحة فهو الحجر الأول في بناء التربية الدينية .

مكتبة المنزل :

وإذا كان ولا بد لكل بيت إسلامي يود ربه أن يصلح من أهله من وجود بعض الكتب الدينية والتي تمت بصلة إلى الدين ، فقد رأيت أن أقدم إلى حضرات قراء الفتح الأغر أسماء نخبة من الكتب الضرورية ، وقد راعيت في هذا الاختيار أن تكون هذه الكتب نافعة في تربية الشعور الديني في نفوس الأبناء ، لأنه الدافع الأول إلى التعلق بالدين والتمسك بأحكامه ، وأن تكون مع ذلك في الموضوعات التي يعشقها الأطفال ويميلون إليها بطبعهم ، ولا يجها الكبار بل تجذبهم إليها كذلك ، وكل هذا مع سهولة المآخذ ووضوح المقصد ، وقد جربت أنا هذه الكتب مع نفسي فوجدتها أصل تربية الشعور الديني فيّ وفي إخواني وأهلي ، فما لي لا أدلي إلى إخواني المسلمين برأيي وليسوا مقيدين بما أقول ، وما قولي إلا مثل لمن أراد أن ينسج عليه ، ولم ألاحظ في تلك المختارات - إلا بعضها - أن تكون على نهج التحقيق العلمي الدقيق ، لأن ذلك ليس بلازم فيما نحن بصدده ، كما أني أرى أنها لا تحوى شيئاً تضر معرفته بأذهان الأبناء والله الموفق للصواب .

الكتب المختارة :

- (١) المصحف الشريف وبعض أجزائه كعم وتبارك .. الخ .
- (٢) تفسير الجلالين .
- (٣) تفسير الفاتحة للشيخ محمد عبده .
- (٤) الترغيب والترهيب للمنذري .
- (٥) رياض الصالحين للنووي .
- (٦) متن الأربعين النووية للنووي .
- (٧) الأذكار .
- (٨) مجموعات الحديث النجدية .
- (٩) كتاب فقهي على مثال «أحسن الغايات في مذهب أبي حنيفة» ، أو «رسالة أبي الحسن في مذهب الإمام مالك» ، أو «الإرشادات السننية في مذهب الشافعي» ، أو « دليل الطالب في مذهب أحمد»
- (١٠) موعظة المؤمنين للغزالي .
- (١١) الإبداع في مضار الابتداع للشيخ محفوظ .
- (١٢) زاد المعاد لابن القيم .
- (١٣) ميزان العمل للغزالي .
- (١٤) خلاصة التصانيف والتصوف للغزالي
- (١٥) القرآن والعلوم العصرية لطنطاوي جوهري .

- (١٦) سبيل السعادة للدجوي .
- (١٧) الإسلام والنصرانية للشيخ محمد عبده .
- (١٨) النظرات للمنفلوطي .
- (١٩) أدب الدنيا والدين للماوردي .
- (٢٠) المدنية والإسلام لفريد وجدي .
- (٢١) أم القرى للكواكبي .
- (٢٢) طبائع الاستبداد الكواكبي .
- (٢٣) حقوق الشعب لعبد الرحمن الرافعي .
- (٢٤) أسرار الشريعة الإسلامية لإبراهيم علي .
- (٢٥) أدب الإسلام والحكمة النبوية .
- (٢٦) نهج البلاغة للإمام علي .
- (٢٧) كليلة ودمنة لابن المقفع .
- (٢٨) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين للخضري .
- (٢٩) الأنوار المحمدية مختصر «المواهب اللدنية» .
- (٣٠) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي .
- (٣١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي .
- (٣٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم .
- (٣٣) حماة الإسلام لمصطفى نجيب .
- (٣٤) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية للخضري .
- (٣٥) سيرة صلاح الدين الأيوبي .
- (٣٦) تحفة الزائر بسيرة الأمير عبد القادر .
- (٣٧) فتوح الشام للواقدي .
- (٣٨) الرحلة الحجازية للبتانوني .
- (٣٩) رحلة الأندلس للبتانوني .
- (٤٠) قصة عنتر بن شداد .
- (٤١) قصة الأميرة ذات الهمة .
- (٤٢) شهيرات النساء للأميرة قدسية .
- (٤٣) المرأة العربية لعبد الله عفيفي .
- (٤٤) النسائيات لباحثة البادية .
- (٤٥) تهذيب البنين لرضا بك .
- (٤٦) أدب الفتى لرضا بك .
- (٤٧) أدب الفتاة لرضا بك .
- (٤٨) آداب العرب لإبراهيم بك العربي .
- (٤٩) الصحة والمرض للدكتور رشدي .
- (٥٠) تربية الطفل للدكتور محمد عبد الحميد .
- (٥١) كفاية الطالبين لرد شبهات المبشرين .

تلك خمسون كتابًا إن وجدت في منزل – أو وجد ما يناسبها فيه – فهي كفيلة بنتقريف أهله ثقافة دينية أو أدبية تصلح أن تكون نواة طيبة للحياة الخارجية ، وكل في اقتنائها على حسب استطاعته ، فمن عجز عنها جميعًا فليقدم الأهم حتى تتكامل لديه بالتدرج ، فتكون ثروة أدبية باقية له ولأولاده ، والله نسأل أن يوفقنا إلى إصلاح أنفسنا ومن يلينا ، وأن يجعلنا من الداعين إليها الهادين بهديه ، وموعدنا في العدد القادم إن شاء الله والدعوة عامة.

[٤] مطلع الفجر (*)

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» ، «رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا» .

(١)

تكون الدعوة من الدعوات واضحة ناجحة ، ومع وضوحها ونجاحها يظل أمرها مغموراً في الناس ، وتظل قلوبهم منصرفه عنها ، حتى يتم لها أن تمتلك قلوب المؤمنين وحينئذ تنتبه أحاسيس الناس ومشاعرهم وتتفتح أبصارهم وبصائرهم ، ويلتفتون يمنة ويسرة نحو هذا النور يحسبونه جديداً وهو قديم ، ويظنونه مفاجئاً وهو مقيم ، ويكثر التهامس والتساؤل ثم يتحول إلى نقاش وتجاوز ، وقد يتجاوز هذا الحد إلى اتهام وتهاتر ، أو تهجم وتشاجر ، وينتهي ذلك كله بانتصار الحق وانتصاف أهله ، «كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ» [الرعد: ١٧] .

وكذلك نشأت دعوة الإخوان المسلمون منذ سبعة عشر عاماً واضحة ناجحة إسلامية صميمة ، وأخذت طريقها إلى الظهور حتى تملكت آلاف القلوب من المؤمنين بها ، وتجمست صورة كاملة في صدورهم ، مشت على الأرض قوية فتية بأقدامهم ، وأثرت في مجريات حياتهم واهتز لهذا التأثير كيان المجتمع المصري ، وسرى هذا التيار المبارك إلى الأقطار المجاورة فتلفت الناس يتساءلون متى ؟ وأين وكيف ؟ وماذا يقصدون ؟ وفي أي طريق يسرون ؟ أتابعون أم متبوعون ؟ دينيون أم سياسيون ؟ وما شأن جمعية خيرية بشركات مالية ؟ وما موضوع دعوة دينية في الحياة العصرية ؟ .. إلخ .

وكان لابد لهذا الأسئلة من إجابات متلاحقة تطالع الناس مع تنفس الصبح وتشرق عليهم إشراقة الشمس ، وذلك بعض مهمة هذه الصحيفة .

(٢)

والإسلام الحنيف دعوة إنسانية عالمية لا دعوة جنسية إقليمية ، وقد تصوره المسلمون أنفسهم بفعل الحوادث المتعاقبة ، وظروف الأجيال المتطاولة على صور شتى منها القريب من حقيقته ، ومنها البعيد كل البعد عن أهدافه وغاياته ، ومنها ما أصاب المحز وطبق المفصل ووصل إلى عين اليقين وكل إناء بالذي فيه ينضح .

كما أحاطت به عند غير المسلمين خرافات وشبهات وأقاصيص وخيالات ليست من الحق في كثير ولا قليل ، ولهذا سيكون من مهمة هذه الصحيفة حيال الدعوة الإسلامية العامة واجبات خمسة :

أولها : تجلية تعاليم الإسلام والكشف عما فيها من روعة وجمال ، وعرضها عرضاً يلائم أسلوب العصر ويثبت أنها أفضل الأنظمة للجمعية الإنسانية .

ثانيها : رد ما يوجه إليها من اتهامات باطلة وشبهات لا حقيقة لها .

(*) نشر بجريدة «الإخوان المسلمين اليومية» ، العدد (١) ، السنة الأولى ، بتاريخ ٣ جمادى الآخرة ١٣٦٥هـ - ١٥ مايو ١٩٤٦م ، ولقد كتب هذا المقال بمناسبة صدر العدد الأول من جريدة «الإخوان المسلمين اليومية» .

ثالثها : تقرب وجهات النظر بين أهل القبله جميعاً من غير دخول في مناقشات مذهبية عقيمة ، أو مجادلات لا توصل إلى الحقيقة ، والعمل على الجمع الكلمة حول الحق المشترك بأنزله الأعلام وأنبلها ، وأعدل الآراء وأحكمها في حدود القاعدة الذهبية (نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه) .

رابعها : تقرير هذه الحقيقة الجليلة الرائعة التي يتعمى عنها كثير من المغرضين ويحاولون إخفاءها أو تشويهها وهي : أن الإسلام الحنيف لا يخاصم ديناً ولا يهضم عقيدة ولا يظلم غير المؤمنين به مثقال ذرة ، ولا تثمر تعاليمه حتى لا يسود بين أبناء الوطن الواحد إلا الحب والوئام والتعاون والسلام مهما اختلفت نحلهم وتباينت معتقداتهم «لَا يَهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» [الممتحنة: ٠٨] .

خامسها : رسم الطريق الموصلة إلى إعادة نظامه وتطبيق أحكامه في الحياة الفردية وفي البيت وفي المدرسة وفي الدولة ، وفي كل شئون المجتمع الصالحة ، والتحذير من الخروج على هذه التعاليم السمحة .

(٣)

ولنا مع قضايانا هذه السابقة ، قضية أخرى لا تقل عنها خطراً ولا تنقص عنها أهمية وهي قضية أوطاننا وديارنا ، التي باغتها الاستعمار الغربي بعد أن بيت لها أجيالاً طويلة فأحاط بها ، وقيد حكوماتها وشعوبها وحال بيننا وبين التقدم ، وبلغ ذلك مداه في نهاية الحرب العالمية الأولى ، إذ كانت مصر تحت الحماية البريطانية ، وفلسطين والعراق في قبضة إنجلترا ، وسوريا ولبنان وتونس والجزائر ومراكش في يد فرنسا وطرابلس وبرقة مع إيطاليا ، حتى تركيا الأوربية والآسيوية وهي دار الخلافة وقعت تحت يد احتلال الحلفاء وأدى ذلك الاسترقاق والاستهتار بكرامات الأمم وحرية الشعوب ، إلى انفجار الثورات في كل مكان ، واشتد النضال بين أصحاب الحق وغاصبيه حتى تحررت هذه الأوطان بعض الشيء وتيقظت وعرفت طريقها إلى الجهاد والكفاح ، وجاءت الحرب العالمية الثانية وهذه البلاد كلها تجاهد في صف الدول الديمقراطية إذ أقسم زعمائها وأكد رؤساؤها أنهم إنا يكافحون في سبيل الحرية وإقرار العدالة الاجتماعية في أرض الله ، وكان طبيعياً وقد وضعت الحرب أوزارها أن يطالب المظلومون بحقوقهم وأن يجاهدوا في سبيل تحرير أوطانهم .

وستناضل هذه الصحيفة في سبيل هذه الحقوق بكل ما أوتيت من قوة فتعمل للحرية والوحدة وتحارب الظلم والطغيان في كل مكان ، وهي حين تعني أعظم العناية بالكفاح في سبيل حرية وادي النيل ووحدته لن تنسى أبداً أداء واجبها كاملاً في سبيل أي قطر من أقطار العروبة وأوطان الإسلام مهما بعدت به الدار «المؤمنون إخوة» [الحجرات: ١٠] والمسلمون عدول بعضهم على بعض يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، فلئن كانت جريدة الإخوان مصدرها إقليمية ، فهي بحكم روحها ومنهجها عربية إسلامية بل لك أن تقول إنها إنسانية عالمية «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» [الأنبياء: ١٠٧] .

(٤)

ولقد ترك الاستعمار كما تركت الحرب أعرق الآثار في أخلاقنا واقتصادياتنا ومدارسنا وكل شئون حياتنا ، وواجهنا من المشكلات الاجتماعية ما يحتاج إلى العلاج الحاسم السريع ، وارتفعت أصوات الكثير من الطوائف والهيئات التي شعرت بوطأة الفقر والمرض أدركت سوء أثر الجهل والرزيلة بالشكاية والاستصراخ ، وصحيفة كصحيفة الإخوان تعتمد على الشعب وتتصل بمختلف طبقاته ، ويشعر القائمون عليها أتم الشعور بما يعاني من ضيق وإرهاق ، لا بد أن تفتح صدرها لهذه الظلمات ، ويعلو صوتها بهذه الشكايات ، ويشد اهتمامها بعلاج هذه المشكلات ، وتصل عن طريقها مطالب المواطنين من موظفين وعمال ومزارعين وتجار وطلاب .. إلخ ، إلى جهات الاختصاص .

(٥)

وجريدة الإخوان وإن كانت صحيفة إخوانية فلن تكون خاصة بهم ، أو وقفاً عليهم ، بل هي ترجو أن تكون المنبر العام للهيئات الإسلامية ، والجماعات الإصلاحية ، على اختلاف ألوانها وبلدانها وترحب بكل ما يقدم إليها مادام متفقاً مع خطتها منهاجها .

(٦)

إننا نؤمن أعمق الإيمان بأن رسالتنا الأولى أن نقول الحق ، وأن نجهر به لا يقعدنا عن ذلك رغبة أو رهبة ، ولا نخشى فيه لومة لائم كما نؤمن بأن النصيحة والإرشاد والثناء أو النقد يجب أن يكون ذلك كله في أسلوب عال رفيع ، لا مهاترة ولا افتراء «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» [فصلت: ٣٤] ، وسيكون ذلك موقفنا من الأفراد والهيئات والأحزاب والحكومات على السواء ، لا نؤيد ولا نهاتر ، ولكن نرقب ونوجه ونرجو في ذلك كله وجه الله وصالح الوطن .

(٧)

سنحاول ما استطعنا ألا تكون جريدة الإخوان مقصورة على لون من ألوان الغذاء الفكري والروحي ، ما وجدنا إلا الاستيعاب سبيلاً ، فسيكون فيها دنيا ودين وعلم وفن وأدب ورياضة وقصص وفكاهة ، فالقلوب تمل كما تمل الأبدان ، فالتمسوا لها طرائف الحكمة ، وستعترضنا في بعض الموضوعات عقبات واعتراضات وليس المقيد بالرأي كالمطلق من القيد ، وياويح الشجي من الخلي .. وكلنا مع هذا سنسدد ونقارب فما كان خيراً نشرناه ولا نبالي ، وما كان شراً كإعلانات الخمر وأندية الميسر وحفلات الخلاعة والمجون أهملناه ولا كرامة ، وما اختلفت فيه الآثار والنتائج تحريماً الفائدة في النشر أو الإهمال ونبهنا على جانب الصلاح ، وحذرنا من عوامل السوء والفساد ، يحملنا على ذلك الرغبة في أن تكون الصحيفة وافية بحاجات القراء ، على أن الصحافة مرآة لحياة الأمة ومهمة الصحفي الكشف عن مستور الحياة ومواجهة واقعها والعمل على تدعيم نواحي الخير ومقاومة نواحي الشر ، وليس معنى النشر في ناحية من النواحي ، إقرارها أو الموافقة عليها ، فقد يكون الغرض الدلالة عليها والتحذير منها .

ونحن بعد ذلك نرحب بكل نصح أو توجيه ، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها ، وكنا نرجو أن تكون صحيفتنا مولوداً لا طفولة لها ، لولا أن ذلك ليس من سنة الحياة ، فلا أقل من أن نتعاون جميعاً على أن ينشأ هذا المولود وهو ابن كل محب للإصلاح نشأة طبيعية تدفع به سريعاً إلى النمو والكمال .

بهذه الكلمة ، وهذا الرجاء ، نقدم هذه الصحيفة إلى قرائها الكرام .

حسن البنا

[٥] الرواية والاسناد (*)

ما الإسناد؟

تقرأ الحديث النبوي الشريف فيطالعك أول ما يطالعك «السند» وهو سلسلة الرواة الذين نقل عنهم هذا الحديث من لدن رسول الله ﷺ إلى أن انتهى إلى أحد الحفاظ المشهورين كمالك أو البخاري أو مسلم رضي الله عنهم .

والإسناد رفع الحديث إلى قائله ، وقال ابن جماعة : المحدثون يستعملون السند والإسناد لشيء واحد .

وأما المتن فهو ألفاظ الحديث نفسها .

ومعرفة السند هي الأساس عند المحدثين في الحكم على درجة الحديث إذ أن عماد الصحة أو الضعف عندهم درجة الراوي من الصدق ، ودرجة روايته من الوضوح والثقة ، ولهذا كانت عنايتهم بالأسانيد عظيمة نشأ عنها علم مصطلح الحديث بلواحقه من علم الرجال والأنساب والكنى والأسماء والجرح والتعديل .. إلخ .

الإسناد من خصائص الأمة الإسلامية :

ولم يؤثر عن أمة من الأمم العناية برواة أخبارها وكتبتها ، ومأثورات أنبيائها كما عرف ذلك عن هذه الأمة الإسلامية التي عنيت بهذه الناحية أتم العناية حتى أن اهتمامها بالأسانيد والرواة لم يقف عند حد العلوم الشرعية بل تعداها إلى العلوم الأدبية والأخبار التاريخية وغيرها ، وإن كان في الحديث النبوي وما إليه أدق وأوضح ، قال أبو علي الجبائي : خص الله تعالى هذه الأمة بثلاثة أشياء لم يعطها من قبلها (الإسناد ، والأنساب ، والإعراب) ، وقال ابن حزم : نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبي ﷺ مع الاتصال خص الله به المسلمين دون سائر الملل ، وأما مع الإرسال والإعضال فيوجد في كثير من اليهود ولكن لا يقربون فيه من موسى قربنا من محمد ﷺ ، بل يقفون بحيث يكون بينهم وبين موسى أكثر من ثلاثين عصرًا ، ولا يمكن أن يبلغوا إلى صاحب نبي ولا إلى تابع له .

وقد أثر عن السلف في الحث على العناية بالإسناد أقوال كثيرة ، قال ابن المبارك : الإسناد من الدين ، لولا الإسناد لقال من شاء ما يشاء ، وقال سفيان بن عيينة : حدث الزهري يومًا بحديث فقلت هاته بلا إسناد ، فقال الزهري : أترقى السطح بلا سلم؟! وقال الثوري : الإسناد سلاح المؤمن ، وقال أحمد بن حنبل : طلب الإسناد العالي سنة عن سلف ، لأن أصحاب عبد الله كانوا يرحلون من الكوفة إلى المدينة فيتعلمون من عمر ويسمعون منه ، وقال محمد بن أسلم الطوسي : قرب الإسناد قرب أو قربة إلى الله تعالى ، وقال محمد بن سيرين : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم ، وقال : لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم ، وحكى الأوزاعي عن سليمان ابن موسى قال : لقيت طاووسًا فقلت حدثني فلان كيت وكيت ، قال : إن كان صاحبك مليًا فخذ عنه .

أنواع التحمل ودرجاته :

وكما كانوا يتحرون حال الراوي كانوا يعنون كذلك بالطريقة التي تلقي بها عند شيخه ، وطرق التلقي تختلف في الأسلوب وفي الرتبة ، ومنها :

(*) نشر بمجلة «الشهاب» ، الجزء الأول ، السنة الأولى ، ص ٣٠ ، بتاريخ صفر ١٣٦٧هـ - ديسمبر ١٩٤٧م .

- (١) السماع من لفظ الشيخ إملاء من حفظه أو تحديثًا من كتابه .
- (٢) قراءة الطالب على الشيخ .
- (٣) سماع الطالب على الشيخ بقراءة غيره .
- (٤) المناولة من الإجازة كأن يدفع له الشيخ أصل سماعه ، أو فرعًا مقابلًا به ويقول له أجزت لك روايته عني .
- (٥) الإجازة المجردة عن المناولة ، ولها أنواع كثيرة مفصلة في كتب الفن .
- (٦) المناولة من غير إجازة بأن يناوله الكتاب مقتصرًا على قوله هذا سماعي ولا يقول له اروه عني ولا أجزت لك روايته ، قيل تجوز الرواية بهذه المناولة ، والصحيح عندهم عدم الجواز ، ومثلها :
 - (أ) الإعلام كأن يقول هذا الكتاب من مسموعاتي من غير أن يأذن له في روايته عنه .
 - (ب) الوصية كأن يوصي بكتاب عند سفره أو موته ، والأرجح عدم جواز الرواية به .
 - (ج) الوجدادة كأن يجد حديثًا أو كتابًا بخط شيخ معروف لا يرويه الواحد عنه بسماع ولا إجازة فله أن يقول وجدت أو قرأت بخط فلان ، وفي مسند الإمام أحمد كثير من ذلك من رواية ابنه عنه ، قال النووي : وأما العمل بالوجدادة فعن المعظم أنه لا يجوز وقطع البعض بوجود العمل بها عند حصول الثقة به ، قال وهذا هو الصحيح الذي لا يتجه في هذه الأزمان غيره .

أقدم إجازتين مأثورتين :

(١) إجازة أبي خيثمة لزكريا بن يحيى :

جاء في الشرح ألفية العراقي عن الإمام أبي الحسن محمد بن أبي الحسين بن الوزان قال : «ألفيت بخط أبي بكر أحمد بن أبي خيثمة زهير ابن حرب الحافظ الشهير صاحب يحيى بن معين وصاحب التاريخ ما مثاله : قد أجزت لأبي زكريا يحيى بن مسلمة أن يروي عني ما أحب من كتاب التاريخ الذي سمعه مني أبو محمد القاسم بن الأصبغ ومحمد ابن عبد الأعلى كما سمعاه مني ، وأذنت له في ذلك ولمن أحب من أصحابه ، فإن أحب أن تكون الإجازة لأحد بعد هذا فأنا أجزت له ذلك بكتابي هذا ، وكتب أحمد بن أبي خيثمة بيده في شوال من سنة ست وسبعين ومائتين» .

(٢) إجازة حفيد بن شيبه للخلال :

وكذلك أجاز حفيد يعقوب بن شيبه وهذه نسختها فيما حكاه الخطيب «يقول محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبه : قد أجزت لعمر بن أحمد الخلال وابنه عبد الرحمن ابن عمرو لختته على بن الحسن جميع ما فاتته من حديثي مما لم يدرك سماعه من المسند وغيره ، وقد أجزت ذلك لمن أحب عمر فليرووه عني إن شاءوا ، وكتبت لهم ذلك بخطي في صفر سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة» .

دقة التحري وسعة معرفة أئمة الفن بأحوال الرواة :

وإن ما أثر عن أئمة رواية الحديث في دقة تحريهم عن أقوال الرواة وسعة معرفتهم بكل ما يتصل بهم من شئون خاصة أو عامة لما يقضي منه العجب ، ولقد كانوا يتحرجون من الرواية حتى عن الثقات لتوهم الشبهة في بعض تصرفاتهم المتصلة بالرواية ، ولا تثبت صفة التقدم والحفظ لأحد من رجال الحديث حتى يكون قد حفظ متن الحديث وألفاظه وسنده حفظًا تامًا ، ثم ألم بمعرفة رجاله وأحوالهم فردًا فردًا ، ثم أضاف إلى ذلك العلم بطرق روايته المختلفة .

وهذا الإمام مسلم بن الحجاج يحدثنا في مقدمة صحيحه عن شيء من هذا فيقول شارحاً منهاجه في الرواية: «ثم إنا إن شاء الله مبتدئون في تخريج ما سألت وتأليفه على شريطه سوف أذكرها لك وهو أنا نعمل إلى جملة ما أسند من الأخبار عن رسول الله ﷺ فتقسمها على ثلاثة أقسام وثلاث طبقات من الناس ، فأما القسم الأول فإننا نتوخى أن نقدم الأخبار التي هي أسلم من العيوب من غيرها ، وأنقى من أن يكون ناقلوها أهل استقامة في الحديث وإتقان لما نقلوا .. فإذا نحن تفحصنا أخبار هذا الصنف من الناس أتبعناها أخباراً يقع في أسانيدنا بعض من ليس بالموصوف بالحفظ والإتقان كالصنف المقدم قبلهم ، على أنهم وإن كانوا فيما وصفنا دونهم فإن اسم الستر والصدق وتعاطي العلم يشملهم كعطاء بن السائب ، ويزيد بن أبي زياد ، وليث بن أبي سليم وإضرابهم من حامل الآثار ونقال الأخبار فهم وإن كانوا بما وصفنا من العلم والستر عند أهل العلم معروفين فغيرهم من أقرانهم ممن عندهم ما ذكرنا من الإتقان والاستقامة في الرواية يفضلونهم في الحال والمرتبة لأن هذا عند أهل العلم درجة رفيعة وخصلة سنية ، ألا ترى أنك إذا وازنت هؤلاء الثلاثة الذين سميناهم عطاء ويزيد وليثاً بمنصور بن المعتمر وسليمان الأعمش وإسماعيل بن أبي خالد في إتقان الحديث والاستقامة فيه وجدتهم مباينين لهم لا يدانونهم ، لاشك عند أهل العلم بالحديث في ذلك للذي استفاض عندهم من صحة حفظ منصور والأعمش وإسماعيل وإتقانهم لحديثهم وأنهم لم يعرفوا مثل ذلك من عطاء ويزيد وليث ، وفي مثل مجرى هؤلاء إذا وازنت بين الأقران كابن عون وأيوب السختياني مع عوف بن أبي جميلة وأشعث الحراني وهما صاحبا الحسن وابن سيرين كما أن ابن عون وأيوب صاحباهما إلا أن البون بينهما وبين هذين بعيد في كمال الفضل وصحة النقل وإن كان عوف وأشعث غير مدفوعين عن صدق وأمانة عند أهل العلم ، ولكن الحال ما وصفنا من المنزلة عند أهل العلم .. فعلى نحو ما ذكرنا من الوجوه نؤلف ما سألت من الأخبار عن رسول الله ﷺ ، فأما ما كان منها عن قوم هم عند أهل الحديث متهمون أو عند الأكثر منهم فلسنا نتشاغل بتخريج حديثهم كعبد الله بن مسور أبي جعفر المدائني وعمرو بن خالد وعبد القدوس الشامي ومحمد بن سعيد المصلوب وغيث بن إبراهيم وسليمان بن عمرو أبي داود النخعي وأشباههم ممن أنهم بوضع الأحاديث وتوليد الأخبار ، وكذلك من الغالب على حديثه المنكر أو الغلط أمسكنا أيضاً عن حديثهم» .

ومن أمثلة التورع في الرواية حتى عن الثقات ما رواه مسلم بعد ذلك عن أبي الزناد عن أبيه قال : أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون ما يؤخذ عنهم الحديث يقال ليس من أهله ، وإذا رجعت إلى كتب الرجال والعلل والجرح والتعديل أدهشك ما ترى من ذلك !

جودة الحفظ وسرعته ودقته وكثرته :

ولقد اشتهر الكثير من أئمة الحديث بسرعة الحفظ وجودته ودقته وكثرته حتى كانوا أعاجيب الدنيا في هذه المعاني ، ومنهم أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الذي روى عنه في ذلك الغرائب المدهشة منذ كان غلاماً حتى لقي ربه ، ولقد حدث عن نفسه فيما رواه الفريزي قال : سمعت محمد بن أبي حاتم وراق البخاري يقول : سمعت البخاري يقول : «ألهمت حفظ الحديث وأنا في الكتاب ، قلت : وكم أتى عليك إذ ذاك ؟ فقال : عشر سنين أو أقل ، ثم خرجت من الكتاب فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره فقال يوماً فيما كان يقرأ للناس : سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم ، فقلت : إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم ! فانتهرني ، فقلت له : ارجع إلى الأصل إن كان عندك ، فدخل فنظر فيه ثم رجع فقال : كيف هو يا غلام ؟ فقلت : هو الزبير وهو ابن عدي عن إبراهيم فأخذ القلم وأصلح كتابه وقال لي : صدقت ، فقال له إنسان : ابن كم حين رددت عليه ؟ فقال : ابن إحدى عشرة سنة ! قال فلما طعنت في ست عشرة سنة حفظت كتب ابن المبارك ووكيع ، وعرفت كلام هؤلاء» يعني أصحاب الرأي .

وقال حامد بن إسماعيل وآخر : كان البخاري يختلف معنا إلى السماع وهو غلام فلا يكتب حتى أتى على ذلك أياماً فكنا نقول له فقال إنكما قد أكثرتما على فاعرضا على ما كتبتما فأخرجنا إليه ما كان عندنا فزاد على خمسة عشر ألف حديث ، فقرأها كلها عن ظهر قلب حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه ، ثم قال : أترون أنني اختلف هدرًا وأضيع أيامي ؟ فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد .

وقال محمد بن أبي حاتم : سمعت سليم بن مجاهد يقول : كنت عند محمد بن سلام البيكدي فقال لي : لو جننت قبل لرأيت صبيًا يحفظ سبعين ألف حديث ! قال فخرجت في طلبه فلقيته فقلت : أنت الذي تقول أنا أحفظ سبعين ألف حديث ؟! قال : نعم وأكثر ولا أجيبك بحديث عن الصحابة أو التابعين إلا عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم ، ولست أروي حديثًا من حديث الصحابة أو التابعين إلا ولي في ذلك أصل أحفظه حفظًا عن كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ .

ومن ذلك الحادثة المشهورة التي يرويها ابن عدي فيقول : سمعت عدة مشايخ يحكون : أن البخاري قدم بغداد فاجتمع أصحاب الحديث فعمدوا إلى مائة حديث فقلبو متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا لإسناد هذا وإسناد هذا لمتن هذا ودفعوا إلى كل واحد عشرة أحاديث ليلقوها على البخاري في المجلس ، فاجتمع الناس وانتدب أحدهم فقام وسأله عن حديث من تلك العشرة فقال : لا أعرفه ، فسأله عن آخر ، فقال : لا أعرفه حتى فرغ من العشرة وفعل مثل ذلك مع من بقي من المشايخ لا يزيدهم على قوله ، لا أعرفه حتى إذا فرغوا التفت إلى الأول فقال : أما حديثك الأول فإسناده كذا وكذا والثاني كذا وكذا والثالث إلى آخر العشرة فرد كل متن إلى إسناده وفعل بالثاني مثل ذلك إلى أن فرغ فأقر له الناس بالحفظ والتقدم .

اختلاف درجات الحديث باختلاف مراتب الرواة :

وبهذا الاختلاف في درجات الرواة وقوة الأسانيد اختلفت مراتب الأحاديث وقوة الاحتجاج بها ، ووضع لكل منها اسم ووصف يكشف عن درجته ، فالصحيح والحسن والضعيف ، وما إلى ذلك من أوصاف وألقاب للأحاديث إنما مرده وأصله هذا الاختلاف في طبقات الرواة ، ونرجو أن نوفق في الكلمة التالية إلى التعرض لهذه الناحية بالذات حتى نضع بين يدي القراء الكرام من الذين لم يتصلوا بهذه الدراسات خلاصة موجزة واضحة لترجمة هذه الاصطلاحات تسهل عليهم الاتصال بهذه الكتب والفنون إذا وجدوا الوقت والرغبة .

تعقيب :

إننا نضع هذا البحث الموجز المقتضب عن الرواية والإسناد بين يدي الذين يحاولون أن يغضوا من قيمة هذا المجهود العلمي الذي لم تظفر بمثله أمة من الأمم قديمًا أو حديثًا ويريدون بعد ذلك أن يشككوا في قيمة الاحتجاج بالأحاديث ، مع أن السنة هي المصدر الثاني من مصادر أحكام الإسلام ، ولعل في هذه المحاولة ما يوجههم إلى الطريق الصحيح ولعل من المفيد أن نختم هذا البحث بما ذكره المستشرق النمساوي الأستاذ ليوبولد فايس في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق» إذ تناول هذه الناحية ببحث علمي مسهب انتهى منه إلى هذه النتائج ننقلها بنص عباراتها :

(١) «إن العمل بسنة رسول الله ﷺ هو عمل على حفظ كيان الإسلام ، وإن ترك السنة هو انحلال الإسلام ، لقد كانت السنة الهيكل الحديدي الذي قام عليه صرح الإسلام ، وإنك إذ أزلت هيكل بناء أفيدهشك بعدئذ أن يتقوض هذا البناء .

(٢) إن الأسلوب الدقيق الذي كان المحدثون الأولون يستعملونه للتثبت من صحة كل حديث نشأ عنه علم تام الفروع ، غايته الوحيدة البحث في معاني أحاديث الرسول ومشكلها وطريقة روايتها . ولقد استطاع هذا العلم في الناحية التاريخية أن يوجد سلسلة متماسكة لتراجم مفصلة لجميع الأشخاص الذين ذكروا على

أنهم رواة أو محدثون. إن تراجم هؤلاء الرجال والنساء قد خضعت لبحث دقيق من كل ناحية ، ولم يعد منهم في الثقة إلا أولئك الذين كانت حياتهم وطريقة روايتهم للحديث تتفق تماما مع القواعد التي وضعها المحدثون ، تلك القواعد التي تعتبر على اشد ما يمكن أن يكون من الدقة ، فإذا اعترض أحد اليوم من أجل ذلك على صحة حديث بعينه أو على الحديث جملة فإن عليه هو وحده أن يثبت ذلك ، وليس ثمة من مبرر مطلقاً من الناحية العلمية أن يجرح أحد صحة مصدر تاريخي ما لم يكن باستطاعته أن يبرهن على أن هذا المصدر منقوض ، فإذا لم تقم حجة معقولة أي علمية على الشك في المصدر نفسه أو في أحد رواته المتأخرين ، وإذا لم يكن ثمة من الناحية الثانية خبر آخر يناقضه كان حتماً علينا حينئذ أن نتقبل الحديث على أنه صحيح .. لم يستطع ناقد ما حتى أيامنا هذه ، أن يبرهن بطريقة منظمة ذات قواعد على أن مجموع الأحاديث التي تعتبر صحيحة حسب القواعد التي وضعها أئمة المحدثين هي غير صحيحة .

(٣) إن السبب الذي يحمل على مثل هذا الموقف من المعارضة للأحاديث بين بعض المسلمين المعارضين إنما يرجع إلى أن الجيل المسلم الحاضر مستعد لأن يكبر كل شيء غربي وأن يتعبد لكل مدنية أجنبية لأنها أجنبية ولأنها قوية وبراقة من الناحية المادية ، هذا التفرنج كان أقوى الأسباب التي جعلت أحاديث النبي ﷺ وجعلت جميع نظام السنة معها لا تجد قبولا في يومنا هذا ، إن السنة تعارض الآراء الأساسية التي تقوم عليها المدنية الغربية معارضة صريحة ، حتى إن كل أولئك الذين خلبتهم الثانية لا يجدون مخرجاً من مأزقهم هذا إلا برفض السنة على أنها غير واجبة الإلتباع على المسلمين ، ذلك لأنها قائمة على أحاديث لا يوثق بها وبعد هذه المحاكمة الموجزة يصح تحريف تعاليم القرآن الكريم لكي تظهر موافقة لروح المدنية الغربية أكثر سهولة» .

ونقول إن هذا التراث المجيد سيظل خالداً محفوظاً لأن حفظه للكتاب الكريم الذي تكفل الله تبارك وتعالى به حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وصدق الله العظيم «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» .

حسن البنا

[٦] الرواية والاسناد(*)

الحديث والخبر والأثر :

تدور هذه الألفاظ الثلاثة على السنة المحدثين والمشتغلين بهذا الفن والمتصلين به ، ومنهم من يعتبرهم بمعنى واحد وأنها جميعاً ما أضيف إلى النبي ﷺ قولاً أو فعلاً أو تقريراً أو صفة .

وقيل الحديث ما جاء عن النبي ﷺ خاصة والخبر ما جاء عن غيره والأثر ما روي عن صحابي أو تابعي، وقيل بين الحديث والخبر عموم وخصوص مطلق فكل حديث خبر وليس كل خبر حديثاً - ولعل خير ما يقال في هذا الشأن أن الحديث إذا أطلق هكذا انصرف إلى ما أثر عن رسول الله ﷺ خاصة ، وأن الخبر والأثر ينصرفان إلى هذا المعنى بالقرينة المميزة مع صحة إطلاقها على غير الحديث من الأخبار والمرويات عن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم .

ومعلوم أن السنة هي فعل النبي ﷺ أو قوله أو إقراره .

الحديث القدسي :

أطال أهل الفن القول في تعريف الحديث القدسي والفرق بينه وبين القرآن والحديث النبوي ، وخالصة ما ذكروه في ذلك وأولاه بالصواب إن شاء الله .

أن الحديث القدسي إلهام من الله تبارك وتعالى لنبيه في اليقظة أو في النوم صوراً من المعاني والمقاصد يشعر النبي ﷺ أن الله يأمره بتصويرها لعباده فيصورها لهم بعبارة من لفظة هو ﷺ على أنه يرويها عن ربه عز وجل ، مثاله حديث أبي ذر الغفاري المطول الذي رواه النووي في أربعين وهو الرابع والعشرون منها «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً بينكم فلا تظلموا» الحديث ، وهو بهذا التعريف غير معجز ولم يوح به إلى النبي ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام وليست ألفاظه من عند الله بداهة .

أما القرآن الكريم فترتسم معانية وألفاظه في نفس رسول الله ﷺ بإلقاء الملك وينتهي الوحي وقد وعي النبي ﷺ ما ألقى إليه بلفظه ومعناه ويبلغه الناس ، فيكون معجزاً لأن لفظه وتركيبه من عند الله .

وأما الحديث النبوي فهو تعبير عن الحقائق والمعاني والأفكار التي تفيض بها نفس النبي ﷺ بلفظه هو عليه الصلاة والسلام ، وهو صدق وحق لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى أبداً .

قالوا : لرواية الحديث القدسي صيغتان ، أحدهما أن يقول : قال رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه ، وهي عبارة السلف . وثانيتها أن يقول : قال الله تعالى فيما رواه عنه رسول الله ﷺ ، والمعين واحد ، ولا شك أن الأولى أفضل لأنها لا توهم التشبيه بالقرآن الكريم .

بين المتن والإسناد

عرفنا في الفصل السابق كيف أن أئمة هذا الفن - جزاهم الله خيراً - بذلوا منتهى الجهد في تحرى أحوال الرواة وشؤونهم ، وأن هذا كان مدار ترجيحهم لصدق الحديث وقوته أو ضعفه .

(*) نشر بمجلة «الشهاب» ، الجزء الثاني ، السنة الأولى ، ص ٢٤ ، بتاريخ صفر ١٣٦٧هـ - ديسمبر ١٩٤٧م .

ويقول بعض الباحثين إنه كان يجب أن تبذل العناية كذلك إلى تمحيص المتن ، والحكم على قوة الأحاديث وضعفها بما يسفر عنه التمحيص ، فقد يأتي بعض المتن وفيه ما لا يتفق مع نتائج البحث العلمي ، ففي الوقت الذي تصرف فيه الهمة إلى الكشف عن أحوال الرجال وتحري شئون الرواة ، يجب كذلك أن نعني بتطبيق متن الحديث على حقائق البحث العلمي والحكم بعد ذلك على الحديث بالميزانين معا لا بميزان واحد، وهذا قول له بعض المبررات وفيه كثير من الوجاهة ، ويجب أن يكون ذلك من عمل هذا الجيل الممحص النقاد الذي ارتقت فيه وسائل النقد العلمي إلى حد كبير ، ولكن يجب ألا تفوتنا مع ذلك هذه الملاحظات :

(١) أن اتهام السلف رضوان الله عليهم بإهمال النظر في المتن جملة غير صحيح فكثيراً ما كانوا يعنون بهذه النظرة ويرددون بعض المرويات لهذا السبب ، ويتخذون من عدم انطباق المتن على قواعد الشرع الجلية دليلاً على ضعف إسناده وصدق نسبه إلى رسول الله ﷺ ووهم راوية كما رد ابن عباس حديث أبي هريرة رضي الله عنه «من حمل جنازة فليتوضأ» ، وعلل هذا الرد بقوله «لا يلزمنا الوضوء في حمل عيدان يابسة» فروح النظر في المتن والاستدلال بها على درجة الحديث كانت موجودة إذن .

(٢) أن هذا الميزان ميزان اعتباري بحسب العقول والعصور كذلك فما تعده نحن اليوم حديث خرافة كان يعتبر في بعض العصور الماضية حقيقية من حقائق العلوم والمعارف الرسمية حينذاك ، والشواهد على هذه كثيرة – وما نعتبره نحن اليوم حقيقة علمية مقررة لو ذكر لمن سبقونا لا اعتبروا قائله مجنوناً ولحكموا عليه بالإعدام ، وقد فعلوا – وتلك طبيعة التطور العلمي – وما كنا لنكلف سلفنا فوق ما يطيقون وجزاهم الله أفضل الجزاء بما جاهدوا أما الأخذ بميزان تمحيص الإسناد ومعرفة حال الرواة والحكم على درجة الحديث بهذا الاعتبار فهو أدق الموازين وأضبطها لأنه يعتمد على أمور حسية واقعية لا يختلف معها التدقيق الصحيح إلا إذا تدخلت الغايات والأهواء ، ومن حسن الحظ أنها لم تتدخل إلا بعد أن تناولت هذا الميزان أظهر النفوس وأنقى القلوب وأعف الأيدي فنفت عنه تحريف الغالين وتأويل المبطلين ، والحمد لله رب العالمين .

(٣) ولهذا كان ما عرف من الأحاديث التي حكم عليها أهل هذا الفن بالصحة مخالف لبعض مقررات العلوم قليلاً جداً ، ونادراً كل الندرة قد أحصى وعرف فلم يتعد العشرات إلى المئات إن لم يكن الأحاد ، وكثير منه يمكن التوفيق بينه وبين هذه المقررات بضرب مقبول ميسور من التأويل ، والباقي يحمل على أنه رواية بالمعنى لم يدقق فيها الراوي و«قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ» ، وسنعرض لشيء من الأمثلة خلال هذا البحث إن شاء الله .

[٧] الرواية والاسناد (*)

المتواتر والآحاد :

الحديث المتواتر : هو ما نقل عن عدد من الرواة يحصل العلم بصدقهم ضرورة بأن يكونوا جمعاً ، لا يمكن تواطؤهم على الكذب ، يروونه عن مثلهم عن مثلهم إلى رسول الله ﷺ .

ولهذا كان مفيداً للعلم الضروري ، ويجب العمل واختلفوا في تحديد هذا العدد : فمن قائل أربعة ، ومن قائل سبعة ، ومن قائل عشرة ، ومن قائل سبعين ، ولم يجمع أهل الفن على عدد معين .

والمتواتر قسمان :

- لفظي : وهو ما تواتر لفظه .
- ومعنوي : وهو ما تواتر القدر المشترك فيه .

وللأول أمثلة كثيرة منها :

- حديث (من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) رواه نحو المائتين .
- وحديث (المسح على الخفين) رواه سبعون .
- وحديث (رفع اليدين في الصلاة) رواه نحو الخمسين .

ومن أمثلة الثاني : أحاديث رفع اليدين في الدعاء ، وقد روي عنه ﷺ نحو مائة حديث فيها : رفع يديه في الدعاء ، ولكنها في قضايا ومواضع مختلفة ، فكل موضع منها لم يتواتر ، ولكن القدر المشترك وهو : رفع اليدين في الدعاء تواتر باعتبار المجموع .

والأحاديث المتواترة قليلة طبعاً لدقة هذا الشرط ، وتعرض توفره ، خصوصاً إذا بالغنا في العدد ، وأخذنا بقول من حدوده بالمائة أو بالسبعين أو نحوها ، ولهذا أثر عن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه لم يظفر من المتواتر إلا بسبعة عشر حديثاً ، فحرف هذا المعنى بعض المغرضين الذين يريدون أن يهربوا من القول بحجية الحديث ، ووجوب العمل به ، وزعموا أن أبا حنيفة مع جلالته قدره في الفقه لم يجد من الأحاديث الصحيحة إلا سبعة عشر حديثاً ، فوضع الصحيح بدلاً من المتواتر ، للاستدلال على ما يريدون ، وهو زعم غير صحيح ، وقد نبهنا عليه ، وأما حديث الآحاد فهو ما لم يتوفر فيه شرط التواتر السابق .

وجوب العمل بخبر الآحاد :

قال النووي رحمه الله تعالى في شرح مقدمة مسلم : نبه مسلم رحمه الله تعالى على القاعدة العظيمة التي ينبني عليها معظم أحكام الشرع وهي : وجوب العمل بخبر الواحد ، فينبغي الاهتمام بها ، والاعتناء بتحقيقها ، وقد أطنب العلماء رحمهم الله في الاحتجاج لها وإيضاحها ، وأفردتها جماعة من السلف بالتصنيف ، واعتنى بها أئمة المحدثين ، وأول من بلغنا تصنيفه فيها الإمام الشافعي رحمه الله ، وقد تقررت أدلتها النقلية والعقلية في كتب أصول الفقه ، ونذكر هنا طرفاً فنقول : اختلف العلماء في حكمه : فالذي عليه جماهير المسلمين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من المحدثين والفقهاء وأصحاب الأصول : أن خبر الواحد الثقة حجة من حجج الشرع ، يلزم العمل بها ، ويفيد الظن ، ولا يفيد العلم ، وإبطال قول من قال لا حجة فيه ظاهر ، فلم تنزل كتب النبي ﷺ

(*) نشر بمجلة «الشهاب» ، الجزء الثالث ، السنة الأولى ، ص ٢١ - ٢٣ ، بتاريخ ١ ربيع الأول ١٣٦٧هـ - ١٣ يناير ١٩٤٨م .

وأحاد رسله يعمل بها ، ويلزمهم النبي ﷺ العمل بذلك ، واستمر على ذلك الخلفاء الراشدون فمن بعدهم من السلف والخلف على امتثال خبر الواحد إذا أخبرهم بسنة ، وقضائهم به ، ورجوعهم إليه في القضاء والفتيا ، ونقضهم به ما حكموا على خلافه ، وطلبهم خبر الواحد عند عدم الحجة ممن هو عنده ، واحتجاجهم بذلك على من خالفهم ، وانقياد المخالف لذلك ، وهذا كله معروف ، لاشك في شيء منه ، والعقل لا يحيل العمل بخبر الواحد ، وقد جاء الشرع بوجوب العمل به ، فوجب المصير إليه ، وأما من قال : يوجب العلم فهو مكابر للحس ، وكيف يحصل العلم واحتمال الغلط والوهم والكذب وغير ذلك متطرق إليه؟! ونقل في الفتح عن ابن القيم ما ملخصه : السنة مع القرآن على ثلاثة أوجه ، أحدها : أن توافقه من كل وجه فيكون من توارد الأدلة ، ثانيها : أن تكون بياناً لما أريد بالقرآن ، ثالثها : أن تكون دالة على حكم سكت عنه القرآن ، وهذا الثالث يكون حكماً مبتدأ من النبي ﷺ فتجب طاعته فيه ، ولو كان النبي ﷺ لا يطاع إلا فيما وافق القرآن لم تكن له طاعة خاصة ، وقد قال تعالى : «مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا» (النساء : ٨٠) ، وقد تناقض من قال : إنه لا يقبل الحكم الزائد على القرآن إلا إن كان متواتراً أو مشهوراً ، فقد قالوا بتحريم المرأة على عمتها وخالتها ، وتحريم ما تحرم من النسب بالرضاعة ، وخيار الشرط والشفعة والرهن في الحضر ، وميراث الجدة ، وتخيير الأمة إذا أعتقت ، ومنع الحائض من الصوم والصلاة ، ووجوب إحداد المعتدة عن الوفاة، وتجويز الوضوء بنبذ التمر ، وإيجاب الوتر ، وأن أقل الصداق عشرة دراهم ، وتوريث بنت الابن السدس مع البنت ، واستبراء المسيية بحيضة ، ولا يقاد الوالد بالولد ، وأخذ الجزية من المجوس ، وقطع رجل السارق في الثانية ، وترك القصاص مع الجرح قبل الاندمال ، والنهي عن بيع الكالئ بالكالئ ، وغيرها مما يطول شرحه ، وهذه الأحاديث كلها آحاد ، وبعضها ثابت ، وبعضها غير ثابت ، ولكنهم قسموها إلى ثلاثة أقسام، ولهم في ذلك تفاصيل يطول شرحها ، ومحل بسطها أصول الفقه .. وبالله التوفيق .

وقد قسموا أحاديث الآحاد بعد ذلك إلى عدة أقسام ، نتناولها في البحث القادم أن شاء الله .

[٨] الرواية والاسناد (*)

أنواع الأحاديث ودرجاتها :

علمت مما تقدم أن الحديث يحكم على درجته بأحوال رواته - وأحوال الرواة لا تحصى وأحوال المتون كذلك - ومن هنا قال السيوطي بعد أن ذكر هو والنووي خمسة وستين نوعاً للأحاديث : «ليس هذا آخر الممكن في ذلك فإنه قابل للتنوع إلى ما لا يحصى» ، ومع ذلك فهذه الأنواع التي لا تحصى لا تخرج عن ثلاثة أقسام : الصحيح والحسن ، والضعيف لأنه إن اشتمل من أوصاف القبول على أعلاها فالصحيح ، أو علي أدناها فالحسن أو لم يشتمل على شيء منها فالضعيف ، ويتصل بكل قسم من هذه الأقسام بحوث نجملها فيما يلي :

الصحيح :

هو ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله مع السلامة من الشذوذ والعلل - وهذا هو الصحيح لذاته - وهناك الصحيح لغيره وهو ما لم تتوفر فيه هذه الشروط بأكمل معانيها ولكنه اكتسب وصف الصحة لسبب آخر كالرواية من غير وجه أو تلقى العلماء له بالقبول ، أو الانطباق التام على الآيات المحكمة أو بعض أصول الشريعة فإن هذه المعاني وأشباهاها ترفعه إلى درجة الصحة .

على أن رتب الصحيح ودرجاته تتفاوت في القوة بحسب تفاوت الأوصاف المتقدمة فما يكون رواته في الدرجة العليا من العدالة والضبط وسائر الطبقات التي توجب الترجيح كان أصح مما دونه ، ومن المرتبة العليا في ذلك ما أطلق عليه بعض أئمة الفن أنه أصح الأسانيد : كالزهري عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه ، وكمحمد بن سيرين عن عبيدة بن عمر السلماني عن علي - وكإبراهيم النخعي عن علقمة عن ابن مسعود - وكما لك عن نافع عن بن عمر قال النووي رحمه الله : والصحيح أقسام أعلاها ما اتفق عليه البخاري ومسلم ثم ما أنفرد به البخاري ثم ما انفرد به مسلم ثم ما كان على شرطهما وإن لم يخرجاه ، ثم على شرط البخاري ثم على شرط مسلم ثم صححه غيرهما من الأئمة فهذه سبعة أقسام .

ولم تستوعب الأحاديث الصحيحة في مؤلف واحد وإن كانت الأصول الخمسة وهي صحيح البخاري وصحيح مسلم وسُنن أبي داود والترمذي والنسائي لم يفتها من الصحيح إلا اليسير كذا قال النووي - وأول مصنف في الصحيح موطأ الإمام مالك وتلاه صحيح البخاري - وإذا قيل أصح شيء في هذا أصح ما جاء في الباب وإن كان ضعيفاً ومرادهم أرجحه أو أقله ضعفاً .

لواحق :

(١) وهل توجب صحة الحديث القطع به ؟ ثلاثة أقوال :

(أ) الوجوب مطلقاً ، وتذهب إلى ذلك ابن طاهر المقدسي .

(ب) عدم الوجوب لجواز الخطأ والنسيان على الثقة ، وعزاه النووي في التقريب للأكثرين والمحققين ، وأنهم قالوا إنه يفيد الظن ما لم يتواتر ، قال في شرح مسلم : لأن ذلك شأن الأحاد ولا فرق في ذلك بين الشيخين وغيرهما ، وتلقي الأمة بالقبول إنما أقاد وجوب العمل بما فيهما من غير توقف على

(*) نشر بمجلة «الشهاب» ، الجزء الرابع ، السنة الأولى ، ص ٢١ ، بتاريخ ربيع الآخر ١٣٦٧هـ - فبراير ١٩٤٨م .

النظر فيه بخلاف غيرهما فلا يعمل به حتى ينظر فيه ويوجد فيه شروط الصحيح ، ولا يلزم ، من إجماع الأمة على العمل بما فيهما إجماعهم على القطع بأنه كلام النبي ﷺ .

(د) تخصيص الوجوب لما رواه الشيخان أو أحدهما وهو اختيار ابن الصلاح وأضاف إليه ابن حجر المشهور والمسلسل بالأئمة ، قال أبو اسحق الإسفراييني : «أهل الصنعة مجمعون على أن الأخبار التي أشتمل عليها الصحيحان مقطوع بصحة أصولها ومتونها ولا يحصل الخلاف فيها بحال وإن حصل فذلك اختلاف في طرقها ورواتها - قال فمن خالف حكمه خبراً منها وليس له تأويل سائغ للخبر نقضنا حكمه لأن هذه الأخبار تلقته الأمة بالقبول» .

واستثنى ابن الصلاح من المقطوع بصحته في الصحيحين ما تكلم فيه من أحاديثهما وقال ابن حجر في شرح النخبة : الخبر المحتف بالقرائن يفيد العلم خلافاً لمن أبى ذلك قال وهو أنواع منها ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما مما لم يبلغ التواتر فإنه أحتف به قرائن منها جلالتهما في هذا الشأن وتقدمهما في تمييز الصحيح على غيرهما وتلقي العلماء لكتابيهما بالقبول ، وهذا التلقي وحده أقوى في إفادة العلم من مجرد كثرة الطرق القاصرة عن التواتر ، إلا أن هذا مختص بما لم ينتقد أحد من الحفاظ وبما لم ينفع التجاذب بين مدلولية حيث لا ترجيح لاستحالة أن يفيد المتناقضان العلم بصدقهما من غير ترجيح لأحدهما على الآخر وما عدا ذلك فالإجماع حاصل على تسليم صحته .

* * *

(٢) وإذا صح الحديث فقد وجب العمل به وإن م يخرج الشيخان ولا يترك العمل به لرأي ولا لتقليد إمام ولا لتوهم إجماع .

قال ابن القيم في إعلام الموقعين : والذي ندين الله عليه ولا يسعنا غيره أن الحديث إذا صح عن رسول الله ﷺ ولم يصح عنه حديث آخر ينسخه أن الفرض علينا وعلى الأمة الأخذ بحديثه وترك ما خالفه ولا نتركه لخلاف أحد من الناس كائنا من كان لا رواية ولا غيره ، إذ من الممكن أن ينسى الراوي الحديث ولا يحضره وقت الفتيا أو يتقطن لدلالته على تلك المسألة ، أو يتأول فيه تأويلاً مرجوحاً ، أو يكون في ظنه ما يعارضه ولا يكون معارضاً في نفس الأمر أو يقلد غيره في فتواه بخلافه لاعتقاده أنه أعلم منه وأنه إنما خالفه لما هو أقوى منه ولو قدر انتفاء ذلك كله - ولا سبيل إلى العلم بانتفائه ولا ظنه - لم يكن الراوي معصوماً ولم توجب مخالفته لما رواه سقوط عدالته حتى تغلب سيئاته حسناته وبخلافه هذا الحديث الواحد لا يحصل له ذلك .. كان الإمام أحمد إذا وجد النص أفتى بموجبه ولم يلتفت إلى ما خلفه ولا من خالفه كائنا من كان ولذا لم يلتفت إلى ما خالفه ولا من خالفه كائنا من كان ولذا لم يلتفت إلى خلاف عمر رضي الله عنه في المبتوتة لحديث فاطمة بنت قيس ولا إلى خلافه في التيمم للجنب لحديث عمار .. وهذا كثير جداً ولم يكن يقدم على الحديث الصحيح عملاً ولا رأياً ولا قياساً ولا قول صاحب ولا عدم علمه بالمخالف الذي يسميه كثير من الناس إجماعاً ، ويقدمونه له على الحديث الصحيح .

وقال الشعراني في الميزان : فإن قلت فما أصنع بالحديث الذي صح بعد موت إمامي ولم يأخذ بها فالجواب ينبغي لك أن تعمل بها فإن إمامك لو ظفر بها وصحت عنده لربما كان أمرك بها ، فإن الأئمة كلهم أسرى في يد الشريعة ومن فعل ذلك فقد حاز الخير بكلتا يديه ، ومن قال لا أعمل بالحديث إلا أن أخذ به إمامي فإنه خير كثير كما عليه كثير من المقلدين لأئمة المذاهب وكان الأولى لهم العمل بكل حديث صح بعد إمامهم تنفيذاً لوصية الأئمة فإن اعتقادنا فيهم أنهم لو عاشوا وظفروا بتلك الأحاديث التي صحت بعدهم لأخذوا بها وعملوا بها وتركوا كل قياس كانوا قاسوه وكل قول كانوا قالوه ، وقد بلغنا من طرق صحيحة أن الإمام الشافعي أرسل يقول للإمام أحمد ابن حنبل : إذا صح عندكم حديث فأعلمونا به لناخذ به ونترك كل قول قبل ذلك أو قاله

غيرنا فإنكم أحفظ للحديث - ونحن أعلم به - وقال فر الرد غي من يزعم أن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه يقدم القياس على الحديث ، ما نصه : ويحتمل أن الذي أضاف إلى الإمام أبي حنيفة أنه يقدم القياس على النص ظفر بذلك في كلام مقلدية الذين يلزمون العمل بما وجده عن إمامهم من القياس ويتركون الحديث الذي صح بعد موت الإمام ، الإمام معذور وإتباعه غير معذورين ، وقولهم إن إمامنا لم يأخذ بهذا الحديث لا ينهض حجة لاحتمال أمه لم يظفر به ، أو ظفر به ولكن لم يصح عنده ، وقد تقدم قول الأئمة كلهم إذا صح الحديث فهو مذهبننا ، وليس لأحد معه قياس ولا حجة إلا طاعة الله وطاعة رسوله بالتسليم له .

وقال ابن عابدين الدمشقي في شرح المنظومة المسماة بعقود رسم المفتي صح عن أبي حنيفة أنه قال : إذا صح الحديث فهو مذهبي . ونقل فيها عن العلامة قاسم أنه قال في رسالته المسماة رفع الاشتباه عن مسألة المياه : لما منع علماؤنا رضي الله عنهم من كان له أهلية النظر من محض تقليدهم على ما رواه الشيخ الإمام العالم العلامة أبو اسحق إبراهيم بن يوسف قال حدثنا أبو يوسف عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى أنه قال : ليس لأحد أن يفتي بقولنا ما لم يعرف من أين قلنا تتبعنا مأخذهم وحصلت منها بحمد الله تعالى على الكثير ولم أقنع بتقليد ما في صحف كثير من المحدثين ، وقال في رسالة أخرى : وإني والله الحمد لأقول كما قال الطحاوي لابن حربويخ- لا يقلد إلا عسبي أو غبي .

* * *

(٣) يجب أن تفهم ألفاظ الحديث على طبيعتها ودلالاتها من غير غلو في التأويل ولا تقصير دون المراد .

قال ابن القيم في كتاب الروح : ينبغي أن يفهم عن الرسول ﷺ من غير غلو ولا تقصير فلا يحمل كلامه مالا يحتمله ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان ، وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال عن الصواب مالا يعمله إلا الله ، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع ولاسيما إذا أضيف إليه سوء القصد فيتفق سوء الفهم في بعض الأشياء من المتبوع من حسن قصده وسوء القصد من التابع فيا محنة الدين وأهله والله المستعان ، وما أوقع القدرية والمرجئة والخوارج والمعتزلة والجهمية والروافض وسائر طوائف أهل البدع إلا سوء الفهم عن الله ورسوله ﷺ حتى صار الدين بأكثر أيدي الناس هو موجب هذه الإفهام والذي فهمه الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومن تبعهم عن الله ورسوله فمهجور لا يلتفت إليه ولا يرفع هؤلاء به رأساً .

وقال الشيخ علم الدين الفلاني المالكي في كتابه إيقاظ الهمم : ترى بعض الناس إذا وجد حديثاً يوافق مذهبه فرح به وانقاد له وسلم وإن وجد حديثاً صحيحاً سالمًا من النسخ والمعارض مؤيداً لمذهب غير إمامه فتح له باب الاحتمالات البعيدة وضرب عنه الصفح والعارض ويلتمس لمذهب إمامه أوجهها من الترجيح مع مخالفته للصحابة والتابعين والنص الصريح ، وإن شرح كتاباً من كتب الحديث صرف كل حديث خالف رأيه الحديث وإن عجز عن ذلك كله داعي النسخ بلا دليل أو الخصوصية أو عدم العمل به أو غير ذلك مما يحضر ذهنه العليل وإن عجز عن ذلك كله أدعي أن إمامه اطلع على كل مروى أو جله فما ترك هذا الحديث الشريف إلا وقد اطلع على طعن فيه برأيه المنيف ، فيتخذ علماء مذهبه أرباباً ويفتح لمناقبتهم وكراماتهم أبواباً ، ويعتقد أن كل من خالف ذلك لم يوافق صواباً وإن نصحه أحد من علماء السنة اتخذه عدواً ولو كانوا قبل ذلك أحبباً وإن وجد كتاباً من كتب مذهب إمامه المشهورة قد تضمن نصحه وذم الرأي والتقليد وحرص على إتباع الأحاديث المشهورة نبذه وراء ظهره وأعرض عن نهيه وأمره واعتقده حجراً محجوراً .

* * *

(٤) ومن الحكمة والكياسة في التحديث تحرى المصلحة والمناسبات في الرواية فلا يحدث بكل صحيح كل أحد.

روي الشيخان عن معاذ رضي الله عنه قال : كنت ردف النبي ﷺ على حمار فقال يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله قلت الله ورسوله أعلم قال فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً قلت يا رسول الله أفلا أبشر به الناس ، قال لا تبشرهم فيتكلوا ، وفي رواية لهما عن أنس أن النبي ﷺ وهو ردفه ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار ، قال يا رسول الله : أفلا أخبر به الناس فيستبشروا قال إذن يتكلوا - فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً - وروي البخاري تعليقاً عن علي رضي الله عنه حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله ، وروي مسلم عن ابن مسعود قال : ما أنت محدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة .

وقال الحافظ بن حجر : وممن كره التحديث ببعض دون أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على الأمير ومالك في أحاديث الصفات وأبو يوسف في الغرائب ومن قبلهم أبو هريرة ، كما روي عنه في الجرابين^(١) ، وأن المراد ما يقع من الفتن ونحوه عن حذيفة ، وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنبيين^(٢) ، لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمد منه من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي ، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة وظاهره في الأصل غير مراد ، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب .

حسن البنا

(١) روى البخاري من حديث أبي هريرة أنه قال : حفظت عن رسول الله ﷺ وعاءين فأما أحدهما فبثنته وأما الآخر فلو بثننته قطع هذا البلعوم .

(٢) قوم قدموا على النبي ﷺ فأسلموا ثم طلبوا أن يكونوا بظاهر المدينة بحجة عدم موافقة جوها لهم فأمرهم النبي ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من ألبانها ففعلوا ثم انتهزوا غرة المسلمين فارتدوا وقتلوا الرعاة واستاقوا الإبل فبعث النبي ﷺ في آثارهم ، فأتي بهم فقطع أيديهم وسمل أعينهم ثم لم يحسمهم حتى ماتوا والقصة في الصحيحين وغيرهما .

[٩] الرواية والاسناد (*)

درجات الأحاديث

الحديث القدسي

قال الشيخ تقي الدين بن تيمية : «أول من عرف أنه قسم الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف أبو عيسى الترمذي ولم تعرف هذه التسمية عن أحد قبله ، وقد بين أبو عيسى مراده بذلك فذكر أن الحسن ما تعددت طرقه ولم يكن فيهم متهم بالكذب ولم يكن شاذاً وهو دون الصحيح الذي عرف عدالة ناقله وضبطهم .. وأما من قيل الترمذي من العلماء عرف عنهم هذا التقسيم الثلاثي لكن كانوا يقسمونه إلى صحيح وضعيف ، والضعيف كان عندهم نوعان : ضعيف ضعفاً لا يمتنع العمل به وهو يشبه الحسن في اصطلاح الترمذي ، وضعيف ضعفاً يوجب تركه وهو الواهي» أ.هـ.

والحسن قسمان : حسن لذاته ، وهو ما اشتهر رواته بالصدق ولم يصلوا في الحفظ رتبة رجال الصحيح ، وهذا تعريف ابن الصلاح ، وقال الطيبي «الحسن مسند من قرب من درجة الثقة أو مرسل ثقة وروي كلاهما من غير وجه وسلم من شذوذ وعلّة» ، وقد تقم تعريف الترمذي من أطف تعاريفه «ما اتصل إسناده بنقل عدل قل ضبطه عن الصحيح غير شاذ ولا معلل» ، وخلصتها جميعاً أنه أقل من الصحيح وفوق الضعيف .

وحسن لغيره : وعرفه ابن الصلاح بما كان في إسناده مستور لم تتحقق أهليته غير مغفل ولا كثير الخطأ في روايته ولا متهم بتعمد الكذب فيها ولا ينسب إلى مفسق آخر واعتضد بمتابع أو شاهد فأصله ضعيف وإنما طرأ عليه الحسن بالعاضد الذي عضده . فاحتمل لوجود العاضد ، ولولاه لاستمرت صفة الضعف فيه ولاستمر على عدم الاحتجاج به .

وللحسن رتب كالصحيح ، فأعلاها ما قيل بصحته كبهز بن حكيم عن أبيه عن جده وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ومحمد بن اسحق عن عاصم بن عمر عن جابر وأمثاله ذلك وهو أدنى مراتب الصحيح ، ثم بعد ذلك ما اختلف في تحسينه وضعفه ، كحديث الحارث بن عبد الله وعاصم بن ضمرة وحجاج بن أرطاه ونحوهم ، قاله الحافظ الذهبي .

والحسن لذاته المشهور رواته بالعدالة والصدق اشتهار دون اشتهار رجال الصحيح إذا روي من وجه آخر ترقى من الحسن إلى الصحيح وهذا هو الصحيح لغيره ومثاله حديث الترمذي من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «لولا أن اشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» فإن محمداً وإن اشتهر بالصدق والصيانة وثقة بعضهم لذلك لم يكن متقنا لسوء حفظه فحديثه حسن لذاته ، وبمتابعة محمد عليه في شيخ شيخه وهو أبو هريرة يرتقي إلى الصحة لغيره فقد رواه جماعة غير أبي هريرة ، والمتابعة قد يراد بها متابعة الشيخ وقد يراد بها متابعة شيخ الشيخ والحديث رواه الشيخان من طريق العرج عن أبي هريرة فهو صحيح لذاته من هذا الطريق ، صحيح لغيره من طريق محمد بن عمرو .

(*) نشر بمجلة «الشهاب» ، الجزء الخامس ، السنة الأولى ، ص ٢٠ ، بتاريخ جمادى الأولى ١٣٦٧هـ - مارس ١٩٤٨م .

وجمهور المحدثين وعامة الفقهاء على أن الحسن كالصحيح في الاحتجاج به وإن كان دونه في القوة ولهذا أدرجه طائفة غفي أنواع الصحيح كالحاكم وابن حبان وابن خزيمة - وقال السخاوي منهم من يدرج الحسن في الصحيح لاشتراكهما في الاحتجاج بل نقل ابن تيمية إجماعهم «إلا الترمذي خاصة» عليه - وقال الخطابي : على الحسن مدراً أكثر الحديث ، لأن غالب الأحاديث ، لا تبلغ رتبة الصحيح - وعمل به عامة الفقهاء وقبله أكثر العلماء - قال وشدد بعض أهل الحديث فرد بكل علة ، قاذحة كانت أم لا ، كما روي عن أبي حاتم أنه قال سألت أبي عن حديث فقال إسناده حسن فقلت يحتج به ؟ فقال : لا .. أهـ

* * *

وزيادة راوي الصحيح والحسن مقبولة إذ هي في حكم الحديث المستقل وهذا إن لم تناف رواية من لم نرد فإن نافتها ولزم من قبولها رد الأخرى احتج للترجيح ، فإن كان لأحدهما مرجح فالأخرى شاذة ، قال الحافظ ابن حجر في النخبة وشرحها «وزيادة راويهما أي الصحيح - والحسن مقبولة ما لم تقع منافية لرواية من هو أوثق ممن لم يذكر تلك الزيادة ، لأن الزيادة إما أن تكون لا تنافي بينهما وبين رواية من لم يذكرها فهذه تقبل مطلقاً لأنها في حكم الحديث المستقل الذي ينفرد به الثقة ولا يرويه عن شيخه غيره ، وإما أن تكون منا فيه بحيث يلزمهم من قبولها رد الرواية الأخرى فهذه التي يقع الترجيح بينها وبين معارضتها فيقبل الراجح ويرد المرجوح - واشتهر عن جمع من العلماء القول بقبول الزيادة مطلقاً من غير تفصيل ولا يتأتى ذلك على طريق المحدثين الذين يشترطون في الصحيح ألا يكون شاذاً ثم يفسرون الشذوذ بمخالفة الثقة من هو أوثق منه ، والعجب ممن أغفل منهم ذلك مع اعترافه باشتراط انتفاء الشذوذ في حد الحديث الصحيح وكذا الحسن - والمنقول عن أئمة الحديث المتقدمين كعبد الرحمن بن مهدي ويحيى القطان . وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلي بن المدني والبخاري وأبي زرعة وأبي حاتم والنسائي والدرقطني وغيرهم اعتبار الترجيح فيما يتعلق بالزيادة وغيرها ، ولا يعرف عن أحد منهم إطلاق قبول الزيادة» أهـ

* * *

ويصف الترمذي بعض الأحاديث بأنه «حسن صحيح» ويرى بعض المحدثين في هذا التعبير ما يستوقف النظر لان وصف الحسن قاصر عن الصحة وقد أجاب عن ذلك الحافظ ابن حجر بقوله إن تردد أئمة الحديث في حال ناقلية اقتضى للمجتهد ألا يصفه بأحد الوصفين فيقال فيه حسن باعتبار وصفه عند قوم وصحيح باعتبار وصفه عند قوم وغاية ما فيه أنه حذف منه حرف التردد لأن حقه أن يقول حسن أو صحيح وعليه فما قيل فيه حسن صحيح دون ما قيل فيه صحيح لأن الجزم أقوى من التردد وهذا حيث التفرد فإن لم يصل تفرد فإطلاق الوصفين على الحديث يكون اعتبار إسنادهما صحيح فقط والآخر حسن وعلى هذا فما قيل فيه حسن صحيح فوق ما قيل فيه صحيح فقط إذا كان فرداً لأن كثرة الطرق تقوى .

ألقاب تشمل الصحيح والحسن :

الجيد والقوي والصالح والمعروف والمحفظ والمجود والثابت والمقبول ، كلها ألفاظ مستعملة عند أهل هذا الحديث في الخبر المقبول صحيحاً كان أو حسناً أو ضعيفاً يصلح للاعتبار وسيأتي بيانه عند الكلام على الحديث الضعيف إن شاء الله .

حسن البناء

الأمراء الأربعة :

بينما كانت جيوش الإسلام المظفرة تغزو الفرس ، وتنتقل في جوانب الإمبراطورية العظيمة من نصر إلى نصر ، اعتزم الخليفة الأول رضوان الله عليه غزو الروم كذلك فعقد الألوية الأربعة من أمراء المسلمين العظام ، ووجههم إلى الشام يستفتحون بها هجومهم على الإمبراطورية الرومانية ، وكان هؤلاء القواد الأربعة :

- (١) أبو عبيدة عامر بن الجراح ووجهته حمص ومركز قيادته الجابية وهو الأمير العام .
- (٢) يزيد بن أبي سفيان ووجهته دمشق .
- (٣) شرحبيل بن حسنة ووجهته وادي الأردن .
- (٤) عمرو بن العاص ووجهته فلسطين وعليه أن يكون مددًا لمن سبقه إن احتاجوا إليه .

وصية :

وينقل المؤرخون كثيرًا من وصايا أبي لكر لقواده ، ومن أجمعها ما ذكره الواقدي أن أبا بكر أوصى به عمرو بن العاص ، ولئن كانت رواية الواقدي في كتابه «فتوح الشام» ليست مما يعتد به إلا أن ما جاء في هذه الوصية ليس غريبًا ولا بعيدًا مما ثبت في الروايات الصحيحة من وصايا الصديق رضي الله عنه لقواده ، ولقد أعجب المؤرخون من الفرنجة بهذه الوصية وترجمها الكثير منهم مثل جيون وأيرفنج ، قال الواقدي دعا أبو بكر عمرو بن العاص فسلمه الراية وقال : «قد وليتكم هذا الجيش فانصر إلى فلسطين ، وكاتب أبا عبيدة وأنجده إذا أرادك ، ولا تقطع أمرًا إلا بمشاورته ، اتق الله في شرك وعلانيتك ، واستحيه في خلواتك فإنه يراك في عملك ، وقد رأيت تقدمي لك على من هم أقدم منك سابقة وأقدم حرمة ، فكن من عمال الآخرة ، وأرد بعملك وجه الله ، واسلك طريق إيلياء حتى تنتهي إلى أرض فلسطين ، وإياك أن تكون وانيًا عما نذبتك إليه ، وإياك والوهن ، وإياك أن تقول جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ولا قوة لي به ، واعلم يا عمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر فأكرمهم واعرف حقهم ، ولا تتطاول عليهم بسلطانك ، ولا تداخلك نحو الشيطان فتقول إنما ولاني أبو بكر لأنني خيرهم وإياك وخداع النفس ، وكن كأحدهم وشاورهم فيما تريد من أمرك ، والصلاة ثم الصلاة ، أذن بها إذا دخل وقتها ، واحذر من عدوك ، وأمر أصحابك بالحرس ، ولتكن أنت بعد ذلك مطلعًا عليهم ، وأطل الجلوس بالليل على أصحابك ، وأقم بينهم واجلس معهم واتق الله إذا لاقيت العدو ، وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك ، وإذا وعظت فأوجز ، وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك ، وإذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر ، فيكون ذلك منك فخراً ، وألزم أصحابك قراءة القرآن وانهم عن ذكر الجاهلية وما كان فيها فإن ذلك يورث العداوة بينهم ، وأعرض عن زهرة الدنيا حتى تتلقي بمن مضى من سلفك ، وكن من الأئمة الممدوحين في القرآن إذ يقول الله تعالى «وَجَعَلْنَاهُمْ أئمةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَةَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ» .

تجمع ووحدة وانتصار :

وعلى ضفاف اليرموك تجمع القواد الأربعة حين علموا بما جمع لهم هرقل من جند الروم باقتراح عمرو بن العاص وأدركهم خالد بن الوليد مدداً بأمر أبي بكر رضي الله عنه بعد أن قام بمغامرته الجريئة في اختراق

(*) نشر بمجلة «الشهاب» ، الجزء الثاني ، السنة الأولى ، ص ٦٣ ، بتاريخ صفر ١٣٦٧هـ - ديسمبر ١٩٤٧م .

بادية السماوة ، ورأهم يقاتلون متساندين كل قائد يحرك جنده بغير قيادة موحدة تحركهم جميعاً ، وقد اعتزم الروم لقاءهم فخطبهم خطبته المشهورة وقال : «إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم فإن هذا اليوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبئة وأنتم على تساند وانتشار فإن ذلك لا يحل لكم ولا ينبغي ، وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه رأيي من واليكم ومحبتة . قالوا : فهات فما الرأي ؟ قال إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنياسر ولو علم بالذي كان ويكون لما جمعكم ، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من إمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فإله الله ، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه أن دان لأحد من أمراء الجنود ولا يزيده عليه أن دانوا له ، إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ، هلموا فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له ما بعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وإن هزمونا لم نفلح بعدها فلنتعاور الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعوني أليكم اليوم» .

واستمع القواد لرأي خالد وأمروه وعبأهم أحسن تعبئة والتقى الجمعان على ضفاف اليرموك وهوى الروم في «الواقصة» وانتهى الأمر بنصر عزيز لم تقم بعده لجند الروم بالشام قائمة حتى إن هرقل لما بلغته أنباء الهزيمة المنكرة وهو دون حمص ارتحل مودعا سورية بكلمته المشهورة : سلام عليك يا سورية سلام من لا يراك بعد . وكان ذلك خلال سنة ١٣ ثلاث عشرة هجرية وجاء مع نهاية الفتح نبأ وفاة أبي بكر وعزل خالد وتولية أبي عبيدة وخلافة عمر بن الخطاب ووقف خالد من ذلك موقفه الرائع الذي لا ينساه له التاريخ أبداً ، وقال قولته المشهورة : الحمد لله الذي قضى على أبي بكر الموت وكان أحب إلى من عمر ، والحمد لله الذي ولى عمر وكان أبغض إلى من أبي بكر ثم ألزمني حبه .

إلى فلسطين :

وتوجه عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة إلى بيسان فصالحوا أهلها وأمنوهم ثم إلى طبرية كذلك وكان على فلسطين وال روماني يسميه العرب «أرطوبون» ويسميه الفرنجة «أريطيون» Aretion فقصده إليه عمرو وكتب إلى عمر يستمده ، فقال عمر في ذلك : رمينا أرطوبون الروم بأرطوبون العرب فانظر عما تنفرج والتقي القائدان في أجنادين ودارت رحى الحرب التي انتهت بهزيمة الروم وانسحاب أرطوبون إلى «إيلياء» أو بيت المقدس حيث اخذ يحصنها ويقوي أسوارها ويعدها للدفاع .

وبانتصار عمرو في أجنادين استطاع بعد ذلك الاستيلاء على يافا ونابلس وعسقلان وغزة وعكا والرملة وبيروت ولد والجبلة حتى وصل إلى بيت المقدس .

على أسوار إيلياء :

نصب «أرطوبون» منجنيقاته على أسوار بيت المقدس وأخذ يقذف الجيش المحاصر بحجارتها ويسبب له كثيراً من المتاعب ، وعمرو يفاوضه ويطاوله رجاء أن يفتح المدينة المقدسة صلحاً لمكانتها وحرمتها وفضل بيت المقدس فيها ، ودام هذا الحصار أربعة أشهر وأخبار انتصارات المسلمين وهزيمة الروم وفتح مدن الشام وحصونها حصناً بعد حصن تترى على حامية المدينة فتفتت في عضدها وتصل باليأس إلى قلوبها حتى أيقنت وأيقن معها أهل البلد بانقطاع المدد واستحالة الدفاع وأنهم مأخوذون لا محالة ، وكتب إليهم أبو عبيدة يدعوهم إلى الإيمان بالله وبرسوله أو الدخول في طاعة المسلمين ودفع الجزية – فاستجابوا لدعوة الصلح وأرادوا أن يستوثقوا لأنفسهم ومدينتهم فاشترطوا أن يكون هذا الصلح مع عمر خليفة المسلمين نفسه وصادف ذلك عزم أمير المؤمنين على زيارة الشام فأجابهم عمرو إلى ما طلبوا وكتب إلى عمر بذلك فتجهز وخرج إلى الشام لأول مرة

في خلافته ، وكتب إلى أمراء الشام أن يستخلفوا على أعمالهم ويوافقوه بالجابية فلقوه بها ، وكان أول من لقيه يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد على الخيول عليهم الديباج والحريز ، فلما رأى عمر ذلك كبر عليه أن يرى القوم في مثل هذه الزينة والزخرف وهم قريبو عهد برسول الله ﷺ ، وخاف عليهم أن يكونوا قد افتتنوا بالدنيا وزينتها فنزل عن دابته وأخذ الحجارة ورماهم بها لا يحجزه عنهم ما لهم من مكانة شامخة وقال سرع مالفتم عن رأيكم ، إياي تستقبلون بهذا الزى وإنما شبعتم منذ سنتين سرع ما نددت بكم البطنة تالله لو نعلتموها على رأس الممتئين لاستبدلت بكم غيركم – فقالوا يا أمير المؤمنين إنها يلامقة وإن علينا السلاح قال فنعم إذن ، ونزل الجابية وجاء أهل إيلياء وأخبروه أنهم نواب الصلح وأن أميرى الجند الرومي قد لحقا بمصر ، فصالحهم عمر على إيلياء حيزها والروملة وحيزها وكتب لهم بذلك كتبًا ، وكتب لأهل إيلياء كتابًا هذا نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم .. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمتها وبريئها وسائر ملتها ، لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت – وفي رواية اللصوص – فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وعلى صلبيهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان – هكذا كتب التاريخ بغير تعيين فلان هذا أو بان المقصود منه – فمن شار منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية» شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان ، وكتب وحضر سنة ١٥ هـ .

وشخص عمر إلى بيت المقدس وسار حتى دخل كنيسة القيامة وحان وقت الصلاة فقال للبطرك أريد الصلاة ، فقال له صل موضعك فامتنع وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفردًا ، فلما قضى صلاته قال للبطرك : لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون من بعدي وقالوا هنا صلى عمر وكتب لهم ألا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ، ثم قال أرني موضعًا أبني فيه مسجدًا فدلته على ردم كانت الروم دفنت فيه بيت المقدس فقال عمر : أيها الناس اصنعوا كما أصنع وجثا في أصل الردم وحثا التراب في قبائه وعمل بنفسه في إزالته ، واقتدى به المسلمون فسوى لحينه وأمر ببناء المسجد وجعل قبلته في صدره وصدق الله العظيم «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ» .. والله عاقبة الأمور .

حسن البناء

[١١] عجل السيد (*)

وجاءنا من أحد الفضلاء هذا الخطاب :

السلام على فضيلتكم ورحمة الله وبركاته ،،،

«وبعد» فقد قرأت في مجلة الشهاب الغراء (العدد الثالث) ما ذكرتموه في (حكمة التسمية) ، وقد استوقفت نظري كلمة (عجل السيد) بعد عبارة [ولقد استمر ظل هذه العقائد الفاسدة ممتداً حتى وصل إلى بعض المجتمعات الإسلامية وكنا نسمع إلى وقت قريب «عجل السيد»].

فأرجو الإفادة عن (عجل السيد) هذا هل هو معبود كما يفهم من سياق حديث فضيلتكم .. أن نذر كما أفهم من قبل .. رجائي الإفادة للأهمية ولفضيلتكم الشكر الجزيل .

«الشهاب» وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته «وبعد» فشكر الله للأخ تتبعه للموضوع ورغبته في الاستزادة من الإيضاح وجزاه خيراً وليس عجل السيد معبوداً ولا نذراً فأما إنه ليس معبوداً فلأن الذين أطلقوه لم يقصدوا بإطلاقه أن يعبدوه ولا أن يعبدوا الناس من دون الله ، وأما إنه ليس نذراً فلأن النذر الشرعي لا يكون إلا لله فلا يصح أن يقال نذرت للولي ولا للنبي ولا لغيرهما ولكن يقال نذرت لله أن أتصدق على الفقراء بلحم عجل أو بمبلغ من المال أو نذرت لله أن أصوم أو أصلي أو نذرت لله إن حصل كذا أن أفعل كذا من أنواع الطاعات المشروعة والذين يطلقون عجل السيد لا ينزرونه على هذه الصورة فهو ليس نذراً شرعياً من هذه الوجهة .

وإذا لم يكن معبوداً ولا نذراً فما هو إذن ؟ الجواب أنه عمل خاطيء أراد به فاعله التقرب إلى الله بإظهار محبته لأحد من اعتقد أنهم أولياء الله فعبر عن عاطفته هذه بأن ترك هذا العجل على أن يكون ذبيحة في وقت ما للفقراء فأخطأ في النذر وفي طريقة الصدقة وأشبهه بتصرفه الخاطيء هذا ما كان يصنع مشركو الجاهلية في الأنعام والذبائح والقرابين من إطلاقها باسم آلهتهم المزعومة وتحديد صفات وأسماء لها ما أنزل الله بها من سلطان وقد رد القرآن عليهم عملهم هذا فقال في سورة الأنعام «وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» الآية ١٣٦ ، وقال في سورة المائدة «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» الآية ١٠٣ ، وسنأتي معاني هذه الأسماء في بحث العقائد في العدد القادم إن شاء الله ، ومن واجب المؤمنين أن ينتزهوا عن كل هذه البقايا ، فمن شاء النذر فليجعله لله خالصاً وليتصدق به على ما شاء «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ» والله أعلم .

اقتراح جليل :

وكتب إلينا الأخ العزيز الأستاذ حسن على خطاب خريج كلية العلوم وأحد الإخوان المسلمين بشعبة منشية الصدر يقترح على تحرير الشهاب الإسراع بتأليف لجنة للإفتاء تكون مهمتها موافاة القراء بأحكام المعاملات

(*) نشر بمجلة «الشهاب» ، الجزء الرابع ، السنة الأولى ، ص ٧١ ، بتاريخ غرة ربيع الأول ١٣٦٧هـ - فبراير ١٩٤٨ م .

العصرية التي لم ينص على حكمها في كتب الفقه السابقة كالأسهم والسندات والتأمين ونحوها مع تحديد وجهة النظر العملية في الفتيا تحديدا واضحا يخرج الناس من الحيرة في التطبيق ونحن نشكره على اقتراحه الجليل وسنأخذ به إن شاء الله .

كما أننا سنحاول شرح الكلمات الصعبة ابتداء من العدد السادس إن شاء الله أخذا باقتراح حضرته كذلك جزاه الله خيرا .

حسن البنا

[١٢]

حديث الجمعة .. (*)

«قنوت»

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : كان النبي ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم يدعو في الصلاة حين يقول «سمع الله لمن حمده .. ربنا ولك الحمد» ، ثم يقول وهو قائم قبل أن يسجد «اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين .. اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم كمنى يوسف» ، ثم يقول «الله أكبر» فيسجد (أخرجه أحمد والنسائي والسيحان وأبو داود وزاد) ، قال أبو هريرة وأصبح رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم فلم يدع لهم ، فذكرت ذلك له ، فقال «أما تراهم قد قدموا» ؟

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : قنت رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم شهراً متتابعاً في الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح في دبر كل صلاة إذا قال «سمع الله لمن حمده» من الركعة الأخيرة يدعو على أحياء من بني سليم على رعل وذكوان وعقبة ، ويؤمن من خلفه (أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم) .

وعن أبي سعيد رضى الله عنه : قنت رسول الله ﷺ شهراً يدعو على عصابة وذكوان ، ولما ظهر عليهم ترك القنوت .

ولهذه الأحاديث وغيرها من أمثالها قال جمهور المحدثين : يسن للإمام القنوت للنوازل في كل الصلوات بين الركوع جهراً ويؤمن من خلفه ، وبه قال الخلفاء الأربعة والشافعي وأحمد وبعض الحنفية وابن حبيب المالكي .

وقال أبو داود سئل أحمد عن القنوت ، فقال : يعجبنا أن يقنت الإمام ويؤمن من خلفه ، وحكى الحافظ في الفتح : الاتفاق على الجهر في قنوت النازلة ، كما يسن أن يقنت المنفرد أيضاً .

وأية نازلة أفدح وأعظم وأكبر وأضخم من أن يضرب على الأمة الذل والاستعباد ، ويجدد غاصبها حقها في الحرية والاستقلال ، وتقضي سبعة أشهر من تاريخها في هذا الوقت الذي تنقرر فيه مصائر الأمم والشعوب بالدقائق والساعات في مفاوضات فاشلة ومحادثات باطلة لا تسمن ولا تغني من جوع .

وإذا كان ذلك كذلك .. فقد أصبح مطلوباً من أئمة المسلمين وعامتهم في شعب وادي النيل أن يلجأوا إلى الله ليرفع عنهم هذا البلاء وأن يقنتوا في كل الصلوات بعد الركوع في الركعة الأخيرة ، ويلحوا على الله في الدعاء بهذا القنوت أو نحوه : «اللهم رب العالمين ، وأمان الخائفين ، ومذل المتكبرين ، وقاصم الجبارين تقبل دعاءنا ، وأجب نداءنا ، وأنلنا حقنا ، ورد علينا حريتنا واستقلالنا .. اللهم إن هؤلاء الغاصبين من البريطانيين قد احتلوا أرضنا ، وجددوا حقنا ، وطغوا في البلاد فأكثرنا فيها الفساد .. اللهم فرد عنا كيدهم ، وفل حدهم ، وفرق جمعهم وخذهم ومن ناصرهم أو أعانهم أو هادنهم أو وادهم ، أخذ عزيز مقتدر .. اللهم واجعل الدائرة عليهم ، وسق الوبال إليهم ، وأذل دولتهم ، واذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من المؤمنين آمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً» .

(*) نشر بمجلة «الإخوان المسلمين» ، السنة الأولى ، العدد (١٣٥) ، بتاريخ ١٥ ذو القعدة سنة ١٣٦٥هـ - ١٠ أكتوبر ١٩٤٦م ، ٣٠ توت ٦٦٣ .

أيها الإخوان المسلمون ..

قد يرى الكثير من الذين لم يتذوقوا حلاوة الدعاء في السحر ولم تكسف لهم أضواء الإيمان مدى ما لسهام القدر من أثر ، أن هذا الذي تلجأون إليه وتعتمدون عليه معنى من معاني الضعف لا يليق بالمجاهدين ولا يجعل بالمتحمسين ، ولا يدخل في أساليب السياسيين .

فقولوا لهؤلاء على رسلكم أيها اللائمون ، فإننا نرى ما لا ترون ، وقلوب العارفين لها عيون ، ونحن نعتقد أن ذلك أقوى القوة وأمنع العدة ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، والله جنود السموات والأرض ، وكفى بالله ولياً ، وكفى بالله نصيراً .. صدق الله العظيم «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّعْيَىٰ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» .

حسن البنا

الباب الرابع

مقالات متنوعة لكتاب آخرين

- (١) في محيط الدعوات .. تحليل ومقارنة : العقل الباطن – حقيقة التدين الزائف – الصابئة قديماً وحديثاً
لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الغزالي
- (٢) في محيط الدعوات .. الكمال المزعوم – المذاهب العلمية السائدة – تقليد أعمى
لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الغزالي
- (٣) مصر – ادرالتش – ربيع الإس – لامي
- (٤) مصر – ادرالتش – ربيع الإس – لامي
للأستاذ محمد الشافعي اللبسان بك
- (٥) مثل علي – من آداب الق – رآن
للأستاذ الشيخ محمد بهجت البيطار
- (٦) العصية المذهبية – في الفقه – ه
للأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا
- (٧) رابط – الإس – لام
للأستاذ الشيخ عيسى الخفيف
- (٨) مشروع تقييد الطلاق وتعدد الزوجات (بحث قيم)
لفضيلة الشيخ محمد أبي زهرة
- (٩) من حسن البنا إلى مصطفى مشهور (ثمانى مقالات) في جريدة الشرق الأوسط
بقلم الأستاذ غسان الإمام
- مصالح الإخوان الرأسمالية أضعفت موقفهم السياسي
- نفعية التحالفات تبتذل الحياة الديمقراطية
- أدب الممارسة السياسية عند الإخوان المسلمين
- احتمالات المواجهة بين الإخوان والدولة
- متى تقوم الدولة الإخوانية .. ؟
- موقع الإخوان في المشروع الدينى
- اجتهادات في نقد المشروع الإخوانى
- نحو مصالح الإخوان مع الشورى والديمقراطية
- (١٠) رسالة بالإنجليزية كتبها الدكتور سعيد رمضان

[١]

في محيط الدعوات .. (*) تحليل ومقارنة

العقل الباطن - حقيقة التدين الزائف - الصابئة قديماً وحديثاً

في نفوس البشر ركام كثيف من الغرائز المرسله والنزعات المشبوبة والشهوات الجامحة ، تأتلف جميعاً لتصوغ العمل الإنساني فيما نشاء له من قوالب ، ولتلونه بما تحب له من صبغة .

وليست النفس حين تتحرك لإدراك غاية قصدت إلى تحقيقها باذلة جهداً يكفها العنت أو يشعرها ألم السعي، ما دامت حرارة الرغبة تمدها بالوقود فتدفعها ، وطلاب اللذة يحدوها مزخرفاً لها الغرض البعيد حتى تظفر به وتطمئن إلى مناله .

ذلك هدى العقل الباطن وحده - كما اصطلح علماء النفس - حيث لا جديد في فطرة الإنسان العتيدة على ما ذرأها الله وقبلما تدرکہا قيود الدين فتكبح من جماعها ، وتعاليمه فتهدب من ميولها ، وأنظمته فتمحق من فوضاها وتكفكف تأبيها على الخير .. ثم تسير بها وجهة أخرى ، أو ذلك عمل الإنسان لذاته وتقانيه في عبادة هواه ، ونسيانه المطلق لله الكريم ، وانبعائه في الدنيا كائناً طياشاً أحقق ، صفرًا من كل غاية يمجدہ الانتهاء إليها والاكتمال في جوارها «أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» .

هذا النفاذ البالغ إلى كل شيء ، والذي تضمحل أمامه الحواجز وتذوب الأسيجة ، وهذا الاندفاع العنيف الدائب الذي يتعجل النهاية ويتجشم إدراكها ، هو مرد السلوك كله عند كثير من علماء النفس ، حتى قال «فرويد» مكتشف العقل الباطن «إن العقل المفكر لا يقوم إلا بخدمة اللاشعور ، ولا يمكن أن يستجيب لغير نداءه ، ولا أن يستمع لغير أوامره» - قد يكون هذا القول صحيحاً على إطلاقه في كل نفس لم يزكها الإسلام - ولم تسم بها رسالة ﷺ «أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى» .

ولكنه قلما يصدق على النفس المسلمة التي يحرق إيمانها خبث العقل الباطن ، حتى إذا أتى عليه استقام مع طبيعة النفس في مظهر ديني بحت ، ألم يكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه غضوباً في جاهليته ثم في إسلامه ؛ ولكن شتان ما بين غضب تستخفه الحمية الطائشة لأوهى الأسباب ، وبين غضب غال يثور لحق الله وإعلاء دينه وليلعن الكفر ويستذل أهله ، والواقع أن جوهر النفس الأصيل يبقى كماً ويبقى كذلك كيفاً إن لم نحسب تغيير البواعث وتغيير الأهداف ، وهو ما يتناوله الدين من أساسه وتجهد الرسائل كلها في تحقيقه .

وقبل أن نقرر نصيب النفس المسلمة من هذا التغيير المنشود ، نقف لحظة لنلمح خلالها النفس اليهودية والنفس المسيحية ، ولنرى مقدار تأثر النفسين في حياتيهما بالدين .

لأمر ما كانت «النفس اليهودية» مرتعاً للدعوات المشينة والفسائس الساقطة ، وكانت حياتهم بين الأمم التي رماها القدر بهم تشبه حياة الطفيليات التي تعيش على حساب الجسم لتسرق منه غذاءه وتمنع عنه نماءه ،

(*) نشر بمجلة «المنار» ، الجزء السابع والثامن ، المجلد (٣٥) ، بتاريخ ربيع الأول وربع الآخر سنة ١٣٥٩هـ - مايو ١٩٤٠م .

ويبدو أن نقمة الله التي حاقت بشعوب إسرائيل حرمتهم للأبد عناصر الحياة الإنسانية العالية رغم ما تزعمه هذه النفوس وتدعيه من علائق وثيقة بالله .

ذكرت إحدى الصحف اليومية منذ شهر نأ مظارهه قام بها العمال اليهود في القدس ، كانوا يهتفون في أثنائها طالبين الخبز ، ويهددون - إن لم تجب مطالبهم - بترك اليهودية !! قد يدعو إلى العجب أن يهون دين على أتباعه حتى يبيعوه برغيف ؛ ولكن الأمر لا يستدعي دهشة ، فاليهودي لا يحس بأنه منقاد لعقيدة مقدسة لها حرمتها ولها جلالها ، وليس ثمة إلا لقب يورث يحمله وهو على أهبة تركه إن عارض شيئاً من متاع الدنيا الذي يجتذبه كل حين ، وإذا كان الدين قد هزمه انفعال الجوع هنا ، فقد انهزم من قبل أمام سورة الحقد المضطرم في نفوس آبائهم لما سألهم الأميون من العرب عن دين محمد ، فزعم الأحيار المؤمنون ! أن الوثنية خير منه «ألم تَرَ إلى الَّذِينَ أَوْثُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا» ، ولما جحدوا الرسالة الكريمة وقد استيقنتها أنفسهم «حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ» .

كيف يستقيم سلطان الدين على نفوس من يعتقدونه إذا كانت هذه النفوس صريعة لكل نزوات الهوى وأعراض الحياة ومفاتيح الرياسات الفارغة ؟ وأي شيء مما يطلبه العقل الباطن قد منع عنه بل اقتصد في إجابته؟ وأين مكان التغيير الذي يفرضه الدين حتماً على دوافع العمل وغاياته ليكون عملاً دينياً لا شيء قط ؟

* * *

ولنهبط إلى أغوار النفس المسيحية لنسبرها ، إنني في «شبرا» أشهد كثيراً من حفلات الصلاة أيام الأحاد، وكيف يثير القسيس انفعال المصلين بالترنيمات الحزينة والأنشدة الحنون ، على حين ينعكس اللهب الخافت المسترسل من مئات الشموع على صدور التماثيل الخرساء الجامدة ، وتردد جدران الكنيس أصداء جرسه الثائر الذي يطغى أحياناً على هينمة الشمامسة وترجيع الجمهور المسحور .. هذا النوع من السيطرة على النفس غير جديد ، ولم تزل الغابات منذ آلاف السنين تدوي بطبول الكهنة وتعاويز السحرة ممن يمثلون الديرة بين الزوج الأغبياء ، ولا تزال معابد الهنود حافلة بهذه المظاهر الأخاذة التي نقلها المسيحيون بأمانة بالغة إلى مذابحهم ومحاربيهم ، ولكن ما جدوى هذا كله ؟ ومتى كان الدين جوقة موسيقى وبضعة ألحان يندس بينها قليل أو كثير من التعاليم والوصايا التافهة ؟

لذلك كانت النفس المسيحية في ساعات الكنائس غيرها في مواجهة شئون الحياة ، عندما تبرز في حقيقتها المجردة وطبيعتها الأصيلية ، وقد طاش سحر النواقيس والشموع وارتدت إنساناً ضعيفاً تستبد به نوازعه القاسية، وهل يظن أن المرأة المسيحية جاهدت عواطفها كثيراً عندما عرضت في مباريات الجمال ، وكانت تود ألا تعرض ؟ أو أن الرجل المسيحي جاهد شهواته كثيراً قبل أن يحتضن امرأة غيره في صالات الرقص ، وكان يود أن يبتعد .

إنما تحيا النفس المسيحية في جو طليق مما تريده من حرية تستبيح كل شيء ، لا ظل فيها لرهبة ولا سلطان ، وليست شهادة «كارل ماركس» للإسلام إلا ضرباً من التفكير الحر ، ولا تخرصات «فولتير» إلا مثلاً للتقليد الأحق ، ولا كلمات «جبران» عن نبي العرب إلا فناً من الخيال السمج ، ولا عدد (الشرق والإسلام) الذي أصدرته إدارة الهلال إلا مظهرًا للثقافة التي يتاجر بها الأدباء ، وهؤلاء المسيحيون أبعد ما يكونون عن التقيد بغير حاجات نفوسهم ، ورغائبها المادية والمعنوية ، وقد رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، وغفلوا عما بعد ذلك من حقائق لو أنهم التفتوا إلى شيء منها لآثار في نفوسهم على الأقل ميلاً إلى التطلع والاكتشاف .

فماذا يقول الإنسان مثلاً في بابا روما الذي زعموا أنه يعرف تقريباً سبع لغات ليس بينها العربية؟! ما هذا النكوص عن البحث وراء الحقيقة ، وأي معنى تردد في نفس الرجل فقعد به عن تعلم دين كان له مع دينه تاريخ رائع وهو الذي لم يكسل عن تعلم أدنى اللغات ، ولكن لله سرّاً في تكوين بعض النفوس .

لعل فيما سبق ما يفسر حكم القرآن الصارم على أهل الكتاب ؛ حيث لم يعترف بهذه المراسيم التي تنسب النفس إلى الإيمان وهي منه خواء ، فتحت أودية الكهنوت الفضفاضة وما تشعر به من زهد وعزوف تتوارى نفوس خطيرة «إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ» ، ولما كان لزاماً على المسلمين أن لا يتركوا دين الله يلتبس بأهواء الناس ؛ حتى لا يختلط كذب الأرض بوحى السماء وفي هذا ما لا يخفى من الإساءة إلى الدعوة الحقّة وما يوقف انتشارها ، أمر المسلمين بإعلان الحرب عليها حتى يكشفوا زيفها «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ» ، وكذلك طرحت الفوارق الشكلية التي تميز الكتابيين عن الوثنيين ، وأطلق اسم الكفر الصريح عليهم ليشمل الجميع على السواء «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ» .

على أنها قلة من الناس تلك التي لا تزال تخلص للكنائس المسيحية على تفاوت مذاهبها ، وليس بين مئات الملايين من سكان أوروبا وأمريكا إلا عدد يسير من المسيحيين الأقحاح يتعارفون على دينهم كما يتعارف اللصوص على كلمة السر ، أما الكثرة العظمى منهم فقد ثارت على هذا «النفق الديني» وأثرت أن تبقى بعيدة عنه ، ولم تر أي حرج في أن تعيش مجاهرة بالحادها ، معلنة حقيقة طواياها ، والحياة التي تجاهر بعداوتها للأديان – صحيحها وزائفها – ليست وليدة هذا العصر ، بل هي متغلغلة في القدم «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ» ، ولكننا لا نظن هذا النوع السافل من الحياة صادف الشيوخ الذي وجده في القارتين المسيحيتين ، وجدير بنا أن نطلق اسم «الصابئة» على هؤلاء الذين ارتضوا الحياة الدنيا فحسب أقصى نهايات الآمهم وآمالهم ، ونظموا شؤونهم وصلاتهم ومشروعاتهم على ذلك الأساس ، وفي الوضع اللغوي والاستعمال العرفي ما يبرر هذا الإطلاق ، ولقد شهدت أوروبا معركة عنيفة بين المسيحيين والصابئة منذ قرون تحت ستار النزاع بين العلم والدين ، وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للمسيحية كانت بدء تقوض النظام الكنسي وانهيار سلطانه ، ومن يومئذ لبس الصابئون ثياب العلماء وتقدموا في ميادين العلوم الطبيعية تقدماً مشهوداً ، وقبع القساوسة في الأديار لا يستطيعون مطلقاً المساهمة في الحياة العامة بنصيب طائل ؛ ذلك أن العالم أنكر عليهم أكثر من معيشة الانزواء والوحدة والاعتزال ، ولا ريب أن الصابئة هم رسل الحضارة الحديثة ومناصروها ، وقادة العالم بها إلى سوء المصير ، تلك الحضارة الغربية التي لم تعرف الدنيا شراً منها ؛ فلقد كان خيراً للناس أن يعيشوا في أكوخ تضاء بمشاعل الزيت وهم أطهار أبرار ، من أن تفرقهم أضواء الكهرباء بين المسارح الضخمة والمراقص الفخمة ، وكان خيراً للناس أن يسيروا على الأرض وهم أشرف من أن يطيروا في الهواء وهم لصوص ، وكان خيراً للناس أن تستغرق أسفارهم الشهور الطويلة يقطعون مراحلها على أرجلهم أو على دوابهم وهم قانعون راضون ، من أن يستخدموا هذه السيارات وغيرها من وسائل النقل وهم على اتصالهم الميسور تقطعهم المطاعم وتباعد بينهم شر بعد .

تلك لمحة عن حال الصابئة ، وهم – كما ينبغي أن نعتقد – أخطر أعداء الإسلام وأشدّهم شكيمة ، وليس بنافع في تطهير الأرض منهم إلا جهاد تتمثل فيه عظمة الثورة الإسلامية الأولى وبطولتها وجراتها ، وإذا كانت

النفوس غير المسلمة كما وصفنا مهما تقطع أمرها شيعا ومهما تفرقت سبلها شروداً ، لا تزال أصرة تربط بين شيعها وسمة تجمع بين طرائقها ، هي أصرة الضلال المشترك وسمة البطلان البعيد ، أو هي كما قدمنا أول البحث هذا الركام الكثيف من الغرائز المرسلّة والنزعات المشبوبة والشهوات الجامحة ، فإن في هذا خير تفسير للاضطراب الاجتماعي والسياسي الذي نشهد انقلاباته في أوروبا دائماً ، والثورات البيضاء والسوداء والحمراء التي تهز كيائها حيناً بعد حين .

محمد الغزالي
كلية أصول الدين

ولأمر ما وقف تقدم الإسلام ، وانحصر النور الإلهي الكريم بين أقوام لا يقدرونه ، ونام المسلمون في النور واستيقظ غيرهم في الظلام ، ولم يكن بد لغير المسلمين من التفكير في قواعد تصح عليها أمورهم بعد أن اتضح قصور الأديان الباطلة وعدم غنائها في هذه الشؤون ، وبعد أن عجزت أيدي المسلمين عن التلويح بالضياء الهادي ليسترشد على شعاعه المدلجون الشاردون ، وابتدأ التفكير الإنساني يخبط في تفهم الحقائق العليا ومدارج ارتقاء النفس ، فخلق المجال خلقاً للفلسفة العملية ، وصحيح أنه إلى غير مواطن النبوات الأولى ينحدر تاريخ الفلسفة وينبت جذع الشجرة التي تطل الآن علينا فروعها .

وحقاً أنه - إلى غير مواطن النبوات الأولى - يمتد جذر الشجرة الفارعة ، شجرة الفلسفة الحرة التي تظلل فروعها اليوم أكثر بقاع العالم ، وسواء أكانت هذه الأغصان لعوسجة غليظة مؤذية أم لدوحة مورقة فينانة ، فإن ما ينبغي أن نطمئن إليه هو قلة احتمال البشر قديماً بتطبيق شيء مما وصلت إليه الفلسفة البعيدة عن روح الأديان تطبيقاً عاماً شاملاً ، بينما نجد اليوم - كأثر حقيقي لوقوف الإسلام في حدود أوطانه - أن بعض الآثار الفلسفية قد وجدت من الأشياع من يخلصون لها ويجاهدون لتحقيقها ، ويؤسسون لها الحكومات القوية ، وينادون بوجوب سيادتها في أنحاء العالمين ، تلك المبادئ - وأكثرها نبت في أودية أوروبا المقفرة إلا من أشواك الوثنية المسيحية - لها شأن عجيب ؛ ذلك أنها ظهرت في بيئات أشد ما تكون حاجة إلى الحرية والانطلاق ، وأبعد ما تكون تأثراً بما عدا ذلك ، فهي تسعى وراء ما تشعر بأن فيه طمأنينتها وسعادتها ، وقلماً يعينها بعدئذ أن يوصف ما تظفر به بأنه حق أو باطل ، منكر أو مألوف ، إيمان أو إلحاد ، وليس من شك في أن النضال الدموي المروع الذي سود وجه أوروبا عصوراً ، له أثر بعيد في هذه الحالة .

وفي هوجاء هذه الفتن الخبيثة ، وفي مهب أعاصيرها التي لا تكاد إلى اليوم تهدأ لها ثائرة أو تؤمن لها غائلة ، قامت الماسونية والشيوعية والاشتراكية والديمقراطية .. وغير ذلك ، ومن ثم نادى أقوام - ممن ذاقوا مرارة الخصام بين المذاهب المختلفة - بوجوب الإخاء بين جميع المذاهب ، أو لو كان إخاء بين الحق والباطل ؟ هذا شيء لا يفكر فيه الماسون ، وصاح أقوام ممن عضتهم البأساء والضراء بوجوب تقسيم كل شيء على الأمة ، أو لو كان في ذلك الفوضى والإباحية ؟ هذا شيء يستسيغه الشيوعيون ، وكذلك أسس الفاشيون نظام النقابات أو دولة العمال ، ووضع الديمقراطيون قواعد الحريات العامة للناس ؛ كما يقولون ، ولكن هل هناك غاية يخدم بريقها المسلم في ثنايا هذا الغموض والإيهام ؟ كلا ، إنما هو تهريج عالمي تمخض عنه حجاج العقل الإنساني أثناء شروده وججوده ، ولا ريب أن توفير حاجات الجسد مما تنادي به الضرورة ، وتكثير أسباب المتع مما تتطلع إليه الرفاهية ، ثم إشباع مطامع بعض النفوس الجياشة بحب التزعم ، ثم ذلك التعاون في أي أشكاله بين شتى العناصر لنيل خير حياة دنيوية ممكنة ، لا ريب أن كل هذا هو لباب المذاهب المتكبرة السائدة هناك ، والتي تحاول أن تغزو ميادين الشرق المريض ، بل إنها وجدت فعلاً طريقها إلى بعض النفوس المنحلة في هذه الديار ، ولا عجب أن تلقى بعض النجاح المؤقت إذا كانت قد دعمتها الدراسات المجردة للفلسفة النفسية والخلقية ، هذه

(*) نشر بمجلة «المنار» ، الجزء السابع والثامن ، المجلد (٣٥) ، بتاريخ ربيع الأول وربع الآخر سنة ١٣٥٩ هـ - مايو ١٩٤٠ م .

الفلسفة التي ادعاها علماء تحرورا من قيود الأديان هزيلها وخطيرها ، واستقامت آراءهم على أسس من تفكيرهم الخاص و«عقولهم الباطنة» أو الباطلة .

وسناقش الآن في إيجاز أهم المسائل التي قررت في علم النفس كمنهج للسلوك البشري الفاضل ، ثم نقفي على إثر ذلك بتحليل كامل للمقاييس الخلقية الموضوعية ؛ إذ إن سر الحياة التي تسود اليوم كثيراً من الطبقات الدعية في كل شيء إنما يرتد إلى هذه المناهج المصنوعة ، وسوف تقر أعين المؤمنين إلى أن الإسلام وحده منهج الحق الواضح ، وأنه بحسب المسلم الاعتصام بدينه ليستوى على صراط تتدق دونه أعناق الشياطين «صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ» .

يرى علماء النفس أنه لكيما يستقيم سلوك الإنسان على نهج واضح ينبغي أن تكتمل عواطفه ثم تدور كلها في فلك ، محوره «احترام الذات» تخضع فيه استعداداته الموروثة والمكتسبة إلى كل ما يسمو بكرامته كإنسان كامل ، وعبارة الإنسانية الكاملة وضعها أناس ينظرون للحياة خلال عدسة سفسطائية تسخر من الحقائق ، وما دما قد وصلنا إلى اعتبار الرأي الشخصي وتقريره أساساً حراً لاكتساب الإنسانية الكاملة ، فقد تنكبنا الحق وفقدنا معه الخير المنشود ؛ ذلك أن من الناس من يقوم ذاته على أساس اعتناقها مبدئاً ديكتاتورياً ، ومنهم من يقومها على أساس اعتناقها مبدئاً ديمقراطياً وكلا الرجلين قد حشد استعداداته الموروثة والمكتسبة لخدمة مذهبها وركزها عند غاية واحدة ، وارتضى أن يموت دونها ، فهل معنى هذا أن كليهما ظفر بالكمال الإنساني المزعوم ، مع ما في نظريتهما إلى الدنيا من تناقض يؤكد بينهما الخصام ، بل ينشب بينهما القتال .

على أن لنا نحن المسلمين ما نلاحظه على هذه الفلسفة النفسية التي تريد أن تخلق من أنانية الفرد مذهباً عاماً ؛ فإن المسلم الذي محق ذاته في ذات الله ووزن نفسه بنصيبتها من دينه يجب أن ينمي عواطفه كلها ، ثم يسيرها في نظام بيتدي وينتهي عند تمجيد الله ، أما ما يقرر لنفسه هو من احترام وتزكية فهو فضل الله يضيفه على من شاء ، والمسلم الذي يستشعر في قرارة نفسه كل معاني العبودية لمولاه العلي لا يأذن أبداً لهذه النفس أن ينسب إليها مجداً أو يشار إليها بأي ضرب من ضروب الكبر المفتعل ، ونحن نحارب بهذا أناساً معينين ، فيهم الكافر وفيهم المؤمن المدخول العقيدة ، أولئك قوم زعموا أن السموم بالنفس الإنسانية مستطاع في غير جوار الله ، مستطاع في ظلال هذه العواطف المكتملة ، فذهبوا يتلمسون الكمال المنشود في مبادئ يتوارث الناس احترامها وإكبار أصحابها ، حتى إذا اصطبغت نفوسهم بما وهموه من فضل ومجد راحوا يقررون لها حقوقاً من التوقير والإعظام ، وكان لزاماً على الناس أن يتقدموا إليهم بها ، ثم يستقر هذا الضلال المبين ، فإذا المفتونون أبعد ما يكونون عن الله ، وإذا هم على ما بهم من ثقة واعتداد لا يقيم لهم الدين أي وزن ، ولا ينزلهم أبداً إلا في أمكنتهم من الرغام .

لهؤلاء وأضرابهم نوع من السلطان المادي والمعنوي في هذه البلاد ، وهم كأقرانهم من الصابئة الغربية ممثلو الحملة على الأديان ورسالتها الكريمة في الحياة ، وإذا كان ضجيج القوم قد تعالي هنا وهناك وترددت أصواتهم في أنحاء كثيرة ، فما تعدو هذه الصيحات في قيمتها نقيق الضفادع ، وربما أطفأت أنفاسهم اللاهثة شموع الكنائس ، ولكنهم - ولو استحالوا عواصف - لن يطفئوا للإسلام مشعلاً «يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنْمٌ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» ، ولا عجب ، فالأمور التي توضع ألغاماً في بنيان المسيحية المتداعي لا يمكن مطلقاً أن تشعر بها دعائم الإسلام المكيئة ، وإذا كان صابئة الغرب قد قالوا ما قالوا فردد المقلدون الحمقى هنا ما قالوا من نظريات انفصال الدين عن السياسة وعن العلم وخرافة تأخي الأديان أو الدين الله والوطن للجميع ، فإن مصير الفريقين سيختلف حتماً ، وهزيمة المسيحية هناك هي هزيمة الصابئة هنا تماماً ، ولقد أدرك المسلمون حقيقة دينهم غير منقوصة ، وعلموا أن دينهم كما أنه هو دين النفس هو دين الدولة ، بل إن الإسلام لم يتجه للفرد من حيث أنه «شخصية مستقلة منعزلة» ، وإنما اتجه إليه من حيث أنه «وحدة من مجموعة مؤلفة متناسقة» ، وإلى هذا يرجع السر في أن الخطاب الإلهي يرد دائماً بطريق الجمع لا الأفراد «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

أَمْثُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ» ، ثم كيف يكون بين الإسلام وبين العلم عداء والعلم نفسه لم يصل إلى الدرجة التي بلغها من التقدم إلا في جو إسلامي خالص ، إن العلم الطبيعي يعتمد على عنصرين خطيرين في جميع بحوثه وكشوفه هم الملاحظة والاستنتاج ، وليس يوجد في الدنيا كتاب أوصى بالتدبر في ملكوت الله الرحيب واستطلاع بدائعه واستكناه روائعه كما أوصى القرآن «وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ» ومهما أظهر المغرضون من عطف ماكر على استقلال العلم فإنهم لن ينالوا من الإسلام أي نيل ، كذلك ضل من يزعم أن الوطن ليس لله ، أي غباوة هذه تحاول أن تنسب الشيء لغير صاحبه ، بل لغير خالقه «إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» ، «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ» ، ولقد مهد هؤلاء لهذا الخطأ الفاضح بكلمة لم يفهموها ، الدين لله حقاً ، ولكن ماذا بقي لله على زعمهم إذا كان للأوطان أول ما في الفؤاد وآخر ما في الفم؟! ماذا بقي لخالق الفؤاد وما يجول فيه ، وخالق اللسان وما ينطق به؟! كلا ، الدين لله والوطن لله ، ومصر ومن عليها فدى للإسلام وحده ، و«لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» ، إن الشيء الذي يبوء بأشد معاني الاحتقار والذي نجعله محط عداوتنا الدائمة ، هو هذا الضلال الوقح الذي يحاول - في غير ما حياء - أن ينتظم الإسلام - وهو دين الله الكريم - والمسيحية واليهودية في سلك واحد ، فكيف يرتفع مبدأ من المبادئ ليضم إلى أحضانه هذه الأديان المختلفة المتناخية (كذا) ويجمعها في صعيد واحد؟! حدث مرة أن كنت أتصفح إحدى المجالات الأسبوعية ، فعثرت على تصريح سكرتير الماسون الأعظم - وهو رجل مسلم كما يشير إلى ذلك اسمه - قال : «إن قراراتهم التي تذاخ لا يراد بها إلا خير المجتمع من الناحيتين الإنسانية والاجتماعية ، دون تعرض للسياسة ولا للدين» ، ونحن نتساءل كيف يجوز لمسلم أن يلقي كلاماً أو يصدر أعمالاً بعيداً عن دينه وعن رعاية قيوده وحدوده كلها ، إلا أن يكون مسلماً يجهل الإسلام ، أو منافقاً يبرأ منه دين الله؟! ونحن نتساءل كذلك : أي إخاء عجيب أوى إلى سلامه ووثامه أعضاء المحفل الماسوني المكرمين وفيهم أحد موظفي الأزهر وأحد أعيان اليهود؟! إنه إخاء فرض نفسه على حساب نكبة أحدهما في عقيدته ، أو على الأصح على حساب تنازل المسلم عن دينه جملة ، هناك ما لا يقل خطراً عن الماسونية العالمية مسخاً للإيمان وتلويثاً للنفس المؤمنة وهبوطاً بمستواها الذي ينبغي أن تحتفظ به ، ومن أمثلة ذلك جميع المبادئ التي تحمل لقباً عالمياً ؛ فالرياضة العالمية ، والثقافة العالمية ، والديمقراطية العالمية ، والأدب العالمي ، والفن العالمي ، والتمثيل العالمي .. إلخ ، مما يسير في ظلال معنى الإخاء الإنساني ووحدة البشرية ، والكلمات التي أجاد الأوروبيون صناعتها ودسها محترفو الاستعمار بيننا ؛ لينالوا بها ما لا تناله مناشر الأسلحة ، وليتوسلوا بها إلى إفناء العصبية الإسلامية ، وتحطيم فضائلها وتمزيق مقوماتها .

محمد الغزالي

كلية أصول الدين

[٣]

مصادر التشريع الإسلامي (*)

للقانوني البارع الأستاذ محمد الشافعي اللبان بك
المستشار بمجلس الدولة المصري
(السنة النبوية الكريمة)

مدلولها : لغة وشرعاً :

السنة في اللغة الطريقة والعادة والمقصود بها هنا كل ما صدر عن النبي ﷺ من قول أو تقرير أو فعل ، وقد ذكرنا فيما أسلفنا أن النبي ﷺ كان يفتي ويقضي في بعض ما يرفع إليه ويسأل عنه بما يريه الله . وأنه كان يري ما يصنع المسلمون من الخير والمعروف فيقرهم عليه ، وما يرتكبون من منكر أو شر موروث فينكره عليهم وينهاهم عنه ، وأن المسلمين من ناحيتهم كانوا يرون ما يفعل ويحاكونه ويحذون حذوه في أفعاله ، ومن مجموع ذلك كله كانت السنة الكريمة ثاني مصادر التشريع الإسلامي .

درجات ثبوتها :

وأحاديث السنة أو ما يمر تحت لفظ (أحاديث) يتفاوت في درجة الثبوت تفاوتاً كبيراً ، فمن الأحاديث ما هو ثابت الصدور عن الرسول ﷺ وهو المتواتر ، ومن بين ما يمر على الناس تحت اسم الأحاديث ما أظهر البحث أنه مكذوب على النبي ﷺ وذلك ما يعرف بالأحاديث الموضوعية ، وبين المتواتر والموضوع أحاديث كثيرة ثبتت عن بعض علماء الحديث دون البعض الآخر فأخذ بها الفريق الأول في تشريعه وتركها الفريق الثاني ، والحديث المتواتر الصحيح له من الأثر في التشريع - كما سيأتي تفصيل ذلك - ما يلي نصوص الكتاب وأمره فرض ونهيه تحريم ، أما الأحاديث الموضوعية فهي بطبيعة الحال لا اعتبار لها في نظر فقهاء المسلمين ، وسنفرد للأحاديث الموضوعية بحثاً خاصاً عند الكلام على تدوين السنة .

مكانها في الشريعة :

والأحاديث التي تضمنت الأحكام التشريعية هي الأساس الثاني في التشريع الإسلامي ، وقد جمعها بعض العلماء في كتب خاصة من خيرها كتاب نيل الأوطار للشوكاني ، وقد ذكر ابن القيم في إعلام الموقعين أن أحاديث الأحكام أصولها وتفصيلها لا يزيد عددها على أربعة آلاف وخمسمائة حديث .

نهى الرسول عن تدوينها :

وقد نهى النبي ﷺ عن تدوين الأحاديث خشية أن يختلط أمرها بالقرآن ولذلك لم تدون السنة في عهده واكتفى الصحابة بحفظها وتنقلها عنهم الرواة وكان هذا من أهم أسباب اختلاف المجتهدين كما سيأتي بعد ، فقد حدث أن أخذ بعضهم بأحاديث رويت له ولم تبلغ غيره فلم يأخذ بها ، وذلك إلى أن حفاظ السنة ورواتها لم يلتزموا أن يرووها بنفس الألفاظ التي صدرت من النبي ﷺ وإنما حرصوا على نقل المعنى دون التقيد بحرفية اللفظ ، فكان من جراء ذلك أن اختلفت عبارات الحديث الواحد وكان لهذا أيضاً أثره في التشريع فإن الألفاظ المختلفة وإن أدت في مجموعها معنى واحداً إلا أن مدلولاتها قد تختلف فيما له ارتباط بهذا المعنى من التفاصيل اللصيقة به فقد يفهم من لفظ معنى الأمر ومن آخر معنى الندب أو الاستحسان وهكذا .

(*) نشر بمجلة «الشهاب» ، الجزء الرابع ، السنة الأولى ، ص ٤٦ ، بتاريخ غرة ربيع الآخر ١٣٦٧ هـ - ديسمبر ١٩٤٧ م .

طريقها :

هذا وقد وردت السنة على نسق آيات القرآن في التشريع فكثير منها قرن فيه الحكم بعقله ، كقوله ﷺ «لا يجمع بين المرأة وعمها أو خالتها إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم» ، وقوله في النهي عن بيع الثمر قبل أن يبدو صلاحه «أرأيت إذا منع الله الثمرة بم يأخذ أحدكم مال أخيه» ، كذلك قررت أحاديث كثيرة الحكم بصيغة الخبر كحديث «المسلمون عند شروطهم» ، وحديث «لا ضرر ولا ضرار» ، وبعض الأحاديث قرر بصيغة الطلب أمرا ونهيا كحديث «صلوا كما رأيتموني أصلي» ، وحديث «أحجج عن أبيك» ، وحديث النهي عن بيع الغرر وحديث النهي عن الشغار إلى غير ذلك من أساليب الكلام المتنوعة .

علاقتها بالقرآن :

والسنة كما تقدم هب الأصل الثاني للتشريع بعد القرآن فلا يشار إليها في الاستدلال إلا إذا لم يكن في الكتاب نص خاص قائم لما يراد الاستدلال عليه .

وقد اختلف علماء الأصول في اشتمالها على شرائع مبتدأة لم ترد في القرآن وعدم اشتمالها على ذلك فقال فريق بالرأي الأول واستدل بتوريث الجدة وأحكام الشفعة .

ودية الجنين وما شابه ذلك ، وقال فريق بالرأي الثاني واستدل بقوله تعالى «مَا قَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ» وقوله «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ» ، وقد شرح هؤلاء فكرتهم فذكروا أن القرآن أتى بالأصول الكلية في جلب المصالح ودرء المفاسد من الضروريات والحاجيات والكماليات وأن ما في السنة لا يخرج عن أن يكون جلباً للمصالح أو درءاً للمفاسد مما جاء به الكتاب مجملًا .

وفي الحق إن القرآن الكريم يحتوي على أصول الشريعة المطهرة أما السنة فقد أتمت بناء الشريعة وأكملتها ، فصل القرآن بعض المسائل الشرعية تفصيلاً تاماً أغنى عن كل بيان ، وفرض بعض الفرائض تحتاج إلى متممات ، وأمر بعض أوامر مجملة تحتاج إلى الإيضاح والتفسير وسكت عن أشياء أخرى ، لم تتعرض السنة للأمور الشرعية التي تولى القرآن بيانها وفصلها تفصيلاً تاماً ، ولكنها عمدت إلى الفرائض التي بين القرآن أصولها وترك متمماتها فشرحت تلك المتممات وبينتها بياناً شافياً وعطفت على الأمور المجملة ففصلت وبينت دقائقها ، وكذلك عمدت إلى ما سكت عنه الكتاب مما يحتاج الناس إلى معرفة أحكامه ، فبينت تلك الأحكام، فالسنة إذن تقوم إزاء القرآن بالمهام الآتية :

(١) تنميط بعض الفرائض والأمور الشرعية التي ذكر القرآن أصولها بذكر متمماتها .

(٢) بيان ما سكت عنه القرآن الكريم من الأحكام الشرعية التي يحتاج إليها الناس .

ما فصله القرآن :

فصل القرآن بعض الأحكام والأمور الشرعية تفصيلاً يغني عن كل شرح وبيان فلم تتعرض لها السنة اكتفاء بشرح القرآن وتفصيله ومن أمثلة ذلك ميراث الزوج من زوجته قال تعالى «وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ» ، فأنت ترى أن القرآن قد فصل ميراث الزوج من زوجته تفصيلاً كافياً ولهذا لم يرد في ذلك سنة ، وهذا مثل من أمثلة كثيرة تولى القرآن تفصيل الأحكام فيها وبيانها ، وأكثر ما يرى ذلك في أحكام الزواج والطلاق وإن شئت فقل الجزء الأكبر من الأحوال الشخصية .

ما سكت القرآن عن تفاصيله :

ولكن القرآن كما تقدم أورد الأصول والأسس الكلية لكثير من الأحكام الشرعية ولم يتعرض للتفاصيل فقامت السنة بإكمال ذلك وبيان متمماته ومن ذلك الوضوء مثلاً ، قال تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ» ، فبين القرآن بذلك أصول أعمال الوضوء وأركانه وبينت السنة متممات الوضوء فسن النبي ﷺ المضمضة والاستنشاق .

قال الشافعي : أخبرنا مالك عن عمر بي يحيي المازني عن أبيه أنه قال لعبد الله بن زيد وهو جد عمر بن يحيي : هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ قال زيد : نعم فدعا بوضوء فأفرغ على يديه فغسل يديه مرتين مرتين ثم تمضمض واستنشق ثلاثاً ثم غسل وجهه ثلاثاً ثم غسل يديه مرتين مرتين إلى المرفقين ثم مسح برأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر بدأ بمقدم الرأس ثم ذهب بهما إلى قفاه حتى رجع ثم ردهما إلى المكان الذي بدأ منه ثم غسل رجليه ، كذلك ورد في القرآن حكم الصلاة والزكاة مجملاً ، قال الله تعالى «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ» ، ولم يرد في القرآن تفصيل الصلاة والزكاة فتولت السنة الكريمة ذلك ، قال الشافعي : أخبر رسول الله ﷺ أن عدد الصلوات المفروضات خمس وأخبر أن عدد الظهر والعصر والعشاء في الحضر أربع وعدد المغرب ثلاث وعدد الصبح ركعتان وسن فيهما كلها القراءة وسن أن الجهر فيها بالقراءة في المغرب والعشاء والصبح وأن المخافتة في القراءة في الظهر والعصر وسن أن الفرض في الدخول في كل صلاة بتكبير والخروج منها بتسليم وأن يؤتى فيها بتكبير ثم قراءة ثم ركوع ثم سجدتين بعد الركوع وما سوى هذا من حدودها .

وعلى هذا النهج درجت السنة في تفصيل أحكام الزكاة والحج وغيرهما من الأحكام التي أمر بها القرآن جملة غير مفصلة ، وكل هذه السنن التي تبين مجمل القرآن واردة في كتب الأحاديث فلا نطيل بذكرها وهذا النوع كثير في القرآن فنكتفي بهذا المثال .

ما لم يتعرض له القرآن إطلاقاً :

على أن عمل السنة لم يقف عند هذا الحد فقد جاءت بكثير من الأحكام مما لم يتعرض له القرآن إطلاقاً ومما دعت إلى تشريعه مصالح العباد ومن أمثلة ذلك أحكام الشفعة وميراث الجدة والخال ولبس الحرير والديباج واستعمال أواني الذهب والفضة وتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها وتحريم من الرضاع من تحرم من النسب .

هل في السنة شرائع مبتدأة :

ويحسن بنا هنا أن نشير إلى نقطة هي محل خلاف عند الأصوليين وأعنى بها هل اشتملت السنة حقيقة على شرائع مبتدأة لم ترد في القرآن أو لم تشتمل على شيء من ذلك وقد ذهب فريق إلى الرأي الأول واستدل على مذهبه بتورث الجدة ودية الجنين وما شابههما وذهب فريق آخر إلى الرأي الثاني مستدلاً بقوله تعالى «مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ» ، وقوله «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ» ، وهؤلاء يرجعون بأحكام السنة التي يعتمد عليها الفريق الأول إلى أنها على كل حال جزئيات تدخل ضمن الأصول الكلية التي تدور عليها أحكام القرآن في جلب المصالح ودرء الفاسد من الضروريات والحاجيات والكماليات .

هذا على أن الرأي القائل بأن أحكام السنة التي لا نص عليها في الكتاب راجعة إلى اجتهاد الرسول واستنباطه من القواعد الكلية الواردة في القرآن لم يسلم من مناقشة وجدل فقد اختلف الأصوليين كذلك في هل يجوز للنبي عليه السلام الحكم بالاجتهاد فيما لا نص فيه أو لا يجوز ، والمقصود بالاجتهاد في حقه القياس فقط لا معرفة أحكام النصوص لأن المراد منها واضح عنده فليس اجتهاده في معرفة المراد من المشترك ونحوه ولا

في دفع التعارض بين الأدلة هو المقصود هنا إذ لا تعارض عنده وإنما المقصود هنا اجتهاده في إلحاقه مسكوت عنه بمنصوص عليه في الحكم وهو النوع المعروف بالقياس ، فذهب الحنفية إلى أنه عليه السلام مأمور إذا عرضت له حادثة أن ينتظر الوحي إلى أن يخاف فوات المصلحة ثم الاجتهاد إذا لم يوح إليه ، وذلك لأنه لا يجوز أن يصار إلى الظنون إلا عند تعذر اليقين فإذا أقر على اجتهاده كان ذلك دليلاً قاطعاً على صحة الحكم ولا يجوز مخالفته كما جازت مخالفة أحكام سائر المجتهدين لأن الرسول لا يقر على خطأ فيما له علاقة بالرسالة كما سنفصله فيما بعد .

وقد عد الحنفية هذا الاجتهاد نوعاً من الوحي وسموه الوحي الباطن واعتبروه كما قال صاحب مسلم الثبوت تطبيقاً من الرسول لما علم من الوحي على الجزئيات تطبيقاً أقره الله عليه ورفع عنه احتمال ما يصيب البشر من أخطاء وسماه شمس الأئمة السرخسي ما يشبه الوحي ، وقال فريق آخر من الأصوليين وهم الأشاعرة وأكثر المعتزلة والمتكلمين أن اجتهاد الرسول ممنوع وذهب فريق ثالث إلى رأي وسط فقال إن للرسول الاجتهاد في مسائل الحروب فقط ، ولكن الرأي الراجح أنه عليه الصلاة والسلام مأمور بالاجتهاد مطلقاً في الأحكام الشرعية والأمور الحربية ، عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنه قال : «قضى رسول الله بالشفعة في كل ما لم يقسم فإذا وقعت الحدود وصرفت فلا شفعة» رواه البخاري ، وفي رواية مسلم «الشفعة في كل شرك في أرض أو ربة أو حائط لا يصلح أن يبيع حتى يعرض على شريكه» ، وفي رواية الطحاوي قضي النبي ﷺ بالشفعة في كل شيء ورجاله ثقات .

وعن ابن بريده رضي الله عنه عن بريد بن الحبيب أن النبي ﷺ جعل للجدة السدس إذا لم يكن دونها أم .
وعن المقدم بن معد يكرب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «الخال وارث من لا وارث له» ، وفي هذا الحديث دليل ميراث الخال ودليل ميراث ذوي الأرحام عند من يقول بتوريثهم .

روي البخاري عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال : نهانا رسول الله ﷺ أن نشرب في أنية الذهب والفضة وأن نأكل فيها وعن لبس الحرير والديباج وأن نجلس عليه ، والرسول ﷺ حرم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها قياساً على الأختين ، وأشار إلى وجه القياس بقوله «إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم» ، وحرم من الرضاع من تحرم من النسب قياساً على الأم والأخت الوارد حكمهما في القرآن .

جواز الخطأ في اجتهاد النبي ﷺ :

ومما يتصل بهذا الحديث البحث آخر آثاره علماء الأصول ومحصلة جواز الخطأ في اجتهاد النبي ﷺ ، وقد رأي بعض علماء المالكية عدم جواز ذلك وذهب أكثر المالكية والحنابلة وأصحاب الحديث وجماعة من المعتزلة إلى جوازه فيما لا يرجع إلى شئون الرسالة والتبليغ ولكن بشرط أن يقر الله رسوله على اجتهاده والأدلة التي يستند عليها أصحاب هذا الرأي قوله تعالى «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ» ، وقوله جل شأنه يعاتب الرسول ﷺ على رأي لم يقره «عفا الله عنك لم أذنت لهم» ، وقول النبي ﷺ «إنما أحكم بالظاهر تختصمون إلي ولعل أحكم ألحن بحجته من بعض» الحديث ، هذا إلى أن الرسول ﷺ في نظر هؤلاء بشر يجوز في حقه ما يجوز في حقهم من الخطأ والنسيان ، وأما القائلون بعدم جواز الخطأ فيرون أننا مأمورون باتباع الرسول فلو جاز في حقه خطأ لكان معنى هذا جواز الأمر باتباع الخطأ قال تعالى «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» ، وقد رد السابقون على ذلك بأننا مأمورون بالاتباع وهو ليس بخطأ وإنما الخطأ هو الحكم الذي أدى إليه الاجتهاد .

من مشكاة النبوة :

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه

ذلك أن يكون أكيله وشربيه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض» ، ثم قال «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ» ، ثم قال «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً» رواه أبو دواد .

[٤]

مصادر التشريع الإسلامي (*) للقانوني البارع الأستاذ محمد الشافعي اللبان بك المستشار بمجلس الدولة المصري (السنة النبوية الكريمة)

تقدم القول أن السنة في باب الأدلة عند الفقهاء كل ما صدر عن النبي ﷺ غير القرآن من فعل أو تقرير أو قول ونريد الآن أن نفصل حكم كل نوع من أنواع السنة وقيمتها الشرعية ، ومدى حجيتها على الناس .

فعل النبي ﷺ أقسام :

(١) قسم وضع فيه أمر الجبلة كما يقول الفقهاء والمقصود بذلك أفعال النبي ﷺ التي أملت عليها غريزته البشرية وصدرت منه باعتباره فرداً من آحاد الناس له خواصهم وطبائعهم وذلك كالأكل والشرب والقيام والقعود .

(٢) قسم وضع فيه أنه خاص بالذات النبي ﷺ باعتباره نبياً مرسلأ لا باعتباره بشراً ، وأنه يفعله بهذه الصفة دون غيرها ، ودون أن يكون في عمله دعوة إلى محاكاته فيما فعل وذلك كالضحى والأضحى والوتر وكإباحة الوصال في الصوم والزيادة على أربع في النساء .

قسم من أفعاله عرف أنه بيان لنص في القرآن جاء مجملاً مصداقاً لقوله تعالى «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» ، وكل ما صدر عن النبي ﷺ من هذه الأفعال إنما هو بيان لحكم القرآن وتفصيل له ، ولذلك قال عليه السلام «خذوا عني مناسككم» ، وقال بشأن الصلاة «صلوا كما رأيتموني أصلي» ومن أمثلة هذا النوع أفعال الوضوء والصلاة والحج وما إلى ذلك مما جاءت سنة الرسول ﷺ العملية مفصلة له ومتممة وموضحة .

(٣) قسم من أفعاله ﷺ لم يعرف أنه بيان لنص أو حكم ورد في القرآن أو جاءت به سنة قولية : وهو نوعان :
(أ) نوع عرف حكمه في حق الرسول ﷺ من الوجوب أو الندب أو الاستحسان .

(ب) ونوع لم يعرف حكمه في حقه ﷺ لأنه وقع اجتهاداً منه من غير تقيد بانتظار الوحي ومن حقه ﷺ أن يجتهد في الطوارئ التي لم ينزل عليه فيها وحي وقد وقع ذلك منه فعلاً وهذا هو مذهب عامة الأصوليين والمالكية والشافعية والحنابلة وحجة القائلين بالاجتهاد ما ورد عن أم سلمة أن رجلين من الأنصار جاءا إلى النبي ﷺ في مواريث بينهما فقال لهما «إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إلي وإنما أقضي برأي فيما لم ينزل علي فيه فمن قضيت له بشيء من حق أخيه في يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها يوم القيامة مع عنقه» ، ومن أدلتهم كذلك أنه ﷺ لما شاور أبا بكر وعمر رضي الله عنهما في حادثة قال «قولاً فإنني فيما لم يوح إلى مثلكما» .

وأما من يقول بأن الرسول ﷺ ممنوع من الاجتهاد فيستدلون بالآية «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ» ، ومتى كان رأيه وحياً انتفى الاجتهاد ومن أدلتهم كذلك أنه لو جاز له الاجتهاد لجازت مخالفته كما يجوز مخالفة باقي المجتهدين ، ويوفق القائلون بالجواز بين رأيهم في اجتهاد الرسول ﷺ وبين هذه الآية بأن

(*) نشر بمجلة «الشهاب» ، الجزء الأول ، السنة الأولى ، ص ٣٠ ، بتاريخ صفر ١٣٦٧هـ - ديسمبر ١٩٤٧م .

الاجتهاد متى أقر عليه كان وحيًا باطنًا ، وأما جواز مخالفة الرسول ﷺ لو أبيح له الاجتهاد فذلك قول لا سند له من المنطق لأن جواز المخالفة ليست من لوازم أحكام الاجتهاد مطلقاً على أن الأصوليين أنفسهم يرون أن جواز المخالفة في اجتهاد الأئمة محلها ألا يقترن بها القاطع من الأدلة فإن اقترن بها القاطع كالإجماع مثلاً فلا تجوز مخالفته وكذلك اجتهاد الرسول ﷺ مقترن به وقاطع وهو قوله .

وحكم القسم الأول من أقسام السنة الفعلية أنه يباح للناس كافة كما هو مباح للرسول ﷺ لأنه من أعمال البشر العادية ، وحكم القسم الثاني أنه خاص به عليه الصلاة والسلام ولا مشاركة للناس معه فيه ، وذلك لأنه عبارة عن أفعال أبيحت للرسول ﷺ خاصة لحكم وثيقة الاتصال بمركز النبوة ، وحكم القسم الثالث وقد عرف أنه بيان لنص علمت صفته من الوجوب أو الندب أنه يعتبر على وجهه المبين ويأخذ حكمه على هذا الاعتبار ، وأما القسم الأخير فحكم النوع الأول منه وهو ما علمت صفته في حقه عليه الصلاة والسلام أن الناس جميعاً في هذا الشأن شأنه وهو الرأي المختار الذي انتهى إليه ورجحه ابن الحاجب وقيل إن حكمه حكم النوع الثاني الذي لم تعلم صفته في حق الرسول ﷺ ولكن هذا الرأي ضعيف ويستند أصحاب الرأي الأول على أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يرجعون إلى فعله المعلوم صفته ولو علمهم بالتشريك عادة لما منعهم الرجوع إليه وأيضاً لقوله تعالى «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» ، وأيضاً قوله تعالى «فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ» ، مما يدل على التشريك بين الناس والرسول ﷺ في الفعل المعلوم صفته إذ لولا التشريك لما أدى تزويج زينب له ﷺ إلى جواز ذلك في حق غيره من المؤمنين وحكم النوع الثاني من القسم الأخير وهو ما لم تعلم صفته في حقه عليه الصلاة والسلام مختلف فيه بين العلماء فمنهم من يرى أن حكمه الوجوب ومنهم من يرى أن حكمه الندب ، ومنهم من يقول بالوقف بين الأمرين ، واختار ابن الحاجب رأياً مفصلاً فقال : إن ما ظهر أنه قرينة فحكمه الندب ، وما لم يظهر أنه قرينة فحكمه الإباحة واستدل على ما ذهب إليه بأن ما ظهر أنه قرينة ثبت فيه رجحان الفعل على الترك ولم يقدّم الدليل على أن تركه يكون سبباً في العقاب وأما ما لم يظهر أنه قرينة فأمره أنه فعل لم يدع الناس إليه وليس في عمله رجحان على تركه وهو في نفس الوقت لا يعتبر معصية لأن النبي ﷺ لا يرتكب المعاصي وحكمه كذلك أنه جائز ومباح .

هذا حكم أفعال النبي ﷺ وأما ما عرف عن النبي من تقرير لفعل وقع بحضرته فقد ذهب العلماء إلى أن علم الرسول ﷺ بالفعل إذا حدث في غير حضرته أو إذا وقع بالفعل في حضرته وهو ساكت لم ينكره حال كونه قادراً على الإنكار ذهب العلماء إلى أن في ذلك دليل جواز الفعل من فاعله ومن غيره إذا ثبت أن حكمه على الواحد حكمه على الجماعة ما لم يكن ذلك الفعل مما علم أن النبي ﷺ «أنكره قبلاً» .

وأما ترك إنكاره حال وقوعه لذلك السبب ، وقال العلماء : إن عدم الإنكار دليل الجواز لأن الفعل لو كان غير جائز وأقره الرسول ﷺ وسكت عنه لكان ذلك منه نوعاً من الجرم وتقريراً للباطل وهو محال عليه لعصمته ﷺ وإن كان قد سبق تحريمه دل السكوت عنه على نسخ حكم التحريم الأول هذا إلى أن التقرير قد يكون مصحوباً باستبشار الأمر الذي يعتبر أوضح في الدلالة على الجواز .

وأما قول النبي ﷺ فمنه المتواتر ومنه الأحاد .. فأما المتواتر فهو خبر جماعة يفيد بنفسه العلم بصدقه ، والمقصود بكلمة «بنفسه» الاحتراز عما إذا كان العلم مستفاداً من قرائن زائدة عن الخبر نفسه ، وشروط التواتر الصحية ثلاثة كلها متعلقة بالرواة المخبرين ، أولها : تعددهم تعددًا يبلغ من الكثرة حدًا يمتنع معه الاتفاق بينهم والتواطؤ على الكذب عادة ، ثانيها : أن يستند إخبارهم عما أخبروا به إلى الحس ولذلك فلا يعتبر قولهم في مثل

حدوث العالم ، ثالثها : استواء الطرفين والوساطة أعني بلوغ جميع طبقات المخبرين في الأول والآخر والوسط بالغاً ما بلغ عدد التواتر .

هذا هو التواتر لفظاً ومعنى ، وهناك المتواتر في المعنى فقط ، وهو ما كثرت فيه الأخبار واختلفت فيه ولكن بينها قدر مشترك اتفق عليه ككرم حاتم وشجاعة علي ، وأما خبر الأحاد فهو ما لم ينته إلى حد التواتر سواء أفاد ظناً أو لم يفده .

والخلاصة أن من السنة ما كان يتلقاه جميع غفير من الصحابة ، ومنها ما كان يتلقاه العدد القليل أو الواحد فقد كان النبي ﷺ إذا سئل في مسألة أو حكم بحكم أو أمر بشيء أو فعله أو أقره وعاه من حضر من الصحابة وحفظه وفات من غاب عنه علم ذلك فتوزعت السنة بين الصحابة وهذا هو أحد الأسباب المهمة في اختلاف المجتهدين بعد عصر الرسول ﷺ .

والأحاديث أو ما تمر تحت اسم «الأحاديث» تتفاوت في درجة الثبوت تفاوتاً كبيراً ويرجع ذلك في الأكثر إلى حال رواة الحديث .

فمن الأحاديث ما هو ثابت الصدور عن النبي ﷺ وهو المتواتر ومن بين ما يمر بين الناس تحت اسم الأحاديث ما استطاع العلماء أن يتبينوا بعد البحث فيه ومن حال رواته أنه مكذوب على النبي ﷺ ذلك يسمى بالأحاديث الموضوعية .

وبين المتواتر والموضوع أحاديث تتفاوت في درجة ثبوتها تفاوتاً كبيراً فمنها ما هو قريب من المتواتر ومنها ما هو دون ذلك ، ومنها ما حامت حوله الشكوك حتى أصبح قريباً من الموضوع في اعتبار علماء الحديث ولا شك أن درجة الثبوت هذه تؤثر في قيمة الحديث التشريعية تأثيراً كبيراً فالحديث المتواتر له من الأثر في التشريع ما لنصوص الكتاب فأمره فرض ونهيه تحريم والأحاديث الموضوعية بطبيعة الحال لا اعتبار لها ، وأما ما بين ذلك من الأحاديث فقد أخذ بها بعض العلماء ورتب عليها أحكاماً وتركها البعض الآخر .

وظاهر أن المتواتر يفيد بنفسه العلم بصدقه ، ولذلك فإن حكمه من الثبوت واضح ، وأما خبر الأحاد فهو لا يفيد بنفسه العلم بصدقه ، بل لا يفيد العلم إلا بقريضة زائدة ، وسنفرده للسنة الصحيحة وغير الصحيحة مبحثاً خاصاً فيما بعد .

أما حكم السنة القولية من حيث الوجوب أو الندب فيؤخذ من عبارة اللفظ ، وظروف صدور السنة ومقارنة الأحكام ومعرفة ناسخها ومنسوخها وليست عبارات السنة جميعاً من الصراحة في النص بحيث تعطي نفس الحكم عند جمهور الفقهاء بل أن هناك أحوالاً كثيرة اختلف فيها الفقهاء في تفسير النصوص والعبارات مما أدى إلى اختلاف واسع في الأحكام الشرعية ، وسيوضح مدي ذلك وأثره في التشريع الإسلامي عند بحث موضوع اختلاف الفقهاء والأسباب الداعية إليه .

وحجية السنة مستفادة من قوله تعالى «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» ، وقوله تعالى «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» ، وقوله «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ» وقوله «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ» ، وفي تفسير ابن عباس رضي الله عنهما وكثير من الصحابة أن الحكمة هي السنة . ومن قوله ﷺ «ألا لا ألفين أحدكم يجلس على أريكته يأتيه الأمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فإني أوتيت الكتاب ومثله معه» .

هذه بعض النصوص المعتمد عليها في حجية السنة على أن هناك اعتباراً آخر هو أن عصمة الرسل جميعاً من الزلل في التبليغ عن الله ، ومن الزيغ عن الوجهة التي وجههم إليها أمر ثبت بثبوت رسالتهم ، وهو في نفسه دليل على أن تعاليمهم إلهية ومن عند الله وعلى أنها لذلك حجة على من بلغته الدعوة ، ووضحت له سبل الهداية ومن المأثور عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس» .

وقال ابن قيم الجوزية في كتابه إعلام الموقعين أن النبي ﷺ كان يفتي عن الله بوحيه المبين ، وكان كما قال له أحكم الحاكمين «فَلَمْ مَا أَسْأَلْكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» فكانت فتاويه جوامع الأحكام ومشملة على فصل الخطاب وهي في وجوب اتباعها وتحكيمها والتحاكم إليها ثانياً الكتاب ، وليس لأحد من المسلمين العدول عنها ما وجد إليها سبيلاً وقد أمر الله عباده بالرد إليها حيث يقول «فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» .

[٥]

مثل عليا من آداب القرآن (*)

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد بهجت البيطار

مثل عليا من آداب القرآن في آخر سورة آل عمران ، وهي عشر آيات كان النبي صلوات الله عليه يتلوها في الليل إذا قام لتهجده ، كما في صحيح البخاري وغيره ، وأنا لا أريد أن أذكر ما يتعلق بهذه الآيات الكريمة من الوجوه الشرعية والعربية ، فإن ذلك في كتب التفسير وهي في متناول الأيدي ، ولكنني أورد ما يلهمني الله تعالى من معاني بعض هذه الآيات العزيزة ، ووحيه المعجز لا تتناهي عجائبه .

• «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ» .

إن هذه الآية صريحة في أن الله تعالى وجه عقل الإنسان إلى التفكير في ملكوت السموات والأرض ، ودلت على أن الأنبياء عليهم السلام هم أول من فتحوا أبواب البحث والنظر في العلوم الكونية ، وهذا كقوله سبحانه «قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» ، فهو نظر عملي ينتج أفضل النتائج والثمار وكقوله «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ» ، وهو تسخير تمكين وانتفاع واكتشاف واختراع وكقوله «الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا» ، وهذا خطاب عام لأمة القرآن يدعوهم ويوجه نظرهم إلى ما أودع تعالى في جوف هذه الأرض من الكنوز والمعادن ، ويرشدهم إلى الاستفادة منها ، والانتفاع بما بث فيها من الخواص والقوى ، ويثبت أن جميع ما استحدثته أمم الغرب من المكتشفات والمخترعات هو مما أرشد إليه الإسلام وسبقت إلى العمل به الأمة العربية في عصورها الذهبية فرده رد لنصوص القرآن وتعطيل لأحكامه ، وتجريد لهذه الأمة من كل ما يعزز قوتها ، وينمي ثروتها ويدفع عوادي الشر عنها وأي جنائية على الأمة أكبر من هذه الجنائية ؟

• «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» .

الجمع بين الذكر والفكر في آية واحدة هو جمع بين العلم والفضيلة ولا غنى لأحدهما عن الآخر ، وإنما قدمت الفضيلة لأنها أساس العلم ونبراسه وعليها بنيت فكرة التربية الصحيحة القائلة «هذبوا النفوس قبل أن تعلموا الرؤوس» ، فالذكر ينبوع العدل والرحمة ، والفكر آية العلم والحكمة الذكر والفكر هما علم وعمل بل هما جناحان يحلق بهما الفرد والأمة في سما العلم والعرفان والرحمة والإحسان الذكر هداية ورحمة والفكر علم وحكمة ولا غنى للفكر عن الذكر إلا إذا أمكن أن تستغني هذه الأرض نور عن الشمس ، وإذا فسر الذكر بالصلاة أيضاً كما في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنبك» ، كان المعنى أنهم لا يقطعون ذكرهم في جميع أحوالهم بسرائرهم وحركاتهم وألسنتهم كما قال القائل :

ذكرتك لا أني نسيتهك ساعة وأيسر ما في الأمر ذكر لساني

قيل لي مرة : إن هذا العصر هو عصر مادة وقوة فما فائدة العبادة الشخصية كالصلاة مثلا في معترك الحياة العملي ، والجهد القومي ؟ فأجبت أنه جميع التكاليف الشرعية من روحية وبدنية ومالية مبنية على درء المفساد عن الأمة وجلب المصالح لها فالصلاة الروحية البدنية التي هي فرض عام على كل مكلف تنهي عن الفحشاء والمنكر ، واشد الفواحش والمنكرات فتكاً وهتكاً هي تلك الجيوش المعنوية التي غزت بلاد الشرق كالخمر والميسر والبغاء والربا والانتحار فكثير ممن أضع الصلاة واتبع الشهوات وقع في هذا التيار الذي

(*) نشر بمجلة «الشهاب» ، الجزء الخامس ، السنة الأولى ، ص ٩ ، بتاريخ غرة ربيع الأول ١٣٦٧هـ - فبراير ١٩٤٨م .

أسلمه إلى الجنون أو المنون فكان ذلك من اشد المصائب على الوطن وأهله فالمرجو أن يربى النشء الجديد على حب الله ، وأقام الصلاة والمحافظة عليها ، وأن تحيا الصلاة في المدارس ، بل أن تحيا المدارس بها فهي من الوجهة الصحية رياضة بدنية ، ولكنها تمتاز من الوجهة الروحية بأنها صلة بين المخلوق وربّه ، وبين الروح وجسمه وبين الآخرة والأولى .

وجملة القول أن الذكر بلا فكر جهل وضعف والفكر بلا ذكر قسوة وعنف ، فالذكر الصحيح يظهر بلادنا من المهالك والمفاسد ، والفكر الصحيح يهدينا إلى إيجاد كل ما نحتاج إليه ويغنينا عن الأجانب .

• «رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ» .

أي أشياء أخرى من افتضاح السرائر والأعمال في ذلك اليوم العصيب .

• «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» ، «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ» ، «إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» ، ولكن هل يبالي بخزي الآخرة من يرتكب الجرائم والمآثم في هذه الدنيا ولا يبالي بخزيها ؟

القرآن الحكيم يزن بالقسطاس المستقيم عقائد الناس وأعمالهم ويميز بين طبقات محسنينهم ومسيئهم ، فلا يحكم عليهم في الدنيا حكما واحدا ولا يجعلهم في الآخرة مستوين في منازل الكرامة أو الندامة «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ» ، فعلى رجال العلم والأخلاق أن يبينوا للناس أن أهل الخزي في الدنيا هم أهل الخزي في الآخرة ، وأن نار الآخرة وقودها جثث وهام ، وعلى حماة الوطن والاقتصاد أن يحسموا من هذه البلاد مادة الفساد إذا أرادوا سلامة هذه الأمة ووطنها وأن ينصحوا للمتهورين بمقاطعة الملاهي المفسدة والسعي في إغلاق المقامر وبيوت الفحش السرية والخمر والعري والفجور ويجب بيان أن هذا العري الذي يبديه الرقيق الأبيض المأجور في نوادي الخزي والعار ، هو تقليد لبعض همج القرون الوسطى كما يراه المنتبج لتاريخ الفحشاء وأسبابها وامتدادها ونشوتها بين الأمم ، وهل يسهل على رجال العلم والأخلاق أن تشيع الفواحش في هذه البلاد ، وأن يكون بعض شبابنا – لا سمح الله – أداة لحمل هذه البضاعة الضارة ، ونقلها إلى بيوت الطهر والعفاف ، ويكون هو أيضا جرثومة للأوبئة والأمراض وسببا لضياح الأنساب والأحساب وإفساد الفتیان والفتيات ، وحل روابط الأسرة والبيوتات ؟

• «رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَأَتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ»

انظر رحمك الله إلى هذه الأدعية الجليلة في هذه الآيات الكريمة ، كيف وجهت أنظارنا وقلوبنا إلى الوسيلة التي شرعها الله لعباده من الإخلاص في الدعاء له وحده ، والإيمان بما أنزله من عنده ، واتباع الرسول صلوات الله عليه فيما جاء به ، ثم تأمل كيف جعل ذلك سببا في استجابة الدعاء بمغفرة الذنوب وتكفير السيئات والوقاية من النار ، والنظم في سلك الأبرار ومثل ذلك ما جاء على لسان الحواريين «رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ» ، فالمؤمن العامل هو الذي يجني ثمرة عمله في الدنيا والآخرة كما قال تعالى : «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ دُكْرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» ، ولو كان مجرد الدعاء أو التوسل بصالح الصالحين وعمل العاملين يفيدنا معشر المسلمين من دون أن نعمل بأنفسنا ونكد ونجد لسعادة الدارين لكنا خيرا من ذلك ، إذ كان يمكننا أن نقول مثلا : اللهم أزل ضعفنا وأمن خوفنا وانصرنا على عدونا بسلفنا الصالح الذين جاهدوا في سبيلك لإعلاء كلمتك ففتحت لهم فتحا مبينا ، ونصرتهم نصرا عزيزا ربنا هب لنا من الملك والسلطان ، والعلم والعرفان والحضارة والعمران ، مثل ما وهبت لهم . نسألك اللهم أن تمنحنا ذلك كله ببركة علمهم وعملهم وجدهم وسعيهم ، أفترى أنه يفيدنا هذه الأدعية والتوسلات بلا عمل ، وهل نسود كما سادوا إذا لم نشد كما شادوا ونفعل مثل ما فعلوا ؟!

وهكذا شأن التوسل الديني الأخرى ، فمن وفقه الله وألهمه رشده يتقى عقاب الآخرة بما شرعه الله لاتقائه من التوبة والإيمان والأعمال الصالحة .

فرب الدارين واحد ، وحكمته واحدة ، ولا يناقض بعضها بعضاً ولا يبطل بعضها بعضاً .

وقد رتب الله سبحانه على هذا الدعاء المتقدم الاستجابة ، فقال «فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ» .

وظاهر من هذه الآية أيضاً أن الدعاء يجب أن يكون مقروناً بالكسب والعمل إذ قال تعالى «لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ» ، ولم يقل قول قائل وأن يكون الكسب مبنياً على أساس الإيمان لقوله عز اسمه : «فَأْمَنَّا» فالإيمان والعمل هما مفتاح السعادة وطلب الوقاية من النار إنما يكون بترك الجرائم والآثام المحرمة ، والقيام بالفرائض المحتمة ، ودلت الآية أيضاً على مساواة المرأة بالرجل في القرب والكرامة يوم القيامة فتفضله عليها بالقوة والقدرة في الدنيا ، لا يقتضي تفضيله بالثواب والجزاء في الآخرة بل لكل منهما جزاء كسبه وثمرة عمله «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» .

• «فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ» .

أصل المهاجرة المجافة والترك ، واسم الهجرة يقع على أنواع : منها هجرة الصحابة إلى الحبشة ، بعد البعثة بخمس سنين ، وهجرتهم إلى المدينة بعد البعثة بثلاث عشرة سنة ، وهجرة القبائل إلى الرسول ﷺ ليتعلموا دينهم ويرشدوا قومهم وهجرة من لم يتمكن من إقامة دينة إلى دار الإسلام ، ومنها هجرة ما نهى الله عنه وهي أعم أنواع الهجرة» ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ؟

والهجرة في عصرنا منها ممدوح ومذموم ، فمن الهجرة الحسنة الهجرة إلى ديار الغرب لنشر الدعوة ، وإقامة الحجة ، والإنقاذ من فوضى الأخلاق والآداب ومنها الهجرة للمطالبة بحقوق البلاد ، والدفاع عن حريتها واستقلالها ، ومنها الهجرة لتعلم الفنون والصناعات التي تتوقف عليها حياة البلاد ورفيها ، ومن الهجرة المذمومة السفر إلى تلك الديار للتهتك والاستهتار أو بقصد أن يكون المهاجرين مطايا الاستعمار .

أما هجرة النبي ﷺ وأصحابه فيما كان من إيذاء أعداء الحق لهم ، واضطهادهم إياهم ، وتعذيبهم على اعتقادهم الذي تمكن من نفوسهم وعقولهم ، وفي قوله : «أخرجوا من ديارهم» دليل على أن الخروج عن الوطن والمال ليس مقصوداً للشارع ولهذا قال النبي ﷺ لما غادر مكة : «والله لأنت أحب بلاد الله إليّ ولولا أن قومي أخرجوني منك لما خرجت» ، وأهل الصفة - وفي سقيفة - كانت من جملة مسجده ﷺ - قد أخرجوا من ديارهم أيضاً - ولم يخرجوا باختيارهم ، وأووا إلى المسجد النبوي إذ لم يجدوا في المدينة أهلاً ولا مالاً ، وهم أضياف الإسلام ، قال الإمام الشاطبي في الاعتصام : فالتشبه بأهل الصفة إذا في إقامة ذلك المعنى واتخاذ الزوايا والربط لا يصح ، فليفهم الموفق هذا الموضع فإنه مزلة قدم لمن لم يأخذ دينه عن السلف الأقدمين والعلماء الراسخين» .

«وأودوا في سبيلي» كم نال النبي ﷺ وأصحابه من أذى المشركين وعدوانهم ، حتى فرض عليه الجهاد ، ونزل مثل قوله سبحانه «أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ» ، والآية صريحة في أن هذا القتال دفع للظلم ورد للعدوان ، وحماية للدعوة ، ودفاع عن الأمة ، وبيان لسبب الهجرة ، وقد آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، ووادع من في المدينة من اليهود وكانوا ثلاث قبائل : بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة وكتب بينهم كتاباً فخانوه وحاربوه وظاهروا

مشركي العرب عليه ، فغزا بني قينقاع وأجلى بني النضير فنزلت فيهم سورة الأحزاب ، كما ترى في كتب السيرة .

وقد وقعنا نحن العرب والمسلمين مع يهود هذا الزمان ، ومن يشايعهم من دول الاستعمار والطغيان ، فيما هو أشد من ظلمهم الأول وأعظم ، إذ يحاول هؤلاء البغاة المعتدون علينا في ديارنا أن يمتلكوا الأرض المقدسة منا وأن يخرجوا أهلها منها بالقوة وها هم أولاء يقاتلون العرب فيها ليجلوهم عنها وقد قضت الأكتيرية المزعومة في منظمة الأمم المتحدة بتقسيم أرض فلسطين بين أهلها والمعتدين عليهم ودول الاستعمار والحديد والنار يؤيد بعضهم بعضاً في مقرراتهم ، ويخشى بعضهم بعضاً في تنفيذها «كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» .

«وقاتلوا وقتلوا» القتل : منه ما هو حسم لمادة الفساد ، وضمان لحياة الأفراد كقتل القصاص «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ» ومنه ما هو غرامي أو جنائي كقتل الانتحار والتردي من فوق الجبال وإلقاء النفس في أعماق البحار ومنه قتل الاغتتيال وحوادثه في الصحف اليومية وفي المسارح العمومية ودور السينما لا تحصى كثرة ، أما فعل هذه المشاهد في الأخلاق فكعمل الجرائم في الأجسام وأشد ، ومن أنواع القتال ما هو طمع وجشع ، أو استذلال واستعباد ، وهو ما تراه في الأمم القوية ، الفاتكة بالشعوب المستضعفة ورحم الله القائل:

**ومعترك للموت أما سماؤه فنقع ، وأما أرضه فجماجم
تنازع فيه النصر : خصمان أعزل يدافع عن ملك وشاك يهاجم**

وأما الاقتتال الجاهلي قبل الإسلام فهو حروب أهلية داخلية . وفيه إضعاف للأمة وتفريق لوحدها وهدم لقواها ومنهم من كان يصرح بأنه لم يشهد الوغي لغرض سوى شهود اللذات أو اليأس من الحياة ، كقول طرفة :

**ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغي وأن اشهد اللذات هل أنت مخلدي ؟
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي**

وعنترة الذي يتغزل بعبلة ويحاول أن يسترضيها بوقائعه ومشاهده فيقول :

**ولقد ذكرك والرماح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم**

وأين هذه الأهداف القاصرة أو الخاسرة في الأمم الغابرة والمعاصرة من الهدف العربي الإسلامي «الأسمي» في القتال ، وهو الجهاد لإعلاء كلمة الله أي لنصرة الحق على الباطل والفضيلة على الرذيلة والتوحيد على الوثنية وأين ذكر عنترة لعبلة حين اشتداد القتال من ذكر الله في قوله : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» ، فالثبات من أسباب النصر والظفر وذكر الله لمن لا يقاتل ابتداء قوة معنوية تثبت القلوب من ناحية وتبعث فيها الرحمة من ناحية أخرى فالذاكر لله لا يقاتل ابتداء ولا اعتداء ولا يقاتل من لا يقاتل كالنساء والصبيان والعجزة والمرضى ومن ألقى السلم وكف عن الحرب وإذا فالعرب يدافعون عن أنفسهم ووطنهم ، ولأجل حماية الدعوة لا لإقامة الدين بالسيف والقوة ، كما يظن الغر الجاهل وكما يقول العدو المتحامل وذكر الله هو الذي جعلهم أعدل الأمم وأرحمهم كما قال فيلسوف التاريخ جوستاف لوبون : «ما وجد التاريخ فاتحاً أرحم ولا أعدل من العرب» .

وإني اكتفي الآن بهذا القدر ، وأختم مبحثي بخاتمة الآيات العشر وذلك قوله عز وجل «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» .

الصبر : ملكة تهون على صاحبها كل ما يلاقيه في سبيل إصلاح ينشده أو دين عام ينشره ، كما يفعل «الإخوان المسلمون» الآن ، نصر الله دعوتهم وأيد بالحق كلمتهم ، وكما تفعل الأمة العربية كافة فقد بذلوا أموالهم وأنفسهم في تأييد الحق ونصرتة ، وصبروا على ما أودوا في سبيل الدفاع عنه ، فاضطرت الأحداث والوقائع منظمة الأمم المتحدة إلى الرجوع عن قرار التقسيم ، وبقيت إحداهن مصر على ما عادت التي تولت كبره من قبل تقترح اليوم مشروع الوصاية ، وهو شر وأضر من التقسيم ، وقد رفضه الفريقان فريق الجنة وفريق السعير :

إذا استشفيت من داء بداء فأقتل ما أهلك ما شفاكا

الأمة المجاهدة الصابرة ظافرة لا محالة وقد صبر الرسول ﷺ وأصحابه على مقارعة الشدائد حتى فازوا بعاقبة الصبر المحمودة والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين .

[٦]

العصبية المذهبية في الفقه سجن ضيق مظلم في جنة الشريعة الفيحاء

للأستاذ الكبير الباحث الفاضل الشيخ مصطفى الزرقا
أستاذ القانوني المدني بكلية الحقوق بدمشق الفيحاء^(*)

الشريعة الإسلامية كانت وحدها هي القانون المدني في جميع الممالك الإسلامية من قبل أن تنهض إلى جانبها القوانين الوضعية .

ولا أريد الآن أن ابحث في صلاح هذه الشريعة لأن تكون مددا كافيا للحاجة العملية الصحيحة مهما تطورت صورها واتسعت رقعتها وبيئتها فإن هذا بحث يطول بيانه وحججه ، وقد كفناه إجمالاً فحول رجال القانون اليوم ممن نضج علمهم كالأستاذ السنهوري باشا الذي له كلماته المأثورة في هذا الصدد عن بدائع الشريعة الإسلامية بمعناها الواسع في مختلف اجتهاداتها .

وإنما الذي يهمنا هنا ، مع افتراض هذا الصلاح في الشريعة الإسلامية أساساً مسلماً به أن نعرف خطيئات ماضينا في مدي استفادتنا من هذه الشريعة المظلومة بين أيدينا .

ولكي نعرف خطيئات الماضي في استفادتنا من الشريعة الإسلامية يجب أن نقف وقفة مع رجال المذهبية الضيقة نتفاهم فيها على حدود الشريعة بالنسبة إلى المذاهب الاجتهادية .

كل متبع لمذهب اجتهادي – إلا من عصم ربك – لا يرى الشريعة إلا من نافذة مذهبه وإن كان يجلب أئمة المذاهب الأخرى ويعظمهم فهو في منح الاحترام متسامح وهو في عدم قابليته لأن يرتاح إلى الأخذ بأراء من يجلبهم ويعظمهم متناقض ، فهو يتعصب لمذهبه وإمامه تعصب القريب لقريبة في التقاليد العشائرية مع أن نسبة أئمة المذاهب إليه واحدة ورابطته بهم سواء فلم يبق للعصبية المذهبية معنى إلا الهوى الأعمى .

والواقع أن كل مذهب اجتهادي كنافذة واحدة في بيت من دار كثيرة البيوت والنوافذ فكل نافذة على حدة لا يمكن أن تري صاحبها إلا قوساً جزئياً من دائرة أفق الشريعة ولكن الذي حبس نفسه أو حبسته التقاليد الموروثة على نافذة أحد البيوت يظن أن لا منظر يعتد به غير ما يراه ولو عقل ونظر لعلم أن للبيوت الأخرى مزايا في المناظر أو الأهوية لا يوجد مثلها عنده ، وإن كان عنده من ناحية أخرى ما لا يوجد في تلك ، ولكم يحتاج من يشرف بيته من جهة على غياض ورياض أن يشرف من جهة أخرى على جبل أو سهل أفيح .

ومن هنا يتضح أن رؤية كل ذي مذهب للشريعة الواسعة الأرجاء المطيعة الأفاق بعين مذهبه الخاص ، أو بمنظاره إنما هي رؤية ناقصة لأن الشريعة الإسلامية هي مجموعة المذاهب الاجتهادية التي وجدت والتي توجد قائمة على دعائمها قيماً صحيحاً وليست هي احد المذاهب .

إن جماعة من أهل المذهبية الضيقة ، يرون من العفائد الضرورية دينا لصحة إتباعهم لمذاهبهم أن يعتقد كل متمذهب منهم بأن مذهبه بكل ما فيه صواب يحتمل الخطأ ومذهب غيره خطأ يحتمل الصواب ولو وجب حقا على كل ذي مذهب أن يعتقد بمذهبه هذا الاعتقاد للزم من ذلك إيجاب اعتقادات باسم الدين يناقض بعضها بعضاً مادام كل منها يعاكس الآخر في احتمال الصواب و الخطأ .

(*) نشر بمجلة «الشهاب» ، الجزء الخامس ، السنة الأولى ، ص ٤٤ ، بتاريخ غرة جمادى الأولى ١٣٦٧هـ – مارس ١٩٤٨م .

وقد فتكت هذه الفكرة دهرًا بعقول المتذهبيين فتكاً كان له أسوأ آثار العصبية المذهبية حتى كشف عن فسادها الشيخ ابن عابدين رحمه الله، ولم يزل رغم ذلك لصداها دوي في أدمغة الكثيرين وهي تقوم على انتقاص ذوي المذهب الواحد لاجتهادات من يخالفهم مهما كانت قوية حكيمة سديدة تلمع فيها المصلحة ، وكيف يستطيع مع سيطرة هذه العقيدة على أو هام كثير من الفقهاء الكبار – بله من دونهم – أن يقلل احدهم الاستفادة من آراء المذاهب الأخرى غير مذهبه إذا كان يجب عليه ديناً أن يعتقد خطأها .

إن تلك الفكرة المنكرة تؤول بكل ذي مذهب إلى اعتقاد أن مذهبه هو الشريعة وحده .

ومما لا مناقشة فيه أن اعتقاد كل ذي مذهب بأن الشريعة هي مذهبه مع التسلم المتفق عليه بان الخطأ لا يخلو منه مذهب اجتهادي لعدم عصمة المجتهد يلزم منه أن تكون أخطاء كل مذهب هي أخطأ الشريعة نفسها ما دام لا يرى الشريعة إلا مذهبه فقط .

وقد غلا المتبعون فيما لم يغل فيه المجتهدون أنفسهم فالفكر الصحيح هو ما أسلفنا الإشارة إليه أن الشريعة هي مجموعة الاجتهادات غير المحدودة وليست هي مذهباً معيناً فخطأ أحد المجتهدين هو خطؤه في فهمه الخاص ، وصواب الموضع عند غيره ، والمجموع لا يضيع فيه الصواب ، وإذا افترض ضياعه على الموجود من الاجتهادات فلا يلزم منع ضياعه على ما لم يوجد بعد .

وإن أهل العصبية المذهبية الذين يلتحف كل منهم بعصبيته بزعم الحرص على حياة مذهبه لو عقلوا لعلم كل منهم أن حياة الشريعة بكامل فقها خير من حياة مذهبه وحده فيها .

فإذا تقرر هذا بعد تصفية حساب هذه الوقفة العجلى التي وقفناها مع رجال المذهبية الضيقة تظهر لنا نتيجة جلية وهي أن عمل الأمة بمذهب واحد في تشريعنا المدني ليس هو في الحقيقية عملاً بالشريعة كاملاً ، وليس استفادة من كل التشريع الإسلامي الجزل بل هو استفادة من بعضه ، وإنما الاستفادة الحقيقية من هذه الشريعة العظيمة المظلومة أن تأخذ الأمة لأحكامها القضائية المدنية كل ما تجده أحكم وأصلح من اجتهادات المذاهب المختلفة (ولا أعني بها الأربعة فقط بل ما وراءها أيضاً مما هو ثابت الاعتبار) وأن تكون في تطور دائم بهذا الأخذ فتترك غداً ما أخذت اليوم من أحد المذاهب إذا تغير وجه المصلحة الزمنية ، أو أظهر التطبيق فيه محذوراً ما ، وتأخذ بسواه وهكذا حتى ليتمكنها أن تأخذ في بعض وجوه القضية الواحدة بمذهب وفي بعضها بمذهب آخر .

ولنضرب بعض الأمثلة المذهبية التي ترىنا كيف أن وجه الحكمة والصواب في القضايا والأحكام الهامة فد يتجلى في بعض المذاهب ويغيب في آخر .

إن الاجتهاد الحنفي مثلاً استقر دليله الشرعي على نظرية عدم تقويم منافع الأشياء في ذاتها بلا عقد إجارة وبني عليها نظرية عدم تضمين الغاصب قيمة لمنافع المغصوب مدة الغصب مطلقاً سواء أجره ذلك الغاصب أو انتفع به أو عطله ، ولا يخفى أن هذه النظرية يكون الناس في ظلها أكثر جرأة على الغصب لأمان الغاصب من المسؤولية بالمنافع التي يعطلها على المالك وقد جنح الاجتهاد الشافعي والحنبلي – على حق – إلى خلاف ذلك ، فأخذ بعكس تلك النظرية واستقر دليلهما على أن للمنافع قيمة في ذاتها كقيم الأعيان أو أكثر ، وأوجباً على الغاصب ضمان منافع المغصوب عن مدة الغصب يدفع أجر المثل ، فانفتحت في اجتهادهما تلك المحاذير التي تنشأ عن الاجتهاد الحنفي في ذلك وتتصادم مع حكمة التشريع عملياً مما لحظه متأخرو الحنفية أنفسهم فاضطروا أن يقصروا من شمول أصل مذهبهم فاستثنوا من حكمها غصب ما اليتيم والوقف والمعد للاستغلال ، فجعلوا منافع هذه الثلاثة مضمونة على الغاصب ، وكذلك ما قرره الاجتهاد الشافعي في موضوع حق الشفعة من نظرية ضرر القسمة ، فقد اعتبر أن الشفعة إنما شرعت لدفع ضرر قسمة العقار المشترك فكانت عنده شركة الملك الشائعة نفعاً بالنسبة إلى القسمة وإزالة الشبوع بالقسمة ضرراً ، فالشفعة غايتها عنده أن تنجي الشريك من ضرر القسمة ، وقد فرغ على هذا أن العقار الذي تجري فيه الشفعة إنما هو العقار الكبير القابل للقسمة أما العقار

الصغير المشترك الذي لا يقبل القسمة فلا شفعة فيه لأحد الشريكين بحصة شريكه المبيعة إذا لا تجري فيه القسمة فلا ضرر تدفعه الشفعة .

وقد خالفه الاجتهاد الحنفي - على حق - في ذلك فاعتبر أن الضرر ليس في القسمة بل في الشركة لأنها غل يغل التصرف والإصلاح والتحسين في العقار فإزالتها بالقسمة نفع لا ضرر ، فالعقار المشترك القابل للقسمة إذا جرت الشفعة في بيع حصصه ففي الصغير غير القابل للقسمة أولى أن تجري الشفعة .

وهذه النظرية الحنفية كما لا يخفى ، أخرى وأكثر توازناً مع حكمة التشريع وعلى كل حال قد يحتاج إلى الاجتهاد الحنفي في عدم ضمان المنافع في بعض الوجوه كالجزم الزائد من أجره العين المغصوبة على قيمتها إن زادت ، فإن ما زاد لا ينبغي ضمانه ، وكذا إن كان الاستيلاء عليها مستنداً إلى زعم مشروع ، وقد يحتاج أيضاً إلى الاجتهاد الشافعي في بعض أحكام الشفعة ، كما لو أريد مثلاً إلغاء شفعة الجوار مثل ما فعل قانون الملكية العقارية في سوريا وكان موافقاً للاجتهاد الشافعي في ذلك فيتضح من هذا أن لا غنى عن مجموعة المذاهب لصياغة قانون مدني حكيم محكم .

والواقع أن المذهب الواحد مهما كان إنما يصلح للإلتباع الفردي وللفتيا الخاصة ولا يصلح أن يكون برمته قانوناً مدنياً تلزم به الأمة ما دام عرضة للخطأ والصواب وهو إنما يمثل رأياً واحداً في فهم قانون الشريعة المدني بين مجموعة آراء كثيرة هي المذاهب الأخرى كل منها يخالف سواه في قليل أو كثير من مباني الأحكام وفروع المسائل مخالفة تستند استناداً معتبراً إلى قواعد الشريعة نفسها ، وتستمد من نصوصها العامة القابلة لأن تنزل على منازل شتى في الفهم والتطبيق بشكل لا يتنافى مع أسسها الثابتة وتلك هي ميزة مرونتها وحيويتها ، فالترام الأمة مذهباً واحداً في قانون الشريعة المدني هو تبييض وتصليب لتلك المرونة وخروج من الفضاء الرحب الواسع إلى حظيرة ضيقة واختيار للعتق على السماحة .

وليس العمل بمذهب واحد في بلاد ما إلا أثراً للعصبية المذهبية التي لا معنى لها إلا الحرمان من ثمرات الشريعة الطيبة ، نعم لقد كانت هذه العصبية في الماضي ضرورة وذات فوائد في طور تكوين المذاهب كي يتسنى بها تأسيس المذهب وتوسيع اجتهاده وجمع شتات ثروته الفكرية فأما بعد أن تم ذلك واستقرت أصول المذاهب وفروعها فقد أصبح واجب الأمة أن تنتقل بينهما وتختار من كل منها أحسن ما فيه وأحكم مبادئه ، وتجعل من مجموعها للقضاء مجموعة مدنية تشتمل من أحكامها على محاسن كل المذاهب وتترك أخطاء كل منها وصعوباته وبذلك تكون قد استفادت من التشريع الإسلامي بكامله ، وألقت بصرها وتلقت النور والهواء من جميع نوافذ صرحه العظيم العالي لا من إحدى نوافذه فقط .

إن من الخطأ البين في الماضي صياغة المجلة العدلية في العهد العثماني من مذهب واحد هو المذهب الحنفي إذ كان من نتائج ذلك فيما بعد أن يلتجئوا إلى استمداد قوانين أجنبية قد كان في فقهنا الجرم غني عنها ولاسيما في زمن كثر فيه اتصال الممالك بعضها ببعض ، وأخذت فيه الحاجة التشريعية تفرض قوانين مقتبسة في شتى نواحي الحياة ، وفي مختلف أنواع المعاملات المدنية من تجارية وعقارية والتزامية وغيرها فإذا عرفنا خطيئة الماضي تعين ما يقترح للمستقبل ، وذلك بأن نحسن الاستفادة من تراث الشرع الإسلامي بكامله فنرجع إلى تلك الاجتهادات الثمينة فنصوغ أحسن ما فيها مما يوافق حاجتنا ومصالحتنا قانوناً مدنياً صالحاً متيناً قريب النسب والرحم منا سهل للمراجع علياً للشرح والتوسع والتطبيق ، وإنما لو اجدون في مجموعة هذه الاجتهادات من نفائس الأحكام والآراء ما لا يضيق عن حاجة .

[٧]

رابطة الإسلام

بقلم فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ على الخفيف

أستاذ الشريعة بكلية أصول الدين (*)

ضرورة الروابط الاجتماعية :

لم يكن الناس في يوم من الأيام ، في غنى عن روابط تربطهم أفرادا وجماعات ببعض بل وما كان في وسعهم - لو أرادوا - ألا تكون لهم تلك الروابط أو أن يتخلصوا منها ، لأنها لازمة لوجودهم في هذا العالم ، ونتيجة حتمية لاجتماعهم لكل إنسان أسرة تربطه بها رابطة القرابة ، وعشراً تربطه بهم رابطة الصداقة ، وموطن يربطه بأهله رابطة الوطن والسكن وقوم تربطه بهم رابطة اللغة ، وشعب تربطه بهم رابطة الجنس ، وأمة تربطه بهم رابطة الدين ، وآخرون تربطه بهم روابط أخرى من عادات أو حكم أو غير ذلك .

وعلى هذه الروابط تقوم الحياة الاجتماعية ، ويتوافر لها حظها من الاستقرار والنظام في جميع نواحيها واتجاهاتها على اختلاف ألوانها وفروعها ، وللإنسان منها قوة يعتمد عليها في جهده وكفاحه ، ويستعين بها في نيل حاجاته ورغباته فيما رسم لها من حدود ويكتسب منها صفاته ومظاهر وجودة الشخصي والاجتماعي ، ويتوافر له منها ما يستخلصه من وسائل حياته وعيشة في معترك هذه الحياة أمام ما يعترضه من طغيان واعتداء وتسلط لم يستطع العالم على طول الزمن أن يقضي عليه أو ينقص منه .

إن طبيعة الحياة في هذا العالم تزاحم وتغالِب ومدافعة في سبيل الحصول على حاجة النفوس ورغباتها ، والفوز عند ذلك إنما هو لأولي القوة والبطش والفرد في أكثر حالاته لا يقوى على أن يصمد أمام ما يعترض له من قوى ينخلع لكثرتها قلبه ويفتر لتواليها جهده وكان لابد له من روابط يستعينها على الظفر ببعض ما يطلب والمحافظة على بعض ما اكتسب وكانت له تلك الروابط عماداً لحياته ، وحافزاً لبقائه وسكونه غير أن هذه الروابط على انتفاعه منها وحاجته إليها قد تختلط عليه فتنتهي به إلى نزاع ، وتسلمه إلى تعارض يضطر معه أن يؤثر رابطة على أخرى فيقطع بذلك حبلأ كان يعتصم به ، ويترك مؤثلاً كان له فيه حماية ، فيصيبه بذلك كثير من العنت ليس إلى دفعه من سبيل ، وذلك ما يقتضي أن يكون لهذه الروابط نظام وحدود ينتهي عندها كل خلاف ويرتفع لديها كل تعارض ، وذلك إنما يكون بتغليب رابطة منها ، وإخضاع سائر الروابط لمقتضاها .

رابطة الدين :

وقد جاء الإسلام بتغليب رابطة الدين فجعل من المسلمين أمة واحدة مهما اختلفت جنسياتهم وتعددت لغاتهم وتباعدت أوطانهم وتباينت عاداتهم فأصبح المسلمون بتلك الرابطة أمة واحدة وطنهم دار الإسلام ودستورهم القرآن وهدفهم إعلاء كلمة الله ، وطريقهم العمل وترك التواكل والكسل يحكمون بما انزل الله ويهتدون بهديه ، وينزلون على حكمه تتكافأ دماؤهم ، وتتساوى حقوقهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم .

ولم يعلن الإسلام بذلك أن يقطع كل رابطة غير رابطة الدين أو أن يهمل أمرها ، أو يحط من شأنها ، أو أن يقضي جملة على جميع آثارها ، فذلك ما لا يتفق وطبائع الناس وما يتعارض مع نظرهم والدين لا يناقض الفطرة وإلا ناقض نفسه وقد وصفه الله تعالى بأنه الفطرة التي فطر الناس عليها فقال «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (الروم : ٣٠) .

(*) نشر بمجلة «الشهاب» ، الجزء الخامس ، السنة الأولى ، ص ٤٨ ، بتاريخ ربيع الآخر ١٣٦٧هـ - مارس ١٩٤٨م .

رابطه القرابة :

لقد أقر الإسلام رابطه القرابة فأعظم أمرها وأعلى شأنها واتخذها أساساً لنظام الأسرة ، ووسيلة لأحكام بنائها ، ورتب عليها كثيراً من الحقوق والواجبات فأوصى بالإحسان إلى الوالدين وإلى ذوي القربى في كثير من الآيات وفي مواضع مختلفة من القرآن جاوزت العشرة فقال تعالى «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» (النحل ٩٠) ، «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى» (النساء ٣٥) ، «وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا» (النساء ٢٧) ، «وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ» (البقرة ١٧٧) ، «وَأْتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَالْبَنَ السَّبِيلَ وَلَا تُبْدِرْ نَبْذِيرًا» (الإسراء ٢٦) ، «فَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَالْبَنَ السَّبِيلَ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (الروم ٣٨) .

خضوعها لرابطه الدين :

في كل ذلك دلالة قوية على ما لرابطه القرابة من عظيم الأثر وجليل الخطر في بناء الأسرة وتكوين الأمة ولم يحل ذلك أن يجعلها الإسلام خاضعة لرابطه الدين تمدها وتؤيدها ولا تقوم على خلافها وفي قوله تعالى «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَاءَ لَأُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ» (براءة ١١) ، إشارة إلى انقطاع الصلة بين ذوي القربى بسبب اختلافهم في الدين حتى لم يكن للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا لذوي قرباهم من المشركين ، وأصرح من هذا في الدلالة قوله تعالى «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» (التوبة ٢٤) ، فقد جعلت فيه رابطه القرابة التي تنتظم الآباء بالأبناء والأخوة والأخوات والعشيرة ورابطه المصاهرة التي توثق بين الزوجين ورابطه المال ورابطه الوطن ، جعلت هذه الروابط كلها أدنى منزلة من رابطه الدين التي شعارها حب الله ورسوله والجهاد في سبيله حتى هدد من يفضل تلك الروابط على روابط الدين فيكون أباه وأبنائه وإخوانه وزوجه وعشيرته وأمواله ومساكنه أحب إليه من دينه ، يتركه ما كان في تركه حب هؤلاء ويعرض عنه ما كان في ذلك الإعراض الإقبال على هؤلاء بأن يتربص أمر الله فيه بالبور والضلال والخزي والنكال والفناء والزوال فإن ذلك منه فسوق والله لا يهدي القوم الفاسقين .

رابطه الدين أعلى الروابط :

وفي قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق : عموم ينطق بجعل الدين حاكماً في كل ما يطلب ويرغب سواء أكان ذلك أمراً يقتضيه هوى حاكم ، أو محبة والد ، أو صلة قريب أو رغبة صديق أو مصلحة وطن أو غير ذلك مما يطلب لشأن عام أو خاص فإذا كان معصية فلا طاعة فيه وكانت الطاعة فيه حراماً ، والتوجه إليه إنمّا ، والإقبال عليه منكرًا و إلا كان الحكم فيه على وفق ما تدعو إليه الضرورة ، وتقتضيه المصلحة ، ويتطلبه الكمال .

ذلك كله إعلان من الإسلام بأن رابطه الدين هي الحاكمة على جميع الروابط القائمة على أمورها الهادية إلى الطريق الذي يجب سلوكه العاصمة من الخطأ الذي قد يتعرض له الإنسان بسبب ما للأهواء من نزق ، وما للمطامع من فسوق ، وما في النفوس من سوء وإذا فليس للإنسان أن يتخذ له من قريبه ولياً ينصره ، أو أن يجعل من قرابته صلة تدعوه إلى مودته والإحسان إليه ، إذا كان هذا حرباً على دينه يكيد للمسلمين ويعتدي عليهم وفي ذلك يقول الله تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ لِقَوْمٍ إِلَيْهِمُ بِالْمُؤَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ» (المتحنة ١) ، فإن ذلك خروج على رابطه الدين ، وترك لنصرته وإعلاء كلمته ولذا أمر الإنسان بأن يعصى والديه إذا دعياه إلى الشرك فقال تعالى «وَأِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ» (لقمان ١٥) ، وتجد كل رابطه أمام رابطه الدين

تتلاشى عند التعارض ، وتقوى وتتوثق عند الوفاق والتلاؤم ، وهذا هو مقتضى المنطق والحكمة فإن في الدين هداية إلى السبيل ، ووقاية من الزلل وعصمة من الخطأ وتجنباً للاعتداء وبعداً عن الظلم ، ووفاءً بالحقوق وإقامة للواجبات وعلى هذا تقوم كل رابطة وتتوثق كل صلة ويشند كل حبل وهو طريق المسلمين إلى خيرهم ، وسبيلهم إلى نصرهم وفوزهم ، وما أمر المسلمين في عهدهم الأول ببعيد إذ كانت رابطتهم أقوى الروابط لقيامها على الدين فلم تقو على الوقوف أمامها أية رابطة أخرى وإن كانت أوفر مالا وأكثر رجالاً وأعظم عتاداً ، فزالَت الدولة الفارسية أمام تلك الرابطة وأعقبَتها الدولة الرومية ثم لم ينزل بالمسلمين ذلك الضعف والوهن إلا حين انحلت تلك الرابطة فانقسمت الأمة الإسلامية بحسب أوطانها فرقاً وشيعاً وحل دفاعهم عن أوطانهم محل دفاعهم عن دينهم واستعاضوا عن نصره الدين وإعلاء كلمته بالعمل على بسط الحكم وسعة السلطان ، والمحافظة على المظهر الزائل والجاه الكاذب ومرجع إلى ذلك إلى أن الدفاع عن مثل هذا لا يكون إلا على ألوان من الظلم ومكائد من الفجور وطرائق من الغش والتضليل .

حكمة وحدة الخلافة :

ولعل الخوف من تلك العاقبة التي آل إليها أمر المسلمين هو ما دعى العلماء إلى القول بوجوب وحدة الخلافة وعد جواز تعدد الخلفاء في زمن واحد ، وإن تعددت بلاد المسلمين وتناوت حتى لا يتحدد سلطان كل منهم بحدود بلاده ، وحتى لا تنقيد جهوده وأعماله بمسلمي وطنه ، لما في ذلك من داعية الخلاف بينهم عند تعارض مصلحة البلدين أو عند تنازع الخليفتين واحتمال نشوب القتال بينهم ، وضياع كل فريق منهم على يد الآخر مما يؤدي إلى القضاء على وحدتهم ، وزوال عصبيتهم وذهاب ريحهم .

حقيقة رابطة الوطنية :

لقد انتهى الغرب أخيراً إلى جماعات متفرقات تعددت بتعدد أوطانها ، وتفرقت بتفرق بلدانها على الرغم مما يجمعهم مما قد يكون بينهم من وحدة في الدين ، أو في اللغة أو في العادات أو في الجنس ولم يكن ذلك فيما يظن إلا نتيجة الرغبة في المحافظة على الحكم والسلطان ، والقهر والغلبة ، فاتخذ شعار الوطن ستاراً يستتر وراءه مظهر الملك وبقاء السلطان - ألا ترى أن ذلك الوطن ينبسط وينكمش تبعاً لبسط السلطان وانكماشه وأنه لذلك يرى أنه غير محدود إلا بحدود الملك ، وأنه لا ينتهي إلا عند انتهاء الولاية - وليس كذلك الشأن بالوطن إذا ما كانت الفكرة الوطنية فكرة صحيحة ، وإذا فهي فكرة أساسها الخداع والتضليل ولكنها وجدت على ذلك أنصاراً كثيرين من الملوك والأمراء ومحبي البطش والسلطان ومن يلف لفهم ويعمل على إرضائهم من الساسة والعلماء أيدها الجميع بقوته ، ودعا إليها بسطانه وعمل على نشرها بجنوده وأمواله لما فيها من منفعتهم وتحقيق رغباتهم وأطماعهم وكان لهذا المجهود العظيم هذا الأثر الذي نجده في نمو هذه الفكرة وانتشارها وانتقالها من الغرب إلى الشرق وطغيان رابطة الوطن على غيرها من الروابط حتى لقد سخرت الروابط الأخرى في تحقيقها وخدمتها خداعاً وتضليلاً انتقلت فكرة الرابطة الوطنية من الغرب إلى الشرق بما لها من قوة ولون فخدع بها كثير من المسلمين إلى درجة حاولوا معها أن يسخروا الإسلام في تحقيقها وإقرارها والدعوة إليها وهو براء منها ولم يكن لذلك من سبب - علم الله - إلا ما أصاب المسلمين في دينهم من ضعف فانهزمت لذلك رابطة أمام هذه الرابطة الوافدة البراقة في مظهرها ، الوبيبة في مخبرها فزادت ما بين المسلمين من فرقة وساعدت على بث بذور الخلاف بينهم ووجهت كل فرقة في أعمالها إلى أغراض محدودة لا تتجاوزها ، وجعلت الغاية منحصرة فيما يتطلبه الواحد وإن أضر ذلك بالجماعات الإسلامية الأخرى وكان من وراء ذلك الخلاف والضعف والانحلال والاستكانة والانضواء تحت نفوذ الأجانب وسلطانهم .

سبب تعلق الشرقيين بها :

لقد انتقلت هذه الفكرة الوطنية حين انتقلت إلى الشرق بما لها من داعية غربية واسعة بصورة تلفت الأنظار وتجذب الرغبات فقد جاءتهم على أنها آخر ما وصل إليه التمدن الغربي والعلم الحديث والنظر

الفاحص ومنتهى ما وصل إليه الاختراع والكشف في الروابط الاجتماعية التي يجب أن تسود ويعترف بوجودها وصوابها ، فانجذب إليها الشرق تحت تأثير ما كمن في النفوس من حب تقليد القوي ، وما يتبع اعتناق تلك الفكرة على ضيقها من قلة المجهود إذا ما نظر إلى ما تتطلبه صلة الدين العامة الواسعة من عمل عظيم وكد بالغ وجهد واسع ، وهذا إلى أنها ترضى مع ذلك كل مواطن ، وتختفي معها في الوطن الواحد فكرة الكثرة والقلة وأن المسلمين بسبب ماضيهم الأخير في استعداد لتقبلها وارتماء في أحضانها ، ظناً منهم أن فيها بقاء ما في أيديهم ، وحفظ ما بقى لديهم ورعاية غيرهم لحقهم ولكنهم قد أخطئوا الغرض وضلوا السبيل فقد فرقت تلك الفكرة جمعهم ، وأنت على قوتهم وقل عددهم واختلفت إغراضهم وتعارضت أهواءهم وأين هذه الحال من حالهم يوم كانوا أمة واحدة ينعتها القرآن بقوله «إنما المؤمنون أخوة» (الحجرات ١٠) ، فيوثق بينهم برابطة الأخوة ، ويعمل انضواءهم تحت وحدة الدين كانشواء الإخوة تحت لواء الأبوة حيث التساوي في الحقوق والتبادل في الود ، والتسابق في الحب والتماثل في القرب والتعاون عند العمل والتراحم عند النوازل والتواصل عند الحاجة لا تحاسد ولا تباغض ولا تدابر ولا تقاطع ولا تخاذل ولا تواكل يود كل منهم لو يحمل عن أخيه ألمه ويؤدي عنه غرمه يسارع إلى نصرته وينتدب لحمايته ويوفر له أمنيته ، ويحقق له عزته ينصحه إذا غوي ويهديه إذا ضل ويقيمه إذا اعوج ولهذه الخلائق التي شاعت فيهم نزل قول العلي الحكيم «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتُ الْإِيمَانِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ» (آل عمران ١١٠) ، وفي الإيمان بالله على وجهه جماع كل فضيلة وداعية كل عمل عظيم

قوة الإخوة برابطة الدين :

ذلك ما يحقق معنى الإخوة بينهم ، وذلك ما يفرضه عليهم وصف القرآن لهم وما قد صرح به الرسول ﷺ في بيان أسس وحدتهم وتضامنهم إذ يقول «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» رواه البخاري ويقول «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» رواه البخاري ويقول «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» رواه البخاري ويقول «لا تحاسدوا ولا تتاجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى هاهنا – ويشير إلى صدره ثلاث مرات – بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام – دمه وماله وعرضه» رواه مسلم ، ويقول «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام» رواه مسلم ويقول «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، قالوا يا رسول الله هذا نصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ، قال : تأخذون فوق يديه» رواه مسلم ويقول «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقائل والمقتول في النار ، فقلت يا رسول الله : هذا القائل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» ، رواه مسلم ، ويقول «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» رواه مسلم ، هذه صورة الأمة الإسلامية في وحدتها وأخوتها وتضامنها يجليها لك أحسن الناس لساناً وأصدقهم كلاماً وأعلامهم بياناً وأعرفهم بالإسلام وصفاته وبالإيمان ومقتضياته وبالتأخي ومستلزماته وليس بعد كلامه قول لقائل ولا بعد وصفه وصف لواصل وفي تمثيله الرائع إذ يقول «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» رواه مسلم برهان ساطع على وجوب وحدتهم وضرورة تضامنهم حتى يكونوا جسماً واحداً له نفس واحدة وقوة واحدة تتجه إلى غرض واحد وتنهج منهجاً واحداً ، وتندود عن وطن واحد ، وعن قومية واحدة ، وعند ذلك يتم لهم الظفر كما تم لهم من قبل ، ويمكن لهم في الأرض كما يمكن لهم من قبل ويتحقق لهم النصر كما تحقق لهم من قبل سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

مشروع تقييد الطلاق وتعدد الزوجات (*)

بحث قيم لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد أبي زهرة
وتلخيص الأستاذ سعيد رمضان

كان بعض حضرات أعضاء مجلس الشيوخ قد قدموا مشروع قانون تقييد الطلاق وتعدد الزوجات ونظراً لما في ذلك من تعارض مع مصلحة المجتمع المصري ولما يقوم إزاءه من نظرات في الشريعة الإسلامية - دين الدولة الرسمي - رأي حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة أستاذ الشريعة بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول أن يقدم بحثاً يحيط بأطراف الموضوع ويضع أيدي أولى الشأن على وجه الحق والنفذ فيه ، وقد نشر في مجلة القانون والاقتصاد في الأعداد الأول والثاني والثالث - السنة ١٥ - وقد رأينا للفائدة أن نوجزه لحضرات القراء فيما يلي :

تمهيد :

مهد فضيلة الأستاذ لبحثه بما يقرره علماء الأخلاق والنفس واجتماع من أن الإنسان محكوم في حياته بأنواع ثلاثة من الضوابط والقوانين ، فهو محكوم بأوامر الدين ونواهيه ، ومحكوم بقوانين الأخلاق ثم هو محكوم بعد هذين بالقوانين المنظمة للعلاقات بين الناس ، وهذه الثلاثة تمتاز عن سابقتها بأنها لا تتناول إلا المادي من الفعال الذي يمكن أن تجري فيه طرائق الإثبات ، وباقترانها بتقرير الجزاء وتنفيذه ، وحيثما كانت العلاقات النفسية هي الرابطة في ناحية من نواحي الاجتماع وجدت القانون ينكمش حكمه ويقتصر على التنظيم العام دون التفصيلات لما يحدثه معنى القسر فيه من جفوة وذهاب بالأنس الروحي .

ووشائج الأسرة تعتمد على تمازج نفوس أحادها وعلى المودة والرحمة بين الرجل والمرأة ولذلك «وجب أن يكون تدخل القانون قليلاً يشمل التنظيم العام ولا يمس إلا مساً رقيقاً التفصيلات التي تتصل بالأسرة ويترك ذلك لعلائق الوداد وأحكام الأخلاق ووصايا الأديان ، وهذا هو مسلك شريعة الإسلام .

ومهمة المصلح الذي يتعرض لنظام الأسرة توجب عليه أن يراعي شرائع الدين وقواعد الأخلاق وأن يراعي معهما التقاليد الموروثة وعادات الأمة التي مكنتها السنون وأن يكون همة إقامة المتهم من العلاقة الزوجية وتبديل ما قام على ظلمه وفساده الدليل القاطع الذي لا شك فيه وبرفق ومن غير هدم و«ألا يسرف في الاستعانة بالقضاء وجزائه ويقصد إلى النواحي النفسية والمعنوية ويوائم بين ما يريد وعادات الأمة وتقاليدها ولا ينظر إلى الأمر مجرداً من ملابسات الأسرة بل ينظر إلى الآثار المترتبة عليه في الاجتماع قبل أن ينظر إلي كونه عدلاً في ذاته ، أو صالحاً في ذاته ، ولا يسير سير المقلدين الذين يقلدون الغرب في كل ما عنده من غير نظر إلى حكم البيئة والإقليم» .

المشروع :

اشتمل المشروع على أربع مواد : اثنتان تخصان تعدد الزوجات ، وأخريان تخصان الطلاق ، وها هي

ذي :

المادة الأولى : لا يجوز لمتزوج أن يعقد زواجه بأخرى ولا لأحد أن يتولى عقد هذا الزواج أو يسجله إلا بإذن من القاضي الشرعي الذي في دائرة اختصاصه مكان الزواج .

(*) نشر بمجلة «الشهاب» ، الجزء الثاني ، السنة الأولى ، ص ٤٣ ، بتاريخ صفر ١٣٦٧ هـ - ديسمبر ١٩٤٧ م .

المادة الثانية : لا يأذن القاضي الشرعي بزواج متزوج إلا بعد الفحص والتحقق من أن سلوكه وأحوال معيشتة يؤمن معها قيامه بحسن المعاشرة ، والإنفاق على أكثر ممن في عصمته ، ومن تجب نفقته عليه من أصوله وفروعه .

المادة الثالثة : لا يجوز لمتزوج أن يطلق زوجته ، ولا لمأذون أن يباشر أشهاد الطلاق إلا بإذن من القاضي الشرعي الذي في دائرة اختصاصه مكان الزوج ، فإن حصل الطلاق بدون إذن ترتبت عليه آثاره الشرعية ، وعوقب الزوج بالحبس مدة لا تزيد على ثلاثة اشهر ، وبغرامة لا تتجاوز عشرة آلاف قرش أو بإحدى هاتين العقوبتين .

المادة الرابعة : لا يأذن القاضي لمتزوج أن يطلق زوجته إلا بعد السعي لتعرف أسباب الشقاق بين الزوجين والعجز عن الإصلاح بينهما .

تعدد الزوجات :

كانت الأمم القديمة تبيح التعدد ولا تمنعه بل لا تقيدته فالتعدد كان شائعاً في فارس وبابل واللاتينيين والعبرانيين وجاء ذكره في التوراة واشتهر في العرب قبل الإسلام ولم يعرف التاريخ القديم إلا أمة واحدة «هي مصر» منعت التعدد ومنها – على رواية بعض المؤرخين – انتقل نظام منع التعدد إلى أوروبا بعد الإسكندر ، وتأثر به القانون الروماني ، وارتضاه رجال الدين من اليهود ، ورضيه رجال الكنيسة وإن لم ينص عليه في الأنجيل الأربعة .

في الشريعة الإسلامية :

وجاءت الشريعة الإسلامية فحددت العدد بأربع «مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرَبَاعَ» وقيدت التعدد بفيدين : الأول العدالة بين الزوجات والثاني القدرة على الاتفاق والمقصود بقيد العدالة العدل في القسمة بالمساواة بينهما في المبيت والمعيشة و«أتفق فقهاء المسلمين من لدن عصر النبي ﷺ إلى العصور المتأخرة على أن العقد إن لم يتحقق الشرطان أو أحدهما لا يحكم بفساده وليس لقاض أن يمنع تنفيذ أحكامه وترتيب آثاره الشرعية على ذلك انعقد إجماع الصحابة والتابعين والفقهاء من بعدهم طبقة بعد طبقة» .

وإنما ذهب فقهاء المسلمين إلى ذلك لثلاثة أوجه ، أولها : أن فساد العقود وصحتها يناطان بأمر واقع لا أمور متوقعة ، والظلم وعدم القدرة على الإنفاق أمران لم يقعا بعد عند العقد وإن كانا متوقعين ، وثانيها : أن خوف الظلم والإعيال أمور نفسية لا تربط بها أحكام العقود ، وثالثها : أن للشريعة جانباً دينياً وجانباً قضائياً ، والديني موكول أمره إلى الله الذي يعلم حقيقة النية فيه ، والقضائي يحد بما ظهر وقام عليه الدليل .

هذه هي الشريعة في تعدد الزوجات وقد سلكت مسلكاً وسطاً بين المنع والإطلاق وهو وحده الذي يتفق مع عموم الشريعة الإسلامية لكل الأجيال والأجناس .

لا ريب أن الاقتصار على امرأة واحدة هو الزواج الأمثل في الجملة وهو البعيد عن نطاق الظلم والفساد للرجل المعتدل المزاج ، القويم الطبع والخلق ، والذي يسيطر عقله على هواه ، ولكن واقع الناس دون هذه المثالية بكثير ، ويخشى إن أغلق على الناس باب التعدد أن يقتحموا الشر اقتحاماً : «لقد حرم الأوربيون على أنفسهم تعدد الزوجات وارتضوه ديناً لهم فاستمسكوا به ولكنهم فتحوا لأنفسهم باب الحرام على مصراعيه فكان التضييق في الحلال ذريعة إلى التوسعة في الحرام فانسابوا فيه انسياً وكان الوبال على النسل في بعض الأمم عظيماً» .

وقد يكون التعدد علاجًا اجتماعيًا لنقص يعرض للأمة في رجالها ونسلها إثر حرب أو كارثة عامة - كما حدث في أوروبا عقب الحرب العظمى الماضية فقد صار كل رجل قادر يعادل في التعداد ثلاث نساء صالحات للزواج والانسال - وفي مثل هذه الحال «لا يكون التعدد مباحًا لإشباع حاجة الرجل الشخصية ، بل يكون ضرورة اجتماعية تضطر إليها الأمة لتحفظ كيانها ، وتحمي نفسها من ذرائع الفناء» .

وليس التعدد شرًا على المرأة دائمًا كما تلهج بذلك السنة المتزعمات للحركات النسائية فقد تكون المرأة في حال تستوجب أن يتزوج زوجها بأخرى ، لمرضها أو لعقمها فيكون التعدد خيرًا لها من الفراق ، بل إن التعدد كما شرعه الإسلام خير للمرأة - إذا كثر عدد النساء - من «أن تعمل في المعامل والمتاجر وتنافس الرجال فيها فلا تسير مع طبيعتها ، بل تقتل عاطفة الأمومة ولا تحفظ عفافها ، وتشوه جمالها ، وتذهب جاذبيتها وتظلم البيوت منها فلا ترى فيها بشرها المضيء ، ولا نور الأمومة الحاني الواضح» .

أول فكرة المنع :

وحدث أن حالت النفوس وضعف وازع الدين فاشتط كثيرون في الأخذ بهذا المباح من فكرة التعدد ، كما رسمها الإسلام ، وأصبح مثار ظنون في الشريعة جعلت بعض العلماء يتجه إلى معالجة ما صار الناس إليه ، غير مكتف بما أجمع عليه الفقهاء الأولون من اعتبار الشطط إثمًا بين العبد وخالفه ، ومطالبًا بتقرير جزاء يحد منه .

وأول من رفع صوته بوضع حد بقانون مانع يطبقه القضاء هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ولننقل لك بعضًا من كلامه بنصه قال رحمه الله :

«كان التعدد في صدر الإسلام فوائد أهمها صلة النسب والصهر الذي تقوى به العصبية ولم يكن له من الضرر مثل ما له الآن لأن الدين كان متمكنًا في نفوس النساء والرجال وكان أذى الضررة لا يتجاوز ضررتها ، أما اليوم فإن الضرر ينتقل من كل ضرة إلى ولدها ، وإلى والده ن وإلى سائر أقاربه ، فهي تغري بينهم بالعداوة والبغضاء ، تغري ولدها بعداوة إخوته وتغري زوجها بهضم حقوق ولدها من غيرها ، وهو بحماقة يطبع أحب نسائه إليه فيدب الفساد في الأسرة كلها ، ولو شئت تفصيل الرزايا والمصائب المتولدة من تعدد الزوجات لأنتيت بما تقشعر منه جلود المؤمنين فمنها السرقة والزنا والكذب والخيانة والتزوير بل منها القتل حتى قتل الولد والده ، والوالد ولده والزوجة زوجها والزوجة كل ذلك واقع ثابت في المحاكم وناهيك بتربية المرأة التي لا تعرف قيمة الزوج ولا قيمة الولد وهي جاهلة بنفسها وجاهلة بدينها لا تعرف منه إلا خرافات تلتفتها من أمثالها يتبرأ منها كل كتاب منزل وكل نبي مرسل ، ولو تربي النساء تربية دينية صحيحة يكون بها الدين هو صاحب السلطان الأعلى على قلوبهن بحيث يكون هو الحاكم على الغيرة لما كان هناك ضرر على الأمة من تعدد الزوجات ، وإنما يكون ضرورة مقصورًا عليهن في الغالب ، أما الأمر على ما نرى ونسمع فلا سبيل إلى تربية الأمة مع فشو تعدد الزوجات فيها ، فيجب على العلماء النظر في هذه المسألة خصوصًا الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر وعلى مذهبهم الحكم ، فهم لا ينكرون أن الدين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم وأن من أصوله منع الضرر والضرار فإذا ترتب على شيء مفسده في زمن لم تكن تلحقه فيما قبله فلا شك في وجوب تغيير الحكم وتطبيقه على الحال الحاضرة يعني على قاعدة «درء المفسد مقدم على جلب المصالح» هذه كلمة الأستاذ الإمام ، ولقد وجد مع دعوة الإمام هذه دعوات قوية وحملات شديدة من كتاب اجتماعيين نادوا بمثل ما نادي به وكان وراء هؤلاء المخلصين آخرون حانقون على الإسلام وقوته واستمكانه في النفس وكثرة سواد المسلمين الذين يعتقدون أن لتعدد الزوجات أثرًا كبيرًا فيها فاضطربت أعلامهم بالطعن في ذلك المبدأ بالذات وقد أصابوا بعض الرمية عند من لا يفهمون حقيقة الأمر من المسلمين لأن ذلك الطعن كان في وقت قد ضعف فيه الوازع

الديني ودب بعض الفساد في بعض الأسر بسبب التعدد الذي لم تراخ فيه قيود الشريعة ، وما كان هذا لتقرير الشريعة هذه الإباحة المقيدة بل لفساد المسلمين وعدم أخذهم بمبادئ الإسلام كاملة .

كل هذا كان خلايا جعلت لدعوة الإمام التي ألقاها في درسه حياة ، ثم نهضت الجماعات النسائية تطالب بتقييد حق الرجل في تعدد الزوجات حتى استجاب بعض الشرعيين لندائهن وأصاخوا لدعوتهن و«أحيوا فكرة الإمام» ثم اجتمعت طائفة من تلاميذ الإمام من رجال القضاء الشرعي سنة ١٩٢٦م ووضعوا مشروع قانون لا يكاد يختلف شكلاً ولا موضوعاً عن مشروع وزارة الشؤون وجاء قانون ٢٥ سنة ١٩٢٩م خلوا من منع التعدد منعاً قضائياً ، ثم حاولت وزارة الشؤون إحياءه سنة ١٩٤٣م ، ولكنه طوي ثانياً ، ثم وجدناه في سنة ١٩٤٥م يحيا ثانياً بعد الطي والخفاء .

مسلك المشروع :

وقد سلك المشروع للمنع أمرين أحدهما الحكم بعدم جوازه أي أن عقد زوج المتزوج يكون فاسداً ، وثانيهما منع الموثق من أن يوثق هذا العقد إلا بإذن القاضي الشرعي بل منع أي شخص من أن يتولى عقد زواج على ذلك النحو ، واشترطت المادة الثانية ألا يأذن القاضي إلا بعد الفحص والتحقق من أن سلوكه يؤمن معه القيام بحسن العشرة ومن قدرته على الإنفاق ويعطي هذا المشروع ولي الأمر سلطان منع سماع الدعوى في مثل هذا الزواج وليس لهذا مستند من أقوال الفقهاء السابقين الذين يعتبرون صحة عقد الزواج دون توقف على إذن ، وقد حاول بعض العلماء آنذاك أن يردوا الحكم بعد الصحة إلى أصول للإمامين مالك وأحمد فيقيس المنع على فساد عقود البيع ساعة صلاة الجمعة إذا كان الزواج الثاني معه الظلم في العشرة وعدم الإنفاق لأن الظلم أمر منهي عنه فما لابسه يكون منهياً عنه كذلك فيفسد بسبب ذلك النهي ، ولكن فضيلة الأستاذ الباحث أبطل هذا القياس لأن المقرر في مذهب الإمامين صحة عقد الزواج ، ولأن البيع وقت الصلاة قد وقع وقت النهي فكان مصاحباً للإنشاء بخلاف الظلم وعدم الإنفاق فهما متوقعان فقط ولذلك صح الحكم بفساد عقد البيع وحده على أصل الإمامين وكما صرحا بذلك .

وموضع الخلاف بين المقترحين للمشروع وبين الفقهاء السابقين محصور في أن السابقين كانوا يرون أن شرط العدالة غير ممكن المعرفة على وجه اليقين وقت العقد فلا يتحكم في العقد لأجله ، أما شرط القدرة على الإنفاق فهو شرط يمكن تحققه عند السابقين ، ولذلك اعتبر بعضهم الكفاءة في المال وهي القدرة على المهر والنفقة ويستوي في ذلك الزواج الأول والثاني فلماذا يخص الزواج الثاني بإشراف القضاء عند إنشائه؟ «اللهم إلا أن يقال إن منع التعدد مقصود لذاته لا لأثامه فيجب منعه في كل حال في نظر المقترحين ، واتخذ المشروع خطوة أولى لذلك المنع وتتلوها من بعد خطوات لتتم إجابة المطالب التي تنادي بها الجماعات النسائية» .

ثم إن المشروع لم يذكر كيف يكون الفحص والتحقق ، ولم يحدد معياراً مادياً للقدرة على الإنفاق ، ويتدخل في حرية التعاقد ويصطدم بما جبلت عليه البيوت من كتمان لأسرارها .

بواعث المشروع :

وخلاصة بواعث المشروع على ما يظهر من مذكرته التفسيرية هي أن التعدد استخدم لمجرد الهوى وإشباع الشهوة وأنه يؤدي إلى الخصومات بين أحاد الأسرة وأن من عقابه السيئة التشرذم ، وقد أذاع معالي وزير الشؤون الاجتماعية في أبريل سنة ١٩٤٥م بياناً يفهم منه أن التشرذم هو الباعث الأكبر على المشروع ولكنه لم يقدم إحصاء يثبت هذه الدعوى ، والحق أن التعدد من أسباب التشرذم ولكنه ليس أخطرها فالفقر وإهمال التربية وفقد العائل وسائر المنكرات وانتشار عادة التسول .. كل هذه من أسباب التشرذم فهل بدأت وزارة الشؤون بعلاجها؟؟

وإذا كان المشروع قد اعترف بأن سبب التعدد مجرد الشهوة ، أفيظن أن القانون سيسد الباب ويحقق الحلم الجميل ويكبح الشهوة ؟ «إن التربية وتقوية العزيمة وتعويد ضبط النفس هي وحدها التي تكبح جماح الشهوات»، وسيكون نتيجة المشروع انصراف ذوي الشهوة من الحلال المعيب إلى الحرام الذي لا شك فيه .

وزواج هذا الأيام تمليه الرغبة العارضة والصدفة في أكثر الأحيان وليس ثم سبيل للتخلص من أضراره إلا بالتعدد أو بالطلاق ، ولعل في تشريعهما حملاً للمرأة على أن تسير على الجادة .

* * *

وقد يفهم بعض الناس أننا نقول بأن التعدد ضربة لازب ، ويرى في هذا خروجاً على التساوي بين الرجل والمرأة ، والذي نعنيه هو أن التعدد شر لا بد منه ما دامت الشهوات هي المسيطرة وسبيل العلاج تربية الأمة وإعلاء مستوى المعيشة فيها ، ويكاد الاستقراء يدل على أنه حيثما انتشر العلم وارتفع مستوى المعيشة قل التعدد أو انعدم .

أما عن التساوي بين الرجل والمرأة – ولعله أعظم بواعث المشروع – فأنا نقول «إن الحقوق والواجبات في المسائل الاجتماعية ليس أساسها التساوي الملق كالمعادلات الهندسية والمعادلات الجبرية والحسابية بل أساسها الميزان الاجتماعي فهو الذي يعطي الحقوق والواجبات ويوزعها على الرجل والمرأة بالشكل الذي ينتظم به الاجتماع ويستقيم به أمر الأمة» ، «ولا شك أن الاجتماع في مصر لا يزال يفرض إباحة التعدد ما دامت الشهوات مستحكمة وما دام الشعب لم يتعلم وما دام بعض الرجال يترددون بين حلال معيب وحرام لا شك فيه ، علموا الشعب وارتفعوا مستوى حياته ثم سنوا ما شئتم إن احتجتم إلى قانون من بعد ، أما ذلك المنع من غير تهذيب فهو قرار من الواجب العسير الخطير» .

تقييد الطلاق :

«انقسمت الشرائع إلى قسمين : شرائع فتحت باب الطلاق وشرائع أغلقت ، والشريعة الإسلامية من الشرائع التي فتحت بابها في حدود نفسية رسمت طريق تعرفها وبينت أمارتها» .

وأصل عقد الزواج في الشريعة أنه عقد أبدى يقوم على المودة وإنما شرع الإسلام الحكيم عندما ينجم الخلاف بين الزوجين إبقاء على هذه المودة ولكنه كان مع ذلك واقعياً يواجه الأمر بما يقتضيه فقد يستحكم الخلاف بين الزوجين فلا يكون معه إلا أحد ثلاث البقاء مع النفرة أو الفراق الجسدي مع قيام مظهر الزوجية وكلا هذين شر لا خير فيه فلم يبق إلا الطلاق برفع قيد الزواج وهو حينئذ ضرورة لا بد منها بدهاة .

وقضية الطلاق أخذت دوراً من الجدل لتحريم بعض الشرائع الكتابية له إلا للزنا وممن أفاض في ذلك العلامة بنتام الإنجليزي الذي قال في الزواج «إن أقبح الأمور وأفظعها عدم انحلال ذلك الاتفاق ..» .

ولكن من يملك الطلاق ؟ لا شك أن اتفاق الزوجين يكفي للطلاق لما في اتفاقهما من دليل على استحكام النفرة ، أما عند اختلافهما فقد يقول قائل إن الطريق المثلى أن يكون الطلاق بيد القاضي وليس لأحدهما أن ينفرد به حسب الأحكام المقررة في العقود ولما يتوافر لدى القاضي من وسائل تحقيق العدالة .

ولكن هذا لا يستقيم إلا إذا كانت أمور النفوس وخفايا القلوب يمكن أن تسيطر عليها الإجراءات القضائية فإذا كان سبب الطلاق أمراً نفسياً كالبغض الشديد فما هو مدى قدرة القضاء وسلطانه عندئذ «وإذا كان سبب الطلاق أمراً غير الحب والبغض فهل من المصلحة الاجتماعية أن تنتشر دخائل الأسر في دور القضاء وتسجل في سجلاته ، ومنها ما تدعو الفضيلة ألا يعلن ، ويوجب ناموس الحياء ألا يكشف ، ويقضي الذوق الخلفي الكريم ألا يهتك سره إن ما بين الزوجين أمور يظلمها السر ولا يصح أن يكشفها الإعلان» .

* * *

ولم يجعل الشارع الإسلامي الطلاق بيد القاضي إلا في أحوال تقوم على البيّنات أو يستعان فيها بتحكيم الحكمين وجعله بيد الزوج وجعل بيد المرأة طلب التفريق للضرر ، وملكها الخلع ، وإنما أجاز للرجل دون المرأة الطلاق من غير حاجة إلى القضاء لأن المرأة أسرع تأثراً بعاطفتها وأكثر نسياناً ، والطلاق من أخطر الأمور فلو جعل الطلاق في يدها ما نظرت في عواقبه ، ولقد روينا قول النبي ﷺ فيما رواه البخاري في وصف النساء وعلاقتهن بأزواجهن «يحسن إليهن الدهر كله ، ثم يسيء مرة فتقول ما رأيت منه خيراً قط» .

والطلاق مع أنه بيد الرجل لم يتركه الشارع فرطاً في يده ، بل قيده بأمر نفسي وديني وأحوال وأوقات زمنية لو اتبعت على وجهها ما كان الطلاق إلا في الدائرة المشروعة وحيث يكون قطع العلاقة الزوجية أمراً لا مندوحة منه إذ النفرة تكون قد استحكمت وأول تلك الأمور تبغيض الطلاق فالنبي ﷺ يقول : «ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق» ، وشرع طلاق السنة المقيد أولاً بوقوعه في وقت الطهر لأنه وقت الرغبة إذا كان أصل المحبة ثابتاً ، والمقيد ثانياً بالعدة وحق الرجعة أثناءها فإن انتهت بدون رجعة كان ذلك دليلاً على استحكام النفرة وأن الأمر ليس مجرد نوبة عارضة أو غضبة تائرة .

ومخالفة الطريق المسنون في الطلاق يقع الطلاق معها عند الأئمة الأربعة ، ولكن الشيعة الأمامية والظاهرية وجمعا من المحققين منهم ابن تيمية وابن القيم قالوا بعدم وقوعه حينئذ وأسسوا ذلك على أدلة منها فتوى ابن عمر حين سئل عن طلاق الحائض فقال «لا يعتد بذلك» .

هذه طريقة الشريعة في الطلاق فهل تلام إذا فهمت على غير وجهها فاستشرى مرض الطلاق؟!!

* * *

ولم يتجه أحد إلى تقييد الطلاق حتى لجنة سنة ١٩٢٦م وإن كانت هذه الفكرة ظهرت في كتاب تحرير المرأة للمرحوم قاسم بك أمين .

والمشروع يشترط الإذن لا لوقوع الطلاق ولكن لتوقيع العقوبة ولاحظ فضيلة الباحث على المشروع عدة ملاحظات ، فهو يشترط الإذن حتى في الطلاق باتفاق الزوجين وفي الخلع ، وهذا بين الغرابة وهو تدخل في حرية المتعاقدين يتجه به إلى الشرائع التي تمنع الطلاق وإن خالف هذا ظاهره .

والمشروع لم يحدد القاضي المختص بتوقيع العقوبة والظاهر أن القاضي الأهلي هو المختص ، لأنه صاحب ولاية العقاب وهذا يؤدي إلى أنه قد يكون قاضي الطلاق بين المسلمين غير مسلم ، وهو كذلك لم يبين شيئاً عن أسلوب القاضي في رفع الخلاف في حين أن طريق الشريعة في ذلك معبد بنظام الحكمين الوارد في القرآن «فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا» ، وقد أرفقت وزارة الشؤون بالمشروع إحصائية تعدد حالات الطلاق تدل بها على خطورة الباعث على تقييده وإن مراجعة سريعة للإحصاء تدل على أن ٩٢% من حالات الطلاق تحدث عقب عقد الزواج وقبل الولد الثاني أي قبل استقرار العلاقة الزوجية ومعنى ذلك أن السبب في الأغلب سوء اختيار الزوج والمنطق حينئذ يوجب علاج أصل الدواء كما قلنا عند مناقشة قضية تعدد الزوجات .

والشريعة الإسلامية تعني عن المشروع كل الغناء ولذلك حلان «لا يحتاج أولهما إلى أكثر من النص على أن طلاق البدعة (غير السنة) لا يقع ، وإرشاد الناس إلى ذلك ولا يحتاج الثاني لأكثر من النص على أن كل طلاق رجعي يسجله الماذون يبلغ للقاضي الشرعي وعلى القاضي أن يحضر المطلق والمطلقة ويعمل على إزالة أسباب الشقاق بينهما بتحكيم حكمين من أهله وأهلها» وأفاض فضيلة الأستاذ الباحث في ذلك شأنه في كل مراحل البحث ثم ختمه بقوله :

«وأخيراً أذكر وزارة الشؤون بحديث رسول الله ﷺ «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات» وأبواب الإصلاح عند هذه الوزارة متفتحة متسعة إن وجد الاتجاه وتوافر القصد وانعقدت العزيمة فلنقم الحلال في كل فروعه ولتتأرب الحرام في كل مئاراته ، ولنتترك الأمور المشتبهة التي لا يعرف وجه الحرمة فيها حتى تقضي على الحرام وأسبابه ويستقيم لها الحلال وتدعم دعائمه ثم لتنظر بعد ذلك في تلك المشتبهات هل بقي من آتامها باقية ، والله الموفق للصواب .

مصالح الإخوان الرأسمالية أضعفت موقفهم السياسي^(*)

بقلم الأستاذ غسان الإمام

الإخوان جبل الجليد في دولة مبارك ، لكن هل القيادة المرشدية الهرمة مؤهلة للإبحار بالجماعة في البحار الصعبة ؟

ما أشبه الإخوان المسلمين في مصر بجبل الثلج ، فهو بعد انفصاله عن الجمودية القطبية يسبح متئداً بطيئاً ، فتأخذه التيارات المتضاربة في كل اتجاه .

وتتراعى الثلجة الإخوانية للناظرين والحلفاء المقربين في براءة الثلج ، لكن خصومها يقولون أن خطرهما عليهم ليس في مظهرها البادي فوق السطح ، إنما في الغاطس منها في العمق ، فهو عميق الجذور ، متشعب الامتدادات .

وكم من «تيتانيك» حاولت الاقتراب من الجبل فاصطدمت بالغايطس ، وتكسرت على شعابه وغرقت بين صخوره ، وبقي الجبل طافياً على مر العهود وتقلب الأنظمة .

والخبراء في بحار السياسة يعرفون أن التصدي للجبل يفرض التعامل أولاً مع هذه الشعاب والامتدادات في العمق ، وهم ينصحون بترك المهمة للطبيعة ، وعندما يقيسون الحجم والارتفاع يقولون أن الزمن قد نال منهما ، والبحر كفيل بأكمال عملية التدويب ، فلا بد من أن تبتلع المياه الجبل يوماً ما .

لكن الذين لا يؤمنون بالمقاييس ، ولا يأبهون لمر الأزمنة والعصور يقولون أن الجبل باق ، ومهما عملت فيه عوامل التعرية والنحت ، فهو جبل ولو كان ثلج وجليد .

وفي هذه السلسلة من الأحاديث محاولة استكشاف الجمودية الإخوانية عن كثب ، ومحاولة للنزول على السطح لتلمس مدي الصلابة أو الهشاشة في ظاهر الجبل وغطاسه .

وأول ما يطالعك في هذا المحيط المتجمد و القمة الجمودية الإخوانية ، وهي تفاجئك في صقيع المشهد البانورامي ، فهي قمة هرمة ومترهلة ، فبعد الشيخ حسن البنا الذي مات قبل أن يبلغ الخمسين ، تعاقبت على المرشدية قيادات تجاوزت الستين (حسن الهضيبي) ، ثم قيادات تجاوزت السبعين ، وعمرت إلى ما بعد الثمانين .

ولاشك أن الفكر بعد العمر الطويل يشد أجيال الإخوان الجديدة إلى قيود الثوابت ، وهاهو المرشد الأخير مصطفى مشهور يتربع منذ شهر على قمة الجمودية مثقلاً بعبء ماض سياسي يعود إلى الأربعينيات ، فقد بدأ رحلته الإخوانية في مدرسة العنف (الجهاز السري) ، وخرج من مدرسة السجن بدرس بليغ ، فلا فائدة في مصر من الدخول في تجربة قوة مع دولة راسخة عمرها ألوف السنين .

لكن التوبة لا تمحو مرارة التجربة ، فالشيخ مشهور ينوء بالثوابت والذكريات ، ومن الصعب فتح صفحة إخوانية جديدة مع الدولة والمستقبل في هذه المرحلة المتأخرة من العمر ، فهو يبدو أكثر تشدد وتزمتاً من سلفه

(*) نشر بجريدة «الشرق الأوسط» في ١٣/٢/١٩٩٦ م .

الراحل محمد حامد أبو النصر الذي تولى المرشدية وهو في الرابعة بعد السبعين ، وكان الشيخ حامد أشد انغلاقاً من سلفه الشيخ عمر التلمساني الذي مات وهو في الثانية بعد الثمانين .

وشيخوخة المرشدية ترجع إلى الأسلوب المتبع في اختيار المرشد ، فالبيعة تتم بالشورى والوفاق في حزام القمة ، فما هو المنادي ينادي بمبايعة الشيخ مشهور ، فتحصل البيعة بمن حضر لحظة الحزن والوجد خلال دفن الشيخ حامد .

وهكذا ، فالجماعة بعد سبعين سنة من ولادتها لم تأخذ ، بعد بمبدأ الانتخاب والاقتراع في الأحزاب الديمقراطية ، وبالتالي ، فالبيعة تفرض من قمة الهرم على القاعدة فتؤجل وصول قيادات شابة أكثر حيوية وانفتاحاً ، قيادات أكثر إشراقاً وتسامحاً ، فلا هي تحمل ذكريات العنف ومرارة القمع ، ولا هي تنطوي على رغبة في ثأر وانتقام .

ومن الأنصاف للجمودية الإخوانية القول أن الأحزاب السياسية تشاركها في مواصفات القيادة الهرمة ، فالزعامات الحالية لم يطرأ عليها تغيير يذكر منذ أن شيد السادات «المنابر» قبل عشرين سنة ، ومازالت «الصفوة» في الإخوان «والنخبة» في الأحزاب تمسك بزمام القيادة ، لكن في الإخوان بالذات ، يفرض احتكار القيادة طابع الحزب السري على الجماعة .

ثم تأتي البرجوازية لتوثي بخيوط الذهب الحزام لذي يلف القمة ، فهي قيادة ثرية ، وثراؤها الطائل يشد بعضها إلى بعض ، فيزيد من حرمان أصحاب الملايين الوصول إلى مقاعد أصحاب الملايين .

الثراء الفاضل ليس حارماً في الدين ، فقد كان عثمان بن عفان رجل المال والأعمال الكبير من العشرة الأوائل المبشرين بالجنة ، ومال الجماعة العام والخاص يقدر بعدة مليارات من الدولارات ، ويستثمر استثماراً جيداً في الداخل والخارج ، فيدر أرباحاً كبيرة على أصحابه وعليها .

جانب لا يستهان به من هذا المال جاء من هبات أو ربح حلال عندما كان الإخوان لاجئين في الخليج هرباً من الدولة الناصرية ، وجانب آخر تراكم بسرعة خلال «فهلوة» الانفتاح الساداتي ، وجانب آخر لا يرقى فوق مستوى الشبهات ، فقد تراكم خلال ازدهار شركات المقاولات واستثمار وتوظيف الأموال التي كان الإخوان مشاركين أو مستشارين لها في عقد الثمانينات .

وشكل الإخوان غطاءً سياسياً ودينياً لهذه الشركات ، وعندما اهتز أو أفلس معظمها قاومت الجماعة بضراوة مشروع قانون المراقبة الذي استصدرته الحكومة عام ١٩٨٨م لحماية حقوق صغار المودعين .

غير أن جانباً كبيراً من مال الجماعة العام والخاص يمول مشاريع الخدمات الصحية والتربوية التجارية أو شبه المجانية ، والإخوان يديرونها بكفاءة بالمقارنة مع الخدمات الحكومية المماثلة .

وهذا المال حاضر وظاهر أيضاً في الجمعيات الخيرية التي يبلغ عددها في مصر نحو خمسة عشر ألف جمعية إخوانية ومستقلة .

وكان المال بالنسبة للجماعة نعمة بقدر ما كان محنة ، فلولا البحبوحة لانهار في الأزمات والمضايقات تماسكها كتنظيم سياسي ، ولولا المال لما تمكنت من السيطرة على هذه الخدمات المدنية التي تؤمن لها قدرًا من الدعاية والشعبية .

لكن الحزب ليس بجمعية خيرية أو مؤسسة اقتصادية ، الحزب أولاً وأخيراً ممثل لطبقة اجتماعية أو تعبير عن موقف سياسي ، وغرضه من السعي إلى السلطة تنفيذ برنامجه الاجتماعي والاقتصادي لتطوير وتنمية المجتمع كله .

وبمعنى آخر ، فالحزب ليس بمنافس للدولة في تقديم الخدمات العامة لأغراض سياسية ، بحيث يختار قطاعات محدودة يبدي فيها ، أمام رأي عام مبهور ، تفوقه السهل على دولة تنوء بعبء خدمات كثيرة . وانتشار مال الجماعة في القطاعات الاقتصادية والتجارية والخدمية ، يضعف موقفها السياسي أمام الحكومة والخصوم .

فهي مضطرة للمدارة والتراجع في كل مواجهة وأزمة ، حماية لمصالحها الرأسمالية ، وخوفاً من أن يصل الصدام إلى وضع الدولة يدها على هذه المصالح والخدمات والجمعيات .

والواقع أن الدولة لا تضع يدها على القطاع الخدمي الإخواني لسبب بسيط ، وهو أن الإخوان في التصنيف الرسمي «جماعة منحلة» ، وما دام الإخوان ليسوا بحزب سياسي معترف به ، فمن الإجحاف بهم إلغاؤهم كشركة رأسمالية أو جمعية خيرية .

والدولة متضايقة من كفاءة الإخوان النسبية في إدارة مؤسساتهم الخدمية والرأسمالية ، فهي تعرف مدى المكاسب السياسية والشعبية التي تحققها الجماعة من استثمار المال مع ذلك فهي ترى ، إلى الآن ، أن استمرار الإخوان في السيطرة على القطاع الخدمي الخيري يساهم بشكل وبآخر ، في تخفيف معاناة جمهور فقير فاقد القدرة على تمويل أمنه الصحي والتعليمي والغذائي .

غير أن أزمة الجماعة مع الدولة التي تصاعدت بحدة منذ انفجار العنف الديني في مطلع التسعينات أدي إلى نشوء شكوك متبادلة ، فمع كل أزمة ومواجهة يتسلل جانب من رؤوس الموال الإخوانية إلى الخارج طلباً للأمان من غدر الزمان .

ومن المحزن أن بلدًا كمصر لا يتجاوز معدل الدخل الفردي فيه حفنة مئات من الدولارات سنويًا ، يطرح في السوق العالمية استثمارات خاصة ورؤوس أموال هاربة يتراوح تقديرها بين مائة ومائة وخمسين مليار دولار .

المال لا يعرف وطنًا أو عقيدة ، ومحفظة الإخوان المالية تتحرك دخولاً وخروجًا مع حركة الكتلة النقدية الضخمة للقطاع المصري الخاص ، فهي ترتبط معها في نشدان الأمان الرأسمالي ، كما ارتبطت معها سياسيًا واقتصاديًا في عصر الانفتاح الساداتي ، فقد كان رجل المقاولات عثمان أحمد عثمان المركبة الرئيسية التي أوصلت الإخوان إلى مصالحة وتحالف مع السادات في السبعينات .

غير أن الدولة تنتابها شكوك كثيرة في أن المال الإخواني العالمي ربما يساهم مع مال بعض رجال الأعمال الخليجيين في تمويل جماعات العنف الديني العربية والإسلامية ، لكن الدولة لا تملك إلى الآن مستمسكات قاطعة تثبت ربيبتها ، ففي عصر المال الإلكتروني تصعب مراقبة حركة الكتل النقدية ومتابعتها في الأسواق والمصارف التجارية العالمية .

وهكذا .. فأزمة الدولة مع الجماعة ذات وجهين سياسي واقتصادي فمصالح الإخوان الرأسمالية تضعف موقفهم السياسي والشعبي في المواجهة مع الدولة ، وفي المقابل فأى تضيق مالي واقتصادي على الرأسمالية الإخوانية سيخالف حتمًا شعارات الليبرالية الاقتصادية التي ترفعها الدولة والقطاع المصري الخاص .

نفعية التحالفات تبذل الحياة الديمقراطية..(*) بقلم الأستاذ غسان الإمام

تعديل قانون الحسبة يضع حداً لسيل الدعاوى الكيدية والشخصية ، ويعيد التركيز على القضايا الاجتماعية والمعيشية

مأمون الهضيبي ليس اسماً مجهولاً في عالم الإخوان ، فهو نجل حسن الهضيبي أول خليفة لحسن البنا في القيادة المرشدية ، وهو لسان الجماعة والناطق الرسمي باسمها ، فهو أذن قيادة أمامية سواء بالوراثة العائلية ، أو بالخلفية السياسية .

لكن هزيمة ابن الهضيبي أمام أمال عثمان وزيره الحكومة ، اختصرت هيئة الجماعة في الأزمة والمواجهة مع الدولة ، فقد تحدثت الحكومة أحد زعماء الإخوان بامرأة ، وبشرت الجماعة مرشحها سلفاً بالنصر استخفافاً بالمرشحة ، وأوصي الدعاة الناحيين بعدم توكيل النساء عن لرجال والأمة في السلطة والسياسة .

وكان الاستفزاز كبيراً ، فقد نازلت الدولة الهضيبي في حي الدقي المعقل القديم للطبقة الوسطى التي يعتبر الإخوان أنفسهم ممثلين لها واجتهدت الجماعة في تفسير سقوط الهضيبي ، ثم وصلت إلى نتيجة تقول أن الدولة صوتت للمرشحة الرسمية .

وقد يكون اجتهاد الجماعة صحيحاً فالدولة في مصر دولة ، وليس في حسابها أن تسقط الوزيرة أمام مرشح المعارضة ، لكن مرشحي الإخوان جميعاً - باستثناء واحد سعيد الحظ - سقطوا أيضاً أمام الرجال والنساء من رسميين ومستقلين .

وليس معقولاً أن تكون الدولة متفرغة للتصويت بهذا الزخم لهذا العدد الكبير من المرشحين ، من هنا ، فردت الدولة بأن «هذه هي حقيقة شعبية الإخوان» ينطوي على واقع صحيح أيضاً ، واقع تراجع شعبية الإخوان الذين كانوا في ظروف انتخابية مماثلة قادرين على دفع عشرات من مرشحين إلى تحت القبة النيابية في الثمانينات .

وقد أرادت الدولة الانتخابات الأخيرة بمنطق الثقة بالنفس بعد كبحها جماح العنف الديني ، وتصرفت من واقع الحرص القلق على تأمين الأغلبية المطلقة لحاجات مستقبلية كثيرة ، وفي مقدمتها أغلبية الثلثين لمرشحها لرئاسة الجمهورية في العام المقبل .

كل ذلك مفهوم ، لكن المعركة الانتخابية عكست أيضاً مدى غوغائية الحياة الحزبية المصرية ، فقد بالغت أحزاب المعارضة في نسب هزيمتها إلى التزوير والتزيف ، وهي في ذلك لا تريد أن تعترف بمأزقها ، مأزق تراجع شعبيتها ، وترهل حركتها وانفصالها عن جمهورها .

كانت المعارضة عاجزة عن تغطية جميع الدوائر ، فعدد مرشحيها لم يتجاوز ١٠ بالمائة من مجموع المرشحين ، وأدى تضخم عدد المرشحين (أكثر من أربعة آلاف مرشح لـ ٤٤٤ مقعداً في ٢٢٢ دائرة) إلى بعثرة الأصوات في ظل انعدام التخطيط والتنسيق في المعركة .

(*) نشر بجريدة «الشرق الأوسط» في ٢٠/٢/١٩٩٦ م .

انتهازية التحالفات المحلية وجه آخر لغوغانية الحياة السياسية المصرية ، فقد سارعت الأحزاب السياسية إلى استغلال رفض الدولة الحزب الديني ، فاحتضنت الإخوان طمعاً في أصواتهم ، ولم تكن الجماعة أقل رغبة من الأحزاب في هذا العناق التكتيكي ، فقد باتت الأحزاب بساط الريح الذي يعبر بالإخوان من الباب الخلفي إلى بيت المؤسسة التشريعية .

نعم ، كان زواج الوفد والإخوان في منتصف الثمانينات قصيراً ، لكن زواج المتعة الانتخابية ألحق أذى بالغاً بالوفد ، فقد كان على حساب مواقفه كحزب تاريخي لليبرالية والديمقراطية في مصر ، وكرمز لتعايش المسلمين والأقباط في مجتمع سياسي وثقافي منفتح .

الإخوان في رغبتهم الجارفة ، منذ الملكية والناصرية ، انتزاع اعتراف الدولة بهم ، مارسوا تعدد الزوجات ، فبعد الطلاق من السادات ثم من الوفد ، تم الزواج بحزب العمل الاشتراكي ، وبعده من الأحزاب الهامشية الصغيرة .

لقد مارس الإخوان الحلال ، فلم تلحق بهم أضرار سياسية تذكر من تعددية المعاشرة ، لكن هذه الأحزاب التي كانت الجانب الأصغر والأضعف في هذا التحالف اضطرت إلى التسربل بسروال الإخوان ، ففقد حزب العمل عذريته الاشتراكية وصفته كحزب ديمقراطي ليسار الوسط .

الواقع أن الممارسة والتجربة خيبتا الأمل في «الاشتراكية الديمقراطية» التي رفع شعارها حزب العمل منذ إنشائه ، فالحزب بقيادته امتداد لحزب «مصر الفتاة» الذي ولد في الثلاثينات متأثراً بازدهار الفاشية الأوروبية عدوة الديمقراطية آنذاك .

ولعل ذاكرة العلاقة الإخوانية الراهنة بحزب العمل تعود إلى صلات الود التي كانت تربط حسن البنا والجماعة بأحمد حسين زعيم «مصر الفتاة» ، على الرغم من تناقض الأيديولوجيا ، وكان احمد حسين محامي الشاب الإخواني الذي قتل النقراشي رئيس وزارة مصر عام ١٩٤٨ م .

ثم ما لبثت أسرة أحمد حسين أن لعبت دوراً كبيراً في تأسيس حزب العمل وإتمام مراسم الزواج بينه وبين الإخوان ، وها هو عادل حسين شقيق الراحل أحمد يستدير استدارة أيديولوجية كبيرة ، فيقطع المسافة بسرعة فلكية من أيديولوجيا شبه ماركسية كان يعتنقها إلى أيديولوجيا إخوانية الملامح .

وأسدت هيمنة الأسرة على «ماكينه» الحزب وإعلامه خدمة كبيرة للإخوان ، فقد كان صوت الحزب والأسرة أعلى من صوت الجماعة في اتهام الدولة بإسقاط مرشحي الطرفين المتعاقدين .

ضوضاء الحسرة على الإخفاق لم تمنع قواعد حزب العمل من إجراء عملية نقد ذاتي ، فقد ارتسمت علامات استفهام كثيرة حول جدوى زواج الحزب والجماعة ، وهناك شكاوى حزبية من حدوث «خianات» انتخابية ، فقد تبين أن مرشحي الحزب لم يتلقوا العدد الكافي من أصوات الجماعة .

وكان إبراهيم شكري زعيم الحزب كالزوج المخدوع آخر من يعلم ، فقد أخفق هو أيضاً في الانتخابات ، وقالت أوساط الحزب أنه ذهب ضحية «خيانة» انتخابية ، لكن إعلام «الأسرة» ينفي ويقول أن الزعيم «عوقب» رسمياً لتحالف الحزب مع الجماعة .

وسواء كانت هناك «خيانة» أو «عقوبة» فالدلائل تشير إلى أن زواج الحزب والإخوان لن يعيش إلى الانتخابات المقبلة ، والدعوة تشتد داخل الحزب إلى استعادة استقلاله عن الجماعة ، وبلورة هويته السياسية

كحزب ديمقراطي اشتراكي على شاكله أحزاب «الديمقراطية الاجتماعية» التي تحتل اليوم يسار الوسط في الديمقراطيات الأوروبية الغربية .

تلك صور من الحياة الحزبية في مصر اليوم ، وهي في غوغائيتها ونفعتها تلحق أذى بالغاً بنقاء المرجعيات السياسية والدينية للأحزاب والإخوان ، نعم ، كان الإخوان أكبر المستفيدين وأقل المتضررين ، لكنهم كانوا في غني عن هذه التحالفات التكتيكية طالما أنهم يستطيعون خوض الانتخابات كمستقلين ، اللهم إلا إذا كان غرضهم من التنقل بين الأحزاب بين الأحزاب مشاركتها في ابتدال الحياة الديمقراطية .

هذه المهانة للديمقراطية تبدو في وجه آخر لسلبات العمل السياسي والحزبي ، وهو إشغال الرأي العام بقضايا شخصية تصرفه عن التركيز على القضايا الاجتماعية والمعيشية ، كزندقة أستاذ جامعي وملاحقته أمام القضاء لتطبيقه من زوجته .

والإسلام دين متماسك في شريعته وعقيدته ، وفي مؤسساته وجدلياته الاجتهادية ، وراسخ الجذور في الوجدان المصري والعربي ، وهو لا يحتاج إلى حكم بالطلاق لحمايته أو للدفاع عن عقيدته ، لمجرد ادعاء باحث منفرد بأن اجتهاد العصور الإسلامية المتأخرة لا يرقى إلى اجتهاد وانفتاح العصور الإسلامية الأولى .

ولعل الدكتور حامد أبو زيد سعيداً الآن في منفاه خارج مصر ، فقد أخذ معه زوجته الثانية الأثيرة على قلبه ، وترك لمزندقه مهمة تطبيقه من زوجته القديمة ، إن لم يكن قد طلقها بعد .

لكن لجوء المحسوبين على الجماعة الإخوانية وحلفائها إلى هذه الأساليب في مواجهة الرأي ، من شأنه تقديم قضية تطبيق الحدود (الأحكام والعقوبات) على القضية الأهم ، قضية تحقيق العدالة الدينية والاجتماعية .

لقد كان أول عمل لمجلس الشعب الجديد تعديل قانون الحسبة لوضع حد لهذا السيل من الدعاوى الكيدية والشخصية ، ولتوفير وقت القضاء والمجتمع باتت النيابة العامة المرجع الذي يبيت بوجاهة الدعوى ، فإذا رأتها جادة قدمتها إلى القضاء وتولت مع المدعى ملاحقة المدعى عليه أو عليهم .

كان تعديل القانون عادلاً ومنطقياً ، وكأنه جاء لينفي عن مجلس الشعب الجديد صفة عدم الرشد التي ألصقت به نتيجة الاتهامات بالتزوير والتزوير ، لكن الأهم أن التعديل جاء مؤشراً جديداً على تأجيل وتأجيل الترخيص للجماعة كحزب ديني .

الجماعة تقول أنها بلغت سن الرشد ، وبات احترامها لأدب الحوار الديمقراطي يؤهلها للاندماج رسمياً في صلب التيار العام للعمل السياسي .

وأنصار الحكومة ينظرون إلى موجبات وحيثيات تعديل قانون الحسبة ولا يصدقون ، ويقولون أن الحكومة لو منحت الإخوان حرية العمل «لمارسوا الزندقة والقتل» .

أما القضاء فهو حائر بين الدولة والجماعة ، وهو في حيرته يؤجل ثم يؤجل النظر في دعوى الترخيص .

من حسن البنا إلى مصطفى مشهور (٣) :

أدب الممارسة السياسية عند الإخوان .. (*) بقلم الأستاذ غسان الإمام

انتظر الإخوان قطف ثمار المواجهة بين الدولة وجماعات العنف ، فخسروا الرهان على الصبر والوقت ، والخسارة تنذر بالشقاق داخل الجماعة .

من مدرسة العنف إلى مؤسسة الصبر :

بعد غزل مع العنف واقترافه زهاء عشرين سنة ، انتقل الإخوان إلى لون آخر من ألوان الممارسة السياسية ، فمنذ إعدام سيد قطب عام ١٩٦٥م عاشت الجماعة ثلاثين سنة مؤسسة سلمية صابرة .

كانت التجربة قاسية ومريرة ، فقد حاولت الجماعة بالعنف انتزاع الاعتراف الرسمي بها فأخفقت أمام الدولة الملكية أو الناصرية وحاولت بالسلم دخول مؤسسة المعارضة المشروعة فرفضتها الدولة الساداتية والمباركية ، وإذا كان حسن البنا غامضاً إزاء القلب السياسي للإخوان فهم لا يعرفون اليوم ما إذا كانوا جماعة أو جمعية أو حزباً .

غير أن الإخوان كانوا أمهر في ممارسة الصبر منهم في ارتكاب العنف ، وقد اكتسبوا مراناً كبيراً في ظل العمل السياسي المشروع ، وتعلموا بالخبرة كيف يفرقون بين الدولة والحكومة ، فإذا كانت الدولة لا تعترف بهم فالنظام قد يتعاون أو يتحالف معهم (السادات) ، أو قد لا يكون معادياً لهم كما في الثمانينات .

وفي لعبة الصبر ، اجتهد الإخوان في السعي لكيلا يتطابق موقف الدولة والحكومة ، لقد صبروا صبراً طويلاً على رفض الدولة ، لكنهم لا يطبقون عدااء الحكومة ، والطامة كبيرة بالنسبة لهم عندما توحد أو يتوحد الرفض والعداء معاً .

وجد الإخوان العمل السياسي السلمي ليس شراً كله ، وهم بخبرتهم وتجربتهم تمكنوا من الالتفاف على الرفض الرسمي لهم ، واستفادوا من لا معاداة الحكومة في اختراق المؤسسات المفتوحة شبه الرسمية أو غير الرسمية .

فها هم يخترقون أحزاب المعارضة ويشاركون بزخم المال في القطاعين الاقتصادي والخدمي (راجع الحلقة السابقة) ، وها هم يحتلون معظم قيادات النقابات المهنية (٢٢ نقابة) ، ويكادون يسيطرون على هيئات التدريس ، وها هم ممثلون أيضاً في المجالس المحلية .

النقابة أصلاً ليست حزباً سياسياً إنها شكل من أشكال التضامن المهني والعمالي ، والنقابات المهنية (كالأطباء والمهندسين والمحامين والصحافيين..) ، احتفظت في الغرب عموماً باستقلاليتها عن الحزب السياسي ، لكن الاتحادات النقابية العمالية كانت ومازالت رديفة ورأس حربة للأحزاب في الديمقراطية الغربية .

غير أن الاتحادات العمالية العربية لم تكن يوماً قلعة إخوانية ، ولعل السبب كون أيديولوجيا الجماعة أقرب إلى روح النظام الرأسمالي منه إلى الكفاح الطبقي والعمالي ، وظلت البروليتاريا النقابية العربية حليفة للأحزاب والأنظمة اليسارية ، بل مازال هذا الحلف قائماً اليوم في الجزائر - مثلاً - بين النظام الحاكم والاتحاد العمالي الجزائري في الصراع مع جبهات العنف الديني .

(*) نشر بجريدة «الشرق الأوسط» في ١٩٩٦/٢/٢٧ م .

لقد فضلت الجماعة العمل في النقابات المهنية على العمالية ، لأن المهنية تتمتع باستقلال سياسي ومادي كبير عن الدولة والحكومة في مصر ، وباتت النقابة المهنية حزباً أو واجهة سياسية للإخوان بصورة مثيرة للقلق والمتاعب للنظام .

النظام في سورية نجح في إنهاء استقلالية النقابات المهنية بعد اعتصامها الشهير في أوائل الثمانينات ، على الرغم من أنها لم تكن معقلاً إخوانياً ، لكن النظامين المصري والأردني لم يحققا بعد نجاحاً في الفصل بين الجماعة والنقابة المهنية على الرغم من التشريعات التي صدرت أو هي على أهبة الصدور ، وها هو المهندس ليث شبيلات ممثل اليمين الديني ينتخب نقيباً للمهندسين الأردنيين وهو نزيل سجن الدولة .

وهناك سببان لتحول النقابة المهنية إلى معقل لليمين الديني :

الأول : تركيز الجماعة عملها التنظيمي والسياسي منذ أمد في النقابة المهنية ، بحيث بات سهلاً عليها تجييش أعداد نقابية غفيرة للاقتراع الذي يغيب عنه ألاف النقابيين المستقلين وغير المنظمين أو المسييين .

السبب الثاني والأهم أن معظم النقابيين الإخوانيين كان قد تم تنظيمهم أو كسبهم وهم على مقاعد الدراسة في الجامعة أو المدرسة قبل الانضمام إلى النقابة .

هنا في المدرسة والجامعة حققت الجماعة اختراقها الكبير منذ أن أخلى السادات أمامها المؤسسة التعليمية والتربوية من الناصريين واليساريين ، وهي في تواجدها الكثيف في هيئات التدرس استطاعت أن تسحب أجيالاً طلابية وشبابية من معسكر النظام أو اليسار .

عندما سيطر اليسار على الحكم أخلى المؤسسة التربوية من المثقفين والأكاديميين الليبراليين ، لكن لم تكن لديه سياسة تربوية ، ولم يدخل تغييراً يذكر على مناهج التدريس وبرامج الدراسة ، فظل التعليم بكل علومه تلقينياً مكثفاً في فصول مزدحمة لا تسمح بحوار أو سؤال .

ثم جاءت أنظمة بلا أيديولوجيا لتسلم الجامعات أو تتركها لحركات اليمين الديني ، فملأت الفراغ السياسي في عقول الطلبة بأيديولوجيات شمولية لا تقبل نقداً أو نقضاً .

منذ ساطع الحصري كانت الثقافة والتربية والتعليم سياسة في المشروع القومي ، لكن الدولة القومية أو الاشتراكية أسقطت نظرية الحصري ، وحتى في دولة هوارى بومدين لم تكن وزارة التربية والتعليم مؤسسة سياسية .

وفي غيرة بومدين على التعريب استقدم من هب ودب من المعلمين العرب ، وفي المدرسة الجزائرية تمكن مدرسو الإخوان القادمون من مصر من إعداد الأطر (الكوادر) التي تقود اليوم جبهات العنف الديني في الحرب الدموية الجزائرية .

كان المولود عجبياً ، فقد أنجبت الدولة القومية أو الاشتراكية جيلاً لا يملك ملامحها ولا يعرف شيئاً عن مشروعها ، وسقطت الدولة القومية فكان مستحيلاً على أنظمة الفراغ السياسي أن تستعيد هذا الجيل أو الأجيال القادمة بعده ، بل ها هم الإخوان أنفسهم يفقدونه بدورهم ، وهم في الجزائر (حماس محفوظ نحناح) أقرب إلى الدولة منهم إلى جبهة الإنقاذ ، وراحت حركات دينية أكثر تزمناً وتشدداً تنافس الإخوان على الأجيال في المدرسة والحي والجامعة .

على أية حال ، فهذه الاختلافات الإخوانية كانت من الأهمية بحيث جعلت الإخوان حزب المعارضة الرئيسي في مصر الذي لا تعترف به الدولة والحكومة .

ونجح الاختراق بفضل أدب الصبر ، أدب الممارسة السياسية السلمية والعمل التنظيمي الهادئ والبطيء ، ومع انفجار عنف الحركات الدينية المنشقة عن الإخوان ، مارست الجماعة في التسعينات صبراً أكبر وأكبر ، سواء في خلافها مع هذه الحركات أو مع الحكومة .

راهننت الجماعة على عامل الوقت ، وفي ظنها أنها ستقطف ثمار المواجهة التي ستضعف النظام وحركات العنف معاً ، لكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، فقد تمكنت الدولة من كبح جماح العنف ومحاصرته في رقاع محدودة ونائية ، وباتت الحكومة أشد توتراً نتيجة المواجهة وأكثر ريبية في علاقة الجماعة بالمنظمات التي تتحرك على يمينها ، وزاد في الشكوك الرسمية أن الإخوان أدانوا العنف بفتور ولم يشاركوا عملياً في مكافحته .

ولا شك أن المواجهة مع العنف أدت إلى انسحاب الظلال الديمقراطية نسبياً على العمل السياسي ، ووضح ذلك في نتائج الانتخابات التشريعية الأخيرة التي سقطت فيها المعارضة المشروعة والإخوانية ، وفقدت الجماعة الأمل في قطف الثمار رهاناً على أدب الصبر وعامل الوقت .

هذه الصدمة النفسية والسياسية أحدثت ردود فعل متباينة داخل الجماعة ، فقد رأت شعبيتها تتحسر مع انحسار عنف وشعبية الحركات الدينية ، وكانت عملية نسف السفارة المصرية في إسلام آباد أسوأ دعاية لمرشحي الإخوان في الانتخابات .

والحزب السياسي عادة يعاني من خلافات وانشقاقات داخلية نتيجة إخفاق سياسته أو تراجع شعبيته ، مضافاً إليها الضغوط والمضايقات الخارجية ، وهذا هو واقع الحال اليوم داخل الجماعة في مصر .

لقد عجلت لا ديمقراطية الهرم التنظيمي في وضع مرشد متمزمت على قمة المرشدية حاملاً معه كل ثوابت الجماعة وذكريات عنفها ، وفي الوقت ذاته حاولت أجنحة من القيادات الوسطى الخروج على أدب الصبر ، فوجهت فوراً بعضاً الحكومة والقانون ودخلت المعتقلات والسجون .

أما التيار الثالث فقد حاول الهروب إلى الأمام ، فاخترت التقدم بطلب للترخيص له رسمياً باسم «حزب الوسط» ، ومع أنه يوحي بأن الحزب سيكون ذراعاً سياسية للإخوان ، فقد قبل ولو نظرياً بالتخلي لأول مرة في تاريخ الجماعة عن اسمها وعن طابعها الديني .

وليس واضحاً إلى الآن ما إذا كانت هذه الحركة «تكتيكاً» متفقاً عليه مع القيادة المرشدية في محاولة جديدة وربما الأخيرة لانتزاع اعتراف بالإخوان كحزب سياسي ، أم أنها انشقاق فعلي وكبير داخل الجماعة .

القيادة المرشدية تنفي الشقاق ، لكنها تبشر جناح «حزب الوسط» سلفاً بأن الدولة لن تمنحه الترخيص ، و«الوسط» الإخواني مل الانتظار وجمود المرشدية .

أما الحكومة فباتت تتعامل مع كل «وسط» بالريبة والشكوك ، وعند الضرورة بعضاً الدولة والقانون .

احتمالات المواجهة بين الدولة والإخوان ..(*)

بقلم الأستاذ غسان الإمام

عملية الفرز بين التشدد والاعتدال جعلت الإخوان يكسبون في السلم ما تقسره حركات العنف في الحرب .

أخضعت الدولة العربية حركات الإسلام السياسي إلى تصنيف مبتكر يضاف إلى ركام المفردات الذي حفل به أدبنا السياسي منذ استقلالات الأربعينات والخمسينات .

ففي دفتر الدولة هناك إسلام سياسي «معتدل» ، وهناك إسلام سياسي «متشدد ومتطرف» ، والعجيب في هذا التصنيف أنه ليس فلسفياً ونظرياً كسائر التصانيف ، ليس عقائدياً أو اجتهادياً ، فالفرز يقوم على معيار مادي واحد هو «العنف» ، فإذا كانت الحركة سلمية فهي معتدلة ، وإذا كانت حربية و«جهادية» فهي متزمتة ومتشددة .

وهكذا .. عندما نبذ الإخوان العنف انتقلوا في تصنيف الدولة من جماعة «جهادية» إلى جماعة سلمية ومعتدلة ، وكان الفرز مريحاً للجانبين ، فقد نجا الإخوان من نار الدولة دون أن يضطروا للتخلي عن الهدف الأيديولوجي الذي يجمعهم مع حركات العنف ، هدف إقامة «الدولة الدينية» ، وتفرغت الدولة لمكافحة العنف بعدما حيدت الإخوان وحالفت المؤسسة التقليدية (الأزهرية) .

وقد لاقى التصنيف العربي قبولاً دولياً ، فبات «ماركة» معترفاً بها في تعامل الدول الكبرى والصغرى مع الإسلام السياسي ، ففي الوقت الذي كانت أمريكا تزدق أوروبا الشيوعية آتية بـبابا بولندي إلى الفاتيكان ، كانت أيضاً تزدق الشاه «العلماني» وتصحبه أمام سنايك الخميني الذي كان محسوباً في التصنيف الدولي على الإسلاميين «المسحوقين والمعتدلين» .

بل ها هي الأجهزة الأمريكية تذهب في الثمانينات إلى مدن الصعيد (مسرح العنف الديني اليوم) لتجنيد «الأفغانيين» مدعومة ومسنودة بفتاوى الشيخ عمر عبد الرحمن بمجاهدة الإلحادية الشيوعية في أفغانستان .

وكوفئ الشيخ الضرير آنذاك ، أمريكياً بتصنيفه فوراً في «خانة» الاعتدال بعد إعفائه المبكر من عقوبة التحريض على قتل السادات ، وعندما تحول بفتواه الجهادية من أفغانستان إلى بلده مصر اكتفت أمريكا باستضافته عندها ولم تنقله إلى «خانة» العنف إلا عندما أعلن «الجهاد» ضد المركز التجاري ورموز الازدهار الرأسمالي .

ولا شك أن الموازنة الرسمية بين التشدد والاعتدال كفلت للمجتمعات العربية نوعاً من السلام المدني ، وتم استيعاب الإسلام المعتدل في مجالس الشورى والنيابة في الكويت والسعودية والأردن ومصر ولبنان ، أما الدول التي حارت وترددت كالجزائر بين تبني التصنيف ورفضه فقد انغمست فوراً في حروب أهلية ودينية .

لكن معادلة التشدد والاعتدال يبدو أنها تخضع ، أو لا بد أن تخضع لإعادة النظر في السنوات القليلة التي تسبق القرن الجديد ، وهذه المراجعة تتم في ضوء حصيلة زواج المصلحة والهدنة بين المعسكرين الرسمي والديني .

(*) نشر بجريدة «الشرق الأوسط» في ١٩٩٦/٣/٥ م .

لقد رفضت دول مثل تونس وليبيا هذا التصنيف أصلاً واعتبرته سلفاً لصالح حركات الإسلام السياسي من معتدلة ومنتشدة ، ورفضته أيضاً دول مثل السودان ، لكن لكي تتبنى حركات الاعتدال والعنف وتنسق معها في الداخل والخارج .

أما دول مثل سورية فقد تعاملت مع الهبة الدينية كظاهرة اجتماعية لا كحركة سياسية ، فها هي تحول القيادي الإخواني السابق الشيخ سعيد رمضان البوطي إلى مؤسسة تليفزيونية للإرشاد الديني ، وها هي تعفو فتسمح بالعودة للشيخ عبد الفتاح أبو غدة مراقب الإخوان الذين سحقت عنفهم في السبعينات والثمانينات ، لكن سورية لم تفكر بعد بالترخيص لحزب ديني أو بتمثيل الإسلام السياسي في جبهتها «الوطنية التقدمية» .

ولعل أحد أسباب اهتزاز ثنائية التشدد والاعتدال في التسعينات هو الجدل الحار حول «المكاسب» التي حققتها المرجعيات التقليدية والحركات «المعتدلة» على حساب «الفوائد» التي جنتها الدولة والمجتمع .

فالانتلجنسيا العربية تعتقد أن الدولة تنازلت لهذه المرجعيات والحركات عن صياغة عقل وفكر الأجيال الجديدة ، وترى أن المجتمع تلقى جرعات إرشادية وتوجيهية جردته مع تراجع الوعي وتردي المستوى التعليمي والمعيشي من القدرة على المحاكمة والمجادلة ، فبات أكثر محافظة واستعداداً للقبول بأيديولوجيات شمولية ، هي أقرب ما تكون إلى أيديولوجيات حركات التشدد والتزمت والعنف التي تكافحها الدولة .

وفي الحوار مع الدولة تقول الانتلجنسيا إنها تجد نفسها في موقع الدفاع المكشوف أمام زندقة المرجعيات والحركات رموز الثقافة والفكر وأمام الهجمة على كل ما تم إنجازه في عملية التحديث خلال القرنين الأخيرين .

الانتلجنسيا تعتقد أنها الطرف الخاسر من تصنيف لا علاقة لها به ولم تشارك في وضعه ولا تعثر في الدولة على «الحكم العادل» في المواجهة مع المرجعيات والحركات ، وهي ترى الليبرالية الفكرية والسياسية تتحسر وتضيق وحملتها لوائها يتلقون ضربة على اليد والرأس كلما أرادت الدولة إثبات تقواها وتأكيد شرعيتها الدينية .

هذا المنطق مرفوض جملة وتفصيلاً عند المرجعيات ، فهي مازالت مؤسسات دينية تابعة وريفة للسلطة السياسية ، أما الحركات «المعتدلة» فتشكو من أنها مازالت خارج المؤسسة الرسمية ، ولم تنل بعد اعتراف الدولة بها كأحزاب سياسية أو دينية ، والمرجعيات والحركات معاً تقول إن جهادها سلمي وموجه إلى كشف وتعرية «التغريب» الفكري والثقافي الذي كاد أن يجرّد المجتمع الإسلامي من حصانته الأخلاقية وأصالته التراثية .

والدولة في غمرة هذا الحوار اللاهب تجد أنها حققت مكسباً أساسياً فقد حالت إلى الآن دون تسييس المرجعيات التقليدية وأبقت الحركات «المعتدلة» تحت رحمة عدم الاعتراف الذي قد يتحول إلى ملاحقة إذا تجاوز المعتدلون خطوط الاعتدال .

مصر اليوم بؤرة لهذا الجدل الثلاثي ، ومع أن الدولة لا توحى بأنها تتحاز إلى منطق الانتلجنسيا المصرية، لكن تصاعد التوتر مع الإخوان يشير إلى أنها تعيد مراجعة حساباتها ، تعيد النظر في معادلة التشدد والاعتدال ، ومستقبل العلاقة مع الإخوان يتوقف على نتيجة المراجعة .

لقد غيرت المواجهة مع العنف الديني كثيراً من الرؤى والحسابات والمواقف ، باتت الدولة أكثر شكاً بـ «سلمية» الإخوان ، وأكثر قناعة بأن المواجهة الأمنية مع العنف التي يشارك فيها ٣٠٠ ألف شرطي ورجل أمن لا تكفي للحسم ، وهي ترى الإخوان قد خسروا شعبياً لكنهم كسبوا واستفادوا من «الأدلجة» الوعظية والإرشادية للمجتمع .

ففي غياب أيديولوجيا محددة ومرسومة للدولة ، وفي تراجع الأيديولوجيات الناصرية واليسارية ، بات المجتمع أكثر استعدادًا للقبول بأيديولوجيا شمولية ، لقد اكتشفت الدولة أنها تدور في حلقة دائرية ، فما الفائدة من مكافحة الإرهاب والقضاء عليه إذا كان الإخوان يعملون سلمًا لصالح أيديولوجيا تعمل حركات العنف لفرضها بالقسر والقوة ، فالأيديولوجيا واحدة ، وإن اختلف الأسلوب في الممارسة والوصول والتطبيق .

لقد تذوق الإخوان من مبارك الجانب الحلو ، وهم يتذوقون اليوم الجانب المر ، يقول مصطفى مشهور مرشد الإخوان في ما يشبه الدهشة والتعجب ، إننا لا نتحدها ، ولم نختلف معه إلا في الفترة الأخيرة .

والإخوان من خلال تجربتهم العنف يعرفون أنهم الجانب الأضعف في أية مواجهة مع الدولة ، لذلك فهم يعلنون ويؤكدون أنهم لن يقابلوا الاستفزاز بالعنف أو باللجوء إلى العمل السري وسيظلون يعملون «بالوسائل الشرعية والسلمية» .

الواقع أن مبارك تغير كثيرًا فهو في التسعينات غيره في الثمانينات هو اليوم أكثر حزمًا وحسمًا وصلابة في الداخل ، وأوسع مبادرة ومناورة في السياسة العربية والدولية ، مع ذلك فهو مازال ذلك الرئيس الحذر ، الرئيس الأبعد من السادات رؤية وحسابًا .

وترجمة ذلك تعني أن مراجعة الحساب قد لا تؤدي إلى التخلي عاجلاً عن ثنائية التصنيف ، ولا إلى الدخول فوراً في مواجهة مع الإخوان ، فمبارك يعرف أكثر من غيره أن تغيير السياسة والمعادلة يتطلب وقتاً أطول ، ودراسة أعمق للظروف والعوامل والقوى العربية المؤثرة والفاعلة داخلياً وعربياً .

وعلى أية حال ، فالدولة العربية في غياب أيديولوجيا بديلة ، ليس في طاقتها التخلي اعتباراً عن الفرز بين التشدد والاعتدال ، فهي تتساهل مع حركات الإسلام المعتدل والمرجعيات التقليدية ، لأنها تجد في ذلك ما يؤكد صلاحها وتقواها وشر عيتها أمام جماهيرها المؤمنة .

وحتى لو اضطرت الدولة إلى الدخول في مواجهة مع الحركات المعتدلة ، فهي ليست بمضطرة ومجبرة للتخلي نظرياً وإعلامياً عن ثنائية التشدد والاعتدال ، لأنها في ذلك تتخلى عن أهليتها الدينية ، وتفقد سلاحاً فاعلاً تضعه في أيدي الحركات الدينية المعتدلة والمتشددة ، والدين منذ الإسلام يدخل في صميم السلطة السياسية وفرض الطاعة على الرعية .

متى تقوم الدولة الإخوانية .. ؟ (*) بقلم الأستاذ غسان الإمام

كان عبد العزيز آل سعود من النباهة والذكاء بحيث رفض ترشيحه خليفة ، لأن الخلافة ابتذلت وباتت منصباً اسمياً لا يرمز إلى وحدة العرب والمسلمين .

يبدأ المرشد مصطفى مشهور العد التنزلي على الأصابع ، ويحدد ساعة الصفر ، فبعد ثلاثين سنة سوف تقوم الدولة الإخوانية .

ويبدو المرشد في صحابته متفائلاً ، فدولته ستكون «إسلامية عالمية» ، والمسافة الزمنية ليست بعيدة قياساً بالعناء الذي سيكابه وهو يبني إمبراطورية تمتد من أندونيسيا إلى الأطلسي ، ومن تركيا وشيشينيا إلى اليمن السعيدة .

ولا يكشف المرشد عن خطته السحرية لبناء دولة عالمية في عصر استحالة الدولة العربية الواحدة وانهايار الإمبراطوريات التي تضم شعوباً شتى ، وفي زمن تفكك الدولة التي تضم شعباً واحداً وأقليات متعددة .

وهو يتجاهل صراع الأعراق والأجنحة الإسلامية في العراق وباكستان وأفغانستان والجزائر ، ويتناسى نهاية «الخلافات» الأموية والعباسية والعثمانية ، فقد أسلمت شعوبها وحسن إسلامها ، لكن الدين لم يتغلب قط في الواقع على النزعات العنصرية والثقافية بحيث يمكن استيعابها في دولة واحدة .

إذا تجاوزنا حقائق التاريخ وسألنا المرشد عن هوية الدولة الإخوانية لسارع إلى القول أنها لن تكون «دولة دينية» فهي عنده «دولة طبيعية» ، وربما يقصد أنها «دولة مدنية» .

هنا يعاني المشروع الديني من سلسلة تناقضات لا تنتهي منذ ولادته في القرن التاسع عشر ، فالإسلام أصلاً لم يحدد في النص المقدس والسنة هوية الدولة ، وقد تنبه مفكرو المشروع الأوائل إلى هذه الحكمة القرآنية والنبوية ، لذلك كان إلحاحهم على إصلاح المجتمع يسبق إلحاحهم على قيام الدولة .

فها هو الشيخ محمد عبده يعلن صراحة : «لا دولة دينية في الإسلام» ، وليس في الإسلام سلطة دينية ، إنما سلطة مدنية ، ويؤيده في ذلك مفكرون آخرون بينهم الأزهرى علي عبد الرازق مضيفاً أن نباهة الإسلام تتجلى في ترك هوية الدولة إلى مسئولية العقل لا الإيمان .

وقد هدم علي عبد الرازق في كتيبه «الإسلام وأصول الحكم» نظرية الخلافة على رؤوس الساسة والمفكرين والدعاة الذين لم يستطيعوا التصور أن الإسلام قابل للحياة بلا خليفة بعد إقالة السلطان عبد الحميد آخر الخلفاء العثمانيين في عام ١٩٢٤ م .

قوض علي عبد الرازق مشروع الخلافة ، فقوض هؤلاء حياته العلمية كمفكر أزهرى وقاض شرعي ثم كسياسي ، وأوصله اجتهاده الجريء في موضوع الدولة والسلطة والخلافة إلى زندقته ، فمات نكرة عام ١٩٦٦ م .

وتتجلى التناقضات أكثر فأكثر مع تسييس المشروع الإسلامي ، فقد بات في نظر دعائه بحاجة إلى دولة وإمام أو خليفة ، فها هو الشيخ رشيد رضا ينادي بالعودة إلى الخلافة ، ففيها وحدة الأمة والدولة والإيمان والعقل .

(*) نشر بجريدة «الشرق الأوسط» في ١٢/٣/١٩٩٦ م .

ويرنو الشيخ ببصره إلى عبد العزيز آل سعود ، فقد رآه يوحد الجزيرة ، ويسير متتدًا حكيمًا بين أحابيل الإنجليز وعناد الأتراك وتسرع الملك فؤاد والشريف حسين (الجد الأكبر للملك حسين) والي مكة .

ورافت فكرة الخلافة لمفكر كبير مثل شكيب أرسلان ، لكن ملك الجزيرة كان من النباهة والذكاء بحيث لم يغيره الترشيح ، فقد باتت الخلافة منصبًا رمزيًا واسميًا ، ولن تكون مؤشراً وعلامة على قيام دولة عربية واحدة أو دولة إسلامية متماسكة .

لكن دعوة الشيخ رشيد رضا للخلافة راقت أيضاً للإخوان المسلمين ، وهو في الواقع كان الأب والمرشد الروحي للجماعة ، وعليه وفي مطبوعته «المنار» تتلمذ وتدرّب أوائل دعاة الإخوان ، وقد تلقف تلميذه الشيخ حسن البنا الفكرة معلناً استرجاع الخلافة يأتي عند الإخوان «في رأس مناهجهم» .

أمضى خطوة أبعد في بيان التناقضات حتى داخل الحركة الواحدة ، فالمرشد مصطفى مشهور يقول إن دولته لن تكون دينية ، لكن المرشد المؤسس حسن البنا يرفض سلفاً الدولة والمجتمع خارج الإطار الديني ، وقد أسقط المرشدان فكرة الخلافة بعد ابتذالها سياسياً ورفضها عربياً ، إلا أنهما استبدلا بها الحديث عن «إمام» للدولة والمسلمين .

في الانتقال من هوية الدولة إلى التفاصيل ، نرى المشروع الإخواني يوغل في الارتباك والحيرة عند رسم المنهج والبرنامج ، وفي تحديد الموقف من المؤسسات والسلطات ، ولعل هؤلاء الذين يصفون القداية على الحزب الديني يكتشفون أنه لا يختلف عن الحزب السياسي في تناقض مواقفه تبعاً للمصالح والظروف .

وقد ركز المشروع الديني عموماً - والإخواني خصوصاً - على قضية الإمامة ، فولاهما الاهتمام الأكبر فيما لم يظهر اهتماماً مماثلاً بالمؤسسات التي تكفل الشورى أو بالأحرى الديمقراطية ، وتضمن فصل السلطات ، فتم تحميل الإمام (الحاكم) سلطات تجعله مستبدًا يستحيل عليه أن يكون عادلاً .

لقد نبه الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي المسلمين إلى أن الخليفة أو الإمام ليس معصوماً ، والخلافة ليست بوظيفة دينية ، لكن البنا يصر على أن يبقى الإمام وحده دون غيره واسطة «الحل والعقد» .

ويكاد المحامي عبد القادر عودة أن يكون المنظر القانوني للإخوان فقد صاغ دستوراً للدولة الإخوانية لينقذها من الاجتهادات المتضاربة ، مع ذلك فهو في قانونه يولي الإمام السلطة التنفيذية المطلقة ، ويعهد إليه بإقامة الدولة الإسلامية وممارسة سلطاتها الدينية والسياسية .

ويضج المشروع الإخواني بالتناقضات عندما يحاول الفصل بين سلطات الإمام وسلطات وحيات المؤسسات ، هنا يقبل حسن البنا على مضمض بالمبدأ الدستوري الديمقراطي (الشعب مصدر السلطات) ، لكنه كان ضمناً ضد التعددية السياسية ، بل وقف الإخوان بعده إلى جانب جمال عبد الناصر في ضرورة إلغاء الأحزاب السياسية .

أما عبد القادر عودة الذي أعدمه عبد الناصر لعلاقته الحركية بمؤسسة العنف الإخوانية (الجهاز السري) ، فهو يجعل مسئولية الحكومة أمام الإمام أكبر من مسئوليتها أمام مجلس الشورى (مجلس النواب) ، ثم يخضع أيضاً السلطة القضائية إلى السلطة الإمامية ، ثم يتخبط أمام مبدأ الاقتراع الشعبي وينتهي أخيراً إلى انتفاء الشريعة التي تنوب عن الأمة ، فيقول إنها «الحكام والعقلاء والعلماء والقضاة» دون أن يحدد من هو الذي يصنفهم ويسبغ عليهم العقل والحكمة .

لقد حسم سيد قطب المنحدر مباشرة من صلب الإخوان هذه البلبلة فكفر المجتمع ودعا إلى قتاله ، وجرده من كونه «مصدر السلطات» وأسندها إلى سلطة غيبية سماها «الحاكمية» مستعيراً إياها من مفكري الإسلام

الهندي ، دون أن يتنبه إلى أن الدولة الوثنية ، ثم الدولة المسيحية الوسيطة ، تبنت أيضاً نظرية «الحق المقدس» لضمان السلطات المطلقة للحاكم والإمبراطور .

لكن إخوان الثمانينات والتسعينات عادوا فرفعوا شعار «الأمة مصدر السلطات» ، وقبلوا بالمؤسسات الديمقراطية بما فيها التعددية الحزبية ، ووافقوا على مبدأ الاقتراع الشعبي في تداول السلطة والنيابة عن الأمة ، غير أن الدولة وقادة الأحزاب ومفكري المشروع الديني يشككون في جدية الإخوان .

فالدولة تؤكد أنها لن ترخص للحزب الديني معتمدة في ذلك على الدساتير المصرية المتعاقبة ، وخالد محيي الدين زعيم حزب التجمع غير مقتنع بديمقراطية الجماعة ، والمفكر محمد عمارة - قبل انسحابه من الوساطة بين المشروعين الديني والقومي - كان يتهم الإخوان «بتجريد الأمة من السلطات السياسية والتشريعية».

والواقع أن الجماعة في مواقفها المتناقضة هي المسئولة عن حذر الدولة والساسة والأحزاب منها ، فهي مثلاً تقبل بالتعددية الحزبية ، لكنها تعود فتصف الأحزاب بين ملحدة وغير ملحدة ، فكل حزب يعارضها سيكون ملحدًا ، ولن تجد له مكاناً في دولتها ، وهكذا يتم إفراغ المشروع الديني من روح الشورى وديمقراطية الحوار والمداولة .

وأكاد أنسى في عرض مواقف أهل المشروع الديني رأي مرجعية لا تقل أهمية ، وهي المرجعية التقليدية ، فشيخ الجامع الأزهر جاد الحق يسلم بأن الإسلام لم يقل بدولة دينية أو مدنية ، لكنه يتصور دولة لها «إمام واحد كل الأمور في يده» بما فيها القضاء .

وفي مبادرة لم تلفت الانتباه عمد كبار رجال الأزهر إلى محاولة وضع دستور للدولة الدينية ، متجاوزين المبدأ الدستوري في أن وضع الدستور من صلاحية هيئة تشريعية منتخبة .

مع ذلك .. وفي دلالة واضحة على اختلاف المرجعيات والاجتهادات ، فقد تعطلت صياغة الدستور عندما اصطدم رجال الأزهر بقضية المرأة ، هل يمنحونها حق الترشيح والتصويت كالرجل أم يحجبونه ؟ وهنا تبدو المرجعية الإخوانية مختلفة في الاجتهاد فهي مع تصويت المرأة وانتخابها ، فالجماعة حريصة على كسب صوتها في المعارك الانتخابية والسياسية .

لقد اختلف الأزهر والإخوان في توكيل المرأة ، لكن المرجعيتين تتقاربان كثيراً في فرز الأحزاب على أساس ديني ، فالشيخ جاد الحق مع تحريم الأحزاب «المخالفة» للإسلام ، ولا يصرح إلا للأحزاب التي «تسير في نطاق الإسلام وفي ظل أحكامه» ، وهو المبدأ الذي تعتمده المرجعية الشيعية الحاكمة في إيران لإبعاد خصومها والأحزاب السياسية عن دائرة القرار والسلطة والنيابة .

موقع الإخوان في المشروع الديني ..(*) بقلم الأستاذ غسان الإمام

الليبرالية الفكرية المصرية هي التي عرفت العرب بالتاريخ الإسلامي ، فيما كان الإخوان منهمكين بالاستيلاء على المشروع الديني ، ونقله معهم إلى أقصى اليمين السياسي .

بساط الريح الذي حمل المشروع الديني الحديث مر في ثلاث طبقات أو مناخات سياسية (مرحلة الفكر والعقل ، ومرحلة التبليغ والتنظيم ، ثم مرحلة الرفض والعنف) .

وفي هذه الرحلة التراجعية تتسع جماهيرية المشروع الديني كلما حمى وطيس تسييسه ، ثم تضيق رقعة الفكر والاجتهاد فيه كلما توسعت مساحات شعبيته ، إنها تناقضات الشرق العالق بضباب الفلسفات الذي لا تخضع حركته الشعبية والاجتماعية لمنطق وقياس .

لقد فتح المشروعان الديني والقومي العين على الانبهار بتقدم الغرب وتحدي كلاهما تخلف الشرق بمحاولة مصالحة التراث مع العصر ، ففيما ركز المشروع القومي على إحياء الثقافة العربية ومزاوجتها بالفكر الغربي ، انهمك المشروع الديني بتجديد الفكر الإسلامي كوسيلة لمزاوجة الإيمان في الشرق بالعقل والعلم في الغرب .

ما أشبه الأفغاني بـ «المسحراتي» الذي يوقظ بطبلته النيام عند السحور ، فما هو يقبل من المجهول في أفغانستان ، وربما من إيران ليدق بوابة الشرق وبوابة العرب بالذات ، فقد أيقن بذكائه اللماح أن لا نهضة للإسلام بلا العرب .

وهنا في مناخ الانفتاح والسماح في مصر ، يجد المعلم البيئة الصالحة للصحة ، وللدعوة إلى أعمال العقل والفكر في الاجتهاد دون التخلي عن الثوابت المقدسة .

هذا المفكر السياسي تمكن من زرع البذرة ، لكن لم يستطع قط تسيبها بجماهير تتجاوب مع حماسه الثورية ، تجاوبت مع النخبة فطاردته السياسة وألجأته إلى أوروبا .

ثم تخلى عنه تلميذه الأمين بعد إقامة صحافية قصيرة في باريس ، فالأفغاني يريد أن يركز في «العروة الوثقى» على السياسة ، والشيخ الأزهرى يرى التركيز على التوعية بالتعليم والتربية ، ثم انشغل بدرس العلاقة بين الحرية في الإسلام والديمقراطية الغربية .

وافترق هذا عن ذلك ، عاد محمد عبده مهانداً للإنجليز فتربع على كرسي الافتاء في مصر ، وتقهرق الأفغاني إلى الأستانة التي ثار على جمودها في شبابه ، وكان غموض نهايته الغربية في حضنها أشبه بغموض المجهول الذي جاء منه .

الموت المبكر للأفغاني وعنده لم يطفئ جذوة المرحلة الرائدة ، ظل الفكر الإسلامي الجديد متوقفاً ، وها هو الشيخ رشيد رضا يدعو إلى تسييس الإسلام ضمن أطر الاجتهادية التقليدية ، وها هو شكيب أرسلان يحاول مصالحة المشروعين القومي والديني متابعاً خطى الكواكبي .

(*) نشر بجريدة «الشرق الأوسط» في ١٩/٣/١٩٦٦ م .

وإذا كانت استعادة الخلافة راودت خيال رضا وأرسلان ، فقد برز علي عبد الرازق القادم من أكسفورد والأزهر ليحذر من الاستسلام إلى الخدر التاريخي ، وليقول بجرأة دفع ثمنها إن الخلافة استغلت ، لاسيما في العصور المتأخرة لإيهام المسلمين بأن التمرد عليها تمرد على الدين .

واستنتج القاضي الشرعي الشاب أن دولة الخلافة كبتت الفكر الديني والسياسي - وكان صائبًا - فقد ظل مفتي الخلافة العثمانية خمسة قرون يفتي بجملة واحدة «يجوز أو لا يجوز .. والله أعلم» ، حسب مصلحة الخليفة ، دون أن يقدم الحثيات الاجتهادية ودون أن يجرؤ أحد على سؤاله عن أسانيده المرجعية .

غير أن المرحلة الفكرية في المشروع الديني ما لبثت أن أصيبت بالعمق لقد روج المفكرون الإسلاميون لاجتهاد جديد ، لكن أليس غريبًا أن لا يجرؤ أحد منهم أو من المفكرين الإسلاميين المعاصرين على ممارسة الاجتهاد في الدين أو مخالفة الاجتهاد القديم الذي ظل في حراسة المؤسسة التقليدية والسلطة السياسية ، ففكر المشروع الديني مازال يدور في إطار التحليل والتفسير والسرد لتاريخية الفكر الإسلامي والعربي فحسب .

والقلة الأزهرية القليلة التي مارست الاجتهاد في قضايا جانبية تمت زندقته فورًا ، كما حدث لعبد الرازق بعد كتيب «الإسلام واصلو الحكم» ، ثم لظه حسين الأزهرى الذي طبق مبدأ الشك عند ديكارت «في الشعر الجاهلي» ، وكاد المفكر الضرير أن يقدم على الانتحار في ذروة الهجمة عليه وعزله عن بيئته الجامعية والفكرية والسياسية .

هذا العمق كان إيذانًا بانتقال المشروع الديني من مرحلة الفكر والتنظير إلى مرحلة الاستنفار ، مرحلة التعليل والتجيش والتعبئة في دعوة تنظيمية جماهيرية جسدها ولادة الحركة الإخوانية في نهاية العشرينات .

انتهى انبهار المشروع الديني بالغرب ومحاولة تطعيم الاجتهاد والإيمان بالعقل ، إلى الإنكفاء على الذات ، جاء الإخوان رد فعل على التغريب ، وعلى الليبرالية الفكرية التي جسدها أحمد لطفي السيد وعبد الرازق وطه حسين ، ثم على الليبرالية السياسية والاجتماعية التي مثلها حزب الوفد بزعامة الأزهرى سعد زغلول ، ثم بزعامة مصطفى النحاس والقبطي وليم مكرم عبيد .

كان ظهور الإخوان في مصر وليس في سورية أو العراق تعبيرًا عن رفض البنية التحتية للمجتمع المصري ، وهي بنية دينية بالفطرة والولادة وإغراق الأنتلجنسيا والطبقة السياسية المصرية في الانبهار بالغرب ومحاكاته ولمحاولات الاستعمار والتمغربين إحياء الحضارة الفرعونية الميتة بنبش آثارها وموميواتها، وتقديمها قاعدة لقومية مصرية منفصلة عن عروبته وإسلامها .

لكن الإخوانية المصرية لم تكن ردًا على الفكر بالفكر ، كان ردها بالتبليغ ، بالدعوة ، بالتنظيم ، وبالإرشاد والوعظ ، وكان حسن البنا يمتلك قدرة لا تبارى على التغلغل في طبقات المجتمع الدنيا ، وإهاجة الغيرة الدينية في طينة مصرية شديدة العفوية في إيمانها وتسليمها المطلق .

حسن البنا ليس بمفكر ، إنه داعية ، كتبه عناوين دعائية براقية «دعوتنا» ، «عقيدتنا» ، «الإخوان المسلمون تحت راية القرآن» ، «مذكرات الدعوة والداعي» .. أسلوب سلس ، أفكاره بسيطة بلا عمق ، يكتب كما يبلغ ويخطب ويخاطب ، والمنهج عودة إلى إسلام النص والسنة كما فسره وقدمه اجتهاد الأولين .

هكذا .. كان البنا فاصل قطع وانقطاع مع فكر رواد المشروع الديني ، فإسلامه جماهيري ، إسلام حزبي وسياسي ، إسلام يسعى إلى الإمساك بالسلطة لإرساء الدولة الإسلامية أو الدينية .

ولهذا السبب بقيت الجماعة الإخوانية إلى الآن بلا أنتلجنسيا ، بلا فكر ومفكرين ومنظرين يتجاوزون الأطر التقليدية والوعظية لإقامة حوار حار مفتوح ودائم مع الذات ومع الآخرين ومع المرجعية الاجتهادية .

ولهذا السبب أيضاً احتفظت الهيكلية التنظيمية بلا ديمقراطية بنائها الهرمي ، أنها القمة الجمودية التي تتشاور مع نفسها وتصنع مرشدية من قدماء الإخوان الذين أصبحوا بوجازية رأسمالية ، ثم تفرض البيعة والطاعة على القاعدة التي انتقلت من قاع الأحياء والأرياف لتتمركز في طبقة التكنوقراط ، ولتسكن طبقة وسطى ضيقة لكنها مزدهرة .

إنها الليبرالية الفكرية المصرية التي خدمت المشروع الديني ، فأعدت قراءة التاريخ الإسلامي قراءة حديثة بأفلام مفكريها الكبار من أمثال محمد حسين هيكل وطه حسين والعقاد والزيات وأحمد أمين ، فكشفت للأجيال الجديدة عن عبقرية العرب المسلمين دون أن يكون إيمانها كبيراً بالعروبة ، ودون أن تمس ثوابت المرجعية الاجتهادية القديمة .

حدث ذلك في وقت كان الإخوان منهمكين بالاستيلاء على المشروع الديني ، ونقله معهم إلى أقصى اليمين السياسي ، فانطفأت أنواره التحديثية ، وتم تجميده في قالب الدعوة الوعظية الإرشادية ، دون المساهمة في إضافة لمسة فكر إخوانية جديدة عليه .

غير أن صب المشروع الديني في قالب تنظيمي صارم وجامد كانت له عملياً إيجابيات ، فقد تقدمت الشركات الإخوانية لمنازعة اليهود والأجانب المسيطرين على الاقتصاد المصري ، ووقف الإخوان إلى جانب الحركة الوطنية الملتهبة في الكفاح ضد الاستعمار الأجنبي وشارك تنظيمهم المدني والعسكري في حرب فلسطين الأولى واخترقوا المؤسسة العسكرية المصرية التي ستقوم بتغيير نظام الحكم في عام ١٩٥٢م .

أما السلبات فقد تمثلت في كارثية الصدام الأول مع الدولة في الأربعينات ، ففي ظل الخواء الفكري وصرامة البناء الهرمي ودغمائية الأيديولوجيا المطلقة وقع الإخوان في ارتكاب المحذور والمحظور معاً .

سقط الإخوان في أسر دوامة العنف والقمع ، فاغتالوا رئيسين للوزراء وقاضياً ممتازاً ، وخسروا في المقابل حسن البناء مرشدهم وقائد دعوتهم ، وخسروا أيضاً البكباشي أحمد عبد العزيز قائد قواتهم المقاتلة في فلسطين الذي شهرته «الريبور تاجات» الميدانية الرائعة لصحافي شاب اسمه محمد حسنين هيكل .

ومن سوء حظ الإخوان وحسن حظ هيكل أن «بكباشي» آخر يدعى جمال عبد الناصر سوف يخرج من صلب التنظيم ليحل محل الشهيد عبد العزيز ليس فحسب في قيادة عملية التغيير السياسي في مصر وإنما أيضاً في قيادة أكبر عملية تصفية لأكبر حزب ديني عرفه تاريخ العرب الحديث ، وليضع الدولة والسلطة في منأى ومأمن من الذرائع الإخوانية .

اجتهادات في نقد المشروع الإخواني^(*) بقلم الأستاذ غسان الإمام

تراجع د. محمد عمارة معتذراً للإخوان وللبنا تحت وطأة العنف الديني ، وجمع الموت
المشايخ جاد الحق والعزالي وخالد محمد خالد ، وفرقهم الموقف من الإخوان .

وقع حادث سير مؤسف ، فقد تدهورت حافلة التاريخ ، فسقط المشروعان القومي والديني على رأسيهما ،
وسار المشروعان منذ الأربعينات وهما مقلوبان على العقل والدماغ .

فقد تخلى المشروع القومي عن المشروعين الديمقراطي والوحدوي ، ثم لحقت به الهزيمة العسكرية في
المواجهة مع المشروع الصهيوني فأصيب أيضاً بحالة إغماء وغياب ، وورثته أنظمة رفعت شعاراته وتخلت
عن مضمونه ، ولم يبق منه حياً سوى وميض مشروع ثقافي .

وفي هذا الوضع المقلوب واللاعقلاني انتقلت حركة الإخوان بالمشروع الديني من الدعوة إلى تجديد الفكر
الإسلامي عند رواده ومفكره فجمدته في قالب حزب ديني ، واقتضى تسييس المشروع مخاطبة جماهيره
بالمنطق الأسهل ، بمنطق الوعظ والإرشاد والتمسك الصارم بالمنظومة الاجتهادية المتوارثة منذ ألف سنة .

غاب الحديث عن التنوير والانبهار بالغرب في مكافحة التخلف ، وحل محله انطواء وانكفاء على الذات
واستنهاض الهمم ضد التغريب ، دونما حاجة إلى اجتهاد جديد أو انفتاح وحوار مع الآخرين .

انتهى فجأة عصر المفكرين والمحاورين ، وجاء دور الدعاة والوعاظ والساسة الحزبيين ، وكف المشروع
الديني عن محاولة الوصل بين الشورى والديمقراطية التي بذلها محمد عبده ، فاكتسب المشروع الإخواني
غموضاً ، وتأرجح حسب الظروف أمام الديمقراطية وآلياتها .

وتراجعت أيضاً محاولات مصالحة المشروعين القومي والديني التي بذلها الكواكبي وأرسلان ، ليدور
مبدأ الوحدة العربية عند البنا والإخوان في فلك وحدة غامضة أكبر لا أحد يعرف دور العرب ومكانتهم
ورتبتهن فيها .

هذه المسيرة التراجعية التي قطعها المشروع الديني مقلوباً على رأسه في عهدة الإخوان أحدثت ردود فعل
متباينة على المستويات السياسية والدينية والفكرية ، ولا أظن أنني بحاجة إلى عرض موقف الدولة العربية في
مصر وغيرها من الإخوان ، فصدامهم معها معروف ومحاولتهم المرحلية التأقلم والاندماج في مؤسساتها
السياسية معروف .

وأكتفي بالإشارة إلى أن النجاح الجماهيري للإخوان في مصر قابله تعثر انتشارهم في المشرق ،
فالمشروع القومي كان قد استهوى جيلي الكفاح والاستقلال عند المشاركة ، ولم تكن مصر قد استردت وعيها
العربي بعد ضربة الانفصال التي أنزلها بها الاستعمار في نهاية القرن الماضي .

وكان سهلاً على المشروع الإخواني اختراق الوعي الجماهيري ، لأن المشروع الثقافي المصري لم يمتد
سياسياً خارج إطار النخبة في الطبقة الوسطى وكان منفصلاً عن عروبه ومنهماك في الانبهار الفكري بالغرب ،
ولم يتعثر المشروع الإخواني إلا عندما عادت مصر في الخمسينات إلى الاندماج في محيطها العربي من جهة
والتأثر من جهة بالأيديولوجيات الأوروبية من ماركسية واشتراكية .

(*) نشر بجريدة «الشرق الأوسط» في ٢٦/٣/١٩٩٦ م .

وهكذا .. فالليبرالية المصرية لم تأبه وتتنبه باكراً للاختراق الإخواني للنفوس الجماهيرية ، كان الفكر الليبرالي مشغولاً بمصالحة المشروع الثقافي المصري مع التاريخ الإسلامي ، فيما كانت الليبرالية السياسية (الوفد) منهمكة في الصراع مع السلطة والاحتلال .

وجاء رد الفعل الفكري متأخراً ، ولم يحدث إلا على هامش الصدام الدموي بين الإخوان والسلطة السياسية في الأربعينات ، والمدعش أن الرد على الإخوان لم يأت من الليبرالية الفكرية ، وإنما من صميم المؤسسة الدينية التقليدية ممثلة بالشيخ خالد محمد خالد .

الواقع أن الشيخ خالد كان من المؤسسة الدينية وغريباً عنها في أن فقد درس في معاهدها ولبس لباسها لكنه تأثر بعصره الليبرالي سياسياً وفكرياً ، ولعله هو والشيخ العلايلي في لبنان وعلال الفاسي في المغرب يشكلون الامتداد الحقيقي لفكر التجديد الإسلامي عند الأفغاني ومحمد عبده والاستمرار في الحوار مع العصر والفكر الغربي .

خالد محمد خالد أجراً الثلاثة ، فقد تصدى للجمودية الإخوانية وحاول استعادة المشروع الديني من موقع اليمين السياسي الذي وضعه فيه الإخوان ، ودعا إلى امتحان وتجربة الديمقراطية الليبرالية وتطعيم المشروع الديني بمضمون العدل الاجتماعي في الاشتراكية الأوروبية .

بهر الشيخ المجدد الأنظار والشباب في «من هنا نبدأ» ، و«مواطنون لا رعايا» لكن محاولته الجريئة كانت فردية وواهية أمام «الماكينة» الجماهيرية الإخوانية والفوضى السياسية السائدة ، وقوبل بفتور لدى الليبرالية السياسية ، فقد كان الإقطاع الفكري والسياسي ممثلاً بآل سراج الدين والوكيل قد أطبق على خناق الوفد حزب الأغلبية الجماهيرية .

ويشاء سوء حظ الشيخ خالد أن يُمنى بخيبات متعددة فوفديته حالت دون احتلاله منبراً فكرياً وسياسياً بارزاً في الدولة الناصرية ، وفي ذروة صدامها مع الإخوان ، وزّرت الشيخ الباقوري لظنها أن إخوانيته السابقة أكثر قدرة على استقطاب الإخوان «المرتدين» من الشيخ الوفدي الغريب عنهم ، ومع تقدم العمر وصعود مد الإسلام التقليدي عاد الشيخ خالد فتخلى عن إصلاحيته الدينية ، ولذلك عندما مات منذ أسابيع قليلة فقد استمطر وافر الرحمة والرضا من أساطين المؤسسة التقليدية .

المشايع خالد والغزالي وجاد الحق جمعهم الموت وفرقتهم الحياة والرؤى والمواقف .

كان الشيخ الغزالي رد الإخوان على الشيخ خالد ، لكن الغزالي ما لبث أن خرج على الإخوان أنفسهم ، أخذاً عليهم محاولتهم احتلال المشروع الديني كله ، إلا أن الغزالي لم ينطفئ كما انطفأ غريمه الشيخ خالد ، فقد تحول بحيويته الفياضة إلى مؤسسة إعلامية وإرشادية مستقلة واحتلت موقعها على يمين الأزهر والإخوان معاً .

وفي التقييم النهائي يظل الغزالي داعية وواعظاً ، فأسلوبه إرشادي وعاطفي أكثر مما هو أكاديمي ، وفرج فودة في فوضاه «العلمانية» اللاعلمية يستحق عند الغزالي الحكم بالقتل الذي أفتى به أمام القضاء ، فكلاهما من موقع مختلف يمثل ذروة الحماسة العاطفية لمشروعه ، فودة لمشروعه «العلماني» والغزالي لمشروعه الديني .

كانت المؤسسة الأزهرية أكثر هدوءاً من الشيخين خالد والغزالي في الرد على الإخوان ، ولم تكن العلاقة طيبة غالباً بين الإخوان والأزهر ، فقد صنف الإخوان المؤسسة الدينية التقليدية بأنها جامدة وحليفة للسلطة ، أما الأزهر فقد اعتبر الإخوان منافساً له على احتواء المشروع الديني واستعادته من المجتهدين والمفكرين المجددين .

ولعل رأي شيخ الأزهر الراحل جاد الحق يلخص موقف المؤسسة التقليدية ، فالإخوان «دعوة دينية .. انحرفت باحتراف السياسة بالعنف» والإسلام لا يقر العدوان أو العنف «في الوصول إلى الحكم» ، أما جماعات العنف «فقد تكون خرجت من عباءة الإخوان .. لكني أعتقد أن هذه الجماعات الآن ليست إخوانية» .

غير أن المؤسسة الأزهرية باتت أعلى صوتاً من ذي قبل في الدعوة إلى تسييس المشروع الديني واحتواء رموز الفكر والثقافة ، وهي هنا تلتقي مع المؤسسة الإخوانية في رفض الفصل بين الدين والسياسة ، فالإسلام دين ودنيا ، وإن لم يشرح النص المقدس والسنة طريقة اختيار الإمام (الحاكم) كما قال جاد الحق .

إذ كان العنف مرحلة في حياة الإخوان ، فقد سار سيد قطب مفكر المؤسسة الإخوانية بالمشروع الديني مسافة أبعد مقلوباً على رأسه ودماعه ، وانتهى به فكره إلى تحويل العنف ضد الدولة والمجتمع من مرحلة مؤقتة إلى مؤسسة دائمة و«مشروعة» عند المنظمات التي خرجت مثله من «عباءة» الإخوان ، وباتت تعتبر المرحلة الثالثة في المشروع الديني بعد المرحلتين التجديدية والإخوانية .

وعلى أية حال .. إذا كان الإخوان مؤسسة حزبية بلا فكر ومفكرين ومثقفين ، فالمشروع الديني استأنف التعرف على مثقفيه ومفكريه المستقلين ، وبرزت إلى الوجود انتلجنسيا دينية منذ أوائل السبعينات وعنيت بحل غموض الإسلام السياسي ، ويمكن تصنيف هؤلاء المفكرين بأنهم امتداد للفكر التجديدي الإسلامي وللبيروية الفكرية المصرية التي أعادت قراءة التاريخ الإسلامي قراءة حديثة .

والإضافة المهمة لهذه الأنتلجنسيا تتجلى في أنها تجاوزت رواية التاريخ إلى محاولة تفسير وشرح الإسلام السياسي اعتماداً على المنظومة الاجتهادية التقليدية ، لكن الاستقلالية السياسية والعلمية تضيفان يوماً بعد يوم في مناخ التسييس الديني المتزايد للجماهير ، ودفعها إلى آتون العمل السياسي والحزبي ، بل والعنفي أيضاً .

محمد عمارة أنموذج لما يصيب الفكر الديني المستقل من خوف مع تصاعد العنف الديني وغوغائية العمل الحزبي ، فقد انسحب - كما قلت في الأسبوع الماضي - من الوساطة بين المشروعين الديني والقومي ، وها هو في التسعينات يعيد الاعتبار إلى الشيخ البنا «قائد أول تنظيم جماهيري للنهضة الإسلامية الحديثة» ، ثم يسند إلى الحركات الجماهيرية (يقصد الإخوان) مهمة المحافظة على «روح الإحياء والتجديد» ووظيفة «الإبداع» في المجالات الاجتماعية والشعبية ويعتبرها أخيراً بمثابة «العقل والجسم» للمشروع الديني ، أما حركات العنف فهي «أنيابه وأظافره» .

عمارة في زمن الثمانينات الأرغد والأسعد يختلف تماماً ، فهو يدين الإخوان في «الإسلام وقضايا العصر» وفي الإسلام والعروبة والعلمانية بأنهم لم يبلغوا في فهم الإسلام ومشاكل العصر ما بلغته حركة الجامعة الإسلامية (الأفغاني وعبده) ، وهو لا يجد لديهم «العقلانية» و«الجرأة» في تناول القضايا .

من نصدق : عمارة التسعينات ؟ أم عمارة الثمانينات ؟

نحو مصالحة الإخوان مع الشورى والديمقراطية..(*)

بقلم الأستاذ غسان الإمام

حان الوقت للفصل بين الإسلام كدين والإسلاميين الحزبيين كساسة محترفين ، فنقدمهم ومعارضتهم والاختلاف معهم لا تعني نقداً لمقدسات الإسلام .

في قراءة المستقبل السياسي للإخوان ، هناك ثلاثة عوامل رئيسية تتحكم به ، وأولها موقف نظام الحكم الراهن في مصر من الجماعة ، وإذا استمر التوتر الراهن فمعنى ذلك أن العلاقة ستزداد سوءاً بعد تجديد رئاسة الرئيس مبارك وفي العام المقبل .

وسيجد النظام أن عليه أن يحسم موقفه النهائي من الجماعة ، وسيقرر ما إذا كان سيمنح الحزب الديني اعترافاً وترخيصاً ، أو يدخل مع الجماعة في مواجهة لحل تنظيمها البنوي وتصفية نشاطها السياسي والاجتماعي .

والقرار ليس بهين ، إذ تدخل فيه توازنات دينية وسياسية وحسابات داخلية وخارجية معقدة ، وفي مقدمتها تقدير مدى طاقة الإخوان على الرد ، هل يختارون المواجهة بالعنف والعمل السري فتكون الدولة قد دفعت خصماً متردداً إلى خندق واحد مع منظمات العنف ، أم يقبلون بالتفرق والانصراف بسهولة وسلام ممثلين للعبرة التي استخلصوها من تجارب العنف في الماضي مع الدولة ؟

ويلعب العامل الشخصي دوره أيضاً في القرار ، فالرئيس مبارك في ولايته الجديدة يدق باب السبعين ، وقد زاده العمر خبرة ، ولم يؤثر ثقل المسؤولية على حيويته ونشاطه ، لكن المسئول في السبعين أقرب إلى الحذر والتردد في الحسم والمواجهة .

وثمة طرف آخر غائب حاضر في معادلة الدولة والإخوان ، فالمؤسسة العسكرية مازالت سندا وقاعدة لنظام الحكم ، وهي منذ إخراج المشير عامر منها تبدو مؤسسة موالية وغير مسيية ، ومؤسسة محافظة ومؤمنة ، وهي كأي مؤسسة عسكرية تقليدية ، لها رأيها السياسي الهامس في أذن السلطة المدنية ، ولعل موقفها من أية مواجهة مع الإخوان يتأثر بمدى تأثرها بالقيادات السياسية والدينية من إخوانية وغير إخوانية .

لقد أخفقت هذه الجماعات إلى الآن في اختراق المؤسسة العسكرية وكانت تجربة الإخوان بالذات مريرة ، فقد تبين أن تنظيم الضباط الأحرار هو الذي اخترقها وليس العكس ، ثم هو الذي ضربها عندما اختلف معها حول السياسة وشكل الحكم بعدما استولى على السلطة عام ١٩٥٢ م .

وتبين أيضاً من خلال عملية اغتيال السادات ومحاولة اغتيال مبارك في قاعدة جوية قبل عامين أن اختراق جماعات العنف للمؤسسة العسكرية كان فردياً وسطحياً ، ومادام الأمر كذلك فالنظام يستطيع أن يعتمد عليها كعامل حسم احتياطي وكضامن أخير للاستقرار والأمن الداخلي إذا كانت مهمة المواجهة أكبر من طاقة الأجهزة الأمنية المدنية .

أما العامل الثاني في تقرير مستقبل الإخوان في مصر فهو علاقتها مع جماعات العنف ، ويبدو أن الجماعة تعيش حالة هدنة معها ، ولعل هذه الهدنة السيئة السمعة هي التي تجعل إدانة الإخوان للعنف باردة

(*) نشر بجريدة «الشرق الأوسط» في ٢/٤/١٩٩٦ م .

ومقرونة دائماً بإدانة القمع ، وكان المرشد الراحل محمد حامد أبو النصر يقول علناً «أن لا خلاف مع الجماعات الإسلامية سوى الذين يكفرون المجتمع» .

وقد سارعت المرشدية إلى إنشاء «دولية إخوانية» في عام ١٩٨٢م مع تصاعد مد التنظيمات الدينية من إخوانية وغيرها في العالم الإسلامي ، والتنظيم الدولي للإخوان يتزعمه المرشد المصري يعاونه مكتب إرشاد (مكتب سياسي) ومجلس شورى (لجنة مركزية) ينعقدان شهرياً وفصلياً .

علاقة «الدولية الإخوانية» بالعنف الديني الدولي تتراوح بين الحقيقة والخيال ، فباستثناء صلة قوية مع تنظيم «حماس» الفلسطيني تدفع عرفات دائماً إلى التماس وساطة الإخوان المصريين ، فهم يرتبطون بعلاقة لا مركزية مع التنظيمات الإخوانية العربية ، وبعلاقة مهزوزة أو سيئة مع تنظيمات أخرى .

فالإخوانية المصرية «رجعية ومتخلفة ومنغلقة» في رأي الحركات التونسية والترابية السودانية ، وهي إخوانية «أميريكية» في رأي المؤسسة الدينية الحاكمة في إيران ، ثم هي إخوانية مستخذية أمام السلطة» عند منظمات العنف المصرية .

مع ذلك كله ، فقد أقام الإخوان روابط وثيقة مع الأحزاب والحركات الدينية في أكثر من بلد إسلامي ، ومع تصاعد العنف الديني باتت هذه العلاقة الغامضة تثير الريبة والقلق لدى السلطة في مصر وغيرها ، ومازالت تصريحات وزير الداخلية الباكستاني الزائر للقاهرة منذ أسابيع قليلة تدوي في الأسماع .

فقد أسند الوزير نصير الله بآبار إلى الإخوان المصريين مهمة «التنسيق» بين الأحزاب الدينية الباكستانية وجماعات العنف التي وصفها بأنها «خارجة من عباءة جماعة الإخوان المسلمين في مصر» ، ثم دخل في تفاصيل كثيرة عن «زيارات» إخوانية إلى باكستان ، وعن تدريب هذه الجماعات وتمويلها لا مجال لذكرها هنا .

والعامل الثالث في تحديد مستقبل الإخوان وثيق الصلة بالعامل الثاني ، فعندما تنتفي نهائياً أية علاقة للجماعة بالعنف الداخلي والدولي ، فمن البديهي - عندئذ - أن تعقد الجماعة مصالحة مع الشورى والديمقراطية .

وأتأمل هنا لأقول إن جدلية الشورى والديمقراطي تندرج لصالح كبت الحريات السياسية ، فالقرآن الكريم أوصى بالشورى في أكثر من موضع ، لكن دولة الخلافة الإسلامية وحركات الإسلام السياسي المعاصرة أخفقت في صياغة آلية للشورى تتيح حرية سياسية أكبر وترسي مبدأ المشاركة والمشاورة .

بدلاً من ذلك .. راحت كلها تتوسل سبل السلطة المطلقة في مشروع الدولة الدينية لإمام مستبد وعادل أو فقيه معصوم ، من هنا فالحاجة ماسة لإنهاء هذا الجدل العقيم بين الشورى والديمقراطية ، وللاستفادة من تجارب الآخرين في إرساء آلية للشورى تكون بمثابة الحكم الوحيد ، وليس الخليفة أو الإمام أو الفقيه لتداول السلطة .

ومن الاستخفاف بالمنطق والعقل نشهد أن الحزب الديني المعارض الحرية السياسية إذا لم يكن هو في نسيجه ديمقراطياً ، و***(*) الحزبي باعتبار ***** القرار والمنهج ***** بحاجة إلى أنتلجنسيا فلا ***** ومفكرين ، أنهم هو وليس ***** والتجار والتكنوقراط ، الذين يمنحون ***** الديمقراطي وتألّق الحياة السياسية .

ولا شك أن تهوية الجماعة فكرياً وتنظيمياً ***** إلى ديمقراطية السلوك والمنهج ، فأدلجة الدين ***** يعفیان تحويله من عقيدة إلى أيديولوجيا حزبية ***** وقد برهنت الأيديولوجيات الشمولية

(*) علامة النجمة هي لكلمات غير مقروءة نظراً لتمزق بالجريدة .

من ثيوقراطية ***** وشيوعية عن إخفاقها التاريخي الذريع في صلب المجتمع والدولة والفكر والناس بلون واحد .

ديمقراطية السلوك والمنهج تريح الجماعة من التناقض بين الإعلان عن الإيمان بالعنوان الديمقراطي ، ثم الاختلاف معه في الفروع والتفاصيل ، فتفرز الأحزاب والهيئات والساسة على أساس ديني .

وإعفاء الحزب الديني نفسه من وظيفة فرز الآخرين واحتكار العمل السياسي يريحه أيضاً من هالة القداسة التي يحيط بها رأسه ، فلا قداسة في الإسلام للساسة الإسلاميين المحترفين ، وبمعنى آخر يجب الفصل في أذهان النخبة والعامّة بين الإسلام كدين وقيادته ، وبين الإسلاميين الحزبيين كساسة محترفين ، فنقدمهم ومعارضتهم لا يعينان نقداً لمقدسات الإسلام .

وبالتالي .. فهم مجردون حكماً ومنطقاً من حصانة القداسة التي يحتمون بها ويلجأون إليها لكبت الحرية السياسية ، واضطهاد الآخرين ، وتأليب السلطة السياسية والجمهور العفوي ضدهم بالتكفير والزندقة ، فكما لا أولياء وأوصياء في الدين ، فلا أولياء وأوصياء في السياسة .

مصالحة الإخوان مع الشورى والديمقراطية تصلح أساساً ومقياساً لدمجهم في الحياة السياسية المشروعة فبقاؤهم على هامشها يلحق أذى بالغاً بالعملية الديمقراطية ، ويدفع الأحزاب إلى إلغاء عقلها ومبادئها في محاولة لشراء أصوات الإخوان في الشارع الانتخابي .

لكن برمجة الإخوان في دائرة الشرعية الدستورية تقتضي شروطاً لعل أولها إصدارهم إعلان مبادئ (مانيسفتو) صريحاً يعبر عن التزامهم بالآلية الديمقراطية ، ويحدد نهجهم وأهدافهم وسلوكهم الديمقراطي في الحكم والمعارضة والواقع أن النضج السياسي العربي لم يصل بعد إلى إيلاء الآلية الديمقراطية ببساطة متناهية دور الحكم بين فرقاء السياسة .

فهذه الآلية هي التي تكفل عبر الاقتراع الشعبي انتقال السلطة السلمي من الأقلية إلى الأغلبية ، وهي التي تضمن تداول السلطة عبر اللجوء المستمر إلى صندوق الاقتراع فلا تفويض مطلقاً ودائماً للأغلبية أو لحزب أو لإمام عادل أو مستبد ، أو لفقير معصوم ، يتمرس في الحكم أو يصل إليه بالقوة .

كذلك فتسييس الحزب الديني يفرض الإقلاع عن استخدام المسجد كأداة حزبية ودعائية أو لإظهار التقوى في السياسة ، كان المسجد في تاريخ الإسلام بيت عبادة وأداة تجميع وحشد للطاقت في الحرب والسلام وعندما يستغل لأغراض سياسية وحزبية ضيقة فإن بيت العبادة يتحول إلى أداة فتنة وتفرقة .

وأخيراً .. يأتي شرط تخيير الإخوان بين الاعتراف بهم كحزب أو استمرارهم كجماعة أو جمعية خيرية وخدمية ، فالحزب لا يتوسل الشعبية عبر التقديمات والخدمات الاجتماعية لإظهار عجز الدولة في قطاعات محدودة ، الحزب هدفه الوصول إلى السلطة لتطوير أداء الدولة بما يخدم مواطنيها في كل القطاعات والخدمات .

فإذا اختار الإخوان السياسة والحزبية تخلوا عن جمعياتهم الخدمية لهيئات وجمعيات خيرية ذات خبرة وسمعة حسنة ، وهي موجودة بكثافة في مصر ومحابدة وغير سياسية .

تقديم

وجدنا في أوراقنا هذه الرسالة التي كتبها بالإنجليزية الدكتور سعيد رمضان مؤسس «المركز الإسلامي في جنيف» كنشرة أصدرها في مايو ١٩٦١م .

والدكتور سعيد رمضان كان من أوائل طلبة الجامعة الذين آمنوا بعقيدة الإخوان ، واشتهر بالخطابة ، كما أنه تزوج بكريمة الإمام الشهيد ، وعندما احتدمت العداوة ما بين جمال عبد الناصر والإخوان سنة ١٩٥٤م سافر سعيد رمضان إلى باكستان وغيرها من الدول وانتهى به المطاف إلى جنيف حيث استقر واستقدم زوجته وأنجبا في جنيف أبناء وبنات ، وتعلموا في المدارس السويسرية وأتموا تعليمهم بجامعة جنيف ، ونالوا درجة الدكتوراه منه ، وأقام المركز الإسلامي وهو أول مركز إسلامي في دولة أوروبية ، وساعد هذا المركز على تكوين مركز للإخوان في ألمانيا ، كما أصدر مجلة «المسلمون» التي أشبهت «منار» السيد رشيد رضا ، وكتب فيها كل أعلام العالم الإسلامي .

والرسالة تعالج الإسلام كمنهج حياة ، وتبرز وجهة نظره في النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، كما تبرز نزعته نحو الحرية والمساواة والسلام بين الأمم والتعايش بين الأديان .

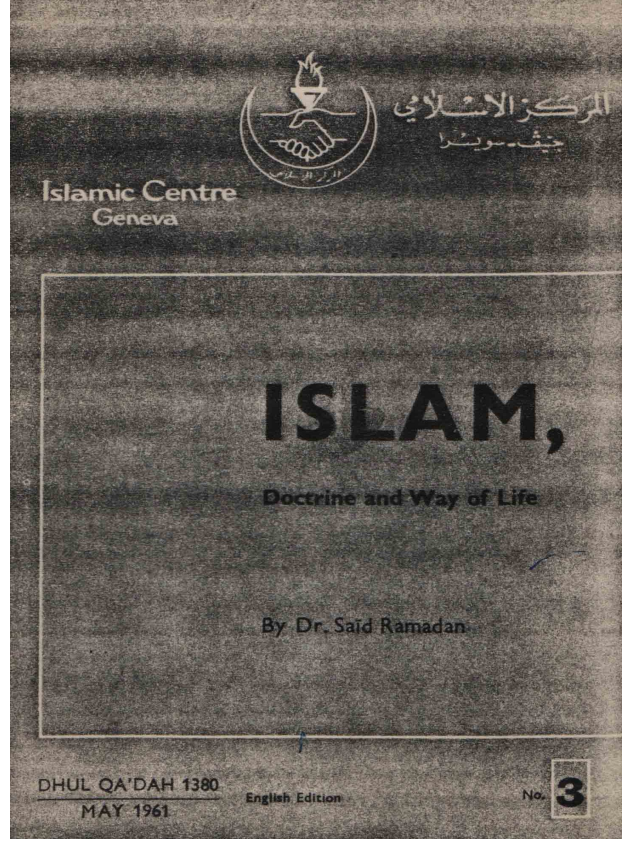
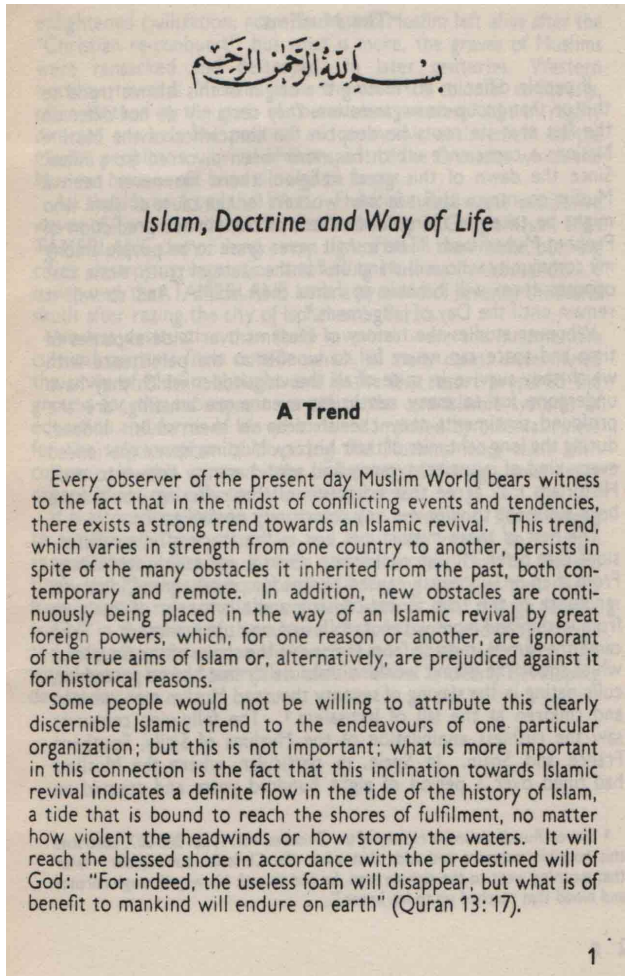
وقد رأينا نشر هذه الرسالة كما هي بالإنجليزية ، لأن قراء وناشقين وإن كانوا عرباً فمعظمهم يجيد الإنجليزية ، كما ستفيد بالطبع المسلمين الذين يتحدثون الإنجليزية وتعطي العالم الغربي صورة رشيدة للإسلام حتى وإن كانت قد وضعت سنة ١٩٦١م ، فضلا عن إمكان الاستفادة منها بنقلها ونسخها وتوزيعها لأنها وإن صدرت سنة ١٩٦١م ، فإن أفكارها هي ما يثيره العصر ، وما يتطلبه المسلمون اليوم .

جمال البنا

[١٠]

المركز الإسلامي (*)

جنيف - سويسرا



(*) د. سعيد رمضان ، «المركز الإسلامي بجنيف» ، العدد الثالث ، مايو ١٩٦١ م .

The Muslims

If people differ in attributing the origin of this Islamic trend to this or that group or organization, they certainly do not differ on the fact that its roots lie deep in the conscience of the Muslim Nation: a conscience which has never been divorced from Islam. Since the dawn of this great religion, there has never been a Muslim country without faithful workers for the cause of Islam who might be taken as living illustrations of the famous prediction of Prophet Muhammad: "There shall never cease to be people among my community who will stand up for the cause of truth; none that opposes them will be able to harm their souls. And so will it remain until the Day of Judgement."

Whoever studies the history of Muslims over wide expanses of time and space can never fail to wonder at the persistence with which they survive in spite of all the vicissitudes which they have undergone for so many centuries; even more amazing, are the profound sentiments they cherish deep in their souls. Indeed, during the long centuries of their history, Muslims have experienced every kind of injustice, tyranny and sordid enmity known to man. Historians may agree that a fraction of that suffering would have been sufficient to wipe out any community or civilization.

The first of these misfortunes was in the shape of inner dissensions that befell Muslim civilization when it was still in its infancy. From then on, upheavals caused by lust for power, greed, distrust, ignorance of the true tenets of Islam and all manner of intrigues from within and from without, followed one upon another. Then came the armed invasion from Europe in the shape of the Crusades, which shook the Islamic world with brutality that had no precedent, culminating in the slaying of seventy thousand Muslim men, women and children at the fall of Jerusalem¹. The following centuries saw the ruthless annihilation of the Muslims of Sicily, Southern France and Spain. In Spain, in particular, where the Muslims had ruled over a period of eight hundred years and created an

¹ Steven Runciman in his *History of the Crusades*, vol. 1, pp. 286-287, describes this horrible massacre and adds that when the Christian commander "later that morning went to the temple area, he had to pick his way through corpses and blood that reached up to his knees".

enlightened civilization, not only was no Muslim left alive after the "Christian re-conquest", but what is more, the graves of Muslims were ransacked and destroyed. In later centuries, Western hostility towards Muslims took the form of colonial conquests, often clothed in the garb of "benevolent interest" but in reality directed towards the political and economic enslavement of the Muslim peoples: a survival of that spirit of the Crusades which the Muslims have never been allowed to forget.

All that came from the West. From the East came successive waves of Tartar hordes under the leadership of Gengis Khan, then TAMERLANE, demolishing every sign of life in their wake, burning cities, destroying vegetation and killing Muslims in thousands. It is reputed that TAMERLANE built a pyramid of seventy thousand skulls after razing the city of Isfahan in Persia.

No less destructive than these invasions were the innumerable cultural currents from outside which, in many cases, undermined the unity of Muslim thought and in the last resort prepared the ground for the subsequent spread of the anti-Islamic systems of education and forms of life which were imposed by colonial rulers for the sole purpose of divorcing the Muslims from their own culture. In this context, the influence of foreign missionary organizations can only too often be discerned.

It is astonishing indeed that the Muslim community has managed to survive all these calamities and has never ceased to struggle against those corrosive inroads and influences; that in modern times the Muslims have succeeded in freeing many of their lands from colonial rule; that the voice of Islam is still, though faintly, audible in the midst of the cultural chaos brought about by foreign and indigenous oppression alike; and that in all parts of the Muslim world a new trend towards an Islamic revival is clearly developing day by day.

The Legacy of the Past

After the many calamities which have befallen the Muslim world, there is a danger that the tragic legacy of the past may imperceptibly overwhelm the new trend towards an Islamic revival. For during the past centuries the Muslim countries have been subjugated by outside powers which are fully aware that their own supremacy has been erected on the ruins of the old Islamic system and that its continuity depends on keeping the true ideology of Islam submerged. Thus, these powers are consistently determined to distort the real picture of Islam, and to suppress its advocates, their goal being the removal of Islam from the constructive thinking of its followers.

As has already been mentioned, those "cultural invasions" as manifest in the educational programmes were by no means less dangerous and were certainly more permanent in their effect than the force of arms. In the first instance, through these cultural influences many anti-Islamic notions entered into the minds of Muslims who, due to centuries of intellectual stagnation, were not sufficiently equipped with a clear Islamic concept of what is right and what is wrong. The resulting confusion reached its culminating point among the educated youth, to such an extent that some of them in fact abandoned Islam and lost all faith in God. Only two categories of Muslims managed to escape this moral confusion: those who lived in simple circumstances that preserved their primitive faith vigorous and intact, and the small minority of thinking Muslims who understood what Islam stands for and tried to live up to it and for it. These two categories represent the ever-recurrent elements of strength that run through the entire history of Islam.

One of the worst effects of the materialistic trends emanating from Europe was the birth of a spirit of dim nationalism among Muslims. The danger of this wave lies in the fact that nationalism derives its primary appeal from a natural and, in itself, justifiable emotion in the hearts of men: man's instinctive love of his home and his country. Under the influence of nationalism the hearts of many Muslims were turned from the fundamental principle of their faith, which places the love of God above all other precepts,

and plunged them instead into that blind worship of one's nation which disregards all moral considerations that may clash with the "interests" of that particular nation. In effect, many Muslims were led to prostrate themselves before the new idol of nationalism. Indeed, the nation itself was fashioned into a godhead—and its day-to-day legislation was, in many instances, allowed to override the clearly stipulated ordinances of the Quranic Law: and this in the face of the well-known statement of the Quran: "Those who do not judge in accordance with what has been revealed by God are indeed unbelievers." (5: 44.)

But this drifting away of Muslims from the ethics of Islam was not a mere haphazard accompaniment to the spread of nationalistic ideas. On the contrary, it was the result of deliberate endeavours in pursuance of a missionary policy. Nothing could be more illustrative of this intention than the editorial which Mr. Le Chatelier wrote over forty-five years ago in a special missionary supplement of his French Magazine *Le Monde musulman*. In this editorial he stated: "No doubt our missionaries have failed so far in directly undermining the faith of the Muslims. This end can only be achieved through the propagation of western ideas which would filter in Muslim thought through the study of European languages. The spread of these languages would bring the world of Islam in contact with the European press, and paths would then be paved for the material progress of Muslims. Thus, the missionary organizations would achieve their goal of destroying Islamic religious concepts which so far have preserved their identity and strength in isolation and aloofness." The writer added: "The political break-up of the world of Islam will open the way to Europe's civilizing missions. It is inevitable that the Muslims will degenerate politically, and before long the world of Islam will become like a city surrounded by European barbed-wire entanglements." He also said: "It is not to be expected that the Muslims in general would be able to bring forth new positive attitudes and qualities once they have given up their present attitudes and qualities. With the weakening of their belief in Islam, decay and disintegration are bound to set in; and when decay and disintegration spread throughout the world of Islam, the religious spirit of the Muslims will be entirely uprooted and will never be able to re-emerge in a new form."

Let us now consider what the learned Dutch orientalist Dr. Hurgronje who is generally considered among the less hostile Western

critics of Islam said in 1911 in one of his lectures about the Muslims of Java. At that time he was advisor on Islamic and Arab affairs to the Dutch Colonial Ministry. I quote: "It would be a mistake to see in the Caliphate something like a Papacy that has no direct concern in politics. It is rather a political leadership, and if a Muslim gives it his allegiance, he cannot be loyal to a Christian government. It is a cause for regret that the Muslims of these islands (i.e., Indonesia) emulate the Muslims of Egypt, Hadhramout and the Arabian Peninsula in their religious observances and customs and are avid readers of Arabic publications. Unfortunately, so far there exists in Java no national sentiment which would counteract this Arabian orientation in religious matters."

The cultural invasion of the Muslim world by the West and the eventual growth of nationalism among Muslims produced a reaction in the form of a revolt against imperialism. If this nationalistic spirit of revolt ever succeeds in eclipsing the nascent Islamic, religious trend, it is extremely probable that the emotions thus negatively aroused will result in an explosion uncontrolled by clear principles and lacking and foreseeable direction.

With the Communist movement manoeuvring everywhere, changing cards and headquarters but never losing sight of its objectives, one may discern the obvious danger underlying the unpredictable ups and downs of political enthusiasm. Communism is a full fledged ideology, or rather a new "religion" that has its own holy books, prophets and disciples. Its network is world-wide and it is underground by nature. It extends its appeal at a variety of levels, thus exploiting different unseen forces on their own ground. Unless there is a counter-ideology that meets its agents everywhere: in farms and factories, in schools and colleges, in cafes and clubs, in libraries and the press, and by all modern means of communication and information—the result will be disastrous. "Nationalism" is no answer to Communism. "We are Arabs, or Turks, or Persians, or Africans" is no answer to "There is no God". Communism is a totalitarian way of life which stems from an exclusive faith in materialism. If materialism were to remain our sole source wherefrom we derive our outlook and means to counter Communism, then it would be more or less the force of Communism driving us. Materialism can be countered only by a well balanced code of life, answering the needs of man, both spiritual and material.

For Muslims, it is only natural to seek their ideology in Islam. As it is becoming more and more clear in the West, that the issue is either "Christianity or Communism", so Muslims in the East are growing more and more conscious of the fact that the issue there is either "Communism or Islam".

A Doctrine and an Order

The birth of Islam was in reality a strong declaration of the birth of a higher humanity. For Islamism, in essence, a great liberation movement encompassing the manifold aspects of human life, emanating from the conscience of the individual and oriented towards the life of the society. It was a revolution which destroyed in its march all the spiritual, intellectual and social fetters which had encumbered human life and declared—over thirteen centuries ago—full human rights.

The advent of Islam heralded a revolution in the realm of belief. It emancipated the human conscience from superstition and fancy; it established the absolute transcendence of God and showed the fallacy of anthropomorphic and polytheistic deviations; it postulated a direct relationship between man and God, without any intermediary.

The absolute transcendence of God and the direct communion between man and God are the crossroads between order and chaos in the realm of belief, as well as between freedom and slavery in the realm of social life. This is a very considerable achievement when viewed in the light of what we know of the sufferings of mankind elsewhere in consequence of the power gained in the name of religion, the persecution of scientists and freethinkers in the European Middle Ages, and the political revolutions which, in Europe, were necessary in order to destroy the hegemony of those who claimed to be the vicereagents of God on earth. In contrast, freedom of thought is a fundamental attribute of the Islamic creed; for Islam does not recognize any priestly hierarchy or clergy.

The birth of Islam constituted a revolution in another aspect of belief, a revolution against religious intolerance. The Quran solemnly declared freedom of belief and of worship in all their manifestations: "There is no compulsion in religion" (2: 256). Again, the Quran says: "If thy Lord had willed, all who dwell on earth would have become Believers. Wouldst thou (O Muhammad) force men to become Believers?" (10: 99.)

Thus religious fanaticism and intolerance gave way to absolute liberality and tolerance; nay, the protection of freedom of belief and worship for the followers of other religions became a sacred duty of all Muslims. When the duty of *Jihad* was first ordained, the Quran expressed its wisdom in the following manner: "Sanction is given unto those who fight because they have been wronged, and God is indeed able to give victory to those who have been driven unjustly from their homes only because they said, 'Our Lord is God'. And if God had not repulsed some people by others, cloisters and churches and synagogues and mosques, in which God's name is extolled, would have been pulled down" (22: 39-40). The above verse gives precedence to the *sawami* (monasteries), the *biya* (churches) and the *salawat* (synagogues) over the mosques in order to underline their inviolability and the duty of the Muslims to safeguard them against any desecration or abuse.

Indeed, Islamic tolerance goes so far as to accord protection even to people who do not believe in any revealed religion at all, provided they refrain from molesting the Believers. The Quran declares: "And if any of the idolators seeks thy protection (O Muhammad), grant him protection so that he may hear the Word of God, and afterwards convey him to a place of safety; for they are people who do not know the truth" (9: 6).

This is the height of tolerance and one to which mankind still aspires in vain in many countries of the world, in the Communist domains where no tolerance whatever is extended to those who do not subscribe to the materialistic interpretation of history as laid down in the teachings of Marx and Lenin.

Furthermore, Islam set in motion a revolt against racial intolerance; it emphasized the ethnological oneness and equality of all races, thus striking at the very root of monstrosity of racial discrimination. It ordained one standard of virtue and excellence for all men, without consideration of colour, birthplace or descent. The sole criterion was based upon man's reverence of God and upon his deeds in this world. For God says: "O Mankind! Indeed We have created you male and female and have formed you into nations and tribes so that ye may know and be good to one another. Behold, the noblest of you in the sight of God is he who is best in conduct. Behold, God is the Knowing, the Aware" (Quran, 49: 13). Heterogeneous races, nations and linguistic entities have mingled peacefully in the Islamic homeland for many centuries,

whereas other societies to this day are suffering from ugly racial intolerance. The problem of the "coloured" communities in South Africa and to some extent also in the United States, is still a glaring affront to human conscience; not so many years ago, Nazi philosophy was based on the supposed racial superiority of the Aryans. Israel has been built upon the myth that its citizens are God's chosen people!

A Way of Life

Islam prescribes a complete and equitable system for mankind. For, while it exalts the human spirit and enjoins ideal ethical principles for man, it does not deny the importance of the material aspect of his life. Islamic legislation is a balanced combination of spiritual and material elements. It provides spiritual directives along with legal safeguards. Thus, Islam is not merely a "religion" in the sense in which this term is understood in the West. It is rather a comprehensive spiritual and material way of life, which expresses itself in the conscience of the individual as well as in the behavior of the society. It provides principles for social rights and obligations in all dealings, whether they pertain to economics, politics or international relations.

Such polarities as "religion and state" or "faith and politics", as formulated in the West, have no equivalent in Islamic thought. The term "Islamic Religion" embraces all these concepts in their totality, in complete harmony and integrity. A Muslim performs his prayers in the mosque, sells his goods in the market, decides between litigants in a court of law, manages the affairs of state, concludes treaties and covenants with other states, fights in the name of justice and right in war, motivated in all these activities by one code alone: that of the *Shariah* (Law) of Islam, which embraces both a religious creed and a practical system of life.

Islam builds this imposing edifice on the foundation of belief in God. It places the God-fearing conscience as guardian over legislation and the implementation of laws; it makes the communion between human conscience and God the pillar of its system, for it is always possible to evade and cheat the law, but the eternally vigilant eye of God is ever-watchful for any violation of His moral code.

The Islamic system rests upon certain social, economic and political "guarantees". In this pamphlet, however, we are dealing only with the social framework.

Two Relevant Points

Before we go into detailed discussion of any of these "guarantees", we would like to lay before the reader the following two points which are most relevant in this context:

Firstly, the propagation of Islam is not a monopoly of any particular person or group within the Muslim community. Thus, the workers for Islam can not claim any superiority over their fellow Muslims, or special authority which would exalt them over the rest of the community, for the only spiritual authority over Muslims is vested in the Book of God (Quran) and the life example (Sunnah) of God's Prophet; and before this supreme authority all Muslims are equal.

Secondly, the Quran and the Sunnah are the decisive arbiters of right and wrong in all spheres of life, and at all times. Their interpretation and application to the changing requirements of various epochs are not reserved to any one group or organization, but are open to the entire community. Thus, the rise of an Islamic polity would mean the recognition of the supreme authority of Quran and Sunnah and its practical application by the community as a whole. It follows therefore, that no individual person or group can claim the right to decide any controversial question on their own authority. If any individual or group should find it necessary to express an opinion on any controversial issue, it must be clearly understood that such an opinion is no more than a suggestion, subject to approval or rejection by the community at the time when it decides to establish an Islamic polity.

The Social Order

1. *The Righteous Individual* is the basis of every sound society. This is the reason why Islam lays particular stress on the upbringing of the individual man and woman, instilling in him or her a feeling of personal responsibility before God: "Every person is held in pledge for what he does" (Quran 74: 38). He is responsible for freeing himself from superstition and vice, and for striking a just balance between the requirements of his soul and those of his body: "Strive after that which God has ordained to you for the sake of the Hereafter, but do not neglect your share in this world" (Quran 28: 77). To this end, Islam has enjoined three obligations:

a) *Education*.—The Prophet said: "Striving after knowledge is the sacred duty of every Muslim." Consequently, education is both a duty and a right of every Muslim man and woman. Thus, every Muslim is *individually* obliged to know what the Quran and the Sunnah demand of him in respect of the basic tenets of Islam, individual duties and moral requirements; while the community is *collectively* responsible for education in all other spheres of knowledge, the omission of this duty being a collective sin. In other words, the Islamic government is responsible for the direction of general education in such a way as to satisfy the needs of the nation in every domain of Science and Art. The educational program must be so framed as to preserve the spiritual and cultural identity of the nation and to guarantee for its youth the development of personality and a unity of purpose.

b) *Enjoining the Right and Forbidding the Wrong*.—The Quran says: "Let there be among you, people who propagate the Good and enjoin the Right and forbid the Wrong" (3: 103). Thus, the Muslim is reminded of his responsibility towards God and called upon to develop that self-discipline without which the rule of the Law can never become effective. In an Islamic state, this principle must underlie the activities of all the organs of public information—such as radio, press, cinema, publications, etc., which ideally should assist the individual in leading a decent life, as demanded by all religions.

c) *Punishment and Penalties*.—Islam legislates penalties for crimes against society resulting from a lapse of individual self-discipline.

In order to strengthen the bonds of the family and to ensure the stability of the home, Islam has laid down several principles. The first of these, is the man's right to choose his wife and the woman's right to choose her husband. The Prophet enjoined Al-Mugheera Ben Shu'ba, one of his Companions, to become acquainted with his intended bride, for "it is important that permanent affection should grow up between you". When a newly married girl complained to him that her father had chosen her husband without consulting her, the Prophet allowed her to annul her marriage.

Another principle of family life, is the duty of consultation between husband and wife in all domestic affairs. As a matter of fact, the Quran even prescribes consultation and mutual consent between divorced parents regarding the weaning of their child.

The much repeated slogan of equality between man and woman should not be allowed to eclipse the fact that being equal does not imply a uniformity of all qualities. This slogan was once a reaction to certain injustices but soon became an oblique motto distorting many basic features of human relationship. Man and woman are different, but interdependent. Their missions in life are diverse, but complementary.

The fallacy of "modern equality" is manifest in what it has brought in today's human society, in the unbecoming hardness in many women and in the unpleasant softness in many men. What is alarming indeed is the fact that the great qualities of tenderness, delicacy, devotion and pure love are fading away in our social outlook and build-up. Whether at large in social contacts or even in the orbit of the family, this modern equality—paradoxically enough—has so often desecrated the very relationship between man and woman so that the latter's basic frame of mind has become one of insecurity and of self-defence. Man liberated her from the condemned veil, gave her precedence in and out, kissed her hand in public and so on... yet what an anguishing price she has been paying of her innermost beauty, security and peace. When Quran says: "He created mates for you, from yourselves, so that you might find refuge in them, and He put between you love and compassion, surely there are signs in this for a people who reflect" (30: 21), it indicates not only the closeness of the union in marital relationship, but also the counterpart of man's administrative leadership: woman's all-embracing role. To be a refuge for man, is to make home the foundation of human activity and peace. This "home"

is no prison but rather headquarter and base. Having taken that into full account, woman is by no means limited to the walls of her home. Wellknown is the story of the Muslim lady who, in the courtyard of the mosque, stood to discuss a certain issue with the Prophet by saying: "I have been deputed to you on behalf of women." Um-Atiyyah Al-Ansariyyah, another Muslim lady stated that she accompanied the Prophet in seven battles where she cooked for the soldiers, looked after rations and supplied and attended the wounded. In all her outdoor activities and contacts Islam demands of the wife to seek her husband's consent, so as to safeguard the stability of the home which should be her main concern.

Further, Islam has laid down certain standards of decency in dress and behaviour between men and women, and established rules intended to ensure the sanctity of the home and the inviolability of marital intimacy. With a view to safeguarding motherhood and maintaining a healthy home atmosphere in which the young may receive adequate care, Islam has imposed on the male, the financial duties of maintenance and has exempted women therefrom. At the same time, Islam does not prohibit women from gainful employment if they so desire. Their rights to individual inheritance are also safeguarded and their rights to financial dealings are unrestricted.

3. *Social Cohesion*.—The principle of cohesion is the chief characteristic of Islamic social life. In discussing social co-operation and its connection with religious belief, we usually hear such terms as "charity", "philanthropy" and, more frequently, the institution of *zakat*¹. But these terms by no means circumscribe the entire role of Islam in the domain of social co-operation.

¹ *Zakat* is a compulsory tax prescribed by Islam. Its rate as practised by the Prophet was at two and one-half per cent of the surplus property in money, and at a variety of rates in other categories. The income of *zakat* goes to a special treasury and is to be spent only on the objects explicitly mentioned in the Quranic injunction: "The alms are only for the poor and the needy, and for those employed in its collection, and for those whose hearts are to be reconciled, and to free the captives and the debtors, and for the cause of God, and for the wayfarer; they are a duty imposed by God (IX: 60).

Islam has evolved a full-fledged social system relating not merely to mutual financial aid in its various forms, as implied in such concepts as "social security" or "social insurance". Financial assistance is but one aspect of the mutual aid ordained by the principle of co-operation and cohesion in Islam. This co-operation and cohesion can be described thus:

a) As we have seen, Islam starts with the relationship between the individual and his conscience. The individual is duty-bound to cleanse his heart of evil, to avail himself of the good things of life, to give himself a fair share of work and rest so that he may not fall into idleness nor succumb to exhaustion from overwork. The self-training of the individual in this manner is but a preparation for the role which he is called upon to play within society.

b) Thereupon we move from the realm of the individual to that of the family. As already mentioned, the family structure is based upon the interdependence of advantages and liabilities, rights and obligations. Such cohesion is not confined to economic affairs alone; it is all-embracing in its scope and includes the financial maintenance of the family, the protection of marital relations and of motherhood, the obligation of caring for the children physically, mentally and spiritually, and the duty of children towards their parents in their old age. To the extent that the individual members of the family care for, and protect, one another, the social obligations of the state are reduced and lightened.

c) Proceeding from the family to the wider social structure, we find the principle of cohesion an indispensable element in all social relationships, not merely in the sphere of economics but also in that of ethics. Every individual is duty-bound to perform his own job to the best of his ability because the fruits of his toil necessarily affect the society as a whole. He is also obliged to refrain from evil and to endeavour to persuade others to do likewise.

The Quran extolls the virtue of positive labour: "And say to them (O Muhammad): Work! And God will see your work, and so will His Apostle and all believers" (9:105). To illustrate this principle, the Prophet on many occasions stressed the value of work as a means of elevating society to its most perfect form. He once said: "I swear by Him in Whose hand lies my soul that it is better for a man to take a rope and go into the mountains to cut wood and then return with his load on his back in order to earn

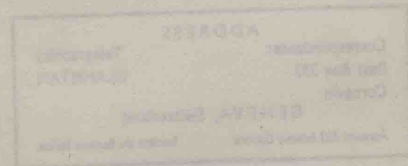
his bread, than to ask other for help." He fostered the spirit of social cooperation among the community by sayings like this: "The best of the people is he who is most useful to the people."

Every individual has a claim on society and on the government that represents it, to be assisted, both in theory and in practice, in acquiring the proficiency to do productive work and to be given the opportunity to perform such work. In other words, the Apostle of God not only counselled the able-bodied to work for their livelihood but also made provision for giving them the tools with which to work. In addition, he insisted on the right of the worker to be suitably rewarded for his work, saying: "On the Day of Resurrection I shall be the enemy of him, who, having hired a worker, did not recompense him after he had fulfilled his obligation." The "enmity" of the Prophet implies a corresponding attitude, which has to be adopted in such cases, by the Muslim community.

d) Every citizen is entitled to adequate housing to protect him from heat, cold, rain and to ensure the privacy of his home. He is also entitled to adequate clothing, food, health facilities and other necessities of life commensurate with the needs of the time. If he wishes to marry and does not possess the financial means to do so, the state is obliged to help him satisfy this natural need for marriage and thus safeguard him from the temptation of indulging in illicit sexual relations. These rights of the individual have been succinctly stated by the Prophet in sayings like: "He who is performing work for us, and has no home, shall have a home; and he who has no wife shall be enabled to marry, and he who needs a servant and has none shall have a servant, and he who has no animal to use for his transportation shall be given one." On another occasion, the Prophet said: "Your servants are your brethren; and if anyone has his brother working for him, he shall give him to eat of what he himself eats, and clothe him as he clothes himself, and shall not burden him with work beyond his capacity; and if you entrust your servants with hard work, help them therein."

e) Those who are unable to work or cannot find work or whose incomes are insufficient for their needs, are specifically mentioned as the recipients of help from *zakat* funds. It is to be borne in mind that the payment of *zakat* is not merely a personal charitable contribution left to the discretion of the individual but a tax to be exacted by the State, and, if necessary, the State is entitled to take

to task those who refuse to pay it... The *zakat* is to be spent in ways similar to those which in modern times are comprised in the terms "social security" and "social insurance". This tax is to be administered in a decentralized manner. The *zakat* funds of each region are to be collected locally and used towards meeting the needs of that particular locality or region. The surplus is then to be remitted to the central treasury and spent on Muslims and non-Muslims alike in all parts of the Islamic state.



ADDRESS

Correspondence:	Telegraphic:
Post Box 333	ISLAMISTAN
Cornavin	GENEVA, Switzerland
Account 333 Islamic Centre	Société de Banque Suisse

20